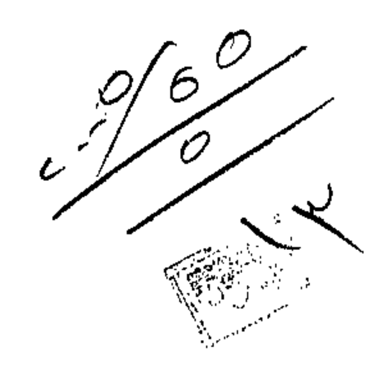


الجامعــة الأردنيــة
كليـــة الآداب
قســم التاريــخ

" الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي "

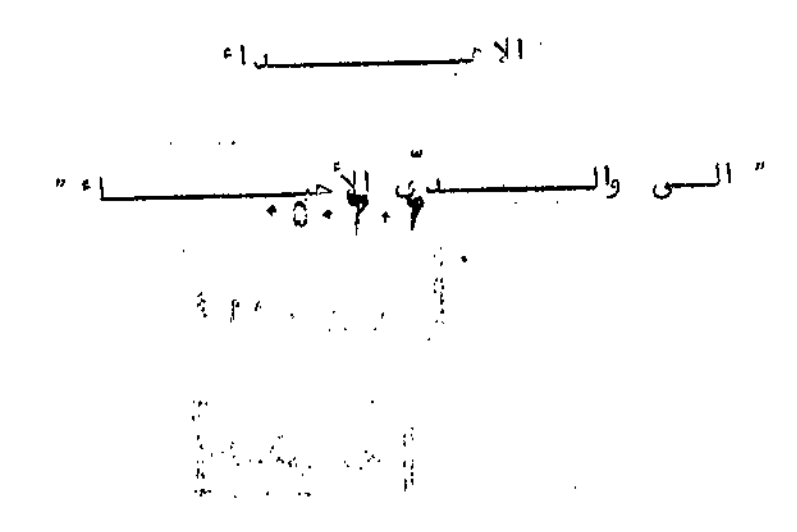
اعداد الطالبــة

فريـــال بــدوي يوسف الزربـا

باشراف الدكــتور

مصطــفى الحيــــاري

قدمت هذه الدراسة استكمالا لمتطلبات الماجستير في التاريخ بكلية الآداب في الجامعة الاردنية سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م



الإهـــــداء

" إلـــى والـــديّ الأحبـــاء "

"كلمة شكر وتقدير"

==============

يسعدني ان اتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان الى الدكتور مصطفى الحياري الذى رافقني في متاعبي لحظة بلحظة منذ بداية عملي معه وحتى الانتهاء منه، فكان له الفضل الأكبر في اظهار هذه الرسالة بهذا الشكل، اذ أنه لم يدخر جهدا الّا وقدمه لي، وهو الذى حرص على تزويدى بالكتب النادرة والمتعلقة بموضوع الدراسة بين حين وآخر، فله اقدم اعترافي بالجميل مع قناعتي بان هذه الكلمات لا تفيه حقه .

كما يطيب لي ان أعرب عن شكرى الى الدكتور نقولا زيادة لما ابداه من توجيهات وارشادات قيمة كان لها أثر في كشف معالم الطريق امامي . كما اقدم عميق شكرى الى الدكتور محمد عدنان البخيت والعاملين في مركز الابحاث والوثائق لما قدموه من التسهيلات اللازمة اثناء قراءتي للمخطوطات في مركز الابحاث والوثائق بالجامعة الاردنية .

واخيرا لا يسعني الا ان اتقدم بجزيل الشكر الى كل من ساعد في هذه الدراسة على أى مستوى وبأى شكل خاصة القائمين على مكتبة الجامعة الاردنية بكافة اقسامها .

عمان

في ٨/ جمادى الثاني / ١٤٠٠ هـ

الموافق ٢٣ نيسان / ١٩٨٠ م

فريال بدوى الزربا

محتويات الدراسة

	الصفحات
المقدمة	١ - ٧
مصادر الدراسة	٨ - ٥٥
١. الجغرافية	٩ - ١٦
٢. الحوليات والسير	١٧ - ٤١
٣. التراجم	٤٢ - ٤٥
٤. الموسوعات والنظم	٤٦ - ٥٠
٥. الرحلات	٥١ - ٥٥
الفصل الأول	
وصف مدينة دمشق زمن المماليك	٥٦ - ٨٩
١. الأسوار	٥٨
٢. القلعة	٥٨ - ٦٠
٣. الميادين والجامع الأموي	٦١ - ٦٢
٤. الشوارع	٦٢ - ٦٦
٥. الأسواق	٦٦ - ٦٨
٦. الحوانيت	٦٨ - ٧٧
٧. الحارات	٧٨ - ٧٩
٨. الضواحي	٧٩ - ٨٢
٩. الانهار والغوطة	٨٢ - ٨٨
١٠. المقابر	٨٩
الفصل الثاني	
ويشمل القسم الاول من بنية المجتمع الدمشقي زمن المماليك	
١. فئات الخاصة / رجال الدولة والادارة	٩٠ - ١٤١
١. المماليك	٩٤ - ١١٠
٢. وظائف ارباب السيوف (الجيش)	١١١ - ١١٦
٣. ارباب الوظائف الديوانية :-	١١٧ - ١٢٦

١. نيابة السلطنة ١١٧ - ١١٩
٢. الحجوبية ١١٩
٣. نيابة القلعة ١٢٠
٤. الوزارة ١٢١
٥. كتابة السر ١٢١ - ١٢٢
٦. ولاية المدينة ١٢٣ - ١٢٤
٧. نظر البيمارستان ١٢٤
٨. رئاسة الطب ١٢٤ - ١٢٥
٩. رئاسة الكحالين ١٢٥
١٠. رئاسة الجراحين ١٢٦
٤. ارباب الوظائف الدينية ١٢٦ - ١٤١
١. المحتسب ١٢٦ - ١٣٢
٢. قضاة القضاة ١٣٢ - ١٣٤
٣. قاضي العسكر ١٣٤
٤. المفتي ١٣٥
٥. شاد الزكاة ١٣٥
٦. شاد الاوقاف ١٣٥
٧. شاد الدواوين ١٣٦
٨. شاد مراكز البريد ١٣٦ - ١٣٧
٩. نظار وخطباء وأئمة المساجد ١٣٧
١٠. مشيخة الشيوخ ١٣٨ - ١٣٩
١١. وظائف زعماء اهل الذمة ١٣٩ - ١٤١

الفصل الثالث

ويشمل القسم الثاني من بنية المجتمع الدمشقي

٢. فئات العامة في دمشق ١٤٤ - ٢٠٥
١. العلماء ١٤٥ - ١٥٤
٢. التجار ١٥٥ - ١٦١

٣ . فئات العامة الاخرى ١٦١ - ٢٠٥

١ . الصناع وارباب الحرف ١٦١ - ١٦٩

٢ . الفلاحون (في البر) ١٦٩ - ١٧٧

٣ . العوام ١٧٨ - ١٨٥

٤ . اهل الذمة : النصارى واليهود ١٨٥ - ١٩٥

٥ . الاقليات الاخرى ١٩٥ - ٢٠٠

١. التجار الاجانب ١٩٥ - ١٩٧

٢ . الرحالة المسيحيون ١٩٧ - ١٩٨

٣ . الاسرى من التتار ١٩٨ - ٢٠٠

٤ . الارمن ٢٠٠

٦ . دور الاعراب في الحياة الاجتماعية لدمشق ٢٠١ - ٢٠٥

الفصل الرابع

ويشمل القسم الاول من المؤسسات الاجتماعية

١ . المؤسسات الاجتماعية التربوية ٢٠٦ - ٢٦٢

١ . المكاتب ٢٠٧ - ٢١٠

٢ . المدارس ٢١٠ - ٢٢٤

٣ . المساجد والجوامع ٢٢٥ - ٢٣٩

٤ . مقدمة عن التصوف ٢٤٠ - ٢٥٤

٥ . الخوانق والربط والزوايا ٢٥٤ - ٢٦٢

الفصل الخامس

ويشمل القسم الثاني من المؤسسات الاجتماعية

٢ . المؤسسات الاجتماعية الاخرى ٢٦٣ - ٢٩٨

١ . البيمارستانات ٢٦٤ - ٢٧٠

٢ . الحمامات ٢٧٠ - ٢٧٥

٣ . السجون وانواع العقوبات ٢٧٦ - ٢٨١

٤ . اماكن التسلية والترويح عن النفس ووسائل التسلية ٢٨١ - ٢٩٦

٥ . الاسبلـــة ٢٩٦
٦ . الخانات والفنادق والقيساريات ٢٩٧ - ٢٩٨

الفصل السـادس

الحيـاة المنزليـة ٢٩٩ - ٣٣٢
١ . القصــور ٣٠٠ - ٣٠٦
٢ . المنـازل ٣٠٦ - ٣٠٩
٣ . الحياة العائليـة ٣٠٩ - ٣١٢
٤ . النــوم ٣١٢ - ٣١٣
٥ . الطعـام ٣١٣ - ٣١٨
٦ . الاحتفالات العائلية ٣١٨ - ٣٣٢
١ . الـزواج ٣١٨ - ٣٢٨
٢ . الولادة والنفاس ٣٢٨ - ٣٣١
٣ . الختــان ٣٣١ - ٣٣٢
٤ . عـودة الحـاج ٣٣٢

الفصل السابـع

المرأة ومكانتها في المجتمـع ٣٣٣ - ٣٥٨
١ . عناية المرأة بجسمها ٣٣٤ - ٣٣٨
٢ . مقاييس ومعايـير الجمال ٣٣٨ - ٣٣٩
٣ . مكانـة المرأة في المجتمـع ٣٣٩ - ٣٤٤
٤ . الجـوارى ٣٤٤ - ٣٤٧
٥ . المرأة والحياة العامـة ٣٤٧ - ٣٥٨
١ . تدخل نساء السلاطين والامراء في شؤون الحكم ٣٤٨ - ٣٥١
٢ . مشاركة المرأة في الحيـاتين العلمية والدينية ٣٥١ - ٣٥٤
٣ . المرأة والتصــوف ٣٥٤
٤ . نشاط المرأة في شوارع المدينة واسواقهـا ومتـنزهاتهـا ٣٥٤ - ٣٥٨

الفصل الثامن

احتفالات دمشق في العهد المملوكي ٣٥٩ - ٣٩٢

١. الاحتفالات الدينية ٣٦٠ - ٣٨٠

١. رأس السنة الهجرية ٣٦٠

٢. يوم عاشوراء ٣٦١

٣. المولد النبوى ٣٦٢ - ٣٦٤

٤. دوران المحمل ٣٦٥ - ٣٦٨

٥. ليالي الوقود ٣٦٨

٦. احياء رمضان ٣٦٩ - ٣٧٣

٧. عيد الفطر ٣٧٣ - ٣٧٦

٨. يوم عرفة ٣٧٦ - ٣٧٧

٩. عيد الأضحى ٣٧٧ - ٣٧٨

١٠. عودة الحجيج ٣٧٩ - ٣٨٠

٢. الاحتفالات القومية : ٣٨٠ - ٣٨٨

١. الاحتفالات بتولية سلطان جديد ٣٨٠ - ٣٨٢

٢. الاحتفال بتولية نائب جديد ٣٨٢ - ٣٨٣

٣. الاحتفال بشفاء السلطان او النائب من المرض ٣٨٣ - ٣٨٤

٤. الاحتفال عند دخول السلطان دمشق ٣٨٤ - ٣٨٦

٥. الاحتفال عند عودة السلطان او النائب منتصرا ٣٨٦ - ٣٨٧

٦. الاحتفالات القومية الاخرى ٣٨٨

١. عيد الزبيب ٣٨٨

٢. عيد الجوزة ٣٨٨

٣. اعياد النصارى ٣٨٨ - ٣٩٢

الملاحق : ٣٩٣ - ٤٦١

١ . ملحق رقم (١)
اسماء حارات دمشق في العهد المملوكي ٣٩٣ - ٣٩٦

٢ . ملحق رقم (٢)
نواب السلطنة في دمشق في العهد المملوكي ٣٩٧ - ٤٤٦

٣ . ملحق رقم (٣)
نص نسخة تقليد بنيابة دمشق للامير غرلو ٤٤٧ - ٤٥٠

٤ . ملحق رقم (٤)
نص نسخة تقليد بنيابة دمشق للأمير تنكز ٤٥٢ - ٤٥٣

٥ . ملحق رقم (٥)
اسماء حمامات دمشق ٤٥٤ - ٤٥٦

٦ . ملحق رقم (٦)
ذيل ملحق كتاب" آداب الحمام واحكامه " ٤٥٧ - ٤٥٩

٧ . ملحق رقم (٧)
اسماء خانات دمشق ٤٦٠ - ٤٦١

المصادر والمراجع ٤٦٢

الرسومات : =

١ . مخطط مدينة دمشق في اوائل القرن السادس عشر
٢ . مخطط مدينة دمشق في منتصف القرن الثالث عشر
٣ . رسم تكون الاسواق تحت القلعة .
٤ . أ . احدى أبواب الحارات .
ب . سقوف الاسواق .
٥ . مخطط حمام نور الدين زنكي في دمشق

بسم اللــه الرحمن الرحـــيم

"مقـدمـــــــــة"

تهدف هذه الدراسة الى اعطاء صورة واضحة وجلّية للحياة الاجتماعية في دمشق، في العهد المملوكي في فترة زمنية قاربت ثلاثة قرون، وامتدت من النصف الاول من القرن السابع الهجرى، النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادى، الى بداية العشرينات من القرن العاشر الهجرى / مطلع القرن السادس عشر الميلادى.

قسّم المماليك بلاد الشام من الناحية الادارية الى ستة أقسام تسمى "نيابــات"، تخضع للسلطة المركزية في القاهرة هي (دمشق - حلب - حمص - حماه - صفد - والكرك)، وهذه التقسيمات كانت استمرارا للتقسيمات الادارية التي كانت سائدة في العهد الايوبي، وامتازت نيابة دمشق في العهد المملوكي انها كانت كبرى نيابات الشام حتى أطلق عليها اسم "نيابة الشام" أو "مملكــة الشام".

ونظرا لتعذر دراسة هذه المنطقة (الشام) كوحدة واحدة مستقلة، فقد اتجهت آراء الدارسين المحدثين الى دراسة هذه المنطقة في العهد المملوكي، وفقا للتقسيمات الادارية السابقة الذكر، ولكن الدراسات الحديثة للجانب الاجتماعي فيها قليلة ونادرة.

وربما كان من أسباب اعراض الدارسين المحدثين عن هذه الناحية بالذات، قلــة المصادر المعاصرة المتوفرة على هذا الجانب الهام من جوانب التاريخ.

ودراسة الحياة الاجتماعية تختلف الى حد كبير عن دراسة الاحداث السياسيــة، لأن الاحداث السياسية تتميز بالتغيير والتبديل، وعدم الاستقرار، في حين تظل الحياة الاجتماعيـة على شيء من الثبات وعدم التغيير السريع او بطئــه الشديد.

وعلى ذلك فان الباحث في الحياة الاجتماعية، كثيرا ما يجد نفسه بحاجة لأن يلجأ الى بعض المصادر المتقدمة قليلا أو المتأخرة قليلا عن العصر الذى يبحث فيه، لاستكمال صورة ناقصة او العثور على حلقة مفقودة، وان كان استعمال هذه المصادر يتطلب الحذر والحيطـــة في البحث وقد اتفق علماء الاجتماع على ان المقصود بالحياة الاجتماعية جميـــع

نواحي النشاط الانساني في ميادين العمل ،والدين ،والتعليم ،والنشاط الاقتصادي ، واللعب واللهو ،والأسرة وكيانها ،والاعياد والافراح ،والمآتم والاحزان . لذا يتعذر على الباحث ان يلم بجميع أطراف الحياة الاجتماعية لشعب معين في عصر من العصور لأن أفق الحياة الاجتماعية نفسه غير محدد حتى يمكن الالمام بجميع أطرافه ولا يخفى على باحث التاريخ ان علاج الحياة الاجتماعية في العهد المملوكي ،أمر ليس بالسهل اليسير، وكان ان لمست بنفسي صلابة البحث وصعوبته ،اذ كانت الصعوبة الاولى التي واجهتني هي تحديد مجال الموضوع ،مع ارتباط الحياة الاجتماعية بجميع نواحي النشاط البشري ، وثمة صعوبة أخرى ،هي قلة المادة وتشتتها في بطون المصادر المعاصرة ،فاذا كان الباحث في الاوضاع السياسية والاقتصادية مثلا يفتح المصدر المعاصر ليجد فيه عدة صفحات متتالية ترتبط بحرب أو فتنة أو هجر أو أزمة أو مجاعة ،فأنني في دراسة الحياة الاجتماعية كنت أدرس المصدر بجميع أجزائه عسى ان أجد أشارة تتعلق بالاوضاع الاجتماعية .

وأخيرا جمعت هذه الاشارات المتباينة المستخرجة من المصادر المتفاوتة في موضوعاتها وأغراضها لأقيد بحثا مترابطا يقوم على أسس علمية متينة ،ويبدو أن منشأ هذه الصعوبة جاء في أن بحث الحياة الاجتماعية عصر من العصور الاسلامية يرتبط الى حد كبير بالتقاليد الاسلامية الشرقية ،وما تتصف به هذه التقاليد من محافظة شديدة لا سيما فيما يتعلق بالاحوال العائلية والمنزلية ، ودور المرأة في المجتمع، وربما نظر كتّاب العصر الى هذه النواحي على انها أشياء عادية مألوفة للجميع، فلا يصح ان يبذلوا جهدا ،ويضيعوا وقتا في تسجيلها .

أنني أذكر بعض الصعوبات التي واجهتني أثناء الدراسة لعلي ألتمس العذر من القارئ وسعة الصدر ،فيما عسى يظنه موضعا للنقد .

وقد قمت بمعالجة موضوع هذه الدراسة على الشكل التالي :-
أبتدأت الدراسة بعرض موجز للمصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة ،

وتحليل لأهميتها لدراسة الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي ، حيث يلاحظ أن هذه المصادر أمتازت بالتنوع والتمدد ، وهذا راجع الى طبيعة الدراسة نفسها ، فشملت المصادر الجغرافية ، حيث أن هذه الدراسة تتطلب الالمام بجغرافية مدينة دمشق كما عرفها وصورها الجغرافيون المسلمون ، التي كانت مسرحا للاحداث التي شملتها الدراسة ، كما اهتمت هذه الدراسة بالجوانب الاجتماعية ، والاقتصادية والادارية والسياسية والعمرانية والعلمية التي شهدتها نيابة دمشق في العهد المملوكي ، وكتب الحوليات والسيّر ، وتفاوتت الاستفادة من هذه المصادر بتفاوت الموضوعات والفترة الزمنية التي تعرض لها كل مصدر ، وقد اعتبرت كتب الحوليات والسّير بمثابة العمود الفقرى لهذه الدراسة وامتازت بكونها سلسلة تكمل بعضها بعضا ، وكتب التراجم ، التي لم تقتصر معلوماتها على ذكر تراجم المشهورين ، بل تعدت ذلك الى ذكر الاخبار التاريخية ، وكتب الموسوعات والنظم التي زودتنا بالمعلومات الادارية عن نيابة دمشق ، وكتب الرحلات ، ذلك لأن أوصاف الناس تتراءى في ملحوظات الرحالة الشرقيين والغربيين الذين زاروا دمشق في العصور الوسطى ، لأن كثيرا من العادات وألوان النشاط الاجتماعي التي بدت في أعين المعاصرين من اهل البلاد شيئا مألوفا وعاديا ظهرت غريبة بالنسبة لأولئك الرحالة ، فتعرضوا لها بالوصف الممتع ، والنقد المفيد .

وقد خصص الفصل الاول ، من هذه الدراسة لوصف مدينة دمشق في العهد المملوكي حيث أطنب الرحالة الذين زاروها في تلك الفترة في وصفها ووصف الحياة فيها ، وقد تتبعنا وصف هؤلاء الرحالة للمعالم البارزة لمدينة دمشق ، ابتداء من اسوارها ، قلعتها ، ميادينها ، مساجدها وجوامعها ، حاراتها ، أسواقها ، حوانيتها ، ضواحيها وحتى مقابرها واختتم الفصل الاول بذكراهم الانهار التي تسقى دمشق وغوطتها وسرد أسماء القرى التي تسقى أراضيها من هذه الانهار ..

وأحتل الفصلين الثاني والثالث من هذه الدراسة موضوع الحديث عن بنية المجتمع في دمشق في العهد المملوكي وشمل قسمين ، القسم الاول ويحتل الفصل الثاني من هذه الدراسة ، ويشمل الحديث عن فئات الخاصة ، رجال الدولة والادارة تناولت فيه الحديث

عن التقسيم الاداري لبلاد الشام في العهد المملوكي مبينة أهمية نيابة دمشق بالنسبة لنيابات الشام الاخرى ، وشمل الحديث عن المماليك ، الذين كانوا يشكلون الطبقة العسكرية الممتازة في المجتمع التي استأثرت بالحكم وشؤون الحرب ، شمل الحديث عن منشأتهم ، وطريقة تربيتهم ، وأسلوبهم الخاص في الحياة ، وشمل الحديث عن أمراء المماليك وثروتهم ومكانتهم ونفوذهم في المجتمع ، وشمل الحديث عن أقطاعات الامراء والجند ، وشمل الحديث باسهاب عن ثلاثة أنواع من الوظائف ، شمل النوع الاول منها وظائف ارباب السيوف ، وتناولت فيه الحديث عن الجيش ، وشمل النوع الثاني ارباب الاقلام واصحاب الوظائف الديوانية مثل نائب السلطنة ، مع ذكر واجباته ومسؤولياته والحجوبية ، ونيابة القلعة ، والوزارة ، ونيابة السر ، وولاية المدينة ، ونظر البيمارستان ، ورئاسة الطب ، ورئاسة الكحالين ، ورئاسة الجراحين . وشمل النوع الثالث من هذه الوظائف أرباب الوظائف الدينية ، شمل فيه الحديث عن القضاء والمذاهب الأربعة (الشافعي ، الحنفي ، المالكي ، الحنبلي) ، وقاضي العسكر ، والمفتي ، وشاد الزكاة ، وشاد الاوقاف ، وشاد الدواوين ، وشاد مراكز البريد ، ونظار وخطباء وأئمة المساجد ، ومشيخة الشيوخ ، وشمل هذا الفصل ايضا الحديث عن وظائف زعماء أهل الذمة .

أما الفصل الثالث فقد شمل القسم الثاني من بنية المجتمع في دمشق في العهد المملوكي والذى ضم فئات العامة ، شمل فيه الحديث عن العلماء ونفوذهم في الدولة واحترام السلاطين وأجلالهم لهم ، ومحاولة السلاطين استمالتهم الى جانبهم ضمانا لرضاهم عنهم ، لأن اليهم قيادة العامة في السخط والرضى ، وشمل هذا الفصل ، الحديث عن التجار ، وبيان اهمية دمشق كمركز تجارى بين بلاد الشام وأوروبا في العهد المملوكي ، ومحاولة السلاطين للتقرب من التجار بسبب ثراهم لا سيما في ساعات الحرج والشدة ، والضرائب والمكوس والمصادرات التي يتعرض لها هؤلاء التجار من قبل الدولة . وشمل الحديث ايضا عن الصناع وارباب الحرف واصحاب المهن الخاضعة لنظام النقابات السائدة بين افراد كل حرفة ، وشمل الحديث ايضا عن الفلاحين الذين يسكنون الارياف في ضواحي دمشق ، ولم يكن نصيبهم في المجتمع المملوكي سوى الاهمال ، حيث لم يكن لهم سوى العمل والسخرة ، ودفع الاموال ، وشمل الحديث عن نوع الاراضي في دمشق ،

وتقسيمها الذى تبين أنه يرجع الى فترة الفتح الاسلامي ، حيث قسمت اراضي الملك ، والاراضي الاميرية ، وأراضي الوقف ، والأراضي المشاعة ، وشمل الحديث في هذا الفصل ايضا عن العوام وتنظيمهم في احياء دمشق ، وتنظيماتهم ، وموقف الدولة منهم ، وعلاقاتهم مع بعضهم البعض، وشمل الحديث ايضا أهل الذمة ، والاضطهادات التي تعرضوا لها ، والقيود المفروضة عليهم بين فترة واخرى ، وشمل الحديث عن الاقليات الاخرى من التجار الاجانب ، والحجاج الاوروبيين ، والاسرى من الفرنج والترك والتركمان والتتار والارمن ، واختتم الفصل بالحديث عن دور الأعراب في الحياة العامة لمدينة دمشق .

أما الفصلين الرابع والخامس فقد شملا الحديث عن المؤسسات الاجتماعية في دمشق وقد شمل قسمين ، القسم الاول قد أحتل الفصل الرابع من هذه الدراسة ، فقد شمل الحديث عن المؤسسات الاجتماعية التربوية والتعليمية ، شمل الحديث فيه عن المكاتب ، المؤدب ، والشروط التي يجب أن تتوفر به ، وأهم واجباته ، وواجبات الطلاب ، ومواد التعليم ، وأيام العطل ، وشمل الحديث عن المدارس التي يتبين لنا من كثرة عددها على زيادة أهتمام السلاطين وامراء المماليك في الحياة العلمية والفكرية في دمشق في العهد المملوكي ، ولا يمكن فصل النشاط التعليمي في دمشق عن النشاط الديني ، لأن التعليم كان مرتبطا الى حد كبير بالعلوم الدينية ، من حديث وتفسير وفقه ، وشمل الحديث عن وظيفة التدريس وواجبات الطلاب ، واختيارهم للمواد والمكتبات الملحقة بالمدارس ، وضروب الترويح عن النفس ، والاوقاف على المدارس ، وشمل الحديث أيضا عن المساجد والجوامع ، ووصف الجامع الأموى ، واستعمالات أهل دمشق له ، حيث كان الجامع الاموى المكان الكبير الذى تركزت حوله حياة دمشق ، وشمل الحديث عن نظار وخطباء وأئمة المساجد ، والاوقاف عليها وشمل أيضا عن الصوفية وعن بيوت الصوفية من زوايا وربط وخانقاه .

أما الفصل الخامس فقد شمل القسم الثاني من المؤسسات الاجتماعية في دمشق ، حيث وجد في دمشق مؤسسات اجتماعية اخرى متعددة الأغراض ، منها ما هو عام لجميع أهل المدينة ، مثل البيمارستانات والحمامات والاسبلة وغيرها ، ومنها ما هو خاص بالمسافرين والتجار مثل الفنادق والخانات ، والوكالات والقيساريات ، وشمل هذا الفصل

أيضا الحديث عن السجون ، وأنواع العقوبات وأدوات العقوبات ، وأنواع التعذيب ، وأماكن التسلية والترويح عن النفس ، وتناول الفصل السادس موضوع الحديث عن الحياة المنزلية فشمل القصور والمنازل والحياة العائلية ، والنوم ، والطعام ، والاحتفالات العائلية من زواج ، وولادة ونفاس ، ختان ، عودة الحاج .

وتناول الفصل السابع الذى يعتبر تكملة للفصل السادس موضوع الحديث عن المرأة ومكانتها في المجتمع ، تناول الحديث عن عناية المرأة بجسمها ، والمراحل التي تمر بها المرأة في الحمام ، حتى تخرج في النهاية في أبهى زينة وأجمل صورة ، وشمل الحديث عن الصورة التي تخرج بها المرأة الى الطريق العام ، وشمل الحديث عن مقاييس ومعايير الجمال عند المرأة في العهد المملوكي ، وعن مكانة المرأة في المجتمع ، ومظاهر التكريم ، التي تمتعت بها المرأة في ذلك العهد ، سواء في حياتها او ما بعد مماتها وانتقالها الى العالم الآخر ، وشمل الحديث عن الجوارى وذكر أسماء من قدر لهن ان يلعبن أدوارا هامة في قصور السلاطين والامراء ، وشمل الحديث عن المرأة والحياة العامة وتدخل نساء السلاطين والامراء في شؤون الحكم ، ومشاركتهن في توجيه سياسة الدولة ، وشمل الحديث عن مشاركة المرأة مشاركة فعّالة في الحياتين العلمية والدينية ، وذكر بعض العالمات ممن أشتغلن بالنحو ونظم الشعر ومن تخصصن في الفقه والحديث والوعظ ، وشمل الحديث عن المرأة والتصوف ، وعن مشاركة المرأة في كل ما يتعلق بالحياة اليومية ساعية الى كسب قوتها جنبا الى جنب الرجل ، وشمل الحديث عن نشاط المرأة في شوارع المدينة وأسواقها ومتنزهاتها ، واحتل الفصل السابع موضوع الحديث عن احتفالات دمشق في العهد المملوكي ، شمل الحديث عن الاحتفالات الدينية : رأس السنة الهجرية ، عاشوراء ، المولد النبوى ، دوران المحمل ، ليالي الوقود ، أحياء رمضان ، عيد الفطر ، يوم عرفة ، عيد الاضحى ، عودة الحج ، وشمل الحديث أيضا الاحتفالات القومية : الاحتفال بتولية سلطان ، أو نائب جديد ، الاحتفال عند شفاء السلطان ، أو النائب من المرض ، الاحتفال عند دخول السلطان دمشق ، الاحتفال عند عودة السلطان ، أو النائب منتصرا ، وشمل الحديث عن الاعياد القومية الاخرى ، مثل عيد الزبيب ، وعيد الجوزة ، وشمل الحديث أيضا عن أعياد النصارى .

واختتمت هذه الدراسة بسبعة ملاحق :-

خصص الملحق الاول منها لاسماء حارات دمشق في العهد المملوكي .

والملحق الثاني خصص لدراسة نواب دمشق في العهد المملوكي ، حيث استعرضت حياة هؤلاء النواب ، مع التركيز على أهم الاعمال التي قاموا بها ، والتي لها علاقة بنيابة دمشق .

والملحق الثالث نص " نسخة تقليد نيابة دمشق للامير سيف الدين أغرلو " .

والملحق الرابع نص " نسخة تقليد نيابة دمشق للامير تنكز " .

والملحق الخامس حمامات دمشق عن مخطوطة تاريخ دمشق لابن عساكر .

والملحق السادس ذيل ملحق لكتاب " آداب الحمام واحكامه " ليوسف ابن عبد الهادى .

الملحق السابع اسماء خانات دمشق ليوسف بن عبد الهادى .

كما زودت الدراسة بخريطتين لتخطيط مدينة دمشق الاولى في القرن الثالث عشر والثانية في القرن السادس عشر الميلاديين .

كما زودت الدراسة بمخطط لاحدى حارات دمشق ، ومخطط لتكون الاسواق تحت القلعة ، وصورة أحد ابواب الحارات ، وسقوف الاسواق .

وأجد هنا أنه من الضرورة الاشارة الى ان هذه الدراسة تبقى محاولة أولية لدراسة الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي . لعلي أوفق ويوفق غيرى من الباحثين في كشف خبايا جانب هام من جوانب الحياة في العهد المملوكي .

٢٠٢٠٥٠

"مصادر الدراسة"

عرض وتحليل :-

بما ان الهدف من هذه الدراسة هو اعطاء صورة حية لمجتمع مدينة دمشق في عصر سلاطين المماليك خلال فترة تمتد ثلاثة قرون ابتداء من النصف الاول من القرن السابع الهجرى / النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادى الى بداية العشرينات من القرن العاشر الهجرى / مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، فأن طبيعة هذه الدراسة تحتم علينا الاعتماد على مصادر عديدة متنوعة .

وتفاوتت الاستفادة من هذه المصادر بتفاوت الموضوعات والفترة الزمنية التي تعرض لها كل مصدر ، باستثناء الموسوعات (كمسالك الابصار لأبن فضل الله العمرى وصبح الأعشى للقلقشندى) وبعض الحوليات (كالكامل في التاريخ لأبن الأثير ، والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى) التي تعددت موضوعاتها وامتدت فتراتها الزمنية التي عالجتها أكثر من غيرها وسيكون التركيز في اهمية كل مصدر من المصادر التالية على مقدار ما يساعد على توضيح جانب أو أكثر من جوانب الحياة الاجتماعية المختلفة في مدينة دمشق بايراده معلومات جديدة لم تتوفر عند غيره .

أما الأسس التي أتخذت منطلقا في عرض وتحليل مصادر هذه الدراسة فهي : معاصرة مؤلفيها للاحداث التي دونوها ، اشتغال اصحابها بالوظائف الرسمية في الدولة ، قرب أصحابها من السلاطين ونوابهم ، المادة الجديدة التي تقدمها والغير متوفرة في المصادر الاخرى ، سواء أكان ذلك مباشرة ونتيجة لمعاصرة مدونيها للاحداث ، أو غير مباشرة بالنقل من مصادر معاصرة مفقودة او غير متوفرة لدينا .

يمكننا تقسيم مصادر هذه الدراسة الى المجموعات التالية :-

١ . الجغرافية .

٢ . الحوليات .

٣ . التراجم .

٤ . الموسوعات والنظـم .

٥ . الرحـــــلات .

الجغرافيـــــة :-

أهتم الجغرافيون والرحالة المسلمون منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، بدراسة جغرافية العالم الاسلامي ، ووصف أقطاره ، وأهم مراكز الحياة السياسية والعلمية لأغراض متعددة ، ونتج عن هذا الاهتمام عدد من المؤلفات ، أهتم اصحابها بوصف الطرق ، والمسالك ، والمراكز الحضارية ، وما هو خارج عنها ، وبوصف حياة الناس في المدن الكبيرة ، والصغيرة من عادات واخلاق ، ومذاهب سياسية ومعاملات تجارية ، ويهمنا من هذة الدراسة ما كتبه الجغرافيون عن نيابة دمشق ، وتركيزهم على أهمية مركزها بالنسبة لبقية نيابات الشام الاخرى ، وتزودنا هذه المصادر ايضا بمعلومات عن موقع دمشق واسوارها ، وقلعتها وميادينها ، وأسواقها ، وشوارعها ، وضواحيها .

يمكننا ان نقسم هذه المصادر الى قسمين :-

أ . مصادر ترجع الى قبيل العهد المملوكي .

ب . مصادر ترجع الى العهد المملوكـــي .

ومن المصادر التي ترجع الى قبيل العهد المملوكي :-

١ . الشريف الادريسي ، محمد بن محمد (ت بعد سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٤م)(١)

---

١ . الصفدى ، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) ، الوافي بالوفيات ، ٨ ج ج ١ ، باعتناء هلموت ريتر ، دار نشر فرانز شتاير بفيسبادن ، ١٩٦٢م ، ج ٢ ، باعتناء ديدرينغ ، مطبعة وزارة المعارف ، ساتنبول ، ١٩٤٩م ، ج ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٧ باعتناء س . ديدرينغ ، بنشر فرانز شتايزر بفيسبان ١٩٥٣م-١٩٧٢م . ص١٦٤ سيشار اليه "الوافي بالوفيات" . حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله (ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م ، "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، " ٢ج ، الطبعة الثالثة ، طهران ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م . ج ٢ ، ص ١٦٤ سيشار اليه "كشف الظنون ، كراتشكوفسكي ، اغناطيوس ، "تاريخ الادب الجغرافي العربي ، " ترجمة صلاح الدين هاشم ، راجعه ايغور بليان ، ٢ج ، موسكو ، لينينغراد ، ١٩٥٧ ، ج ١ ، فصل القول عن الجغرافيين ص٠ ٢٨ سيشار اليه "الادب الجغرافي" .

جغرافي كبير مشهور، طاف في البلدان في سن مبكرة، شاهد الكثير من الاقاليم واحوالها، ثم استدعاه روجار الثاني ملك صقلية الى بلده وضع له صورة الارض وألف كتابه الشهير "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". يسمى أيضا "كتاب روجر" ذكر فيه ما رآه في رحلاته، وما جمعه الرواد الذين بعث بهم الملك الصقلي الى الاقطار، زار الادريسي دمشق سنة ٥١٠هـ/١١١٦م ووصفها في كتابه هذا، وأخذ نلمس منهم بيان الحالة الاقتصادية في دمشق، ويتحدث عن الغوطة، والمدن المحيطة بها، وأهم مزوعاتها، وخاصية الفواكه.

٢. أبن جبير: ابو الحسن محمد (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) [(١)] وله كتاب "رحلة ابن جبير"، هذا الكتاب رحلة قام بها للحج استغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصف (٥٧٨هـ/١١٨٢م الى ٥٨١هـ/١١٨٥م)، زار فيها مصر والعراق والشام وصقلية، ورحلته هذه تعد من أمتع الرحلات الجغرافية العربية وأغناها بالملاحظات الاجتماعية والعلمية. [(٢)] دون معلوماته في هذا الكتاب على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائما التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة) ووصف المدن التي مر بها والمنازل التي حلّ فيها من هذه الاقطار وهنا يختلف اسهابا وايجازا وفقا لأهمية الموقع، وعني عناية فائقة بكل ما رآه فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الامراء وتجارة مكة كلها موجودة وموصوفة وصفا بارعا دقيقا ورحلته فيها كثير من الصور توضح الملاقات بين اهل البلاد والصليبين في سوريا، ويشير أكثر من مرة الى الحياة الاقتصادية حيث المزروعات والسلع المتبادلة، وأبن جبير شديد العناية بالبحث

---

١. كحالة، عمر رضا، "معجم المؤلفين"، تراجم مصنفي الكتب العربية، ١٥ج، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥٧-١٩٦١، ج ٨، ص ٢٤٥ سيشار اليه "معجم المؤلفين"، أبن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ٨ج، مكتبة القدس، ١٣٥٠-١٣٥٣هـ، ج ٥، ص ٦٠ سيشار اليه "شذرات الذهب" الادب الجغرافي، ج ١، ص ٢٩٨، زيادة نقولا، "رواد الشرق العربي في العصور الوسطى"، هدية المقتطف السنوية سنة ١٩٤٣، الطبعة الاولى ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م ص ٦٧-٦٩ سيشار اليه "رواد الشرق".

٢. معجم المؤلفين، ج ٨، ص ٢٤٥، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٦٠.

عن المدارس والمارستانات ، وقد أثر أبن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده ، حيث نقلوا أجزاء كبيرة من رحلته . وليس أدل على ذلك من ان أبن بطوطة نفسه نقل وصف كل من حلب ودمشق وبغداد . (١)

٣ . شهاب الدين ابو الفضل عبد الله ياقوت الحموى ، (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)(٢)
وقد ألف ياقوت كتاب " معجم البلدان " (٣) ، واعتبر الكتاب دائرة معارف جغرافية مهمة (٤) ، حيث ان ياقوت أخذ كثيرا من كتب سابقيه وأضاف اليهم ، وياقوت في كتابه هذا يذكر المدينةويحدد موقعها ويعطي عنها معلومات اقتصادية وتاريخية واجتماعية كما أنه يذكر الانهار والمواقع الاثرية الشهيرة ان وجدت في اى قرية أو مدينة يتحدث عنها ، كما يذكر بعض المنتجات الزراعية للمناطق التي يذكرها .

وبالنسبة لدمشق ، فقدت أخذت من هذا الكتاب ما ذكره ياقوت عن خصائص دمشق وكثرة مائها وانهارها والاراضي التي تسقيها هذه الانهار ، كما أخذت ما ذكره ياقوت عن فواكه دمشق وكذلك عن بعض المدن والقرى التي كانت تابعة لنيابة دمشق .

---

١ . أبن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم ، " رحلة ابن بطوطة " ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٤ ، ص ٣٩ ، ٥٠ ، ١٣٩ سيشار اليه "رحلة ابن بطوطة" . ر

٢ . الادب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٣٣٥ ، الهي .ر ، " ياقوت الحموى ، البغدادى حياته ومولده " . ترجمة يوسف داود عبد القادر ، المورد ، المجلد السابع ، العدد الاول ، بغداد ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ، ص ١١-٥٢ .

٣ . ياقوت الحموى ، شهاب الدين ، " معجم البلدان " ، ٦ج ، وكتبة الاسدى ، طهران ، ١٩٦٥ . سيشار اليه " معجم البلدان " .

٤ . العزاوى ، عباس ، " التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان " ، بغداد ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م ، ص ١٠ . سيشار اليه " التعريف بالمؤرخين " .

٤ . القزويني ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) (١) ولد بقزوين ، رحل في شبابه الى العراق وزار دمشق ، وتولى قضاء الحلة وواسط أيام المستعصم العباسي ، ألف كتاب "آثار البلاد وأخبار العباد" وهو كتاب جغرافي اعتمد فيه مؤلفه على ما شاهده في رحلاته ، وفي مقدمته اشارات الى فلسفة العمران مما وجد فيما بعد مفصلا عند ابن خلدون .

وبالنسبة لدمشق فقد أفدنا من هذا الكتاب وصفه للجامع الاموي ووصفه هذا يكاد يطابق وصف ياقوت ، وكأنه اخذ هذا الوصف عنه ، كذلك أفدنا عن عمارات ومدارس وخانات دمشق ، ومتنزهات دمشق وقضاء اهل دمشق يوم السبت بين هذه المتنزهات ، كذلك أفدنا في حديثه عن أوقاف دمشق لمرافق الحياة الاجتماعية المختلفة .

أما جغرافيو العصر المملوكي ، فأنهم على الاغلب كانوا نقلة لأقوال من سبقهم ، وبعضهم كان يصرح بذكر مصادره ، ومن هؤلاء :

١ . شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي ، المعروف بشيخ الربوة (ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م) ، له كتاب "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" الذى بحث فيه هيئة الارض ومقاييسها وأقاليمها بما في ذلك البحار والمحيطات والانهار . (٢) ولا يعني وضعنا للكتاب مع قائمة الكتب الجغرافية انه كتاب جغرافيا فقط ، وانما أحتوى الكتاب أضافة الى المعلومات الجغرافية على معلومات اجتماعية واقتصادية بما أحتواه كل أقليم .

---

١ . أبو الفداء ، اسماعيل ، "المختصر في أخبار البشر" ، ٤ج ، في مجلدين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت (ب - ت) ، ج ١ ، ص ٣ سيشار اليه "المختصر في أخبار البشر" ، المنجد ، صلاح الدين ، "دمشق في نظر المغاربة" ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ١٨٥ . سيشار اليه "دمشق في نظر المغاربة" .

٢ . الدمشقي ، محمد بن ابي طالب ، "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" نشره أ . مهرن ، ليبزج ١٩٢٣ ، ص ١-٢ . سيشار اليه "نخبة الدهر" .

وتكمن أهمية هذا الكتاب ان مادته عن بلاد الشام تحتل المكانة الاولى ، لأنه أمضى فيها كل حياته ، وهو يعتبر مصدرا أساسيا بالنسبة لجغرافيتها وتاريخها ، ويعتبر وصفه للشام وافيا ، في هذا المجال (١) .

وقد أفدنا من هذا الكتاب فيما يتعلق بموضوع دراستنا ان الدمشقي أورد معلومات أقتصادية واجتماعية وجغرافية عن دمشق وضواحيها وأوضح من الناحية الاقتصادية ما انتجته دمشق من محاصيل زراعية وأشجار مثمرة في الفترة المملوكية ، كما وصف صناعة تقطير الورد عند أهل دمشق أدق وصف .

٢ . الملك المؤيد بن السلطان الأفضل نور الدين بن الحسن ، المشهور بأبي الفداء صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) (٢) .

وله كتاب " تقويم البلدان " الذى صوره بمقدمة دافع فيها عن فكرة كروية الارض واستشهد على صحتها بزيادة نهار ونقص آخر لدى السير حولها في اتجاه معين ،

---

١ . الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٣٨٧ .

٢ . لمزيد من التفاصيل عن أبي الفداء راجع : ابن حجر شهاب الدين أبي الفضل احمد بن علي ، " الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة " ، ٥ج ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٦٦ ، ج ١ ، ص ٣٧١ ، سيشار اليه " الدرر الكامنة " ، شذرات الذهب ج ٦ ، ص ٩٨ ، ابن كثير ، أبو الفداء أسماعيل بن عمر الشافعي ، " البداية والنهاية في التاريخ " ، ١٤ج ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨-١٣٥٨هـ/ ١٩٢٩-١٩٣٩م ، ج ١٤ ، ص ١٥٨ سيشار اليه " البداية والنهاية ، الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٣٨٩-٣٩٠ ، حميدة ، عبد الرحمن ، أبو الفداء ، المعرفة ، العدد ١٥٤ ، دمشق ، كانون الاول ، ١٩٧٤ ، ص ٧-٢٣ ، بروكلمان ، كارل ، أبو الفداء ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

Gibb . H.A. R,'Abu,Lfida', E.I. Vol I , P. 119.

وفيه قسم الارض الى اقاليم، ومن ثم يبدأ بدراسة كل أقليم على حده بشكل مفصل ، وأبو الفداء جغرافي نقاله ، أستقى مادته من الآثار المدونة وأحيانا من قصص التجار والرحالة بالتي سمعها بالشام ، ومع ذلك فقد أضاف بعض المعلومات الجديدة عن البلدان غير الاسلامية . (١)

وكان ابو الفداء يشير الى المصادر التي أستقى منها مادته بدقة ومن بين هذه المصادر : الاصطخرى (تق٤هـ/١٠م) وأبن حوقل (ت٣٤٨هـ/١٠م) وياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) والادريسي (ت٥٦٠هـ/١٢٥٢م) وأبن سعيد (ت٦٧٣هـ/١٢٧٤م) والمهلبي (تق٤هـ/١٠م) (٢) .

وتكمن أهمية كتاب " تقويم البلدان " لكون مؤلفه يعطينا معلومات جغرافية ، حيث يحدد المدنية أو القرية التي يذكرها ، كما يذكر معلومات اقتصادية واجتماعية للمناطق التي يتحدث عنها .

وقد أفادنا كتاب أبي الفداء بمعلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية لمدينة دمشق وضواحيها ، فذكر محاصيل كل منطقة وصناعاتها والمواد التي تشتهر بها .

٣ . غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) أحد رجال الادارة في عصر المماليك ، تدرج في سلك المناصب الحكومية حتى وصل الى أعلاها ، بفضل أتصاله ببيت السلطنة بصلة النسب ، اذ كان حما السلطان برسباى ، وولي نظر

---

١ . الأدب الجغرافي ، ج١ ، ص٣٩٢ .
٢ . الأدب الجغرافي ، ج١ ، ص٣٩٣ ، الساعاتي ، حسن ، " منهج أبي الفداء في البحث" ، المعرفة ، العدد ١٥٤ ، دمشق ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص٦١- ٦٣ ، كامل ، " المؤرخ أبو الفداء ونزعته العلمية " ، المعرفة ، العدد ١٥٤ ، دمشق ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٧٧ .

الاسكندرية ودار الضرب ، وكان أميرا للحج عام ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م) ، ونيابة الكرك وولاية فلسطين ، وأتابكية حلب . (١)

ولقد أفدنا من هذا الكتاب حديثه عن التقلب في المناصب ، حيث تمكن من التعرف عن كثب عن أحوال مصر والشام والحجاز . (٢) وقد دفعه نشاطه الادارى في عهد "السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي الظاهرى" (٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م) ، الى التفكير في وضع مدخل من أجل عمال الدولة وصنف كتابا وسماه "كشف الممالك" (٣) ويشتمل على مجلدين ضخمين يشتملان على اربعين بابا ، ولما رأى ضخامة مؤلفه أختصره في أثني عشر بابا بعنوان "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" ، تناول فيه الكلام على الوظائف الحربية والادارية في دولة المماليك الثانية التي تقلب في مناصبها حتى قبيل وفاته . (٤) معتمدا في ذلك على

---

١ . السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" ، ١٢ج ، القاهرة ، مكتبة القدس ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م - ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ، ج٣ ، ص١٩٥ سيشار اليه "الضوء اللامع" ، ياقوت الرومي الحموى ، شهاب الدين أبو عبد الله ، "معجم الأدباء" ، في ١٠ مجلدات ، مكتبة البابي الحلبي وشركاه بمصر ، القاهرة ، ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م ، ج٤ ، ص١٢٠ سيشار اليه "معجم الأدباء" ، الأدب الجغرافي ، ج٢ ، ص٤٧٢ .

٢ . زيادة ، محمد مصطفى ، "المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى" ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص٢٣-٢٤ سيشار اليه "المؤرخون في مصر" ، الأدب الجغرافي ، ج٢ ، ص٤٧٣ ،

٣ . المؤرخون في مصر ، ص٢٤ ، الأدب الجغرافي ، ج٢ ، ص٤٧٣ ،

٤ . المؤرخون في مصر ، ص٢٤ ، سركيس ، فؤاد اليان ، "معجم المطبوعات العربية والمعربة" ، مطبعة سركيس بمصر ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م ، ص١٣٣ . سيشار اليه "معجم المطبوعات" .

الوثائق والسجلات الحكومية بفضل منصبه الحكومي . (١) ويصح أن يكون هذا الكتاب مصدرا للجغرافيا الأدارية ، فقد أنفرد الكتاب بمعلومات أدارية وتنظيمية عن المماليك وعن الجيش المملوكي وشورئعته في الممالك التابعة للدولة المملوكية ومن ضمنها دمشق ، كذلك ذكر المؤلف في هذا الكتاب وصفا للبيوت السلطانية وأنواع الالعاب الرياضية التي شغف بها سلاطين المماليك ، وذكر معلومات هامة بالنسبة لدمشق ، كمدينة من المدن الكبرى التابعة للدولة المملوكية ، فذكر حدودها وطرقها الرئيسية ومياديها وقصورها ومؤسساتها الاجتماعية من مستشفيات وفنادق وخانات .

---

١. الأدب الجغرافي ، ص ٤٧٤ .

" الحـوليــــــيــــات "

أمتازت كتب الحوليات التي أفادت منها هذه الدراسة بالتنوع والكثرة بحيث تمكننا من الحصول على صورة واضحة الى حد ما ومتصلة زمنيا عن نيابة دمشق في مختلف مظاهر حياتها الاجتماعية .

يمكننا أن نقسم هذه المصادر الى قسمين :-

أ . المصادر الشامية : التي زودتنا بمعلومات عن مجتمع دمشق أوفر من غيرها وسبب ذلك ان المؤرخين الشاميين كانوا أقرب الى مصادر المعلومات من المؤرخين المصريين وكان لهم أهتمام خاص لا نجده الا عند من عرف عن قرب ما كان يجرى ببلاد الشام من الأمور .

ب . المصادر المصرية : وهي أكثر فائدة في ناحية العلاقة الرسمية بين نيابة دمشق والسلطنة المملوكية في القاهرة .

هذا التحديد ليس نهائيا ، ولا ينطبق على المؤرخين المتأخرين الذين وجدوا أمامهم مؤلفات شامية ومصرية فنقلوا عنها .

وهناك ظاهرة تلفت النظر عند مؤرخي الدولة المملوكية وهي ان مصادرهم تمتاز بكثرة الاخبار والحوادث المدونة بشكل خاص من الفترة السابقة لعهد المؤلف ، وقلتها في الفترة التي عاصر أحداثها ويبدو أن سبب ذلك راجع الى ان المؤلف نقل فيما يتعلق بالفترات السابقة عن مؤلفات جاهزة بين يديه ، أما فترته فهي نتاجه الخاص الذى اعتمد فيه على جهده الشخصي بمشاهداته الخاصة . (١)

وهناك ظاهرة أخرى عند مؤرخي الدولة المملوكية تستحق ان نشير اليها وهي

---

١ . مثل كتاب " مرآة الزمان " لسبط بن الجوزى ، وكتاب "تاريخ الاسلام" للذهبي ، وكتاب " بدائع الزهور " لأبن أياس ، وغيرها .

أن أكثرهم كان له ارتباط مباشرا وغير مباشر بالجهاز الاداري للدولة ، (١) وساعدهم ذلك على معرفة أحوال البلاد وأخبارها على المستوى الرسمي . ولذا جاءت تواريخهم متشابهة في كثير الحالات ، في أخبار نيابة دمشق وعلاقة ذلك بالسلطنة المملوكية في القاهرة ؛ ويستثنى من ذلك التواريخ المتأخرة التي نقلت عن مصادر شامية أضافة لما أخذت عن المؤرخين المصريين الاول .

أما المؤرخون الشاميون فقد كان ارتباطهم بالادارة الرسمية قليلا حتى في مراكز المماليك في الشام ، وكانوا في أغلبيتهم من العلماء الذين اهتموا بتراجم الرجال كثيرا ، وربط اكثر من الاحداث ، في المؤلفات التي وضعوها (٢) ومع ذلك فان احداثهم تختلف عن الاحداث التي يوردها المؤرخون المصريون .

وفيما يلي نقدم فكرة موجزة عن قيمة كل مصدر من هذه المصادر بالنسبة لهذه الدراسة مرتبة حسب سنوات الوفاة لاصحابها :ـ

١ . شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي المشهور بسبط بن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦) وله كتاب "مرآة الزمان

---

١ . مثل "ابن عبد الظاهر" ، "ابن شداد" ، "بيبرس الدوادار" ، "ووالد بن أيبك" .
٢ . مثل اليونيني وابن كثير .

في تاريخ الاعيان " (١) وهو مرتب ترتيبا حوليا يذكر المؤلف في كتابه الحوادث البارزة في كل عام ثم يترجم للوفيات واودعه الكثير من الاحاديث النبوية الشريفة وكثير من الاشعار، واعتمد في هذا الكتاب على مراجع كثيرة، ومن اهمها تاريخ جده "أبي الفرج عبد الرحمن الجوزى " (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) المعروف بكتاب "المنتظم" (٢)، وابن القلانسي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)، والعماد الاصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م) وابن شداد (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م) (٣)

---

١. لمزيد من التفاصيل عنه راجع : ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشره عزت العطار الحسيني، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٦٥، سيشار اليه "الذيل على الروضتين"، اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان، ٤ج، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الركن الهند(١٣٧٤-١٣٨٠هـ/١٩٥٤-١٩٦١)، ص ٣٩-٤٣، سيشار اليه "ذيل مرآة الزمان"، البداية والنهاية، ج١٣، ص ١٩٤-١٩٣، ابن تغرى بردى، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ج، رجعت الى طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء التاسع اى حتى سنة ٧٤١هـ، وبعد ذلك رجعت الى بقية الكتاب الى طبعة كاليفورنيا، نشر وليم ببر ١٩٠٩، ج٧، ص ٣٩، سيشار اليه "النجوم الزاهرة"، المنجد، صلاح الدين، معجم المؤرخين الدمشقيين، ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٩٠، سيشار اليه "معجم المؤرخين".

Cahen, CI, 'Ibn Al-Djawzi Sibt', E.I, Vol.III, PP.752-753, Hilmy, M. Ahmad, 'Some Notes on Arabic Historiography During the Zengid and Ayyubid Periods (521/1123-648/1250) Lewis (B) and Holt (P.M) in , Historians of the Middle East , London 1962, P. 92. Hilmy كما نشره سيشار اليه

٢. التعريف بالمؤرخين، ص ٦٩.

٣. Hilmy ,P.92.

وقد نشر من هذا الكتاب الجزء الثامن ويقع في مجلدين ، وهو يعالج الفترة الواقعة بين عامي (٥٩٥-٦٥٤هـ/ ١٠١١-١٢٥٦م) ، ويهمنا من هذا الكتاب القسم الاخير منه الذي يتناول السنوات من (٦٤٨-٦٥٤هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٦م) حيث كان المؤرخ معاصرا لاحداثها ، وأفدت من هذا الكتاب بمعلومات تتعلق بوضع دمشق في الفترة التي كانت نهاية لسلطنة الأيوبيين في مصر وظهور المماليك كدولة ذات سيادة وسلطان وقد ذكر ابو المحاسن هذا الكتاب في مؤلفه " النجوم " وأعترف انه نقل منه معظم حوادثه . (١)

٢ . شهاب الدين ابو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بابو شامة المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥/ ١٢٦٦م) (٢) ، مؤلف كتاب " الذيل على الروضتين " ، نشر باسم " تراجم رجال القرنين السادس والسابع " (٣) وهو مرتب ترتيبا حوليا ، يذكر المؤلف فيه الحوادث البارزة في كل عام ثم يترجم للوفيات ، يبدأ بحوادث عام (٥٩٠هـ/ ١١٩٣م) ، وينتهي بحوادث عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) وقد اعتمد في هذا الكتاب على سبط بن الجوزي (٤) وتكمن قيمة الكتاب في ان المؤلف كان معاصرا لأحداث السنوات (٦٤٨-٦٦٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٦٦م) ، وبشكل خاص غزو التتار ، حيث كان موجودا في دمشق أثناء اجتياح التتار لبلاد الشام وقد وصف هذا الغزو مفصلا في هذا الكتاب.

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٩ ، ٢٠٨ .

٢ . راجع ما ترجم عن حياته ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .

٣ . حول نشر هذا الكتاب راجع ما كتبة ، زيادة ، نقولا ، " ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الأخيرة من دراسة التاريخ العربي وغيره في عصر المماليك " ، الأبحاث ، السنة ١٢ ، بيروت ، أيلول ١٩٥٩ ، ج ٣ ، ص ٣٢٩-٣٣٠ ، سيشار اليه " ما ساهم به المؤرخون العرب " ، معجم المؤرخون " . ص ١٠٣ .

٤ . Hilmy. P. 93.

كذلك أفادنا هذا الكتاب في دراستنا من حيث وجود بعض الامور الادارية في العهد الايوبي واستمرارها كما كانت عليه في العهد المملوكي مثل حديثه عن نظام القضاء .

٣ . أبن شداد ، محمد بن علي بن عز الدين (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ، كان من خواص الملك الناصر يوسف الايوبي (١) ، وله كتاب " الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة " وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء ، يتعلق الجزء الاول منها في تاريخ حلب ، والثاني في تاريخ دمشق ، أما الثالث فيشتمل على تاريخ الجزيرة الفراتية والموصل . نقل المؤلف كثيرا من معلوماته عن كتاب ابن العديم : بغية الطلب ، الا أنه أضاف اليه ما شاهده وسمعه وما حدث من تطورات بعد وفاة ابن العديم .

يهمنا من هذا الكتاب الجزء الثاني الذى احتوى على معلومات عن دمشق في الفترة الايوبية والفترة المملوكية الاولى فذكر أبواب دمشق ومزاراتها وحماماتها ومدارسها ومستشفياتها وأماكن الصوفية فيها من زوايا وأربطة وخانقاة ، كذلك ذكر أنهار دمشق وما مدحت به دمشق شعرا ونثرا .

٤ . محي الدين ابو الفضل عبد الله السعدى ، المعروف بابن عبد الظاهر ، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٣م) ، شغل منصب صاحب ديوان الانشا بالقاهرة لثلاثة سلاطين من المماليك البحرية وهم : السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) والسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفي (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) ، والسلطان الملك الاشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) مما وفر له اتصالا مباشرا بشؤون الدولة واسرارها (٢) .

١ . ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ، الوافي بالوفيات ، ج ٤ ، ص ١٨٩-١٩٠ .

٢ . Pederen, J, 'Ibn Abd al-Zahir' , E.I, Vol, III, PP. 679-680.

وكان شاهد عيان في كثير من الحوادث والاخبار والوثائق التي يذكرها في كتابيه : "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر " و " تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور " ، وتكمن قيمة هذين الكتابين في ان طبيعة عمل مؤلفهما كاتبا في ديوان الانشاء ، اضفت عليهما الاهمية ، فقد اطلع على الوثائق الرسمية واستفاد منها ، واتاح له هذا الفرصة لمقابلة الرسميين وغيرهم ممن استقى منهم انواعا مختلفة من المعلومات المفيدة (١) . ولحضور مجلس السلطان ، وسماع المناقشات المختلفة والسفر مع السلطان في حملاته ، هذا كله مع معلوماته الشخصية التي حصل عليها عن طريق سفاراته (٢) مثلا ، وضعته بمنزلة شاهد عيان . ويسهب المؤلف في كتابة التحدث عن العربان في بلاد الشام وعلاقتهم بالسلطة المملوكية ، واشاراته رسمية في معظمها ومن هنا اخذت اهميتها ، وكذلك يسهب في الحديث عن استقبال اهل دمشق للسلطان اثناء دخوله فيها منتصرا على اعدائه .

٥ . الأمير بيبرس الدواداري المنصوري : (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م) (٣) ، وله كتاب " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " ، لا زال مخطوطا ويحمل رقم ٧٥٨ من مجموعة Yale

---

١ . ابن عبد الظاهر ، محي الدين أبو الفضل عبد الله السعدي ، " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر " ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ٤ ، ١٨ ، ٢٢ ، سيشار اليه " الروض الزاهر " .

٢ . الروض الزاهر ، ص ١٢٣ .

٣ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٩ ، الوافي بالوفيات ، ص ٢٥٠ .

ويقع المخطوط في ٢١١ ورقة ، وتوجد نسخة اخرى للمخطوط وهي نسخة المتحف البريطاني ورقمها ٢٣٣٢٥ ويقع في ٢٧٠ ورقة ، وتختلف هذه النسخة عن نسخة Yale بانها تشتمل على معلومات عن حوادث السنوات من ٦٩٣هـ-٧٠٩هـ ألا أنها تنقص عن نسخة Yale ٢٤ ورقة من أولها ، ويتألف الكتاب من ٢٥ جزءًا . (١)

تكمن قيمة الكتاب في ان مؤلفه شاهد عيان لكثير من الاخبار التي يوردها ، كما أن المؤلف تنقل في المناصب حيث تولى نيابة الكرك عام (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) ، كما أتيح له أن يتصدر ديوان الانشاء في بداية سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ولقب من ذلك الحين بالدوادار . (٢)

ويعتبر الكتاب في اجزائه الاخيرة من ابرز المصادر عن تاريخ المماليك البحرية وعلاقتهم مع التتار لكثرة ما فيه من الوثائق ، والجزء الذى تيسر لنا الاطلاع عليه يبتدأ بالكلام على عهد السلطان بيبرس وينتهي الى اوائل سلطنة الناصر الثالث أى من عام (٦٥٥-٧٠٩هـ/١٢٥٧-١٣٠٩) ، ويلاحظ على هذا الكتاب ان مؤلفه يتكلف السجع في كثير من عباراته وهذا الجزء ينقص منه بعض صفحات في مواضع مختلفة تقطع على القارئ تفكيره ، وأفادنا الكتاب بمعلومات ادارية . ومعلومات تتعلق بوصول التتار الى دمشق وأصل ونشأة المماليك والعزلة الاجتماعية التي فرضها المماليك على انفسهم ، وأفادنا الكتاب ايضا بمعلومات عن دور القبائل العربية في بلاد الشام واستخدام السلاطين لهم للمحافظة على الأمن .

---

١. Ziadeh ,Nicola A. Urban Life in Syria Under The Early Mamluks ,Birut,1953,Introduction,P.XIV , سيشار اليه Urban Life

٢. حسن ، علي ابراهيم ، "استخدام المصادر وطرق البحث" ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٣٥

٣. د . الحياري ، مصطفى ، "الامارة الطائية في بلاد الشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين" ، رسالة ماجستير ، الجامعة الامريكية ، ١٩٦٩ ، الطبعة الاولى ، منشورات وزارة الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ١١ ، سيشار اليه "الامارة الطائية" .

كذلك أفادنا الكتاب بمعلومات عن المظاهر الاجتماعية المختلفة لبعض السلاطين .

٦ . قطب الدين ابو الفتح موسى بن محمد بن احمد اليونيني[1] (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) وله كتاب" ذيل مرآة الزمان "، ويعتبر الكتاب تتمة لكتاب سبط بن الجوزي " مرآة الزمان "، ويبتدىء الكتاب بحوادث عام (٦٥٤هـ/١٣٢٦م) وينتهي بحوادث عام (٦٨٦هـ/١٢٨٧م)، أورد اليونيني معلومات مهمة من الناحية السياسية ،كما انه اورد معلومات فريدة من الناحية الاقتصادية خاصة فيما يتعلق بأزمات الغلاء والطاعون في بلاد الشام ،وتكمن قيمة هذا الكتاب بالنسبة لدمشق ان المؤلف يورد معلومات شاهدها ،حيث كان معاصراً للاحداث ، ويعطينا الكتاب معلومات عن دور العربان في بلاد الشام في صد غارات التتار خاصة في عين جالوت ،كما يزودنا بمعلومات عن الخدمات التي قام بها العربان في بلاد الشام للمحافظة على المواصلات ،والدور السياسي الذى لعبه هؤلاء العربان في بلاد الشام وباديتها ،كذلك يزودنا الكتاب بمعلومات عن أفراح أهل دمشق وعاداتهم في الزواج .

٧ . الملك المؤيد بن السلطان الافضل نور الدين بن الحسن المشهور بأبي الفداء ،صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) [2] ،وله كتاب" المختصر في أخبار البشر"وهو يتناول فترة ما قبل الاسلام حتى عام (٧٢٩هـ/١٣٢٩م) [3] ،وهو من مصادر التاريخ الاسلامي المهمة لبلاد الشام عامة ولمدينة دمشق خاصة ،فيما يتعلق بالعهدين الايوبي والمملوكي [4] . وقد رتب ابو الفداء الكتاب ترتيبا حوليا ،وقد

---

١ . البداية والنهاية ،ج ٣ ،ص ٢٢٧-٢٢٩ .

٢ . لمزيد من المعلومات عن ابي الفداء راجع: الكتبي ،محمد بن شاكر بن احمد ، " فوات الوفيات" ٢ج ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ،القاهرة ،مطبعة السعادة ، ١٩٥١ ج ١ ،ص ٣١ ،سيشار الية " فوات الوفيات" ، النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ٢٩٥ ، الدرر الكامنة ،ج ١ ،ص ٣٧١ ،شذرات الذهب" ،ج ٦ ،ص ٩٩ ،البداية والنهاية ،ج ١٤ ، ص ١٥٨ ،الأدب الجغرافي ،ج ١ ،ص ٣٨٩ .

٣ . بروكلمان ،كارل ،"ابو الفداء" ،دائرة المعارف الاسلامية ،ج ١ ،ص ٣٨٦-٣٨٧ .

٤ . زكار ،سهيل ،"ابو الفداء" ، المعرفة ،العدد ١٥٤ ،دمشق ،كانون اول ١٩٧٤ ، ص ٥٤-٥٥ .

أورد في مقدمة كتابه المصادر التي أخذ منها بصراحة وهذه المصادر هي :" الكامل في التاريخ "لابن الأثير (ت ٦٢٦هـ/١٢٣٢م) و"وفيات الاعيان "لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢م) " مفرج الكروب في اخبار بني أيوب "لابن واصل (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨) (١)
وأفادنا هذا الكتاب بمعلومات تتعلق باقطاعات امراء العربان في بلاد الشام ومحاولة السلاطين لكسب ودهم ، وكذلك أفادنا الكتاب بمعلومات تتعلق بالكوارث والامطار التي تعرضت لها مزروعات دمشق ، وركز الكتاب على اهمية محصول القطن ، وكذلك أفادنا الكتاب بمعلومات عن احترام السلاطين للعلماء وكذلك معلومات عن وضع النصارى واليهود في دمشق ، ومعلومات عن أنواع العقوبات التي مارسها الحكام في دمشق .

٨ . النويرى ، أحمد بن عبد الوهاب، (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) (٢) ، جمع نهاية الارب في معرفة الادب في ثلاثين مجلده باشر نظر الجيش بطرابلس ويعد كتابه من دوائر المعارف الهامة ، صدر منه ١٨ مجلد في طبعة دار الكتب بالقاهرة ، وقد أفادنا الكتاب بمعلومات عن انواع الارض في دمشق وطريقة زراعة الفلاحين لأراضيهم ، ومعاملة اصحاب الاراضي للفلاحين ، ومعلومات عن غوطة دمشق وأهم مزروعاتها ، وأفادنا كذلك بمعلومات عن اوقاف المدارس والبيوت السلطانية ، وعن مشاركة المرأة مشاركة فعالة بكل ما يتعلق بالحياة اليومية وخاصة عن دور الخاطبة والماشطة .

---

١ . المختصر في اخبار البشر ، ج ١ ، ص ٣ ، سليم محمود رزق ، "عصر سلاطين المماليك"، ج ٦ ، القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ سيشار اليه "عصر سلاطين المماليك"، التعريف بالمؤرخين ، ص ١٦٩ ، الساعاتي ، حسن ، "منهج أبي الفداء في البحث"، المعرفة ، العدد ١٥٤ ، دمشق ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٦٣ ، عياد ، كامل ، " المؤرخ ابو الفداء ونزعته العلمية "، المعرفة ، العدد ١٥٤ ، دمشق ، كانون الاول ، ١٩٧٤ ، ص ٧٨-٩٥ .

٢ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٦٤ ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٩٧ ، معجم المؤلفين ، ج ١ ، ص ٣٠٦ ، الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .

٩ . أبو بكر عبد الله بن ايبك الدواداري (ت٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م) ،كان رئيس ديوان الانشاء ولقب بالدوادار الكبير وذلك في عهد السلطانين المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد ، ألف كتابا سماه "كنز الدرر وجامع الغرر" ، في تسعة أجزاء نشر منها الجزء السادس والتاسع، أما بقية الاجزاء فلا زالت مخطوطة ، ولكل جزء تسميته ؛ فمثلا الجزء السادس " الدرة المضيئة في اخبار الدولة الفاطمية "، والسابع " الدرة المضيئة في اخبار الدولة الايوبية" ، أما الجزء الذى يهمنا في هذه الدراسة فهو " الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر "، واشتمل هذا الجزء على حوادث السنوات من ٦٩٨هـ/ ٧٣٥هـ، ويأتي كتاب ابن ايبك هذا عن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، متمما من ناحية لكتاب زبدة الفكره - في اجزاء منه -ومكملا لسلسلة سير ابن عبد الظاهر . (١)

وتكمن أهمية هذا الكتاب في ذكر محطات البريد بين مصر والشام ودور العربان في المحافظة عليها ، وتوضيح دور العلماء في الحياة العامة لدمشق ، والقيود المفروضة على النصارى واليهود ،كما يحدثنا عن تفاصيل حريق مسجد دمشق عام ٧٤٠هـ، ويحدثنا عن احتفالات دمشق لاستقبال السلطان عند دخوله لها منتصرا في الحروب، ويحدثنا عن زواج السلاطين من الجوارى والسبايا التتار .

١٠ . أبو عبد اللهمحمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، المعروف بالذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) (٢) ، وله كتاب " تاريخ الاسلام " ، وهو كتاب عظيم للاسلام يصل الى عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) ، قسمه على فترات من عشر سنوات ، تضم كل فترة منها طبقة من الرجال مرتبة ترتيبا معجميا ، (٣) وبالنسبة لمصادره في هذا الكتاب، فقد

---

١ . الامارة الطائية ، ص ١١ .

٢ . لمزيد من التفاصيل راجع : ابن اياس، ابو البركات محمد بن احمد ، "بدائع الزهور في وقائع الدهور" المشهور بتاريخ مصر، ثلاثة أجزاء في مجلدين ، بولاق ، ١٨٨٦ ، ص ١٩٩ سيشار اليه "بدائع الزهور" ، الوافي بالوفيات، ص ٢٤٢ ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٧١ .

٣ . شنب، محمد ، الذهبي ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٩ ، ص ٤٣٣ .

كان الذهبي واسع المعرفة ضليعا في علمه بالمصادر (١)، ومن أبرز مصادره، الموفق بن عبد الله البغدادي، (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) وابن الساعي (ت٦٧٤هـ/ ١٢٧٤م) وابن خلكان (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) وابن الفوطي (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، والكازروني (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) (٢).

وقد تيسر لي الاطلاع على الاجزاء التي تناولت السنوات (٥٣١هـ-٧٠٠هـ/ ١١٣٦-١٣٠٠م) وتكمن قيمة هذا الكتاب انه زودنا بمعلومات عن الصوفية وانواع العقوبات في دمشق.

١١. زين الدين عمر بن مظفر الشافعي، المشهور بابن الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) صاحب كتاب "تتمة المختصر في اخبار البشر"، اختصر فيه كتاب "المختصر في أخبار البشر"، لأبي الفداء، وذيله من عام (٧٢٩-٧٤٩هـ/ ١٣٢٨-١٣٤٨م) (٣) أفدنا من هذا الكتاب معلومات عن مشاركة العربان في صد غارات التتار عن بلاد الشام، وعن انواع العقوبات، كما أفدنا من تراجمه لبعض العلماء.

---

١. زيادة، نقولا، "دمشق في عهد المماليك"، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، ١٩٦٦، ص ٢٠٦. سيشار اليه "دمشق في عهد المماليك".

٢. التعريف بالمؤرخين، ص ١٨٤.

٣. للمزيد من المعلومات عن ابن الوردي راجع: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٣٠، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٧٤، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٢٤، الشوكاني، محمد بن علي، "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع"، ٢ج، القاهرة، الطبعة الاولى، مطبعة السعادة، ١٣٤٨هـ، ج ١، ص ١٥٣، سيشار اليه "البدر الطالع"، بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٦٨.

١٢ . عماد الدين اسماعيل القرشي المشهور بابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)(١) صاحب كتاب " البداية والنهاية في التاريخ " ، وهو من بدء الخليقة الى عصره ، وفي الفترة التي عاصرها ابن كثير يرسم لنا صورة حية للأحداث والمجريات حتى أننا نستطيع مرافقته يوما بيوم . ومن أهم المصادر التي استفاد منها في هذا الكتاب، الطبري (ت٣١٠هـ/٩٢٢) وابن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٥م) وابن الجوزى (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦) وابو شامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م) وقطب الدين اليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) والبرازلي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٩م)(٢) كما استفاد من مشاهداته ومصادره الخاصة (٣).

وتكمن قيمة هذا الكتاب في انه يعتبر مصدرا اساسيا لتاريخ بلاد الشام السياسي والاجتماعي ،(٤) وأفدنا منه تتبع الاحداث السياسية مثل عصيان نائب الشام واحداث اجتماعية حيث يوصف الثروة التي تمتع بها سلاطين وامراء المماليك في دمشق ، كما يتحدث عن الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها الزراعة في بلاد الشام، ويذكر تراجم لبعض العلماء ويوضح دورهم في الحياة العامة ، ويذكر معلومات عن زعران الحارات ، والوان الاضطهاد الذى تعرض له أهل الذمة ، ومعاملة اهل دمشق للتجار الاجانب والاسرى من التتار ، كما يتحدث عن المدارس في دمشق ايام آل زنكي والايوبيين والمماليك،

---

١ . ابن الوردى ، زين الدين عمر ، " تتمة المختصر في أخبار البشر" ، ٢ج ، المطبعة الذهبية ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م ، ج٢ ، ص ٣٥٠-٣٥٢ . سيشار اليه " تتمة المختصر " .

٢ . البرازلي : هو القاسم بن محمد بن يوسف علم الدين البرازلي الاندلسي ، نسبة الى بني برزال ، فخذ من زناتة من بني يفرن ، انتقلوا الى الاندلس ايام الحكم الاموى ، وله تاريخ على السنين من (٦٠١-٧٣٦هـ/١٢٠٤-١٣٢٥م) ، التعريف بالمؤرخين ، ص ١٨١ ، ١٩٧ ، الامارة الطائية ، ص١٢ ، حاشية رقم ٣٤ ، معجم المؤرخين ، ص ١٤٢ ، ٢٠٤ .

٣ . بروكلمان ، كارل ، ابن كثير ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج١ ، ص ٢٦٩-٢٧٠ ،

Laust,H,'Ibn Kathir' , E.I, Vol III,P.818.

٤ . دمشق في عهد المماليك ، ص ٢٠٦ .

وعن أوقاف هذه المدارس والمدرسين بها ، وعن الاحتفال عند الانتهاء من بناء مسجد أو جامع ، ويتحدث عن التجديدات التي ادخلها سلاطين المماليك على المسجد الاموي ، وأوقاف هذا المسجد ، ويتحدث عن الثروة والبذخ التي تمتع بها سلاطين وامراء المماليك ، ويتحدث عن موقف السلاطين من التصوف ، ويتحدث ايضا عن المؤسسات الاجتماعية مثل المستشفيات وخاصة المستشفى القيمرى ، والاسبلة والحمامات والخانات والفنادق ، ويتحدث عن السجون وانواع العقوبات ، وعن الموسيقى والغناء . ويتحدث ايضا عن مكانة المرأة في المجتمع ، وعن الاعراس والمهور ، وأعياد دمشق واحتفالاتها الدينية والقومية ، ويحدثنا عن راويات الاحاديث والمتصوفات ، ويصف لنا ملابس النساء في ذلك العصر .

١٣ . بدر الدين الحسن بن عمر بن حبيب الحلبي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) (١) ، وله كتاب "درة الاسلاك في دولة الاتراك" ، لا زال مخطوطا في ثلاثة أجزاء الجزء الاول منه ويحمل رقم ٢٢٣ من مجموعة March في مكتبة بودليان- جامعة اكسفورد ، ويضم ٣٠٨ ورقات تبحث في حوادث السنوات (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠ - ٧١٤هـ/ ١٣١٤م) ، ويحمل الجزء الثاني رقم (٥) من مجموعة Yale ويشتمل على ١٧٨ ورقة تبحث في حوادث السنوات (٧١٥هـ/ ١٣١٥م- ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م) أما الجزء الثالث فانه من نفس مجموعة الجزء الاول ويقع في ٣١٣ ورقة تبحث في حوادث السنوات (٧٦٢هـ/ ٨٠١هـ) وتكمن أهمية الكتاب لكون مؤلفه كان معاصرا للاحداث وقريبا منها ، وقد ذكر في كتابه الحوادث البارزة في كل عام مع وفيات الاعيان في نهاية كل عام ايضا . وقد ركز المؤلف على تاريخ حلب بشكل خاص وتاريخ بلاد الشام بشكل عام ، ويعود السبب في ذلك الى ان المؤلف من أصل حلبي ، وقد دعم كثيرا من اقواله وآرائه بالشعر أضافة الى استعماله السجع في سرد الحوادث ، توفي المؤلف قبل ان يتم الكتاب فأتمه ابنه عز

---

١ . معجم المطبوعات ، ص ٧٥ ، التعريف بالمؤرخين ، ص ٢٠٦ ، روزنتال ، فرانز "علم التاريخ عند المسلمين" ، ترجمة الدكتور صالح احمد العلي ، وراجعه محمد توفيق حسني ، بغداد ، ١٩٦٣ ، ص ٢٤٥ ، سيشار اليه "التاريخ عند المسلمين" ، معجم المؤرخين ، ص ٢١٢ . Brinner, W.M, 'Ibn Habib', E.I. Vol III, P.775.

الدين (١). وبالنسبة لهذه الدراسة أفادنا الكتاب معلومات عن أهل الذمة ، ومعلومات عن احتفالات دمشق بعد بناء المدارس الجديدة او شفاء السلطان من المرض ، ومعلومات عن المدارس والمدرسين ، وعن أهتمام السلاطين والامراء بالصوفية وعن وضع المرأة في المجتمع ، وعن أنواع العقوبات .

وللمؤلف كتاب آخر هو تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه - خاص بدولة قلاوون بمصر ، ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء نشر الجزء الاول الذى يعالج السنوات (٦٧٨ - ٧٠٨هـ/١٢٧٩-١٣٠٨م) ، وفيه يشير الى دمشق بشكل عرضي .

١٤ . ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) ، وله كتاب "تاريخ الدول والملوك" ، ويقع الكتاب في عشرة أجزاء ، مطبوع منه المجلدات ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، أما بقية الكتاب فلا يزال مخطوطا . حقق الاجزاء الرابع والخامس حسن محمد الشماع (البصرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م - ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م) ، أما الاجزاء ٧ ، ٨ ، ٩ فهي من تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين (المطبعة الامريكية ، بيروت ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م - ١٣٦١هـ/١٩٤٢م) ، وتشمل الاجزاء من ٤-٩ على حوادث السنوات (٥٠١هـ/١١٠٧م - ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) والكتاب مهم من الناحية السياسية للفترتين الايوبية والمملوكية ، حيث يذكر المؤلف حوادث كل عام ووفيات الاعيان في كل عام أيضا . وبالنسبة لمصادر معلوماته نلاحظ انه في الفترة المبكرة نقل مقتطفات من مصنفات من تقدمه حرفيا . (٢) وفي الفترة المتأخرة كان المؤلف معاصرا للحوادث أو قريبا منها زمنا ، أو ربما اعتمد على مصادر لم تصل الينا . (٣)

---

١ . شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٢٦٢ ، زيدان ، جرجي ، "تاريخ آداب اللغة العربية" ، ٤ج ، القاهرة ، مطبعة دار الهلال ، لا . ت . ج ٣ ، ص ١٨٧ .

٢ . ابن الفرات ، دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٥١ ،

Cahen, CI, Ibn Al Furat, E.I. Vol, III, PP 768 - 769.

٣ . ما ساهم به المؤرخون العرب ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .

وتكمن قيمة الكتاب في دقة مؤلفه ، حيث يورد أخباره مسلسلة سنة سنة وشهرا شهرا مع ذكر اليوم ، وقد ضمّن ابن الفرات كتابه الكثير من الوثائق الرسمية للدولة المملوكية. وأفادنا الكتاب بمعلومات عن المحتسب ودوره في مراقبة شوارع دمشق ، ومدى ثقة السلاطين بمالكيهم واعتمادهم عليهم في تسيير أمورهم في جميع انحاء الدولة المملوكية ، ومعلومات عن الاوبئة وأنحباس المطر في دمشق ، ومكانة التجار في المجتمع ، ومعاملة أهل الذمة واستخدامهم في وظائف الدولة ، ومعلومات عن المدارس ، وأهمية المسجد في الحياة الاجتماعية والثروة والبذخ التي تمتع بها سلاطين وأمراء المماليك ، واهتمام السلاطين والامراء بالصوفية ، والمنشآت الاجتماعية الخاصة بالمسافرين ، والمستشفيات ، وانواع العقوبات ، ووسائل التسلية وعادات الزواج ، ومعاملة السلاطين لزوجاتهم ، ومكانة المرأة في المجتمع واحتفالات دمشق واعيادها الدينية والقومية .

١٥ . ابن صصرى ، محمد بن محمد (ت بعد ٨٠٠هـ/١٣٩٧م) ، وله كتاب " الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية" ، وهو معاصر للاحداث التي يدونها ، ويذكر معلومات مفصلة عن حركات العصيان في بلاد الشام ، المطبوع من الكتاب يضم فترة ٩ سنوات تكاد تقتصر حوادثها على حركتي الناصرى ومنطاش ضد السلطان برقوق ، ودور آل فضل وآل مرافيها كما تحتوى على اشارات هامة عن دور الفلاحين في هذه الاحداث، (١) وبالنسبة لهذه الدراسة أفادنا الكتاب معلومات عن اسماء اسواق دمشق ، واحياء دمشق ، ودور الزعران في الحياة الاجتماعية ، وأهمية الجامع الاموى كمركز للحياة الاجتماعية ، وخانات دمشق ، واحتفالات دمشق الدينية والقومية ، كما أفادنا بمعلومات عن نواب السلطنة في دمشق .

١٦ . عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ، وله كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر " ، كان ابن خلدون قاضيا (٢) تنقل في البلاد الاسلامية ،

---

١ . الامارة الطائية ، ص ١٣ .

٢ . الادب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤٣٨-٤٤٠ ، التاريخ عند المسلمين ، ص ٦٠ ، ٧٩ ، المؤرخون في مصر ، ص٥ ،

Talib ,M,'Ibn Kaldun',E.I. ,Vol,III,PP. 825-831.

كالاندلس والمغرب ، ووفد الى مصر عام (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) [١] يبدأ كتابه منذ بدء الخليقة ، وينتهي في بداية القرن التاسع الهجري / أوائل القرن الخامس عشر الميلادي ، قسّم تاريخه الى مواضيع ودول ، ولذلك يختلف عن غيره من المؤرخين السابقين الذين أتبعوا الطريقة الحولية في الكتابة .

وتكمن قيمة الكتاب في ان مؤلفه عاصر بعض الاحداث التي ذكرها ، واحتوى الكتاب على معلومات سياسية واقتصادية فريدة خالصة فيما يتعلق عن البدو والعربان في الشام في الفترة المملوكية ، كما افادنا الكتاب في تراجمه لبعض النواب .

١٧ . تقي الدين ابو العباس احمد بن علي الشافعي المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) وله كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " ويقع الكتاب في اربعة أجزاء ، حقق الجزأين الاول والثاني محمد مصطفى زيادة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م - ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ، وحقق الجزء الثالث والجزء الرابع سعيد عاشور ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م - ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) تكمن اهمية هذا المؤرخ في أنه تولى مناصب عديدة في الدولة منها وظيفة التوقيع بديوان الانشاء وثم وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري ، ثم عيّن للتدريس في مدرسة الحديث في القاهرة ، (٢) أتبع في هذا الكتاب الطريقة الحولية ، حيث دوّن حوادث كل عام في فصل مستقل تحت عنوان باسم ذلك العام ، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لاصحابها في شيء من الاختصار ، افتتح السنة احيانا بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، وهذا في العادة اذا جاء بدء السنة موافقا لقيام سلطان جديد لما في ذلك من تغيير وتبديل .

---

١ . المؤرخون في مصر ، ص ٦ - ١٧ ، عنان ، محمد عبد الله ، " مصر الاسلامية وتاريخ الخطط " ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ، ص ٤٥ .

٢ . سيشار اليه " مصر الاسلامية " .

بين الموظفين في البلاط السلطاني ، واعتاد المقريزى أن يكتب أسم السلطان بخط كبير ومداد مخالف ، ويبدأ عبارات افتتاحه عن أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل الى ذكر الحوادث والاخبار حسب ترتيبها الزمني قدر الامكان (١) ، ويحوى الكتاب تاريخا مفصلا لدولتي الايوبيين والمماليك في مصر منذ عام (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) حتى عام (٨٤٤هـ / ١٤٤٠م) ، حيث يبحث في حالة مصر السياسية والحربية بالاضافة الى جانب ذلك يلقي ضوءا على كثير من نواحي النظام التي كانت قائمة في مصر اذ ذاك ، مثال ذلك انه أمكننا الاستدلال على العوامل التي أدت الى تولية السلاطين أو عزلهم مما ورد في استعراضه للحوادث السياسية لكل عصر من العصور كما أمكننا استخلاص الشيء الكثير عن اساليب القتال وتنظيم الحرب مما كتبه المقريزى في السلوك عن حروب السلطان الناصر مع التتار ، والمقريزى اورد معلومات جديدة تبحث في تجارة الخيول بين أمراء العرب والسلاطين وأثرها الاقتصادى والاجتماعي على العربان بسبب الاموال التي كانوا يحصلون عليها من السلطان مقابل ذلك (٢) ، أما مصادر معلوماته فهي متعددة ، ففي الفترة التي لم يعاصر أحداثها ، يلاحظ كغيره من مؤرخي المماليك أنه نقل أخبارها عن مؤرخين معاصرين دون ان يصرح بذكر من استقى منهم هذه الاخبار الا نادرا . اما في الفترة الاخيرة فيعتبر كتابه من المصادر المهمة لأحداث النصف الاول من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) لانه عاصر احداثها .

وأفادنا هذا الكتاب بمعلومات سياسية وادارية عن دمشق ، ومعلومات عن بنية المجتمع الدمشقي من المماليك والعلماء وكبار التجار وزعران الحارات ، وأهل الذمة والتجار الاجانب ، والتتار ، والعربان في بادية الشام ، كما زودنا بمعلومات عن المؤسسات التعليمية والاجتماعية المختلفة ، ووصف لنا قصور السلاطين والامراء وبيوت العامة في دمشق ، كما زودنا بمعلومات عن مكانة المرأة في المجتمع وعن الاحتفالات

---

١ . المؤرخون في مصر ، ص ٩٤ ، عصر سلاطين المماليك ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ .

٢ . الامارة الطائية ، ص ١٣ - ١٤ .

الدينية والقومية ،وعن المفاسد الاجتماعية . وللمقريزى ايضا كتاب آخر هو " اغاثة الامة بكشف الغمة " ،يبحث في حالة مصر في عهد المماليك من النواحي السياسية والحربية والاقتصادية والادارية ،وأفدنا من هذا الكتاب ما ذكره المقريزى عن اهمية الجامع الاموى في الحياة الاجتماعية في دمشق ،وما ذكره عن العملة المستعملة في دمشق في العصر المملوكي .

١٨ . تقي الدين ابو بكر احمد بن قاضي شهبه (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م) مؤلف كتاب " تاريخ ابن قاضي شهبه " ، وهو مختصر من تاريخه الكبير الذى ذيّل به على كتب من تقدمه من مؤرخي الشام (الذهبي والبرازلي وابن كثير وغيرهم) ،لم ينتشر من هذا الكتاب حتى الان سوى الجزء الثالث من المجلد الاول الذى يعالج السنوات (٧٨١-٨٠٠هـ/١٣٧٩-١٣٩٧م) ،وهو مرتب ترتيبا حوليا يفتتح فيه المؤلف السنة بذكر الحوادث والاخبار ثم يترجم للوفيات ،ويحوى الكتاب على معلومات تفصيلية عن المماليك الجراكسة في هذه الفترة ،وبالنسبة لمصادر معلوماته في هذه السنوات فانه غالبا ما يصرح بذكر مصادر معلوماته ،ومن أبرز المصادر التي يرد ذكرها ،ابن حجي (١) . واحيانا لا يصرح بذكر المصدر حيث يقول : " قال بعض المؤرخين المصريين . (٢)

---

١ . ابن قاضي شهبه ،تقي الدين ، " تاريخ ابن قاضي شهبه " ،ج ٣ ،حققه عدنان درويش دمشق ، ١٩٧٧ ، ص ٣٧ ، ١٢١ ، سيشار اليه " تاريخ ابن قاضي شهبة " .ابن حجي هو احمد بن حجي بن موسى بن احمد بن سعيد بن غشم بن غزوان بن علي بن مشرف بن تركي السعدى الحسباني الدمشقي الشافعي ،ولد بظاهر دمشق في الرابع من محرم ٧٥١هـ/آذار ١٣٥٠م . مؤرخ وفقيه درّس وأفتى وناب في الحكم وله مؤلفات عدة منها تاريخا ذيّل به على ابن كثير ،والدارس في اخبار المدارس ،وتوفي في السادس من محرم ٨١٦هـ/ نيسان ١٤١٣م ،الضوء اللامع ،ج ٦ ،ص ١٩٣ ، معجم المؤرخين ص ٢٢٩-٢٣٠ .

٢ . تاريخ ابن قاضي شهبة ،ص ٣٦ .

وتكمن قيمة الكتاب في انه يزودنا بمعلومات عن التجار والنصارى واليهود ، وعـن تراجم بعض النواب .

١٩ . شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٣هـ/١٤٤٩م) ، تولى منصب قاضي قضاه الشافعية في القاهرة مدة ٢١ عاما ، وله (١) كتابين همـا ، " الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة " وانباء الغمر بابناء العمر في التاريخ ، امـا كتاب الدرر فهو أول كتاب كامل ألف على عنوان القرون ، وقد سلك السخاوى تلميذ ابن حجر مسلك استاذه في الضوء اللامع .

أورد ابن حجر في كتابه الدرر معلومات رجالات دمشق فمن كان لهم معرفـة ودراية بالعلوم والمعارف الاسلامية كالفقهاء والمحدثين والشعراء والادباء والعلماء والاطباء ، كما ذكر معلومات عن كبار التجار وعن احوال السلاطين والامراء في القـرن الثامن الهجرى ، كما ذكر معلومات مهمة عن التدريس بالمسجد ، وموقف السلاطـين والامراء وعامة الناس من التصوف، كما ذكر معلومات عن اهتمام اهل دمشق بالموسيقـى والغناء كما ذكر معلومات عن المكانة الاجتماعية للمرأة في دمشق ، وأهمية الحمامـات، وعن قصور السلاطين والبيوت السلطانية وعن ماكل أهل دمشق ، والولائم المنزليـة ، وعادات اهل دمشق في الزواج .

أما كتابه الثاني " ابناء الغمر بانباء العمر في التاريخ "، هو ذيل لكتاب البدايـة والنهاية لابن كثير ، (٢) وقد جمع فيه المؤلف حوادث الزمان من سنـة (٧٧٣هـ / ١٣٧١م) وحتى وفاتـه ، مفصلا في كل عام احوال الدول والحوادث البارزه فيـه .

---

١ . المؤرخون في مصر ، ص٧٠ ، ٨٠ ، ارنرك ، " ابن حجر العسقلاني " دائرة المعارف الاسلامية ، ج١ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

Rosenthal, F, Ibn Hadjar .Al-Askalani , E.I. , Vol, III, PP. 776-778.

٢ . المؤرخون في مصر ، ص ٩٠ ، التعريف بالمؤرخين ، ص ٢٣٤ .

أما المصادر التي استقى منها اخباره فقد بينّها في مقدمة كتابه حيث يقول : " وغالب ما أورد فيه ما شاهدته او تلقفته ممن ارجع اليه او وجدته بخط من أثق به من مشايخي " (١) . ومن بين الاشخاص الذين اعتمد عليهم، ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥م) وابن دقماق (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) والمقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) (٢).

أفادنا الكتاب بمعلومات عن علاقة السلاطين لمماليكهم ، وعلاقة المماليك بعامة الناس ، وذكر معلومات عن نظام الجيش وترتيبه في دمشق ، وعن الكوارث الطبيعية ، وعن دور العلماء في الحياة الاجتماعية ، وموقف السلاطين من الصوفية والقيود على النصارى واليهود ، ووصف ملابس التجار الاجانب ، وتحدث عن انواع العقوبات ووسائل التسلية ، وعن نظام تقديم الطعام ، وعن مكانة المرأة وخاصة الجوارى ، وعن احتفالات دمشق .

٢٠ . ابو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) ، كان من فرقة اولاد الناس ، (٣) ثم تولى عام (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) وظيفة أمير

---

١ . ابن حجر، العسقلاني ، احمد بن علي : " أنباء الغمر بأنباء العمر " ، ج٢ ، ط١ ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، الركن ، ١٣٨٧-١٣٨٨هـ/ ١٩٦٧-١٩٦٨م ، وهناك جزأن آخران الثاني والثالث حققهما حسن حبشي ، القاهرة ١٣٩١-١٣٩٢هـ / ١٩٧١-١٩٧٢م ، سيشار اليه " انباء الغمر " ، ج١ ، ص ٢ .

٢ . المؤرخون في مصر ، ص ١٠٢-١٠٣ .

٣ . اولاد الناس ، فرقة من فرق الجيش المملوكي ، شملت ابناء الامراء المماليك فقط ، وهي نوع من الاحتياطي الحربي ، يدعى الى السلاح في حالة الحرب ، وكان على كل منهم ان يضع نفسه تحت طاعة السلطان في حالة الحرب ، وفي مقابل ذلك كان لكل منهم اقطاعات : حسن ، علي ابراهيم ، " دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص " ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٦٨ . سيشار اليه " تاريخ المماليك البحرية " .

المحمل المصرى (١) ،كان والده اتابكا للعسكر بمصر ،ثمكافلا للملكة الشامية (٢) لذلك اتيح له ان يتصرف اكثر من غيره على النواحي الادارية والسياسية للحكم المملوكي ، له كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة "، يصف فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي الاسلامي الى عام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) (٣) ، يبحث الكتابفي حوادث السنوات من (٢٠هـ/٦٤٠م - ٨٧٢هـ/١٤٦٧م) ، جعل في كتابه كل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلا قائما بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تباعا من غير ان يجعل لها عناوين مستقلة باستثناء انه اشار الى اعلانها على انه حادثة من الحوادث ، حتى اذ توفي السلطان اتى على اخباره مره اخرى في ترجمة متصلة وشرح اخلاقه وعوامل نجاحه او فشله ، ثم تلى ذلك بترتيب سنوات العهد ترتيبا واحدا ، وربما افاض في هذه الوفيات افاضة ملحوظة لما لصاحبها من مقام ممتاز ، او ذكر في اثنائها من الحوادث ما لم يستطع ذكره في الجزء الخاص بعهد السلاطين . (٤)

ومن مصادره : المقريزى ، وابن حجر العسقلاني ، والعيني (٥) ، وافادنا هذا الكتاب بمعلومات عن المباني الرسمية مثل قصر بيبرس ، ومواكب نائب السلطنة ، وتربية السلاطين لمماليكهم ، ووصف بيوت المماليك ، وتوزيع السلطان للاقطاعات على الجيش ، وذكر معلومات عن المكانة الرفيعة التي يتمتع بها الامراء عند السلاطين ومكانتهم في المجتمع والعزلة الاجتماعية التي عاشها المماليك ، وذكر المعلومات عن تقسيم الجيش وترتيبه ، وعن القضاء ، واحترام السلاطين وعامة الناس للعلماء والتجار ،

---

١ . المؤرخون في مصر ، ص ٢٦ - ٣٢ .

٢ . ابن طولون ، محمد ، " اعلام الورى " حققه محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م . سيشار اليه " اعلام الورى " .

٣ . بروكلمان ، كارل ، "ابو المحاسن "، دائرة المعارف الاسلامية " ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

Popper, W. Abu L-Mahasin, E.I. , Vol, I, P. 138.

٤ . المؤرخون في مصر ، ص ٩٥ - ٩٦ .

٥ . المؤرخون في مصر ، ص ٨٥ ، ١٠١ ، التعريف بالمؤرخين ، ص ٢٤٥ .

وذكر معلومات عن اسباب انحطاط الصناعة في دمشق ، وعن الزعران ، وأهل الذمة ، وامراء العربان ، والمدارس ، واهمية المسجد في الحياة الاجتماعية ، وعن الصوفية ومقابرهم ، وعن السجون ووسائل التسلية ، وعن البيوت السلطانية ، والحياة العائلية لطبقة المماليك ، وعن الزواج والولادة ، وعن الجواري ، والاحتفالات الدينية والقومية في دمشق .

ولأبي المحاسن كتاب آخر هو : " منتخبات من حوادث الدهور في مدى الايام والشهور " ، اربعة اجزاء في اربعة مجلدات ، نشرها وليم ببر ، كاليفورنيا ١٩٣١م ، يذكر فيه معلومات عن اسباب تدهور الجيش المملوكي ، ومعلومات عن أذى العربان وبطشهم وأغارتهم على أرياف دمشق ، ومظاهر احترام السلاطين للعلماء ، وثورة المماليك فيما بعد على العلماء واسباب كراهيتهم لهم ، وعن الحمامات واهميتها ، وعن المرأة ودورها في تربية أطفالها ، وعن الاعراس وولائم الزفاف .

ولأبي المحاسن كتاب آخر هو " مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة " ، نشره ، كارليل كابردج ١٧٩٢ ، ذكر فيه معلومات عن انواع العقوبات ، ووصف القصر الابلق في الميدان الاخضر ، وذكر فيه معلومات عن المكانة الاجتماعية للمرأة في دمشق في تلك الفترة .

٢١ . علي بن داود بن ابراهيم ، المعروف بالخطيب الجوهري وبابن الصيرفي (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م) كان خطيبا لجامع السلطان الملك الظاهر برقوق ، ونائبا للحكم عن قاضي القضاة الحنفية بالقاهرة ، (١) له كتاب " أنباء الهصر بأبناء العصر " ، نهج فيه منهج ابن حجر العسقلاني في تسميته تاريخه "بابناء الهصر بابناء العصر" كما انه جعل مفتتحه سنة ٨٧٣هـ ، كما جعل ابن حجر مستهل تاريخه ٨٧٣هـ (٢) ، الكتاب لا زال مخطوط ، ولم يصلنا منه سوى الجزء التاسع فقط . (٣)

---

١ . المؤرخون في مصر ، ص ٣٦ - ٣٨ .

٢ . الصيرفي ، علي بن داود ، " انباء الهصر بانباء العصر " ، تحقيق وتقديم حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٠ ، من المقدمة ، بقلم المحقق ، سيشار اليه "انباء الهصر" .

٣ . المؤرخون في مصر ، ص ٣٨ .

أفادنا الكتاب بمعلومات عن الثروة التي تمتع بها امراء المماليك وعن المغنيين في دمشق ، وعن نساء السلاطين والامراء خاصة فيما يتعلق بثروتهن وزينتهن وملابسهن .

٢٢ . محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن ابي بكر بن عثمان السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) (١) ،له كتاب" التبر المسبوك في ذيل السلوك "والكتاب كما يظهر من اسمه تتمة لكتاب السلوك للمقريزى يبدأ بحوادث سنة (٨٤٥هـ/١٤٤١م) وينتهي بحوادث سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) ،وأفدنا من هذا الكتاب وصف الاسواق ،ومعلومات عن الجيش، والعلماء ، الزعران ، اهل الذمة ،كما أفدنا بمعلومات عن المدارس والسجون ،وطرق العقاب ووسائل التسلية ،والاحتفالات العائلية ،والاحتفالات الدينية .

وله كتاب آخر هو : "تاريخ ابن خلكان المسمى بكتاب " الذيل على دول الاسلام للذهبي " ،فهو لا يزال مخطوط ،ويبدأ بحوادث عام (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) وينتهي بحوادث عام (٨٦٠هـ/١٤٥٥م) ،وقد أفادنا هذا الكتاب بمعلومات عن دور العربان .

وله كتاب آخر هو : " تحفة الاحباب وبغية الطلاب والمزارات والتراجم والبقاع والمباركات" افدنا من هذا الكتاب معلومات عن مظاهر احترام عامة الناس للعلماء ،ووسائل التسلية وكيفية جلوس الناس للحديث وسرد نوادر مضحكة او سيّر لابطال شجعان للتسلية في اوقات فراغهم .

٢٣ . ابو البركات محمد بن احمد بن اياس(ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) ،له كتاب " بدائع الزهور في وقائع الدهور " ،اهتم فيه بالاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية بدأ كتابه بوصف مصر منذ الفتح الاسلامي حتى عام (٩٢٨هـ/١٥٢٢م) ،وهو يمتاز في الاقسام الاخيرة بالاسهاب والافاضة بحيث تتحول الى حوليات تاريخية بل الى سجل للحوادث اليومية في بعض مواضعه.(٢) أصله من المماليك الجراكسة (٣) ومن فرقة اولاد الناس(٤)

١ . لمزيد من التفاصيل عنه ، راجع: المؤرخون في مصر ، ص ٣٨ - ٣٤

٢ . معجم المطبوعات، ص ٤٢-٤٣ ، الادب الجغرافي ،ج ٢ ، ص ٤٩١ ، سوبر نهايم ، "ابن اياس"، دائرة المعارف الاسلامية"، ج ١ ، ص ٩٢ .

Brinner,W.M.Ibn Iyas,E.I. Vol,III, P.812-831.

٣ . الادب الجغرافي ،ج ٢ ،ص ٤٩١ .

٤ . المؤرخون في مصر ، ص ٤٦- ٥٥ ، ٨٣ .

قسّم ابن اياس كتابه الى عهود مستقلة كما فعل ابو المحاسن ، وذكر السنين بعناوين واضحة وبخط كبير ومداد مخالف، كما فعل المقريزي ، ولكنه لم يجعل للوفيات ترتيبا زمنيا منفصلا مثل ترتيب ابي المحاسن ، ولم يكتبها عن اواخر السنين في حولياته كما فعل المقريزي ، بل اوردها في كثير من الايجاز وعند وقوعها وحيثما اتفق من شهور السنة (١) .

وتكمن قيمة الكتاب في ان مؤلفه يعتبر من اوائل المؤرخين الذين دوّنوا اخبار الفتح العثماني ، وآخر مؤرخ لمصر المملوكية . (٢)

وأفادنا الكتاب بمعلومات عن الثروة التي تمتع بها السلاطين والامراء، ومعاملة اصحاب الاراضي للفلاحين ، وسوء حال الفلاحين ، والضرائب المفروضة على الارض وانتاجها والمواشي التي ترعى فيها ، واذى العربان وبطشهم واغارتهم على الارياف في دمشق ، كما ذكر معلومات عن العلماء والزعران واهل الذمة وانواع العقوبات ووسائل التسلية ، والزواج ومعلومات عن مكانة المرأة والاحتفالات الدينية والقومية .

٢٤ . شمس الدين محمد بن علي بن محمد الصالحي الحنفي بن طولون (ت ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦م) ، عاصر نهاية دولة المماليك في مصر والشام وله كتاب" مفاكهة الخلان في حوادث الزمان" تاريخ مصر والشام ، عالج فيه الحوادث التي جرت في الايام التي عاشها منذ مولده عام (٩٢٦هـ/ ١٥١٩م) ، ويعتبر هذا الكتاب مصدرا مهما لتاريخ الفترة الاخيرة عن عصر المماليك ولاوائل العهد العثماني في مصر والشام في النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية (٣) ، حيث تتبع تفاصيل الاحداث يوما بيوم، شهرا بشهر،

---

١ . المؤرخون في مصر ، ص ٩٦ .

٢ . الادب الجغرافي ، ج ٢ ، ص ٤٩١ ، سوبرنهايم ، " ابن اياس " ، دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٩٢ ، المؤرخون في مصر ، ص ٥٢ .

٣ . المنجد ، صلاح الدين ، " المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة" ط ١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت، ١٩٦٤ ، ص ١٧-١٨ ، سيشار اليه "المؤرخون الدمشقيون".

وعاما بعام ،وقد أفادنا الكتاب بمعلومات عن اسواق دمشق ،والعقوبات،والمحاصيل التي يزرعها الفلاحون في ارياب دمشق،والكوارث الطبيعية ،ونشاط الزعران ، والقيود على النصارى ،واليهود ،وأهمية مسجد دمشق ،ودوره في الحياة الاجتماعية،كما ذكر معلومات عن الاحتفالات الدينية والقومية في دمشق ،كما أفادنا بمعلومات عن نواب السلطنة في دمشق في العصر المملوكي .

*****

***

*

*

*

" التراجم "

تعتبر كتب تراجم الرجال من المصادر الرئيسية لدراسة تاريخ مدينة دمشق في عصر المماليك، ذلك لانها لم تقتصر على سير الاشخاص، بل تعدت ذلك الى ذكر بعض المعلومات السياسية والادارية لتلك الفترة، ولدينا من فترة المماليك عدد من كتب التراجم التي استقى مؤلفوها معظم معلوماتها عن المصادر السابقة لها، ومن هؤلاء المؤلفون :-

١. صلاح الدين بن ايبك الصفدى (١). (٧٦٤هـ/١٣٦٣م) كان الصفدى ابن عبد تركي، درس في دمشق على النحوى المشهور ابي حيّان التوحيدى، ثم رافق المؤرخ المحدث الحافظ الذهبي والفقيه المشرع تاج الدين السبكي، واشتغل الصفدى منصب خازن في مدينة دمشق، وأكثر ما اشتهر بمؤلفه الضخم " الوافي بالوفيات" الذى ارتقى عدد اجزاءه الى الثلاثين (٢) .

وفي الاجزاء التي وصلت الينا من الكتاب نحو اربعة عشر الف سيّرة من سيّر الحكام والقضاة والادباء، وهو أضخم موسوعة للاعلام في الاسلام، ففي وفيات ابن خلكان ٨٦٥ ترجمة وفي وفيات الكتبي ٥٠٦ ترجمات، وفي عيون ابن ابي اصيبعه حوالي ٤٠٠ ترجمة، وقدم الصفدى لمعجمه ببحث في النهج التاريخي وهو الاول من نوعه في العالم (٣)، نشر منه الاجزاء ١-٨، ١٥ والباقي مخطوط وهو مرتب على حروف الهجاء (٤) .

---

١. نسبة الى صفد مسقط رأسه، السبكي، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب، " معيد النّعم ومبيد النقم "، لندن ١٩٠٨، ج ٦، ص ٩٤-١٠٣، سيشار اليه " معيد النّعم ".

٢. كرينكو، " الصفدى "، دائرة المعارف الاسلامية"، ج ١٤، ص ٢٢

٣. حتى، فيليب، " تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين "، ٢ج، ترجمة كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، مؤسسة فرانكلين، ١٩٥٩، ص ٢٩٣-٢٩٤، سيشار اليه " تاريخ سوريا " .

٤. التعريف بالمؤرخين، ص ١٩٤ .

وأفادنا الكتاب بمعلومات عن علماء دمشق .

٢ . أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجي ، المعروف بابن ابي اصيبعة (ت٦٦٨هـ/١٢٦١م) (١) ، من أطباء العرب المعروفين وأدبائهم المرموقين ، ترجم في كتاب واحد ، لم يؤلف غيره ، أطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يومه الذى هو فيه سماه "عيون الانباء في طبقات الاطباء" ، ألفه لأمين الدولة وزير الملك الصالح ، ابتدأ بترجمة كبار الاطباء زمن الاغريق والرومان والهنود وقسمه الى عدة أقسام وهو يحوى ما يزيد عن ٤٠٠ ترجمة (٢) ، وهو لا يترك شاردة ولا واردة الا يذكرها ولا يكتفي يذكر ما قام به المترجم له من اعمال بل يأتي على شيء من آرائه في الطب ، لكنه لا يذكر سنة الولادة ولا سنة الوفاة على انه اذا تمكن من معرفة سنة الوفاة ذكر ، والا تكلم عن صاحب الترجمة ذاكرا ما وصل اليه ، ويذكر أيضا ما ألفه المترجم له من كتب أو ما نقله الى اللغة العربية من الكتب ، يذكرها بوضوح ويتكلم عنها بمعرفة ، ثم يتكلم عن الاطباء العرب والعجم والهنود والمغرب وأطباء مصر والشام كل قطر على حده وذكر في كتابه الكثير من الشعر العربي الذى نظمه الاطباء الذين ترجم لهم ، ونرى بين التراجم عددا كبيرا من المشاهير الذين لم يعرفوا بأنهم أطباء ، لكننا حين نقرأ كتاب ابن ابي أصيبعه نعلم عند ذلك ان هؤلاء الصوفيه . وقد أفدنا من الكتاب معلومات علمية خاصة في مجال الطب بحيث يذكر ترجمة اطباء دمشق في هذه الفترة ، وبالاضافة لترجمة الاطباء ذكر المؤلف في بعض الأحيان الحوادث المهمة المتعلقة بصاحب الترجمة ، كما أنه يورد كثيرا من الاشعار التي نظمها الاطباء الذين عاشوا في الفترة الايوبية وبداية الفترة المملوكية في دمشق .

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٧ .

٢ . ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين احمد بن القاسم بن يونس السعدى الخزرجي ، "عيون الانباء في طبقات الاطباء" ، شرح وتعليق نزار رضا ، منشورات مكتبة دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ ، المقدمة ص ٤-٥ . سيشار اليه "عيون الانباء"

٣ . شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٣هـ/١٤٤٩م) وله كتاب " الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة " ، وهو أول كتاب كامل ألف على عنوان القرون ، شمل تراجم رجال دمشق ممن كان لهم معرفة ودراية بالعلوم والمعارف الاسلامية كالفقهاء والمحدثين والشعراء والادباء والعلماء والاطباء ، كما ذكر معلومات عن كبار التجار وعن احوال السلاطين والامراء في الفترة الممتدة بين (٧٠١هـ/ ٨٠٠هـ/ ١٣٠١-١٣٩٧م) ، كما ذكر ما كان يحدث من نزاعات وحروب وحركات وثورات عسكرية من خلال عرضه لتراجم قادتها . وقد أستقى معلوماته من كتاب أعيان النصر لابي الصفاء الصفدي ، ومجاني العصر لأبن حيان ، وذهبية القصر لشهاب الدين بن فضل الله ، وذيل سير النبلاء للذهبي ، وذيل المرآة للحافظ علم الدين البرازلي ، ومن مؤلفات المقريزي وتاريخ ابن خلدون وغيرهم (١) .

٤ . أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م) ، له كتاب " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي " ، وهو تتمة لكتاب " الوافي بالوفيات " ، للصفدي ، وهو كتاب حافل بتراجم الاعيان والنابهين من سلاطين الدولتين المملوكية الاولى والثانية ورجالاتهما وبعض ملوك البلاد القريبة من المسلمين والنصارى في الفترة الواقعة من سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م) الى عهده ، والكتاب مرتب ترتيبا أبجديا (٢) .
نشر من الكتاب الجزء الاول ، وقد أفادنا هذا الكتاب بتراجمة لبعض علماء دمشق .

٥ . محمد بن عبد الرحمن بن ابي بكر بن عثمان السخاوى (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) له كتاب " الضوء اللامع لاهل القرن التاسع " وقد اعتمد السخاوى في هذا الكتاب على عدة مصادر شامية ومصرية ومن مصادره التي يذكرها في مقدمة كتابه " وبعد فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من سائر العلماء والادباء والقضاة والصلحاء والرواة والادباء والشعراء والخلفاء والملوك والامراء والمباشرين والوزراء مصريا كان أو شاميا ... مستوفيا

---

١ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤ - ٥ .

٢ . المؤرخون في مصر ، ص ٣٢-٣٣ ، ص ٩٠ ، التعريف بالمؤرخين ، ص ٢٤٦ ، بروكلمان ، كارل ، " أبو المحاسن " . دائرة المعارف الاسلامية " ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

Popper,W, 'Abu L-Mahasin'. E.I. Vol, I. P. 138.

من كان منهم في معجم شيخنا (ابن حجر العسقلاني) وأبنائه وتاريخي العيني والمقريزى وغيرهما من التواريخ كالذيل لابن خطيب الناصرية . . " (١)

وقد أمتاز الكتاب بنقد لاذع وتجريح لمن ترجم لهم . (٢)

وأفادنا الكتاب بمعلومات جغرافية وأدارية ، ومعلومات عن بعض المدارس والعلماء والنواب في دمشق في تلك الفترة .

---

١ . الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٥

٢ . المؤرخون في مصر ، ص ٤٤-٤٥ .

" الموسوعات والنظم "

لقد ساهمت الموسوعات والنظم أيضا مساهمة فعّالة في تزويدنا بمعلومات تتعلق بالنواحي الادارية المهمة ، وكذلك بمعلومات سياسية واجتماعية واقتصادية ، ومن بين اصحاب هذه الكتب :-

١ . شهاب الدين ابو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) ، كان أبوه وجده من قبل موظفين في الدولة المملوكية ، وكانا متصلين بتنظيم البريد خاصة ، والد شهاب الدين بدمشق وتولى منصب القضاء فيها (١) ، وله كتاب " التعريف بالمصطلح الشريف " ، وهو دليل ينتفع به رجال الادارة والسياسة (٢) ، حيث عرض فيه كل ما يحتاج اليه في عمل الدواوين (٣) ، ولا تقتصر اهمية هذا الكتاب على ما ورد به من معلومات عامة عن انظمة الحكم في دولة المماليك ، بل تعدى ذلك الى الوثائق التي نقلها عن الوصايا التي تكتب الى كبار رجال الحاشية والبلاط السلطاني وكبار الموظفين الاداريين ، وفيها يتبين شيئا كثيرا عن طبيعة وظائفهم وكيف كانوا يقومون بتأديتها ومن بين تلك الوثائق أيضا مجموعة نفيسة في تقليد كل من هؤلاء الموظفين وظائفهم ، وقد أورد القلقشندي في " صبح الاعشى " بعض الوثائق نقلا عن ابن فضل الله العمري ، وبذلك نكون قد اعتمدنا على المصدر الاصلي فيما يتعلق بتلك الوثائق التي افادتنا في بيان قيمة الوظائف المختلفة في ذلك العصر ، ومن هنا يتضح قيمة هذا الكتاب اما مصادره ، فقد اعتمد العمري في هذا الكتاب على الوثائق الرسمية وعلى معرفته المباشرة بمعظم الوثائق . (٤)

---

١ . دمشق في نظر المغاربة ، ص ٢١٨ ، دمشق في عهد المماليك ، ص ٢١٨ .

٢ . تاريخ سوريا ، ص ٢٩٥ .

٣ . الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤١٠ .

٤ . الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤١٠ - ٤١١ .

وأفادنا الكتاب بوصف نيابة دمشق ، وبيان وضعها الاداري ، كما افادنا بمعلومات اقتصادية واجتماعية دقيقة خاصة فيما يتعلق بنواب دمشق وقضاتها وأمرائها وأطبائهـــــا وموظفيهـــا وواجبات كل واحد منهم ، كما أفادنا بمعلومات عن الطرق البريدية وطـرق الحمـام في دمشق .

أما كتابه الآخر المعروف باسم " مسالك الابصار في ممالك الامصار " يقع فـي ٢٧ جزءاً (١) وهو مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية تحت رقم ٢٥٦٨ ، وقد قام احمـد زكي بنشر الجزء الاول من هذا المخطوط فصححه ووضع حواشي مفيدة لما ورد فيه مـن المعلومات (٢) ، ويعتبر هذا المخطوط دائرة معارف تاريخية جغرافية ادبية وفائدتـه مهمة في موضوع الوظائف الادارية الكبرى في دولة المماليك ، والاستشهاد ببعض الحوادث التي وقعت في هذا العصر ، وذلك لدعم الحقائق التي وردت عن بعض انظمة الحكم (٣) .
أفادنا الجزء الاول المنشور بمعلومات جغرافية واقتصادية واجتماعية وعمرانيـة تتعلق بدمشق في تلك الفترة .

٢ . شهاب الدين ابو العباس احمد بن علي القلقشندى (ت ٨٢١هـ /

---

١ . الأدب الجغرافي ، ج ١ ص ٤١١ .
٢ . العمرى ، شهاب الدين ، " مسالك الابصار في ممالك الامصار " ج ١ ، حققه احمد زكي باشـا ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م ، سيشـار اليـه " مسالك الابصـار " .
٣ . عبد اللطيف حمزة ، " الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي والمملوكي الاول " ، القاهـــرة ، ١٩٤٧ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٧ ، تـاريـخ المماليـك البحريـة ، ص ١٧ .

١٤١٨م) (١) ، أحد كبار الكتاب في العصر المملوكي ، تولى منصب ديوان الانشاء بمصر وأرخ لهذا الديوان ، وذكر كل ما يتعلق به من وظائف واحكام في موسوعته المعروفة باسم "صبح الاعشى في صناعة الانشاء" وفرغ من تأليفه عام ٨١٤هـ، ويقع الكتاب في ١٤ جزءاً / وهو دائرة معارف مهنية عن كل ما يفيد الكاتب اى كاتب الدواوين. وقد كتب القلقشندى في هذا الكتاب عن ديوان الانشاء وأفاض القول في الادوار التي مر بها هذا الديوان من عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى دولة المماليك ، من حيث العناية بأمره وبيان الصفات التي يجب ان تتوافر في صاحب هذا الديوان الذى أطلق عليه في عصر المماليك "كاتب السر" ، والمهام التي كان يضطلع بها ، كما تكلم عن معاونيه ، وللقلقشندى فضل عظيم في توضيح اختصاصات موظفي البلاط السلطاني والحاشية السلطانية والموظفين الاداريين في دولة المماليك بوجه عام ، حيث يلخص في هذا الكتاب جميع المعارف التي يحتاج اليها الكاتب المثالي ابتداء من التوجيهات الفنية بالكلام على المداد والقلم والورق والخط الى المعطيات الواسعة في نطاق الجغرافيا والتاريخ والادب والبلاغة وهو يقدم وصفا لبلاد الشام ومصر ، ولجميع الدول التي لها علاقة بمصر وقد ركز على نظامها السياسي والادارى ووضح الاسس التي كان يقوم عليها نشاط الدواوين ويفرد عددا من أجزائه لكتابة نماذج من الكتابات الدبلوماسية وقرارات تعيين الممثلين الرسميين وللوثائق الحكومية الرسمية من كل صنف ، ولا يكتفي القلقشندى بايرادها في صيغتها الكتابية الخاصة فحسب، بل يعرض نماذج من الوثائق الاصلية الموجودة بالمخفوظات مما يجعل كتابه مصدرا أساسيا بالنسبة للتاريخ والادارة

---

١ ، للمزيد من المعلومات عن القلقشندى راجع : القلقشندى ، ابو العباس احمد ، "صبح الاعشى في صناعة الانشاء" ، ١٤ج ، نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ج١٤ ، ص ١٨-٢٠ ، سيشار اليه "صبح الاعشى"، شذرات الذهب ، ج٧ ، ص ١٤٩ ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٨ ، معجم المؤلفين ، ج١ ، ص ٣١٧ ، الأدب الجغرافي ، ج١ ، ص ٤١٥ ، دمشق في نظر المغاربة ، ص ٢٨١ .

والحياة الاجتماعية للعالم الاسلامي والاقطار المتعلقة به في اوائل القرن الخامس عشر الميلادى (١) ، وبالنسبة لمصادره فان القلقشندى يشير اليها بدقة ومن بين هذه المصادر : ابن خرداذبة (تحوالي ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣م) و الهمداني (ت٣٣٤هـ/٩٤٥م) والمسعودى (ت٣٤٥هـ/٩٥٦م) وابن حوقل (تق٤هـ/ق١٠م) والمهلبي (تق٤هـ/ق١٠م) والبكري (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) وياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) والادريسي (ت٥٦٠هـ/١٢٥٢م) وابن سعيد (ت٦٧٣هـ/١٢٧٤م) وابو الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) وابن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) الذى يحتل المكانة الاولى من بين هذه المصادر (٢) .

أفادنا الكتاب معلومات جغرافية وسياسية واجتماعية واقتصادية وادارية وعلمية كثيرة عن دمشق ،كما أفادنا بمعلومات عن المراسيم المملوكية الصادرة لنواب المماليك وقضاتها وعلمائها وموظفيها في دمشق وغيرها من الممالك الاسلامية ،كما ورد فيه تفاسير لكثير من المصطلحات والتعريفات الادارية والعلمية والاقتصادية التي استعملت في كافة الممالك الاسلامية ومن ضمنها دمشق .

٣ . تقي الدين ابو العباس احمد بن علي الشافعي المقريزى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) وموسوعته " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " ،وهو خاص بمصر ،تناول فيه المدن والآثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق، وعني عناية خاصة بالفسطاط والقاهرة (٣)

أما مصادر معلوماته فقد استقاها من ثلاثة اتجاهات ،اما الاتجاه الاول فكان عن طريق النقل من الكتب المصنفة في العلوم والاتجاه الثاني عمن ادرك من شيوخ العلم

---

١ . الأدب الجغرافي ،ج ١ ،ص ٤١٦-٤١٧ .

٢ . الأدب الجغرافي ،ج ١ ،ص ٤٢٠ ، عياد ،كامل ، " المؤرخ ابو الفداء ونزعته العلمية" ، المعرفة ،العدد ١٥٤ ،دمشق ،كانون الاول ،١٩٧٤ ،ص ٧٧ ،ابراهيم مصطفى الحاج ، " الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء " ،المعرفة ،العدد ١٥٤ ،دمشق ،كانون الاول ،١٩٧٤ ،ص ١٣٥ .

٣ . المؤرخون في مصر ،ص ١٢ ،معجم المطبوعات ،ص ١٧٨ .

وجبلة الناس، والاتجاه الثالث عن طريق المشاهدة . (١)

ومع ذلك فقد اهتم المقريزي بالاسناد ،فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصفا الا أسنده الى مصدره ومؤلفه ،ومن بين الاسماء التي يذكرها ،الكندي (ت ٣٥٠هـ/ ٨٦٤م) وابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ/ ٨٨٨م) والمسعودي (ت ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) ، وابن زولاق (ت ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) ،والقاضي الفاضل (ت ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م) ،وابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) وابن المتوج (ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) (٢) .

كما انه نقل عن الاوحدي دون ان يشير اليه او يعترف باخذه منه (٣) .

أفادنا هذا الكتاب معلومات عن عناية السلاطين بمالكيهم وتربيتهم لهم ، ومعلومات عن الحياة العائلية لطبقة المماليك والثروة التي تمتع بها السلاطين والامراء ، ومعلومات عن الاقطاع ،وأسباب تدهور الجيش المملوكي ومكانة العلماء في المجتمع ومصدر ثروتهم ،كما أفادنا معلومات عن دور الزعران في الحياة الاجتماعية والقيود المفروضة على النصارى واليهود ،كما أفادنا معلومات لتراجم أعيان دمشق من علماء وعالمات، وعن بيوت الصوفية وعن وسائل التسلية ،وعن الاحتفالات القومية .

---

١. المقريزي ،تقي الدين ابو العباس احمد بن علي ، " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" ٣ج ،ط ٢ ،بولاق ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م ،ج ١ ،ص٦ ،سيشار اليه " الخطط " .

٢. الأدب الجغرافي ،ج ٢ ،ص ٤٨٣ ،ص ٤٨٦ ،مصر الاسلامية ،ص ٥٤-٥٥ .

٣. المؤرخون في مصر ،ص ١٠ .

" الرحـــــلات "

١ . أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطـة (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) (١) ولد في طنجة ، أنساق بحبه الأسفار الى التجوال في بلدان العالم المعروف في أيامــه ، فطاف مصر وسوريا وجزيرة العرب وأفريقيـة الشرقية وآسيا الصغرى وروسيا الجنوبيــة والهند والصين والأندلس والسودان ورحلاتـه ثلاث استغرقت كلها زهاء تسع وعشرين سنة ، أطولها السفرة الاولى التي لم يترك فيها ناحية من نواحي المغرب والمشرق الآ زارهــا وقد سمّى مجموعة أسفاره " تحفـة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار "، ولكنهـا تعرف اليوم " برحلـة ابن بطوطـة "، وقصـة رحلاتـه من أطرف القصص وأجزلها نفعا لمـا فيها من وصف للعادات والاخلاق ولما فيها من فوائد تاريخية وجغرافية ومن ضبــط لاسماء الرجال والنساء والمدن والاماكـن . (٢)

ولم يعتني ابن بطوطـة في رحلته الى سوريا بالترتيب الذى سار عليــه وانمــا روى ما تذكر حيث اعتمد ابن بطوطـة في هذا الكتاب على ذاكرتــه (٣) . ولكن شيئــا من التنظيم يعود الى روايتــه في طريق الحاج الشامي وفي انتقالـه من الحجـــاز الـى العــراق . (٤)

وقد أفادنـا الكتاب بمعلومات عن بعض المآثر العمرانية التي وصفها في دمشـــق حيث ترك لنا وصفا مطولا للجامع الأموى ، مع انه نقل بعض ما قالـه عن ابن جبير، فقـــد أضاف بضع انطباعات شخصية ، ووصف لنا أزقة دمشق وأرصفتها وأوقافهـا ، كما كـــان متأثرا بما قالـه ابن جبير عن أسواق دمشق ولم يضف شيئا آخر ، كذلك كانت الضواحـي

---

١ . راجع عنـه : بروكلمان ، كارل ، " ابن بطوطة"، " دائرة المعارف الاسلامية "، ج ١ ، ص ٩٩-١٠١ ،
Miquel, 'Ibn Battuta', E.I. Vol, III, P.736.
الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٤٢١ .

٢ . رحلـة ابن بطوطـة ، ص ٥ - ٧

٣ . الأدب الجغرافــي ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

٤ . روّاد الشـرق ، ص ٧٦-٧٨ .

موضع عناية ابن بطوطة فهو يشير الى الضواحي التي زارها ابن جبير وهي النيرب والمزّة وقاسيون ثم يضيف الى ذلك وصفا للربوه والصالحية ،كذلك وصف لنا ابن جبير المدارس في دمشق واوقافها ،وعن الصوفية ،وعن المنشآت الاجتماعية الخاصة بالمسافرين والمستشفيات .

٢ . شهاب الدين ابن الجيعان (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) ،ومن بين الرحلات التي وصلت الينا من أيام المماليك رحلة رسمية قام بها الملك الاشرف قاتيباى (١) (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) في سوريا سنة (٨٨٢هـ/١٤٧٨م) وكانت شمال سوريا آنئذ معرضة للخطر العثماني بعد ان استقر العثمانيون في شبه جزيرة آسيا الصغرى كلها ،فأراد السلطان ان يشرف بنفسه على حصون البلاد (٢) وقلاعها وطرقها وجسورها فقام بهذه الرحلة ومرّ بطريقه بالصالحية والعريش وغزة وقاقون والناصرة وصفد وبعلبك وطرابلس واللاذقية وانطاكية وبغراس وعينتاب وديار بكر ووصل قلعة المسلمين ،ثم عاد من ديار بكر بطريق حلب وسرمين وحماه وحمص والنبك ودمشق وسعسع وجسر بنات يعقوب وخان مينة وقاقون . ومن هنا أتبع نفس الطريق التي جاءها الى القاهرة ، وأصاب السلطان مرض شديد أيام اقامته بدمشق . وقد أهتم فضلا عن التفتيش على القلاع والجسور واصلاح ما تهدم منها ،بمقابلة الحكام والامراء المحليين فقد كان يدعوهم اليه ويبحث معهم شؤون المناطق التي يحكمونها حيث عقد مثل هذه المؤتمرات في بغراس وعزاز وحمص ودمشق (٣) وكانت الموارد المالية للدولة ضمن ما تحدثوا به لان هذه

---

١ .كان قايبتاى محبا للأسفار ،راجع :

Muir, William, ' The Mameluke or Slave Dynasty Of Egypt Amesterdam' 1968, The Mameluke or Slave سيشار اليه

٢ .ابن الجيعان ،شهاب الدين ، " القول المستظرف في رحلة مولانا الأشرف"، (النسخة ملك الدكتور عدنان البخيت) ص١٣ ،سيشار اليه " القول المستظرف ".

٣ .القول المستظرف ،ص ١٢-١٣ .

كانت مشكلة رئيسية في عهد قايتباى ،كما كانت في عهد أكثر المماليك وألفى قايتباى الاحتكار والضريبة الملازمة له في كل من طرابلس ودمشق . (١)

وقد كتب رحلة قايتباى ابن الجيعان وهو احد الذين رافقوا السلطان (٢) ، وسماها " القول المستظرف في رحلة مولانا الأشرف " ،وقد قال ابن الجيعان انه أراد ان يدّون هذه الرحلة لانها منقطعة النظير لكن البعض يرى ان الرحلة كتبت بناء على طلب الأشرف نفسه بتشجيع منه ولعله قصد منها الدعاية للملك (٣).

وقد أفدنا من هذه الدراسة معلومات عن صناعة المواد الغذائية ،وصناعة الزيت والخمور في دمشق ،كذلك أفدنا معلومات عن مزروعات غوطة دمشق .

ومن الكتب التي كتبت في هذا العهد بحيث يجب عدم اهمالها أذ زودتنا بمعلومات عن دمشق ومؤلفات الحجاج النصارى الذين مروا بها أثناء توجههم لأداء فريضة الحج ،وتكمن قيمة هذه المصادر في انها زودتنا بمعلومات غير موجودة في المصادر العربية ومن بين هؤلاء الحجاج :-

١ . يوحنا موندفيل John Maunde Ville الذى بدأ رحلته عام (٧٧٢هـ/ ١٣٢٢م) ،وتعرف رحلته باسم :

" The Voiage and Travaile of Sir John Mounde Ville"

وهو من أظرف رحالي القرن الرابع عشر ،ويعّرفنا يوحنا بنفسه بقوله : " انا يوحنا مندفيل الفارس ،المولود في انكلترا ،ركبت البحر في سنة ١٣٢٢ في يوم القديس ميخائيل .. وزرت بلاد مختلفة . . وجزرا كثيرة ،واجتزت بلاد التتار وفارس وارمينيا وآسيا الصغرى ، والعراق . . وجزءاكبيرا من أثيوبيا ،واما زوينا والهند الكبرى والصغرى وجزرا كثيرة حول الهند حيث تقطن شعوب متباينة القوانين والعادات والاشكال البشرية (٤)

---

١ . القول المستظرف ،ص ٩ ، ٢٧ .

٢ . الأدب الجغرافي ،ج ٢ ،ص ٤٧٥ .

٣ . روّاد الشرق ،ص ٧٨-٨٠ .

٤ . Mandevile ,John(CO.1350 A.D,)" The Voiage and Travaile Of Sir John Mandevile" .A.D 1322-1346) London 1839.P.129.

سيشار اليه 'The Voiage and Travaile'

أما أسفار يوحنا ومداها فقد شغلت الكتاب اكثر من أسمه وأصله ذلك ان الاساطير التي يحويها الكتاب واجيال الناس الذى يزعم إنه رآها ليس لها وجود ، وهناك حقيقتين هامتين ، الاولى : ان يوحنا وصل الشرق العربي في سياحاته ، ووصف سوريا ومصر وجزءًا من العراق وصف من رأى وسمع . والثانية : انه نقل من مصادر مختلفة اخبارا وقصصا متنوعة حشاها في كتابه ، ونحن نستطيع ان نعتمد الصور التي اعطانا اياها عن الشرق الى درجة كبيرة ونستطيع ان نضم المؤلف الى الدعاة الذين حاولوا ايقاظ اوروبا لاعداد حملة صليبية لاسترجاع الأرض المقدسة ومن ثم نالت فلسطين من عنايته الحظ الأوفى (١).

وأفادنا الكتاب معلومات عن سكان دمشق .

٢ . ليونارد و فرسكوبالدى Lionardo Di Nicolo Frescobaldi

كان بين السياح الايطاليين الذين زاروا الشرق الادنى في القرن الرابع عشر ليونارد و فرسكوبالدى الفلورنسي ، الذى قام بالحج الى بيت المقدس عام ١٣٨٤ م ، بدأ رحلته مع جماعة من الفرنسيين والبنادقة من البندقية فاتجهوا الى الاسكندرية حيث حلّ ضيفا في فندق كونتاديني البندقي ، وهناك لقي تجارا من ايطاليا وفرنسا وقطالونيا غيرها ، وانتقل ليونارد و مع صحبه الى القاهرة على سفينة نهرية متبعين في طريقهم ترعة الاسكندرية ثم رياح رشيد من النيل وثم النيل نفسه ومن القاهرة سافر مع قافلة الى سيناء وعرج على دير القديسة كاترينا ثم رحل الى فلسطين واخيرا الى بيروت عائدا الى البندقية بطريق قبرص وكريت (٢) وقد سجل معلوماته في كتاب

" Visit to the Holy Places "

وقد أفادنا الكتاب معلومات عن دمشق وضواحيها وعدد سكانها وعن حدائق دمشق وفواكهها ، وعن القلعة والاسوار والخنادق والجنود .

كما أفادنا معلومات عن معاملة النصارى ووصف المنازل والاسواق والشوارع والباعة واصحاب الحرف ، وأصناف المآكل والفواكه وبائعي الاطعمة ، كما أفادنا معلومات عن

---

١ . روّاد الشرق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

٢ . روّاد الشرق ، ص ١١١ .

المتاجر والصناعات والبضائع المعروضة في اسواق دمشق كما يصف لنا بعض انواع العقوبات .

٣. دى لا بروكيير Bertrandon dela Brocquire

حيث نشرت رحلته تحت عنوان :-

" The Travels of Bertrandon de la Brocquire "

زار بروكيير مدينة دمشق عام(٨٣٦هـ/١٤٣٢م) ،أفدنا الكتاب بمعلومات عن وصفه لمدينة دمشق ،وقلعتها وعدد سكانها ،وأسواقها ،وتجارها وصناعاتها المعدنية ،ونظام الطعام في الطرقات والشوارع كذلك افادنا بمعلومات عن المعاملة التي كان يلقاها الحجاج النصارى أثناء توجههم لزيارة الأديرة في دمشق .

الفصـل الأول

وصف مدينة دمشق في زمن المماليك

١. مقدمة
٢. الأسوار
٣. القلعة
٤. الميادين والجامع الأموي
٥. الشوارع
٦. الأسواق
٧. الحوانيت
٨. الحارات
٩. الضواحي
١٠. المقابر

١ . مقدمـــــة :-

فاقت مدينة دمشق في العهد المملوكي مثيلاتها من المدن في أوروبا والعالـم الاسلامي من حيث أزدهارها وكثرة سكانها . وقد أطنب الرحالة الذين زاروا دمشـق في ذلك العهد في وصف المدينة والحياة فيها سواء أكان هؤلاء الرحالة مسلمـين أو غير مسلمين . حيث أن هناك فئة من الرحّالة الأوروبيّين مثل نيكولو البوغبونصي ، وليونارد و فرسكوبالدى ، وجورجوغوتشي ، وسيمون سيولي ، الذين زاروا الأراضي المقدسة في القرنين السابع والثامن هجرية / الثالث والرابع عشر ميلادية ، أو مثل برترانسـدون دولا بروكيـه ، وسيمون سيولـي ، جميع هؤلاء قادتهم أسفارهم الى مدينة دمشق وتركـوا لنا روايات كثيرة تعطينا صورة جميلة وواضحـة لمدينة دمشق بأسواقها ومتاجرهـا ومتنزهاتهـا .

ويقول نيكولوالبوغبونصي : أنّ مدينـة دمشق على درجة عظيمـة من الكبر بحيث لا يمكن مقارنتها بأى من المدن الاخرى ، ويكفي شاهدا على ذلك قول بعض الرحّالـة الفرنسيين بأن مدينة دمشق تحتوى عددا كبيرا من الناس يفوق عدد الذين فـي باريس (١) . أما ليونارد و فرسكوبالدى وجورجوغوتشي وسيمون سيولي الذيـن زاروا مدينة دمشق عام (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) ، فقد قالوا : أن مدينة دمشق قديمة وضخمـة ولها ضواحي عديدة بها عدد كبير من السكان اكثر من عدد اولئك الذين يعيشـون فـي المدينة نفسها ، ومع أن عشرين ألفا قد يغادرون دمشق لأداء فريضـة الحج . فلـم يبد على المدينة كأن أحدا تركها ، وأن عدد سكانها يبلـغ ثلاثـة أضعـاف فلـورنسـا (٢) .

---

١ . Niccolo of Poggobonsi ,'Avoyage Beyond the Seas ' , P. 77 , سيشار اليه Jerusalem, (1945), ' Avoyage Beyond the Seas' .

٢ . Frescabaldi, Leonardo and others, ' Visit to the Holy Places of Egypt , Sinai , Palestine and Syria in A.D, P. 143 , Jerusalem , (1948). 'Visit to the Holy Places'. سيشار اليـه

أمّا الرحالة بروتراندون دولا بروكية الذى زار دمشق عام (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) فقال "وتحتوى دمشق على ما بلغني مئة ألف نسمة . وهي غنيّة ومركز كبير للاتجار . وأهم مدينة في السلطنة بعد القاهرة (١) .

لقد استطاع الرحّالة أن يعطونا صورة حيّة لمدينة دمشق في عصر المماليك ، وسنتتبع وصف هؤلاء الرحّالة لمعالم المدينة البارزة أبتداء من أسوارها ،ثم قلعتها وشوارعها ،أسواقها ،حوانيتها ،ضواحيها ،مقابرها (٢) بالترتيب .

٢ . الأسوار :-

لمّا زار جورج غوتشي مدينة دمشق عام (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) ،قال أن مدينة دمشق والجزء المحاط بالأسوار منها تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة فلورنسه (٣)، ومدينة دمشق حصينة جدا بأسوارها وخنادقها حيث يدور بها سوران ،الأول يبلغ أرتفاعة نحو ٣٠ ذراعا ،وهو خارج الخندق ،والثاني يبعد عن الأول بين ١٥-١٦ ذراعا ويزيد أرتفاعه عشرة أذرع عن السور الاول ،والسوران محصنان ،أذ تقوم عليهما كثير من الابراج أعلى من السورين ،ويوجد حول السورين خندقان داخلي وخارجي (٤) .

٣ . القلعة :-

لقد تركت قلعة دمشق أثرا كبيرا في نفوس الرّحالة الأوروبيين ،ففي أواسط

---

١ . Brocquiere ,Bertrandon de la , " The Travels of Bertrandon de la Brocqiere " (ed . by Th. Wright) London , 1948.P.77. سيشار اليه " The Travels of Bertrandon "

٢ . أنظر مخطط مدينة دمشق في الرسم رقم (١) و (٢) في الملحق من هذه الرسالة .

٣ . Visit to the Holy Places , P. 142.

٤ . Visit to the Holy Places , P. 142, 181.

القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى كتب نيكولا البوغيبونصي يقول : "وفي طرق المدينة تقع قلعة على نهر (خندق) ويقوم أعوان السلطان على حراستها (١) . ولما زار الرّحالة جورج غوتشي مدينة دمشق بعد ذلك بقليل عام (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) . قال في وصف القلعة : يوجد في مدينة دمشق قلعة لها أسوار وخنادق ، ويبلغ محيطها نحو الميل ، ولا يقيم فيها الآ حملة السلاح الذين يدافعون عن المدينة والبلاد باسم السلطان ، ولا يسمح لأى شخص آخر بدخولها ، ومنازلها متسعة بحيث يمكن أن يأوى اليها نحو عشرين ألفا من رجال الحرب مع خيولهم (٢) .

وقد زار مدينة دمشق بعد حملة تيمورلنك ، برتداندون دولا بروكيه فقال عنها : لدمشق قلعة حصينة ، تقع في مواجهة الجبل ، تحيط بها خنادق عريضة عميقة ، يشرف عليها نائب من ثقات السلطان ، ولا يسمح لوالي دمشق بدخولها . وقد دمرها تيمورلنك عام (٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م) ، بحيث سوّى بها الارض، ولا تزال آثار هذه النكبة ظاهرة للعيان (٣) وقد كان بين الرحالة الذين زاروا دمشق عام (٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م) ، قبل سقوط دولة المماليك ، لودفيكودى فارتما البولوني ـ نسبة الى بولونيا الذى أبدى اعجابه بالقلعة فقال عنها : يتحتم عليك أن تعرف أن في مدينة دمشق قلعة حصينة جميلة . . . يضاف الى ذلك أنه في كل زاوية من زوايا القلعة المذكورة يوجد رنك (٤) فلورنسي محفور بالرخام . والقلعة محاطة بخنادق ولها أربعة أبراج

---

١. <u>Avoyage Beyond the Seas</u> , P. 77.

٢. <u>Visit to the Holy Places</u>, P. 182.

٣. <u>The Travels of Bertrandon</u> ,P. 204.

٤. الرنْك : جمعه رنوك ، وهو الشمار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير سلطان له . ويقول القلقشندى : "ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه . . . . بحسب ما يختاره ويؤثره ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم كمطابخ السكر وشؤون الغلال والاملاك والمراكب وغير ذلك". "صبح الأعشى" ، ج٤، ص ٦١ - ٦٢ .

متينة التحصين وجسور متحركة وتعلو هذه الابراج دوما مدافع قوية ممتازة وهناك خمسون مملوكا من خدم السلطان ، يقيمون مع والي القلعة باستمرار (١).

وكان البدرى الذى عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وهو مصرى سكن دمشق ، وكان كبير العناية بمراقبة الحصون ، قد كتب قبل لودفيكو بقليل ، يقول : ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها ، وبها حمّام وطاحونة وبعض حوانيت لبيع البضائع . وبها دار الضرب التي تضرب بها النقود ، وبها الدور والحواصل ، وبها الطارمة (٢) التي ليس على وجه الارض أحسن منها كأنها كلّما أفرغت بقالب من شمع ينظر الرائي أعلاها فيحسن نظره وان طال مرآه . وهي تسامت رؤوس الجبال . يقال أن تيمورلنك لما حاصرها وعجز عنها أمر أن تقطع الاشجار وتعلق بها حتى اذا انتهى تعليقها أطلق النار فيما تحتها من الاخشاب ، وظنّ أنها تفسخ بذلك ، وتسقط شذر مذر فيبلغ مراده من أخذ القلعة . فلما عمت النار فيما تحتها بركت بصوت أزعج الوجود . وبالقلعة آبار ومجار للماء ومصاريف بحيث أذا وقع الحصار وقطع عنهم الماء تقوم الآبار مقامه . وفي زمن الظاهر بيبرس (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) جدّد القلعة وشيّدها ، ورمّم ما هدمه التتار ، ثم جدّدت زمن نائب السلطنة علم الدين سنجر عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) أيام الاشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) ، ثم جدّدت أيام الملك الناصر بن قلاوون (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) . (٣)

---

١. Ludvicodi Varthema , The Itinerary of Ludvicodi Varthema London , 1928 ,P. 8-11.

٢. الطارمة : جمع طارمات ، بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان ، سعيد عاشور ، " العصر المماليكي في مصر والشام " ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٥م ، ص ٤٣١ ، سيشار اليه " العصر المماليكي " .

٣. البدرى ، "نزهة الانام في محاسن الشام" ، القاهرة ، ١٣٤١هـ ، ص ٦٠ ، سيشار اليه "نزهة الانام".

٤ . الميادين والجامع الأموى :-

وكان من بين المباني الرسمية التي حفلت بها مدينة دمشق قصر بيبرس(١)، ودار العدل وميادين كثيرة التي كان ابعدها شهرة الميدان الاخضر وميدان الحص ، وكانت مواكب نائب السلطنة والاستعراضات الحربية تقام في هذا الميدان ،كما كان السلطان يلعب الصولجان فيه أو يتمتع بمشاهدة سباق الخيل (٢) .

ويذكر الظاهرى أن الميدان الاخضر وما به من القصور الحسنة عجيبة من عجائب الدنيا (٣) . أما ميدان تحت القلعة فما كان أكثر ما يرده من المهرجين والمشعوذين والقصّاصين ،وخاصة في ليالي الصيف . وهو من أبدع المناظر . ويخرج أبناء السلطان اليه في كل ليلة للرماية والمسابقة واللعب بالصولجة (٤) .

وكان الى الجنوب من مدينة دمشق ميدان آخر ،على مقربة من حيّ الميدان اليوم، يزخر بالناس مرتين في العام ،عند مغادرة موكب الحجاج وعند عودتهم ،ولم يغفل الرّحالة عن تسجيل وصفهم لهذه المناسبة الخاصة وسيرد ذكر ذلك عند حديثنا عن الاحتفالات الدينية . وأما المكان الذى لم يكن يعلو عليه مكان في دمشق ،ولا يزال كذلك الى يومنا هذا ،فهو الجامع الأموى الكبير ،ولعل ذلك يعود الى أنه لم يكن استعماله مقصورا على فئة دون أخرى ،بل كان مفتوحا لجميع المسلمين ويقول عنه ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) : أن الجامع الاموى أعظم مساجد الدنيا احتفالا ،

---

١ . النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص ١٩٥-١٩٦ سنتحدث عن قصر بيبرس في الفصل الخاص بالقصور والمنازل .

٢ . ابن جبير، ابو الحسن محمد ،رحلة ابن جبير ،بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٥٩، ص ٢٦٣-٢٦٥ ،سيشار اليه "رحلة ابن جبير" ،سنتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بوسائل التسلية والمرح .

٣ . الظاهرى ،غرس الدين خليل بن شاهين ،زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، تصحيح بولس اديس، باريس، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤م، ص ٤٥ ،سيشار اليه " زبدة كشف الممالك ".

٤ . رحلة ابن بطوطة ،ص ٢١٠ .

وأتقنها صناعة ،وأبدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه .

وسنتحدث عنه أكثر في الفصل الخاص بالمؤسسات الاجتماعية .

٥ . الشوارع :-

كان تخطيط الشوارع والطرقات وبناء المنازل وغيرها من المنشآت في مدينة دمشق لا يخضع لنظام أو قانون ،لذلك أمتازت مدينة دمشق بكثرة منازلها ،وضيق دروبها وطرقاتها ،وعدم استقامة شوارعها . ، واكتظاظها بالمارة والسوقة والدواب بحيث أن شوارع دمشق مكتظة دائما ،وكان لأهل دمشق ترتيب جميل لحراسة الشوارع التي فيها التجار والصنّاع ليلا ،أن أكثر شوارع دمشق مسقوفة أو معقودة ويتخللها النور بالقدر اللازم من فتحات في السقف ،وأذا جن الليل أوقدوا المصابيح الزجاجية في الشوارع كلها بحيث يكون بين المصباح والآخر أثنا عشر ذراعا ،فترى ليلا وكأنها في وضح النهار . بسبب المصابيح الكثيرة التي توقد ،وكان عدد المصابيح التي توقد كل ليلة يبلغ نحو ثلاثين ألف مصباح .

وكان في كل شارع حرّاس يقومون على حراسة الحوانيت ،ولم يكن أحد يجرؤ على الخروج ليلا اذا لم يكن معه قنديل . فاذا عثر على شخص دون أن يكون معه قنديل قبض عليه وفرضت عليه غرامة معينة ،ولم يكن يسمح لأي من المسيحيين من التجوال داخل هذه الشوارع ليلا سواء كان يحمل مصباحا أم لا ،واذا ما ألقي القبض على أحد المسيحيين كان يعاقب على ذلك . (١)

ومع ضيق طرق وشوارع دمشق ،لم ينقطع منها الضجيج حيث أنتشر فيها الباعة المتجولون ،"لا سيما أصحاب الطبليات والدكك المستديمة" حتى ضيّقوا الطريق على المارة ،هذا فضلا عن أصحاب الحرف الصغيرة (٢) .

---

١. Visit to the Holy Places , P. 183.

٢. Visit to the Holy Places,P143.

وفي شوارع دمشق تباع جميع المآكل كالخبز والماء واللحم المطهو على اختلاف أنواعه، وكل أصناف الفواكه، ويقوم في اماكن كثيرة في طول المدينة وعرضها طهاة أمامهم اللحوم المتنوعة، يطهون كل شيء، ويتنقلون في أنحاء المدينة يبيعون ما عندهم، حاملين متاعهم من موقد ومقلاة يغلي ما فيها ولحم ووعاء وصاء وطبخ وكل ما هو لازم، على موائد لكل منها أربع أرجل يركزها الواحد على رأسه، أما الزبائن فيجلسون على صفات الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر، ويشربون الماء القراح والخشاف (١).

وكان سقاة الماء في الشوارع يحملون الماء في الكيزان والقرب والدلاء، أما سقاة الماء في الكيزان فكانوا يؤمرون بنظافة (أزيارهم) وتغطيتها، وافتقادها بالغسل بعد كل قليل من الوسخ المتجمع فيها "وتغسلوا الكيزان ويجلوها بشقفها وبالاشنان في كل يوم ويبخروها فانها تتغير من أفمام الناس ونكهتهم". ولا يملؤا الكوز الى فوق شباكه ولا يخلطوا مع ماء البحر غيره من المياه المالحة. وليكن الكوز متوسطا بين الكبير والصغير وشباكه متوسطا بين الضيق والاتساع. ويجب أن تكون الكيزان معلقة ليضربها الهواء فتبرد ويسقى كل الناس من الكيزان التي تليق بهم. وأن وقف عنده رجل رئيس أو كبير ناوله كوزا جديدا لم يشرب فيه أحد مثله، ويجب ان يتخذ للازيار أغطية من حوض مصلبة بجريد، ولا يدخل أحد يده في الزير وهي زفرة، ويجتهد بنظافة حانوته وبدنه وثيابه، أما أرباب الروايا والقرب والدلاء فكان يعين عليهم رجلا أمينا يمنعهم أن يستعملوا شيئا من الالات الحافظة للمياة التي هي مادة الحياة الا من الجلود المدبوغة "بالقرظ اليماني التي قد استحكم دباغها وطال مكثها. ولا تعمل من جلد بغل ولا جموس ولا درن ولا تعمل من نطع ولا سلفة ولا بطانه من جلود الروايا المستعملة ولا تعمل قربة الا من أديم مصرى أو سلفة يمانية (٢)

---

١. Visit to the Holy Places, P. 143.

٢. ابن الاخوة، محمد بن محمد بن أحمد، معالم القربة في احكام الحسبة"، تصحيح روبن لوى، كمبرج، مطبعة دار الفنون، ١٩٣٧، ص ١٥٢-١٥٣، سيشار اليه "معالم القربة".

وتمتاز شوارع دمشق أيضا بكثرة الدواب ، فالخيول المطهمة يركب بها المماليك ويركضون بها وسط الدروب والاسواق المزدحمة وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليفسحوا لهم ، غير مبالين أذا سقط بعض المارة تحت حوافر خيولهم ، بالاضافة الى ذلك كانت الجمال التي تحمل الجليد ليباع داخل أسواق دمشق في شهرى نيسان وحزيران (١) ، والجمال المديدة التي تحمل القرب ويطوف بها السقاؤن على المنازل والاسواق لامدادها بما تحتاج اليه من الماء ، وكان أعوان المحتسب يتبعون هذه الطرقات ويمنعون من المضايقة فيها ، ويلزمون الحمالين على البهائم أن لا يحملوا أكثر من حد السلامة (٢) وكان يتجول في شوارع دمشق أيضا شخص يسمى المنادى على الاشياء الضائعة (٣) .

وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة ما فيها من مارة ودواب الى أن شدّد المحتسب على أصحاب الدواب بأن " يشدّوا في أعناق دوابهم الاجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلموا لجلبّة الدّابة أذا عبرت في السوق فيحذر منها الضرير والغافل والصبيان وكذلك يفعل المكاريـة والتراسين وحمالين الحطب ومزابل الطين وغيرهم . . . (٤) .

" وكذلك كان على أحمال الحطب واعدال التبن وروايا الماء وشرائج السرجين

---

١. Avoyage Beyond the Seas ,P. 78.

٢ . ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن ، " تاريخ ابن الفرات "، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ، بيروت ، منشورات كلية العلوم والآداب، ١٩٣٦-١٩٤٤، ج ٧ ، ص ٧٦ ، سيشار اليه " تاريخ ابن الفرات " .

٣ . الذيل على الروضتين ، ص ٣٢٠ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣٠ .

٤ . معالم القربة ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

والروّاه وأشباه ذلك ألا يدخلوا الى الاسواق لما فيه الضرر بلباس الناس (١)، وكان المحتسب يحافظ على الطرقات ودروب المحلات، فلا يسمح لأحد أخراج جدار داره ولا دكانه الى المساحة المخصصة للطريق العام، وكذلك كل ما فية أذيّة وأضرار على السالكين كالمزاريب الظاهرة من الحيطان في زمن الشتاء ومجارى الاوساخ الخارجية من الدور في زمن الصيف الى وسط الطريق بل يأمر المحتسب أصحاب المزاريب ان يجعلوا عوضا عنها سيلا محفورا في الحائط يجرى فيه ماء السطح، وكل من كان في داره مخرج للوسخ في الطريق فانه يكلفه سدّه في فصل الصيف ويحفر في داره حفرة يجتمع اليها . (٢)

وقد أعتنى سلاطين المماليك بشوارع دمشق، وعملوا على تجميلها بكنس الشوارع ورشها بالمياه منعا لاثارة الاتربة . وذكر المقريزى أن الباعة كلفوا في ذلك العهد بكنس الشوارع ورشها (٣) . وأمر أرباب الحوانيت بأن تكون عند أبواب حوانيتهم أزيار مملوءة بالماء ليسهل اطفاء ما يقع من الحريق . (٤)

---

١ . الشيرزى، عبد الرحمن بن نصر، "نهاية الرتبة في طلب الحسبة الشريفة"، نشر الباز العريني، باشراف مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦م، ص ١١-١٣، سيشار اليه "نهاية الرتبة".

٢ . نهاية الرتبة، ص ١١-١٤ .

٣ . المقريزى، تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ج ١، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج ٢، ج ٣، ج ٤، قسم ١، ٢، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠-١٩٧٢، ج ٤، ص ٦٦٧، سيشار اليه "السلوك".

٤ . الخطط، ج ٣، ص ١٧٤ .

وأختص المشاعليه بأسرية البيوت والحمامات وخزاناتها فقاموا على تنظيفها بين حين وآخر مقابل أجر معيّن (١).

هذا فضلا عن عنايتهم بتطهير دمشق من الكلاب لأنها من الحيوانات المكروهة لنجاستها، فأمروا بامساكها من دمشق الى الفلاة وتشدد على الناس والبوابين بذلك (٢)

وكان على الزبالين ان يقوموا باصلاح مزابلهم، فان كثيرا منهم يحطون في مزابلهم الاوساخ والنجاسة مما قد يصيب أثواب الناس مما يسبب نجاستها واذا أراد الزبالون شراء خبزا أو شيء من المأكولات أن لا يمسوه بايديهم وايديهم وسخة حتى يغسلوها وأيضا لا يمكنوا من مسّ أواني السقايين الا ان يغسلوا ايديهم من النجاسة، فان ذلك ربما تقوم نفوس الناس منهم فيجبرهم المحتسب على فعل ذلك كله لما فيه مصلحة الناس (٣).

أما أزقة دمشق فقد كان لكل منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون وتمر المركبات بين ذلك، وكان في دمشق أوقاف لتعديل ورصف هذه الازقة (٤).

٦. الأسواق :-

وكانت أسواق دمشق ومتاجرها مدعاة لدخول السرور والمتعة الى نفوس زوارها، وقد تنبه بعض زوارها لا الى البضائع المعروضة فحسب بل الى تنظيم الصناعات والاسواق، وزودنا البعض الآخر بمعلومات عن تنظيم العمل في المدينة.

---

١. النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٤٨.
٢. أبناء الغمر، ج ١، ص ١٢٥، السلوك، ج ٣، ص ٣٥٣، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٣٦.
٣. معالم القربة، ص ١٥٢ - ١٥٣.
٤. رحلة ابن بطوطة، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

ويبدو أن مدينة دمشق كانت تنال امتيازا خاصا من حيث الاهمية التجارية في العهد المملوكي حيث ان مدينة دمشق تفوقت على جميع المدن الاخرى التجارية بتجارتها وقال بنجامين التودلي الذى زار دمشق عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م أن التجار كانوا يحملون السلع المختلفة لمدينة دمشق من جميع انحاء سوريا (١) ،أما ابن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) فقد ترك لنا وصفا عن مدينة دمشق مجمله ان هذه المدينة كانت تحوى القيسارات (٢) المتسعة والاسواق المكتظة ولم يضف شيئا على هذا (٣) ،أما ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) فقد كان متأثرا بما قال ابن جبير عن أسواق دمشق حيث انه لم يضف أى شيء آخر لوصف ابن جبير (٤).

وكانت أسواق دمشق تمتاز بكونها ذات طابع خاص مميّز ،وأهم ما في هذه الاسواق ان كل سوق انفرد بنوع معيّن من البضائع، مثل سوق الشماعين (٥) وسوق

---

١. Benjamin of Tudela , "The Travels of Rabbi Benjamin in Early Travels in Palestine " , ed. by Th .Wright London , 1848, P. 90.

سيشار اليه 'The Travels of Rabbi Benjamin '

٢. القيسارية : عمارة كبيرة بها حوانيت، العبادى ،أحمد مختار، " قيام دولة المماليك، الاولى في مصر والشام، دار النهضة العربية ،بيروت، ١٩٦٩ ،ص ٩١ ،سيشار اليه " قيام دولة المماليك ".

٣. رحلة ابن جبير ،ص ٢٧٨ . أنظر الرسم رقم (٣) "تكون الاسواق تحت القلعة" في الملحق من هذه الرسالة .

٤. رحلة ابن بطوطة ،ص ٥٥-٥٦ .

٥. المقدسي ،البشارى، "أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم"، الطبعة الثانية، ليون ،بريل، ١٩٠٦ ،ص ١٥٦-١٥٧ ،سيشار اليه "أحسن التقاسيم".

النحاسين (١) ، وسوق الفرائين (٢) ، وسوق الحريريين (٣) ، وسوق الخلعيين (٤) وسوق القباقبين ، وسوق الخشابين ، وسوق الحدادين (٥) . وهكذا وكانت أكثر أسواق دمشق مغطاة .(٦)

٧ . الحوانيت :-

قال البوغبونصي الذى عاش في أواسط القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى أن الحرف في دمشق قد فصلت الواحدة عن الاخرى وكان لكل واحد منها حيّ خاص بها (٧) ولم يكن هذا من قبيل الصدفة حيث ان الشيرزى قال بانه كان على المحتسب ان يرى جميع الحرف فصلت عن بعضها البعض ، ومن محاسن هذا النظام ان التاجر لم يستطع ان يشذ عن جيرانه او يرفع أسعار السلعة التي يتجر بها ، لأن منافسيه على مقربة منه كما ان المشترى اذا لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فانه يستطيع أن ينتقل بكل سهولة الى تاجر ثان وثالث دون ان يتحمل أدنى مشقة أما عيوب هذا النظام فاهمها ان الفرد اذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع فعليه ان يقطع المدينة كلها طولا

---

١ . أحسن التقاسيم ، ص ١٥٦-١٥٧ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، ابن طولون ، شمس الدين محمد ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، ٢ج ، حققه محمد مصطفى ، القاهرة ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ١٤١ ، سيشار اليه " مفاكهة الخلان " .

٢ . أحسن التقاسيم ، ص ١٥٦- ١٥٧ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٧١ ، ابن مصرى ، محمد بن محمد ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، نشر وتحقيق وليم م . بربنر ، لوس انجلوس ، ١٩٦٣ ، ص ١٧٣ ، سيشار اليه " الدرة المضيئة "

٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٧٣ .

٤ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٨٤ .

٥ . الدرة المضيئة ، ص ٣٦ .

٦ . أحسن التقاسيم ، ص ١٥٦-١٥٧ ، أنظر الرسم رقم (٤) في الملحق من هذه الرسالة

٧ . Voyage beyond the Seas , P.77.

وعرضا عدة مرات حتى يقضي حاجاتـه لانه لن يجد في السوق الواحد سوى نوع واحـد من البضائع (١) وامتازت حوانيت الاسواق بصغر حجمها ، حتى ان متوسط مساحة الواحد منها بلـغ خمسة أقدام مربعـة يكدس فيها التاجر كل بضائعه ، ويحتفظ في مقدمة الحانوت بمكان يشبه المصطبـة يجلس عليها التجار ومن يتردد عليهم من العملاء والاصدقاء للمساومة او للحديث . ذلك ان الحوانيت في العصر المملوكي لم تتخـذ محلا للبيع والشراء فحسب ، بل تردد فيها على التاجر معارفه واصدقاؤه ليتناقلوا مختلف الحكايات والنوادر. ومن المألوف في مراجع ذلك العصر ان نقرأ عبارة " وحدث انني كنت جالسا ببعض الحوانيت" (٢) . أو عبارة" وحكى ذلك لاصحابه في دكانه" (٣) او عبارة " وكان يوما عنده في حانوتـه فحكى له . . . ." (٤) ، مما يجعلنا نقدّر اهمّية الحوانيت في ذلك العصر بوصفها مراكز اخبارية واجتماعية وفرضت نيابة المماليك على حوانيت التجار رقابة شديدة فدأب المحتسب على ان " لا يمكن ذوى البيوع ان يغبنـوا ضعفاء الرعايا أشياءهم ، ولا يفسح لهم ان يرفعوا على الحق أسعارهم ويبخسوا الناس اشياءهم . . . . (٥) ، أما الاسواق الخاصة بالمآكل والمشارب في عهد المماليك فلا يمكن احصاء ما فيها من انـواع الاطعمـة ، فضلا عمّا بها من الاشخاص (٦) ، غدا باعة الطعام الذين يقطعـون الشوارع مجيئا وذهابا ومعهم الطعام المطهو وتحته المواقد مشتعلة ليبيعوه ساخنـا للمشـترين (٧) .

---

١. Lana - Poole (S) , " <u>Social Life in Egypt</u> ", London,1883, P.4, "Social Life in Egypt". سيشار اليه

٢. السخاوى ، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، <u>التبر المسبوك في ذيل السلوك</u> ، بولاق ، ١٨٩٦ ، ص ١٧٤ ، سيشار اليه " التبر المسبوك"

٣. " <u>سيرة الظاهر بيبرس</u> " ، القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج ٤٩ ، ص ٢٠ ، سيشار اليه " سيرة الظاهر بـيبرس" .

٤. <u>الضـوء اللامـع</u> ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

٥. <u>صبـح الاعشـى</u> ، ج ١١ ، ص ٢١٠-٢١٢ .

٦. <u>الخـطط</u> ، ج ٣ ، ص ١٥٣ .

٧. <u>Visit to the Holy Places</u>.p.143. سنتحدث عن ذلك في الفصل الخاص بالحياة المنزليـة عند حديثنا عن الطعام .

وكانت تعرض في اسواق دمشق مختلف انواع البضائع التي لفتت نظر الرحالة الاجانب الذين زاروا دمشق في تلك الفترة ، وذكر الرحالةفرسكوبالدى الذى زار دمشق عام (٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) عن متاجر دمشق بقوله " أمّا متاجر دمشق فممتازة بكثرة التجار والصناع في المدينة باجمعها ، داخلها وخارجها ، لا يمكن تصورشي غير موجود في الضواحي ، فأجمل ما في الدنيا وأنبله وأشده اتقان صنعه موجود هناك ، فلو أنك سرت متفرجا لرأيت المصنوعات الرائعة الانيقة الرقيقة التي تفريك بحيث لو أنك كنت تخفي نقودك في قصبة رجلك لما ترددت في كسرها واخراج النقود لشراء بعض ما هناك . وكانت الصناعات جميعها من شغل مهرة الصناع واقدرهم ؛ هذا الى ما كانوا يتحلون به من نظام النقابات الحرفية ، اذ انه اذا كان الاب صانعا فان ابناءه ما كان لهم ان يتعلموا غير صنعته ، وبذلك توارث الناس الصناعة جيلا بعد جيل وترتب على ذلك انهم بلغوا الغاية في المهارة الصناعية في فنونهم ، وحوانيتهم مرتبة وانيقة ونظيفة ، بحيث أن مشاهدتها كانت باعثا على السرور وجميعها تملأها المتاجر ، وكانت الحوانيت تمتلئ بنفس السرعة التي تباع المتاجر فيها ، اذ انه كان لديهم مستودعات ، كما أن بيوتهم كانت تملأها البضائع . والواقع ان محاولة وصف المتاجر الكثيرة الموجودة في دمشق تربك الكاتب ، ولكنه قد يقع الذى لم يرها في ارتباك وحيرة أشد ، وحتى لو رغب الواحد في تعداد الصناعات واصناف الاشياء الموجودة لأضطر الى الاطالة الى ما لا قبل له به . (١)

وزار الرحالة برتداندوندولا بروكييه دمشق في اواسط القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى عام (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م) ، وسّجل ملاحظاته عن المدينة حيث يقول " رافقت أحد أصحابي الى السوق وابتعت ردائين طويلين حتى انهما كانا يبلغان الكاحل ، وعمّه كامله وحزاما من الجلد ورباطين من القطن أضم بهما طرف الرداء ، وكيسين صغيرين احدهما لاستعمالي والآخر للحصان (مخلاة) يطعم فيه شعيرة وتبنه وملعقة من الجلد وملحا وبساطا أنام عليه . وآخر ما ابتعته معطف من الجلد الابيض

---

١ . Visit to the Holy Places , P. 182.

بطنّتـه بالكتّان ،لاستعماله ليلا . وابتعت كذلك جعبة بيضاء كاطـة ،وقد تدلى منهـا سيف وسكاكين . اما الجعبة والسيففقد ابتعتهما سرّا ،اذ لوعرف رجال الشرطة بذلـك لتعرضنا أنا والبائع الى مخاطر كبيرة . (١)

أما البضائع المعروضة في اسواق دمشق فقد كان معظمها يصنع في المدينة وتتميز بالدقـة والاتقان ،يقول فارسكوبالدى الذى زار المدينة عام (٧٨٦هـ/١٣٨٤م)"أن مـا يصنع في دمشق من اى نوع كان ،كبيرا أو صغيرا ،هو اكثر ما يصنع في أىّمكـان آخر فـي الدنيا ،سواء في ذلك الاقمشة الحريريـة والقطنية والكتانيـة" (٢) ويذكر في موضع آخـر القطن في دمشق بقولـه " وهناك كميات كبيرة من الاقطان ،من أجمل ما في العالم ،بحيث لو شاهدها أحد الناس وهو لم يكن خبيرا ،لحسبها حريرا لما عليه من النعومة واللمعـان والدقـة والجمـّـال . (٣)

وزادت البساطة في الزخارف المستعملة في الاقمشة المطرزة بخيوط الذهب والحرير وفي العصر المملوكي سادت في السجاجيد الزخارف الهندسية التي تشبه الرسـوم الهندسية التي نراها على كثير من التحف التي ترجع الى هذا العهد كجلود الكتـب ورسوم الفسيفساء الرخاميـة (٤) .

وقد انتجت دمشق في العصر المملوكي ١٠٠ نوع من انواع الانسجة والتي ٢٠ منها كان من القطـن و٢٠ من الكتان و٤٠ من الحرير و١٠ من انواع القصب المختلفـة (٥) .

---

١. The Travels of Bertroandon ,P. 294-301.

٢. Visit to the Holy Places, P. 142.

٣. Visit to the Holy Places, P. 182.

٤. الالفي ،ابو صالح ،" الفن الاسلامي ،أصوله وفلسفته" ،الطبعة الثانية ،دار المعارف مصر ،ص ٢٩٨ ،سيشار اليه " الفن الاسلامي " .

٥. Ziadeh , Nicola ,A, " Urban Life in Syria under the Early Mamluks " Berut,1953,P.132-133.'Urban Life' سيشار اليه

سيشـار اليـه

وشهدت سوريا استقرارا وانتماشا اقتصاديا في عهد آل زنكي وبني أيوب ،واستمر هـذا الانتماش حتى عام(٦٥٨هـ/١٢٥٩م) ،وأنشأت في هذه الفترة السابقة لمجيء التتار في دمشق صناعة الزجاج المموّه بالمينا المذهب. وصناعة الزجاج المادى . (١)ولم تكن دمشق بالمستوى الذى تتمتع به حلب في هذه الصنعة ،وقد يعود ذلك الى أن دمشق كانت تابعة اداريا لمصر ،بينما حلب تابعة للحكم الايوبي المستقل الذى هيأ لها هـذا الازدهـار (٢) . الا ان هذا الازدهار لصناعة الزجـاج الحلبي لم يستمر طويلا ،حيث داهم التتار حلب عام(٦٥٨هـ/١٢٥٩م) (٣) مما دعى بصناع الزجاج الى الهجرة الى دمشق ولم يقتصر الامر على التتار ،بل هاجم الارمن حلب سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) . (٤)وفـي عام(٧٠٢هـ/١٣٠٢م) هاجم التتار مرة أخرى مدينة حلب مما زاد في هجرة هـؤلاء الصنـاع الى دمشق وانتقل مركز الثقل الاقتصادى اليها (٥) . وقد صنعت الاواني من الزجاج ،كالقوارير والزهريات والاكواب. وكانت هذه القطع أما خالية من الزخرفـة أو مزخرفـةبزخارف على شكل الخيوط البارزة ،او الاقراص والكتابات والوريدات والطيـور والحيوانات. وصنعت ايضا أقراص زجاجية للوزن أو الكيل ،كان يطبع بها على الاوانـي لبيان احجامها ،واغلبها باسماء الولاة والخلفاء . وكان الصناع يشكلون الزجاج بنفخـة في قالبين الواحد بعد الاخر ،وكانت القوالب احيانا عبارة عن قطعتين من الفخـار أو المعـدن أو الخشب (٦) ،وقد لفتت صناعة الزجاج نظر الرحالة ابن بطوطـة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) حيث قال " ان دمشق فيها " صناعـةالزجاج العجيبـة " (٧) ،وتعتبـر

---

١. المشي ،ابو الفرج ،تطور صناعة الزجاج السورى ،"مجلة الحوليات الاثرية السوريـة" ج١٦، ١٩٦٦، ص٤٦–٤٧ ،سيشار اليه " تطور صناعة الزجاج ".

٢. Visit to the Holy Places, P. 142.

٣. تطور صناعة الزجـاج ،ج١ ،ص ٤٥.

٤. السلوك ،ج١ ،ص ٥٥١–٥٥٢ ،تطور صناعة الزجاج ،ص ١٥.

٥. تطـور صناعة الزجـاج ،ص ٤٧.

٦. محمد ،حسن زكي ،" فنون الاسلام" ،القاهرة ،١٩٤٨ ،ص ٥٨٢ ،سيشار اليـه" فنـون الاسـلام" .

٧. رحلـة ابن بطوطـة ،ص ٥٥–٥٦ .

المشكـاوات الزجاجية المموهة بالمينا فخر الصناعة الزجاجية في د مشق في العصرالمملوكي وقد أقبل سلاطين المماليك على اقتنائها وتزين المساجد بها ، وزجاج المشكاوات ابيض مائل الى الصفرة القاتمـة ،أما المينا التي زخرف بها فهي حمراء وزرقاء وخضراء وبيضاء وتتألف زخارفها من كتابات داخل مساحات أو مناطق ، مع تخصص منطقـة لرسم الرنك الخاص بالسلطان صاحب المشكاة ،أما سائر بدن المشكاة فقد زخرف بشبكة نباتيـة رقيقـة ، واحيانا ترسمهذه الزخارف النباتية على أرضية مذهبة (١) . وقد كان في د مشق فـي العصر المملوكي شارع خاص أطلق عليه اسم شارع طلي الزجاج (٢) . واشتهرت د مشـق ايضا بصناعة ماء الورد ، ويصف البوغبونصي الذى زار د مشق في اواسط القـرن الثامـن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، طريقة صنع ماء الورد بقولـه " انها صناعة يقوم بها مـن ٥ـ٨ أشخاص ، وكل واحد من هؤلاء يملؤن خمسة عشر الفا من البراميل التي تحتوى مـاء الورد وكل برميل مـن هذه تحتوى على ثلاثة وعشرين وحدة قياسية هذا عدا عـن الاشخاص الاخرين والذين كانوا يعملون عندهم ، وكان هؤلاء الاشخاص يبيعون جميع ما بحوزتهم من ماء الورد (٣) وكانت صناعة السكر واحدة من اهم الصناعات التي استمـرت بنشاط في د مشق في العهد المملوكي والتي عرفت حتى ما قبل عام ١٢٠٠م. (٤)

وزادت العناية في د مشق في عهد المماليك بصناعة التحف المعدنيـة ، وتقدمـت هذه الصناعة تقدما عظيما ، ومن نماذج هذه التحف المعدنيـة الابواب والشمعدانـات وكراسي العشاء والاواني ، وصناديق المصاحف والمحابر والاسلحة والثريات والحلى واساس الزخرفة في اغلب هذه التحف وبخاصة الابواب عنصر الاطباق النجميـة التي امتـاز بها هذا العصـر . (٥)

---

١ . الفن الاسلامـي ، ص ٢٧٨ .

٢ . A Voyage Beyond the Seas , P. 79.

٣ . A Voyage Beyond the Seas , P. 78.

٤ . Urban Life ,P. 132-133.

٥ . الفـن الاسلامـي ، ص ٢٨٨-٢٨٦ .

وقد كانت صناعة المعادن من تخصص مدينة دمشق وتصنع فيها بكثرة، (١) وقد ذكر بروكيه الذى زار دمشق عام (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م) انه يصنع في دمشق وما جاورها من الديار، مرايا من المعدن التي تضخم الاشياء كما في الزجاج العاكس النور. رأيت بعضها وقد وجهت نحو الشمس فعكست من الحرارة ما كان كافيا لحرق لوح من الخشب على بعد ١٥ أو ١٦ قدما، (٢) وكانت طشوت النحاس واباريقه التي تبدو كأنها من الذهب، وكلها مزخرفة بنقوش من الاشكال والاوراق، كما يعمل من الفضة أشياء جميلة تسر لرؤيتها العين (٣) ويذكر البوغبونصي انه لما زار دمشق وجد فيها اربع وعشرون الفا ممن يعملون في صناعة النحاس (٤) وقد أحرزت دمشق شهرة خاصة في صناعة الاطباق الذهبية المنزلية، بالاضافة الى الزخارف الفضية ذات الاشكال الهندسية والرسوم النباتية وغير ذلك من الزخارف الدمشقية، وذكر البوغبونصي انه لما زار دمشق وجد فيها خمسون الفا من الحدادين وصرّافي العملة الذين يعملون بالذهب والفضة (٥).

واشتهرت دمشق في العهد المملوكي بالحفر على الخشب والعاج والعظم والحجر الجبص والرخام وكان الغربيون يتعجبون من شغل خشب الابنوس وتزيينه بالعاج والصدف (٦). وكانت الاخشاب في اسواق دمشق مستوردة من بعلبك حيث كانت تحمل الى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة. (٧).

---

١. Urban Life, P. 132-133.

٢. The Travels of Bertrandon, P. 301 -304.

٣. Visit to the Holy Places, P. 82.

٤. A Voyage Beyond the Seas, P. 77-78.

٥. A Voyage Beyond the Seas, P. 77-78.

٦. دمشق في نظر المغاربة، ص ٢٥٩، ٣١٣.

٧. البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣١٦.

ووصف بروكييه الذي زار دمشق في اواسط القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، عام (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) ، صناعة السيوف الدمشقية بقوله هي أنبل وأجمل ما يصنع في سوريا ، ومن الممتع ان يلاحظ الواحد اسلوب الصناعة في صقلها . فان هذا يتم قبل ان تسقى ويستخدمون في سبيل ذلك مقبضا من الخشب شكت فيه قطعة من الحديد يجرونها على نصل السيف ، وبذلك ينعم ملمسه ، كما تتمم الغارة سطح الخشب ، ثم يسقونه ويلمعونه ، وهذا التلميع بلغ حدا كبيرا من الاتقان بحيث ان الواحد اذا أراد أن يصلح من شأن عمامته أتخذ من نصل السيف مرآه . وأما السقي فهو كامل وذكر بروكييه ايضا انه لم ير قط سيوفا تقطع بمثل هذه الدرجة من الاتقان (١) كذلك اشتهرت دمشق بدباغة جلود الخراف المذبوحة (٢) . وكانت صناعة الورق والاقلام من الصناعات المهمة في سوريا ، وكانت دمشق مركزا مهما لتجارة هذه السلعة (٣) . كذلك كان يصنع في دمشق العطور وانواع الدهانات (٤) .

وكان يصنع في دمشق في العهد المملوكي ، المواد الغذائية التي كانت وفيرة فهناك القبرنيس — وهو الجبن الابيض المجفف يقطع قطعا صغيرة والقرنبيط ، وكان في دمشق معاصر تصنع الدبّس (من العنب) وفيها تصنع العلاوة الجوزية والملبن ، وكانت تتقن في دمشق صناعة حلاوة الارز مع الزبيب . (٥)

وأشتهرت دمشق ايضا بصناعة الزيت التي تقوم على زراعة الزيتون وصناعة الخمر

---

١ . The Travels of Bertrandon ,P.301.

٢ . دمشق في نظر المغاربة ، ص ٢٢٥ ، نقلا عن العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٢ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٣٢ .

٣ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٥ — ٥٦

٤ . أحسن التقاسيم ، ص ١٨٠ .

٥ . أحسن التقاسيم ، ص ١٨٠ — ١٨١ ، القول المستظرف ، ص ٨ — ١٢ .

للمسيحين ، والتي كانت تلتزم لحساب بيت المال شريطة الاتباع للمسلمين (١) ويقول فرسكوبالدى (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) ان دمشق تمتلك أحسن الاسواق لبيع الخبز وكل نوع من انواع اللحم وافضل الاشياء ما عدا الخمر لان العرب المسلمون لا يشربون الخمر لانها محرّمة في الشرع الاسلامي ، والخمرة من الاشياء النادرة جدا حيث كان على الواحد أن شرب الخمر بشكل معتدل كان ينفق ٤٠ قطعة من الذهب في خلال العام الواحد وربما بلغت التكاليف اكثر من ذلك (٢)

وبالاضافة الى الصناعات المحلية المعروضة في اسواق دمشق وجد فيها ايضا التوابل والحجارة الكريمة واللآلئ والاقمشة المقصبة والطيوب المستوردة من الهند وبلاد التتار ومصر والبلاد الواقعة في اوروبا جهة البحر المتوسط (٣). وكان بعض الحرير في اسواق دمشق مستوردا من الصين وكانت التوابل ترد من الجزيرة العربية وسواها من البلاد الاستوائية ، وكانت اللآلئ تجلب من خليج العجم الى مرفأى يافا وطرابلس وثم تنقل برا الى دمشق (٤).

كذلك اشتهرت اسواق دمشق بوجود الفاكهة المتنوعة فيها حيث وجدت غالب الاصناف من الفواكه الجيدة التي يحفظونها من سنة لأخرى (٥) ويصف ياقوت (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م) فواكه دمشق بقوله " وبها فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل الى جميع ما حولها من البلاد من مصر الى حسّران وما يقارب ذلك (٦) ويذكر النويرى (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

---

١. القول المستظرف ، ص ٨– ١٢ .

٢. Visit to the Holy Places, P. 183.

٣. A Voyage Beyond the Seas, P.77, Visit to the Holy Places, P182.

٤. Hilmar C. Krueger , "The Wares of Exchange in the Cenoese African Traffice of the Twelfth Cntury , Speculum" ,Vol XII, 1973, P. 64-71.

٥. Visit to the Holy Places, P. 143.

٦. معجم البلدان ، ص ٥٨٩ – ٥٩٠ .

أن تفاح دمشق كان يحمل منه في كل سنة ثلاثون ألف تفاحة (١)

والثلج موجود باستمرار في دمشق (٢)، حيث تتجمع الثلوج المتجمدة في الجبال وتستمر حتى شهر حزيران (٣) وهذا الجليد كان يحمل على الجمال ليباع داخل أسواق دمشق في شهري نيسان وحزيران، وكان اهل دمشق يحتفظون بهذه الثلوج داخل الكهوف ويأكلونها مع بعض الشراب المختلفة، غير الماء، (٤) وكان الثلج يوضع في الصيف على الفواكه باصنافها فيحفظها طازجة ويبردها بحيث تكون لذيذة الطعم (٥)

ويتضح مما تقدم بانه قد انتشرت في دمشق صناعات متنوعة وقد لعب النصارى واليهود دورا كبيرا في كثير من الصناعات اليدوية والفنية (٦) وتدلنا أكثر الصناعات المنتشرة في دمشق على مدى التقدم في مجال الصناعة في الفترة المملوكية في دمشق وعلى الرغم مما تعرضت له دمشق من حوادث خارجية واخرى داخلية الا ان هذا لم يقضي على صناعات دمشق ويعود السبب في ذلك الى عدم تعقيد هذه الصناعات اذ انها لا تحتاج الى آلات ضخمة والات دقيقة، وانما كلها صناعات خفيفة لا تؤثر عليها الحروب، حيث ان العامل في مهنة معينة يستطيع ان يتنقل الى اى مكان يمارس فيه مهنته في أى وقت وبسهولة مطلقه، هذا اذا استثنينا الصناعات التي تحتاج الى جهد جماعي، مثل صناعة النسيج وصناعة الصابون .

---

١ . النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، "نهاية الارب في فنون الادب"، ج ١٨، القاهرة، ١٩٢٣ — ١٩٥٤، ج ١، ص ٣٢٨، سيشار اليه "نهاية الارب".

٢ . ابن سعيد المغربي، علي بن موسى "بسط الارض في الطول والعرض"، تحقيق خوان فرنيط خنيس، تطوان، معهد مولاى الحسن، ١٩٥٨، ص ٨٥، سيشار اليه "بسط الارض".

٣ . أحسن التقاسيم، ص ١٥٧ . Visit to the Holy Places, P. 181

٤ . A Voyage Beyond the Seas, P. 78.

٥ . Visit to the Holy Places, P. 143.

٦ . سنتحدث عن ذلك بالتفصيل بالفصل الخاص ببنية المجتمع الدمشقي، عند حديثنا عن النصارى واليهود .

٨ . الحـــارات :-

وجد في مدينة دمشق مجموعة من الحارات المستقلة كل منها بحياتها الخاصة، منفصلة عن حياة جاراتها (١) وكانت كل حارة من هذه الحارات عبارة عن مدينة مصغرة لها مسجدها وطريقة توزيع المياه فيها ، وحمامها وسويقتها (٢) محتوية على الحبوب وسائر الحاجيات ولها شيخها المسؤول (٣) وشرطتها المؤلفة من أفراد يسهرون في الليل فيعرفون المارة ، ولها حصونها وهي الابواب ، وجيشها المؤلف من الاحداث وهم جنود الحرف (٤).

أما سكان الحارة فيجتمعون على الغالب من ارباب المنطقة الواحدة من ذوى الدين الواحد (٥) ، أو من ابناء القبيلة أو الاسرة الواحدة ، أو تجمعهم حرفة واحدة (٦) ، وكان سكان كل حارة محاربين سكان الحارة المجاورة ، ويتفرع من هذه الحارات دروب خاصة عليها ابواب تقفل كل مساء (٧) ، ومن هذه الدروب تتفرع أزقة ودخلات تصل الى المساكن الخاصة وعليها كذلك أبواب يمكن أقفالها (٨) . وهكذا فلا يظهر من المنزل الى جهة الشارع الا مؤخرته الخالية من المنافذ ، فلا يمكن الوصول اليه الا بعد ان يقطع باب الحارة ، فباب الزقاق ، فباب المنزل نفسه (٩) ومن أهم احياء دمشق : الشاغور ،

---

١ . Lapidus, (Lram), '<u>Muslim Cities in the Later Middle Ages</u>', Combrlidge , 1967, P. 153-154.

سيشار اليه " Muslim Cities ".

٢ . أنظر رسم رقم (٥) " مخطط احدى الحارات" في الملحق من هذه الرسالة .

٣ . <u>مفاكهة الخلان</u> ، ج ١ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧ . <u>Muslim Cities</u>, P. 155.

٤ . <u>السلوك</u> ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

٥ . <u>الدرة المضيئة</u> ، ص ٤٠ ، ٤٩ .

٦ . <u>النجوم الزاهرة</u> ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ، تاريخ سوريا ولبنان ، ص ٢٩٦-٢٩٧ .

٧ . <u>The Travels of Bertrandon</u> , P. 303-304.

٨ . راجع الرسم رقم (٤) "بوابة احدى الحارات" في الملحق من هذه الرسالة.

٩ . سوقاجية (جان) ، دمشق الشام ، مجلة المشرق ، العدد ٣٤ ، ص ١٨٥ .

القبيبات ، ميدان الحص ، الصالحية ، باب الجابية ، المزابل ، باب المصلى ، المناطق المتفرقة من محلة حاجي حسن والسويقة . (١)

٩ . الضــواحــي :

وقد لاحظ بعض الرحالة الذين زاروا دمشق في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، أن دمشق خارج الاسوار كانت أكبر من دمشق الداخلية ، وكانت الضواحي موضع عناية ابن بطوطة ، وهو يشير الى الضواحي التي زارها ابن جبير - النيرب ، والمزة ، وقاسيون - ثم يضيف الى ذلك وصفا للربوة والصالحية ، وكان يرى في الربوة " ما كانت التقاليد قد أقامتها حولها من ربوة ذات قرار معين " وقد ردد ابن بطوطة قول ابن جبير في عبارته : وهذه الربوة تشرف على البساتين الدايرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها وتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار العين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانضباطها . وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظايفها للامام والمؤذن والصادر والوارد (٢) .

ثم أضاف الى ذلك من عنده : وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة ، في كتاب الله ذات القرار والمعين ومأوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام . وهي من أجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة ، والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها ، كالبيت الصغير وأزاءها بيت يقال أنه مصلّى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها ، وللمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به ولة شوارع وأديرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو ويصب في شاذروان من الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فية الماء ولا نظير له في الحسن والغرابة في الشكل ، وبقرب ذلك مطاهر للوضوء فيه يجرى الماء . (٣)

---

١ . Muslim Cities, P. 153-154.

راجع الملحق رقم (١) ، " اسماء حارات دمشق " في هذه الرسالة .

٢ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٣-٢٦٥ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٥ .

٣ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٣- ٢٣٤ .

ويقول القزويني (ت٦٨٢هـ/١٢٨٦م) في وصف الربوة : وفي مدينة دمشق جبل الربوة على بعد فرسخ من دمشق ، وهو جبل عال عليه مسجد حسن وسط البساتين ، ولما أرادوا أجراء ماء بردى وقع هذا الجبل في الوسط فنقبوا تحته واجروا الماء فيه ويجري على رأسه نهر يزيد وينزل من اعلاه الى اسفله ، وفي المسجد الذى على أعلى الجبل الماء الجارى وله مناظر الى البساتين ، وفي جميع جوانبه الخضرة والاشجار والرياحين ، ورأيت في المسجد حجرا كبيرا ذا ألوان عجيبة بحجم صندوق مدور وقد أنشق نصفين وبين شقه مقدار ذراع لم ينفصل احد الشقين عن الاخر بل متصل به كرمان مشقوق ، ولاهل دمشق في ذلك الحجر أقاويل كثيرة (١)

أما الوطواط (٢) توفي (٧١٨هـ/١٣١٨م) قال في وصف الربوة : ولها الجامع الذى هو احدى عجائب الدنيا ، وبساتينها والنهر الذى ينبعث منه عدة انهار وهو نهر يزيد وبانياس ومنه مياه البليد التي تجرى في شوارعها ودورها والقلعة . ونهر القنوات ويسمى عمود النهر بردى ومنبعه من حيث ينبع عين الفيجة في وادى بين جبلين تكون مسافته من حيث ينبع الى حيث يصب في بحيرة المرج شرق دمشق (٣) .

---

١. القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، "آثار البلاد وأخبار العباد" ، بيروت ، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، ص ٦٢ ، سيشار اليه "آثار البلاد" .

٢. الوطواط ، كان أديبا عارفا بالكتب ألف "مناهج الفكر ومباهج العبر" و "الدرر والغرر" ، وله حواشي على الكامل لابن الاثير ، وقد ضمن كتابه المناهج أمورا جغرافية كثيرة وقد وجدنا في كتابة المخطوط مناهج الفكر ، نبذة عن دمشق وبعض أوصافها ، توفي عام ٧١٨هـ/١٣١٨م ، راجع : الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

٣. الوطواط ، "مناهج الفكر ومباهج العبر" ، نسخة مصورة عن مخطوط كوبرلي ، مكتبة الظاهرية ، دمشق ، رقم ١٧٧٠ ، ورقة ١٩٥ ، سيشار اليه "مناهج الفكر" .

ويتصل بالربوة أسفل منها بقليل ، قرية كبيرة تعرف بالنيرب. (١) وقد غطتها البساتين فلا يظهر منها الا ما سما بناؤه ، وبها جامع مفروش سطحه بفصوص الرخام الملون فيخيل لناظره انه ديباج مبسوط ، وفيه سقاية ماء رائعة الحسن ، ومطهرة ولها حمام (٢) وفيها بيوت عدة يجرى فيها الماء (٣) .

وفوق قرية النيرب لجهة القبلة قرية كبيرة تعرف بالمزة ، وبها جامع كبير وسقايا معينة (٤) ، وتعرف هذه القرية بمزة كلب نسبة الى قبيلة كلب بن وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وكانت اقطاعا لهم ، واليها ينسب الامام حافظ الدين جمال الدين يوسف الكلبي المزيّ ، وكثير سواه من العلماء ، وهي من اعظم قرى دمشق (٥)

وفي شرق مدينة دمشق قرية تعرف ببيت لاهية ، وكان فيها كنيسة يقال لها انآزر كان يجلب فيها الاصنام فيكسرها الخليل ، عليه السلام وهي الان مسجد جامع بديع " مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة بأعجب نظام وأزين التئام" (٦)

وبازاء مدينة دمشق في سفح جبل قاسيون مدينة الصالحية ممتدة في مدى طويل ذات بيوت ومدارس وربط وعجائب ضخمة ومارستان واسواق حافلة ، وجميع الصالحية تشرف على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وميادينها ومجرى واديها وبجانبها الغربي كان دير مران المشهور ومكانه الان من المدرسة المعظمة قرب عقبة دمّر (٧) . ويقول ابن

---

١ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٥ .
٢ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٥ .
٣ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٣ .
٤ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٣ .
٥ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .   ٦ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٣-١٠٤
٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .

بطوطة في وصف الصالحية التي كانت مزدهرة في ايام زيارته لها : " وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية اربا ض فسيحة الساحات وبالجبهة الشمالية منها ربض الصالحية وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد وجامع ومارستان وبها مدرسة تعرف باسم مدرسة ابن عمر موقوفة على من اراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المأكل والملابس ، واهل الصالحية كلهم على مذهب الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه " (١) .

وقد كان في الصالحية في اواخر العهد المملوكي سبع دور للحديث وستة عشر رباطا وثمان وثلاثون حارة وواحد وسبعون مسجدا (٢) .

وكانت الغوطة في دمشق تحتوى على جبال و مزارع وبها ضياع كالمدن مثل المزة وداريا وقردا وحرستا وكوكن وبلاس وكووسية وبيت لاهية وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق ، وتحتوى الغوطة على انهار واشجار ، ومياهها تشق البساتين والبيوت وبها من انواع الفواكه " ما لا يحيط به تحصيل ولا يليق بمثله تمثيل " كثرة وخصبا وطيبا (٣) .

ويوجد في غوطة دمشق ونواحيها مائة الف وواحد وعشرون الف بستان تسقى بماء يأتي اليها من نهر بردى (٤) .

سنذكر الان أهم الانهار التي تسقي دمشق وغوطتها ، وسنسرد أسماء القرى الدائرة والقائمة التي تسقي اراضيها من هذه الانهار . يقول القلقشندى ان دمشق

---

١ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠١ .
٢ . دمشق في عهد المماليك ، ص ١١٧ .
٣ . نزهة المشتاق ص ٩٧ -٩٨ .
٤ . نخبة الدهر ، ص ١٩٣ .

تروى بساتينها من نهر يسمى بردى ثم يقسم هذا النهر على سبعة أنهر (١) . أما ابن شاهين الظاهرى فيقول ان بدمشق سبعة انهر اذا جمعت صارت مثل النيل (٢) ، أما نهر بردى (٣) فقد سمي بذلك لبرد مائه (٤) ذكر روسو انه هو نهر أبانا القديم ، وهو نهر دمشق العظيم ، ينبع من احد سفوح جبل لبنان الشرقية ، فيكوّن له واد يسمى باسمه ، وأصل مخرجه من قرية يقال لها القنوا ومن المحتمل ان تكون القنوا القديمة هذه عين حور التي توجد الان والتي هي واحدة من اوليات العيون التي تغذى بردى (٥)

" ويتسع الوادى نحو الزبداني وتكون أرضه ذات خصب . وتحيط به من الشرق قرى مختلفات منها بلودان وبقين ومضايا . وعلى يمين السهل تقوم قرية الحوى وقرية بطرونه . ثم يضيق الوادى ، حتى يشغله النهر وحده ، ثم يمد النهر بسوق وادى بردى وفي الوادى نجد قرى كفر العواميد ، والحسينية ، وكفر الزيت ، ويبلغ النهر الفيجة . ويظن أن كلمة الفيجة تأتي من اليونانية لانه نبع غزير جدا يضاعف مياه بردى (٦) ".
فاذا صار قريبا من دمشق ، انقسمت منه أنهار (٧) ، عددها سبعة (٨) ، ففي الشمال ينفصل عنه يزيد وشورا ، ومن الجنوب ينفصل القنوات وباناس والمزى والديراني ويكون هو سابعها . ثم يدخل بردى دمشق نفسها ، ويدخل معه ايضا باناس وقنوات ، وينفصل عنه المجدول قبلها ، ثم يتابع سيره حتى يخرج من المدينة فيجتاز الغوطة . وما تزال

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٨٧-٢٨٨ .
٢ . زبدة كشف الممالك ، ص ٤٥ .
٣ . ابن عبد الحق ، " مراصد الاطلاع " ، طبعة Juynball جوينبول ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، سيشار اليه " مراصد الاطلاع " .
٤ . البكرى ، " معجم ما استعجم من الالفاظ " ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٥ ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .
٥ . Dussaud, Topographie Hist, de la Syrie, Paris, 1927, P. 288,
سيشار اليه 'Topographie Hist'
٦ . Topographie Hist , P. 288.
٧ . مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ١٤٢
٨ . نخبة الدهر ، ص ١٩٤ .

الينابيع تنبع على جنباته فترد فه ، والانهار تنفصل فيرد فها حتى يمر بالغوطة كلها فيسقيها ، وتكون مدينة له . بخصبها وجودة تربتها . ثم يصب في بحيرة المرج (١) ، أو بحيرة دمشق (٢) . وينفصل عن بردى بالقرب من قرية الهامة على بعد ١٢ كيلو مترا من دمشق نهر يزيد (٣) . الذى يمر شمال الدواسة القديمة وجنوبي أراضي مزّان (٤) ويسقى قسما كبيرا من اراضي الصالحية مارا بسفح قاسيون . وكل مياه الصالحية فيه (٥) ويجتاز أراضي الميطور (٦) ويسقيها ، وينتهي في أراضي حرشا (٧)

وينفصل عن نهر بردى بالقرب من الشاذورا ن نهر ثورة ، ويمضي نحو الصالحية مارا بجنوب نهر يزيد ، ثم يجتاز الجسر الابيض ، وقرية مقرى القديمة وبيت أبيات ، أى محلة طاحون الاشنان (٨) . وبين يزيد وثورا تقوم اراضي النيرب الاعلى والسهم الاعلى (٩) وكان يسقى قرية ارزه التي قام مقامها حي الشهداء (١٠) . وكذلك كان

١ . مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ١٣٢ .

٢ . ابن خرداذبه ، "المسالك والممالك" ليدن ، ١٣٠٦هـ ، ص ١٧٧ .

٣ . يقول المؤرخون العرب أن يزيد بن معاوية هو الذى شقه ولذلك سمي بنهر يزيد ، انظر : نخبة الدهر ، ص ١٩٤ .

٤ . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩٦ .

٥ . ابن كنان ، "المروج السندسية" ، مطبوعات مديرية الاثار العامة ، دمشق ، ١٩٤٧ ، ص ٢٩ ، سيشار اليه "المروج السندسية" ، ص ١٢ .

٦ . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٦٣ ، ابن طولون ، ضرب الحوطة ، "مجلة المجتمع العلمي" ، مجلد ٢١ ، عدد (٣) ، (٤) ، ص ١٥٤ ، سيشار الية "ضرب الحوطة" .

٧ . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٤١ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٦ .

Topogrphie Hist, P. 302.

٨ . المروج السندسية ، ص ١٢ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٠٤ .

Topographie Hist , P. 306.

٩ . الاربلي ، "مدارس دمشق" ، تحقيق محمد دهمان ، دمشق ١٩٤٧ ، ص ٢٨ ، حاشية رقم (١) . سيشار اليه "مدارس دمشق" .

١٠ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ .

يسقي قرية أررونا وكانت قبيل جسر تورا ، قبلية لجهة الغرب (١) . وهو يسقي قسما من اراضي جوبر (٢) . ومن تورا يتفرع فرع يسمى مقسم الثلث . ويسقي اراضي قرية مزة (٣) زملكا (٤) وعربيل (٥) ، وبعض اراضي عين ترما (٦) . ثم يتابع سيره فيسقي اراضي مديرى (٧) ومسرابا (٨) ودومة (٩) وينتهي في عذرا (١٠) التي تتسرب منه . وينفصل عن بردى بالقرب الشاذروان نهر الداراني ، وهو نهر داريا الكبير ويسمى اليوم " الديراني " ، " وهو أرفعها (النهور) مجرى وابعدها مقسما " (١١) ويسقي أراضي المزة (١٢) ويبلغ داريا (١٣) فيسقيها .

---

١ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ ، مدارس دمشق ، ص ٢٩ ، حاشية رقم (٥)

Topographie Hist, P. 29.

٢ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٣٩ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٥ .

Topographie Hist, P.299.

٣ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٦ . Topographie Hist , P.303.

٤ . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥٩ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٧ .

Topographie Hist,P.313.

٥ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٩ ، Topographie Hist ,P.294.

٦ . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥٩ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٩ .

Topographie Hist , P. 294.

٧ . Topographie Hist , P. 305.

٨ . Topographie Hist , P. 307.

٩ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٢٥ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٧

Topographie Hist,P.299.

١٠ . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٢٥ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٩ ،

Topographie Hist , P. 293.

١١ . نخبة الدهر ، ص ٢٩٨ .

١٢ . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٢٢ ، نخبة الدهر ، ص ٢٦٤ ، ضرب الحوطة ، ص ١٦٠ ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٧ .

١٣ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ .

وينفصل عن نهر بردى بالقرب من الشاذوران نهر القنوات . وينقسم الى فرعين :

أ . الفرع الاول يجرى جنوبا فينقسم خمسة أقسام :

١ . قسم بستان حجر الاحمر ويسقي اراضي كفر سوسية (١)

٢ . قسم القدم (٢) ويسقي اراضي قيتينة والخلخال (٣)

٣ . قسم الشماب ويسقي باب السريجة وباب المصلى والميدان

٤ . قسم عاتكة ويسقي حيّ قبر عاتكة .

٥ . قسم المملقات .

ب . الفرع الثاني يجرى شرقا ، فيدخل المدينة ، ويجتاز حيّا سمي باسم النهر وتتفرع عنه طوالع كثيرة توزع المياه على الحارات والدور والحمامات والطواحين والجوامع ، كحي قبر عاتكة ، وباب السريجة ، والخراب ، ومأذنة الشحم ، وحارة اليهود وزقاق المارستان ، وحارة الشابكليّة في القنوات ، وكحمام الخياطين وحمام المسك ، وحمام ست عذراء ، وحمام السنانية ، وحمام البذورية ، وحمام القيثاني ، وحمام ملكه ، وكطاحون السجن ، وكالقلعه ، وسوق الاروام ، وكالجامع الاموى ، وغير ذلك .

وينفصل عن نهر بردى في قرية دمّر نهر القناة (٤) . كان يسمى نهر مزة (٥)

---

١ . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٨٨ .

٢ . ضرب الحوطة ، ص ١٦٠ .

٣ . قرية درست : كانت بساتين زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣١٩) ، وهي غربي المصلى بجوار الخلخال ، جنوب غربي باب السريجة ظاهر باب الجابية ، انظر ضرب الحوطة ، ص ١٦١ .

٤ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٨٧ ، Topographie Hist, P. 29.

٥ . نخبة الدهر ، ص ٢٦٤ .

ويسقي قسط من اراضي المزة ويحيط بها .

وينفصل عن بردى عند الربوة نهر باناس (١) . ويسميه شيخ الربوة نهر بلنياس، ويذهب الى انه بلنياس الحكيم فتحه فسمي باسمه (٢) .

بعد ان ينفصل عن بردى عند الربوة يدخل مدينة دمشق فيمر بقلعتها (٣)، ثم ينقسم قسمين وينفصل عن بردى ، في المرجة نهر المجدول ، ويسمى اليوم نهر المقرباني نسبة الى عقربا (٤) وهو ارفع من بردى مستوى ، وبردى اخفض منه ثم يكون خندقا للقلعة من شمالها . فاذا تركها مر بين السورين ثم يماشي سور المدينة ، ويصل الى باب السلامة ، ثم يمر بالصفوانية نهر داعية فيسقي طرفا من اراضي جوبا (٥) ، وعقربا وبيت سحم (٦) . وينفصل عن بردى في الصفوانية نهر داعية فيسقي طرفا من اراضي جوبر ، ويتفرع من نهر داعية ثلاثة انهر اخرى :

١ . الاول ، ينفصل من نهر داعية بالقرب من طاحون العبد (٧) . ويسقي اراضي عين ترما* وكفر بطنا (٨) .

٢ . الثاني ، ينفصل عن نهر داعية بالقرب من عين ترما ويسقي اراضي سقبا (٩) .

---

١ . من الربوة، انظر: معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٢ ، رحلة ابن جبير، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

٢ . نخبة الدهر، ص ١٩٤ .

٣ . عن القلعة ايضا انظر : نزهة الأنام ، ص ٦٠ - ٦١ .

٤ . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩٤ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٩

Topographie Hist, P. 294.

٥ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٤ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٥ .

Topographie Hist, P. 299.

٦ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ ، Topographie Hist, P. 295.

٧ . على الطريق المؤدى الى كفربطنا وجسرين .

٨ . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٨٦ ، ضرب الحوطة، ص ١٦٠ .

Topographie Hist, P. 304.

٩ . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٠ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٨ .

وحمورية (١) وافتريست (٢) وبيت سوا (٣) .

٣ . الثالث ينفصل عن نهر داعية بالقرب من عين ترما ايضا ويسقي أراضي كفر بطنا وجسرين (٤) والمحصدية (٥) .

وينفصل عن بردى بالقرب من الطاحون الاحد عشرية نهر الطيحي نسبة الى قرية الطيحة (٦) ويسقي اراضي الطيحة وبلاط (٧) ودير بحدل (٨) وخيارة (٩) .

وهناك الكثير من الانهار الاخرى الصغيرة التي تجرى في مدينة دمشق وقد ساعدت كثرة الانهار في دمشق على توفر المياة في جميع مرافق الحياة في المدينة والى وجود المتنزهات الكثيرة والجميلة في معظم انحاء مدينة دمشق وضواحيها .

---

١ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٦ ،
Topographie Hist, P. 302.

٢ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ Topographie Hist , P. 304.

٣ . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٧٨ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٥ ،
Topographie Hist, P. 296.

٤ . معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، ضرب الحوطة ، ص ١٥٥ .
Topographie Hist , P. 299.

٥ . ضرب الحوطة ، ص ١٦٠ . Topographie Hist , P. 298.

٦ . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٦٧٣ ، ضرب الحوطة ، ص ١٦٠
Topographie Hist , P. 305.

٧ . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٠٨ . Topographie Hist , P. 295.

٨ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٤ . Topographie Hist , P. 294.

٩ . ضرب الحوطة ، ص ١٥٧ . Topographie Hist, P.305.

١٠ . المقـــابـــــر :-

وتقع المقابر العامة في دمشق في منطقة الصالحية التي تقع بازاء سفح قاسيـــون ، في طول مدى يشرف على دمشق وغوطتها . (١)

ويذكر ابن بطوطة ان بين باب الفراديس وباب الجابية والباب الصغير فـــي مدينة دمشق يوجد مقبرة فيها العدد الجمّ من الصحابة والشهداء من بعدهـــم ويعدد لنا ابن بطوطة هذه المزارات والمشاهد والقبور ويصف موقعها وشكلها (٢) .
وعلى بعد قليل من اسوار دمشق يوجد حقل يدفن فيه المسيحيون الذين يتوفون فـــي المدينة ، سواء في ذلك الكاثوليك والارثوذكسي والارمن ويوجد على بعد قليل مـــن اسوار دمشق حقل يدفن فيه المسيحيون الـ

ويوجد في وسط الحقل وبين القبور حجر من الرخام الابيض مربع ، ذراع فـــي ذراع تقريبا ، يقال انه الحجر الذى قطع عليه راس القديس جرجس ، والمسيحيون جميعهم يحترمون المكان احتراما كبيرا ، ويذهبون اليه يوميا ، وخاصة في ايام الاعياد المسيحية ليقبلوا الحجر أعظاما له . والحجاج جميعهم يأخذون قطعا منـــه . (٣) .

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .
٢ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٧-٩٨ .
٣ . Visit to the Holy Places , P. 141.

((الفصل الثاني / القسم الأول))

بنية المجتمع الدمشقي زمن المماليك

١ . فئات الخاصة / رجال الدولة والادارة .

١ . مقدمة

٢ . المماليك

٣ . وظائف أرباب السيوف (الجيش)

٤ . أرباب الوظائف الديوانية :-

١ . نيابة السلطنة
٢ . الحجوبية
٣ . نيابة القلعة
٤ . الوزارة
٥ . كتابة السر
٦ . ولاية المدينة
٧ . نظر البيمارستان
٨ . رئاسة الطب
٩ . رئاسة الكحالين
١٠ . رئاسة الجراحين

أرباب الوظائف الدينية :-

١ . المحتسب

٢ . قضاة القضاة

٣ . قاضي العسكر

٤ . المفتي

٥ . شاد الزكاة

٦ . شاد الاوقاف

٧ . شاد الدواوين

٨ . شاد مراكز البريد

٩ . نظار وخطباء وأئمة المساجد

١٠ . مشيخة الشيوخ

١١ . وظائف زعماء أهل الذمة

الفصل الثاني : بنية المجتمع الدمشقي زمن المماليك

١ . فئات الخاصة / رجال الدولة والادارة .

١ . مقدمة

بعد هزيمة التتار (١) في عين جالوت عام (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) خضعت بلاد الشام للمماليك (٢)، وقد قسم المماليك بلاد الشام من الناحية الادارية الى ستة أقسام تسمى " نيابات" ، تخضع للسلطة المركزية في القاهرة . أما هذه النيابات فهي : نيابة دمشق ، نيابة حلب ، نيابة طرابلس ، نيابة حماه ، نيابة صفد ، نيابة الكرك (٣)، وهذا استمرار للتقسيم الذى كان سائدا في العهد الايوبي .

---

١ . التتار : يرجع أصلهم الى أطراف الصين وتركستان ، وانطلقوا من هذه المناطق الى ما وراء النهر ، فغزوا سمرقند وبخارى والرى وهمذان ثم العراق ومن بعدها بلاد الشام ، أنظر : ابن الاثير ، عز الدين ابن ابي الحسن علي بن ابي المكارم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني ، " الكامل في التاريخ " ، ١٢ج ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ، ج١٢ ، ص ٣٥٩ ، سيشار اليه " الكامل في التاريخ " ، ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون المغربي ، " تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر " ، ٧ج ، بيروت منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٦١ ، ج٥ ، ص ٩٢٤-٩٢٥ ، سيشار اليه " تاريخ ابن خلدون " .

٢ . الدوادارى ، المنصورى ، بيبرس ، " زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " ، مخطوط ، مكتبة المتحف البريطاني رقم ٢٣٣٢٥ ، وهناك نسخة اخرى مختصرة تاريخ نسخها ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م ، في جامعة بيل رقمها ٧٥٨ Landbery ، وتوجد صورة عنها في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الاردنية ، ص ٣٨ ، سيشار اليه " زبدة الفكرة " ، المختصر في اخبار البشر ، ج٣ ، ص ٢٠٥ ، تاريخ ابن خلدون ، ج٥ ، ص ٧٩٥ ، ذيل مرآة الزمان ، ج١ ، ص ١٦-١٧ ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٥ ، السلوك ، ج١ ، ص ٤٤١ ، شذرات الذهب ، ج٥ ، ص ٢٩٢ .

٣ . صبح الاعشى ، ج٩ ، ص ٢٥٣ .

ونلاحظ ان تلك النيابات لم تنشأ في وقت واحد ، أو سنة واحدة ، بل نشأت بالتدريج حيث ان تاريخ انشاء نيابتي دمشق وحلب كان عام (٦٥٩هـ/ ١٢٩٠م) عقب هزيمة التتار مباشرة في عين جالوت ، اما نيابة الكرك فقد أنشأت عام (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) ومثلها نيابة صفد التي انشأت عام (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) أما نيابة طرابلس فترجع نشأتها الى عام (٦٨٩هـ/ ١٢٨٩م) ، بعد استفادتها من ايدي الصليبيين ،(١) اما حماه فقد اصبحت نيابة في عصر المماليك ، عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) وبعد وفاة المؤيد علي آخر ملوكها من بني أيوب (٢)

وقد قسمت كل نيابة من هذه النيابات الى اقسام ادارية صغيرة هي التي أطلق عليها القلقشندي اسم " النيابات الصغار " . (٣)

أما حكام هذه النيابات فهم من مماليك السلاطين ، وكانوا يختارون عادة من ارباب السيوف (٤) ، تميزا لهم عن ارباب القلم ، وكانوا بوجه عام مستقلين الواحد عن الآخر ، وكانت نيابة دمشق هي كبرى نيابات الشام في عهد المماليك ، حتى اطلق عليها القلقشندي اسم " نيابة الشام "(٥) أو " مملكة الشام " (٦) .

اما فيما يتعلق بحدود نيابة دمشق في العهد المملوكي فانها اتصفت بالتأرجح وعدم الثبات ، كغيرها من نيابات الشام الاخرى (٧)

---

١ . السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٧ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢١ .
٢ . السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣٣ .
٣ . صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٦ .
٤ . صبح الاعشى ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .
٥ . المماليك البحرية ، ص ٤٨ ، ٢٥٣ ، تاريخ سوريا ولبنان ، ص ٢٧٤-٢٧٦ .
٦ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٠-١٨٤
٧ . كان المماليك يقسمون دولتهم الى جملة اقاليم كل منها تسمى مملكة ، وتسمى الدولة كلها " الممالك الاسلامية " ، ولعل اصل هذه التسمية يرجع الى تقسيم صلاح الدين دولته بين ابنائه وكان كل منهم يحمل لقب (ملك) ، وكان اقليمه يسمى (مملكة) وقد ظلت هذه التسمية قائمة في عهد المماليك على الرغم من ان هذه الممالك الصغيرة اصبحت اقاليم ادارية ، انظر : صبح الاعشى ، ج ٩ ، ص ٢٥٣ .

وكان يتبع نيابة دمشق " نيابات صغرى " وولايات ، اما النيابات الصغرى فاهمها غزة ، القدس ، صرخد ، عجلون ، بعلبك ، حمص ، مصياف ، والرحبة ، مع ملاحظة ان غزة صارت نيابة قائمة بذاتها في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، ابان سلطنة " السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩/١٣٤٠م) وذلك عام (٧١١هـ/ ١٣١١م) (١) ، حيث كانت قبل ذلك حسب تعبير ابو المحاسن " كآحاد قرى البلاد الشامية ولم تكن قبل ذلك الا ضيعة من ضياع الرملة " (٢)

اما ولاية نيابة دمشق فهي عديدة اهمها : الرملة ، بيسان ، البقاع ، بيروت ، صيدا ، قارا (٣).

وكانت الادارة في النيابات الكبرى ، مركزية حتى ان الامور الطفيفة لا بد من الرجوع بشأنها الى دمشق (٤) . وكان يتولى امر مدينة دمشق والي ينظر في شؤون المدينة ويتحدث في امر الشرطة ، في حين كان يتولى امر ضواحي مدينة دمشق ، وهو الاقليم الذى يعرف باسم البر والي آخر (٥) .

كان المجتمع في دمشق بصفة عامة فيه قوتان كبيرتان ، لكل منها نفوذها ، الاولى ، طبقة المماليك وعلى رأسهم السلطان ، وكان لها نصيب الاسد من النفوذ والجاه ان لم

---

١ . الصفدى ، صلاح الدين خليل بن ايبك ، " الوافي بالوفيات " ، الاجزاء ١٣ ، ٢١ ، ٢٠ ، صدرت من مكتبة بودليان - اكسفورد رقم ١٢٣ ، مجموعة Arch Seld ويوجد نسخة عنها على ميكروفيلم بمكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية الارقام (٥٤٨ ، ٥٤٩) ج ١٣ ، الورقة ٧٤أ ، سيشار اليه " الوافي بالوفيات " ، " الدرر الكامنة " ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

٢ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٩٣ .

٣ . العمرى ، شهاب الدين ، " التعريف بالمصطلح الشريف " ، مطبعة العاصمة ، القاهرة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م ، ص ١٧٧ ، سيشار الية " التعريف بالمصطلح الشريف " .

٤ . زبدة كشف الممالك ، ص ٤٤ .

٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

يكن النصيب كله ، ومصدر ذلك سلطان الحكم وقوته والاخرى هي طبقة العلماء
تشمل العامة من تجار وصناع وزراع.

وهم الذين طبيهم الكد والكدح ، ولم يكن الواحد منهم يصل الى ثمرة عطه كلــه
لما كان ينوبهم من مظالم ومصادرات وضرائب مختلفة .

هذا الى جانب الاجناس المختلفة التي كانت تسكن دمشق في تلك الفترة.
وتنقسم دراستنا لبنية المجتمع الدمشقي الى قسمين :ـ
القسم الاول ويشمل فئات الخاصة / رجال الدولة والادارة.
القسم الثاني ويشمل فئات العامـة .

٢ . المماليـك :

كان المماليك يشكلون الطبقة العسكرية الممتازة في المجتمع التي استأثرت بالحكم وشؤون الحرب ، ونظر هؤلاء المماليك الى الاهالي على انهم اقل منهم درجة ،لا ينبغـي ان يشاركوا في الحياة الحربية ،واذا سمح لبعضهم المشاركة في شوءون الحكم فبالقـدر الذى تخوّله صلاحياتهم (١) كما سنرى عند حديثنـا عن الفئات العامة .ولهم في اصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم واسلوبهم الخاص في الحياة ، وعدم اختلاطهم بأهالي البـلاد ، سياج يحيط بهم ، ويجعل منهم طبقة ذات خصائص تعزلها عن المحيط الذى تعيش فيـه ، وتشير الشواهد التاريخية الى ان المماليك لم يكونوا جميعا من اصل واحد بل كان منهـم التركي والمغولـي والصيني والاسباني والالماني واليوناني والسلاقي ،وغير ذلك مـن الجنسيات العديدة التي حملها تجار الرقيق الى مصـر (٢) .

---

١ . عاشور ،سعيد ، " العصر المماليكي في مصر والشام " ،دار النهضة العربية،القاهرة، ١٩٦٥ ،ص ٣٠٨ ،سيشار اليه " العصر المماليكي " .

٢ .زبـدة الفكـرة ، ص ١٤١ ،ج ٩ .

فالسلطان قطز ابن اخت ملك خوارزم جلال الدين منجو برتي الذى قضت عليه جيوش جنكيز خان ، والسلطان قلاوون قفجاقي تركي من قبيلةبرج اغلى ببلاد القفجاق (١) والسلطان كتبغا مغولي الاصل جاء الى مصر أسيرا في موقعة حمص عام (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) والسلطان لاجين اصلة من احدى البلاد الواقعة على شاطيء بحر البلطيق (٢) ، وقد ظهر الرحالة " بيرو تافور " ان مندوب السلطان الذى استقبله بالقاهرة من قشتالة ومن مواليد اشبيلية (٣) .

وهؤلاء المماليك واخوانهم جاءوا الى مصر مع تجار الرقيق . وشجع هؤلاء التجار على جلب الرقيق من الجنسين سعة الاموال التي بذلها لهم السلاطين والامراء رغبة في الاكثار من مماليكهم حتى يكونوا سندا يعتمدون عليهم فضلا عن الرغبة في أبهة التطلك على اعداد عظيمة من الجند والحاشية ، وخير ما يوضح اقبال السلاطين على شراء المماليك وتشجيعهم للتجار على جلبهم قول المقريزى عن السلطان الناصر محمد أنه : " اكثر من جلب المماليك والجوارى وطلب التجار اليه وبذل لهم المال ، ووصف لهم حلى المماليك والجوارى ، وسيرهم الى بلاد الروم وبغداد وغير ذلك من البلاد . فكان التاجر اذا أتاه بالجلبة من المماليك بذل له فيها أغلى القيّم ، وأنعم على هؤلاء المماليك في يومهم بالملابس الفاخرة والحوائص الذهب والخيول والعطايا يدهشهم (٤) .

ويقدر ما في المملوك من مزايا وصفات طيبة ومواهب بقدر ما يرتفع ثمنه وبالعكس

---

١. زبدة الفكرة ، ص ١٤١ ، ج ٩ .

٢. Wiet,G,L'Egypt Arabe, Paris, 1937, P. 300.

٣. Tafur , Pero, Travels and Adventures , London,1920,P.72

سيشار اليه " Travels and Adventures ".

٤. السلوك ، ج٢ ، ص ٥٢٤ .

بقدر ما يكون فيه من عيوب بقدر ما ينحط ثمنه ، ولعل هذا هو السر في ان ملوكا مثل قلاوون عرف بالألفي ، لأنه اشترى بألف دينار ، وهو مبلغ كبير يستحق الفخر لانه يشير الى عظم مواهبه وحسن صورته (١).

وقد عني سلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم ، وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة ، وكان السلطان اذا اشترى عددا من المماليك فانه يرسلهم اولا الى الاطباء لفحصهم (٢) ثم يتسلمهم الطواشي المقدم (٣) على الطبقة (٤) وقد خصص لكل من هذه الطباق فقيه يحضر اليهم لتعليم القرآن والخط واحكام الدين وآداب الشريعة (٥)

واهتم السلاطين اهتماما بالغا بتربية مماليكهم ، فعينوا لهم مؤدبين من اكابر الامراء بالاضافة الى الفقهاء ومعلمي الفروسية ، وقام هؤلاء الامراء بفحص المماليك ومراقبة احوالهم وحركاتهم وسكناتهم ومعاقبة الخارج على آداب الدين او الدنيا عقوبة صارمة

---

١. زبدة الفكرة ، ص ١٤١ ، ج ٩ .

٢. Travels and Adventures ,P. 74.

٣. الطوشي : لقب عام للخصيان من الغلمان ، وقد ورد في المؤلفات التاريخية "الطواشي سانبخت الخادم" ، الذيل على الروضتين ، ج ١ ، ص ٣١٢ ، الباشا ، حسن ، "الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار" ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ، ١٩٥٧م. ص ٣٨٢ ، سيشار اليه "الالقاب الاسلامية" ، اما في عهد المماليك فكان لقب الطواشي يطلق على الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية ، وفي الحريم السلطاني ، وكانت لهم حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من اعيان الناس" ، الخطط ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .

٤. طبقة جمع طبقات ، وهي ثكنات المماليك في القلعة وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد آخر ، الخطط ، ج ٤ ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ .

٥. السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .

بمعرفة الطواشي (١) ، وذكر المقريزى ان هؤلاء الطواشية كانوا في عصره ذوى حرمة وافره وكلمة نافذة ، ويعد شيخهم من اعيان الناس(٢) .

كذلك ذكر ابو المحاسن ان الطواشي " كانت له سطوة ومهابة على المماليك السلطانية بحيث انه كان لا يتجرأ أحد ان يمسر من بين يديه كائنا من كان ،بحاجة أو بغير حاجة ،حيثما وقع بصره عليه أمر بضربه (٣) .

والواقع ان الطواشية كانوا مسؤولين الى حد كبير عن تربية المماليك ،كما يفهم من قصة ذكرت عن ابي المحاسن فحواها ان السلطان الناصر محمد سمع ان احد مماليكه شرب خمرا فأمر بضربه بالمقارع حتى مات .ثم قطع جوامك مقدمي الطباق من الطواشية، وانزلهم من القلعة لانهم فرّطوا في تربية المماليك (٤) .

على انه في الوقت الذى فرض السلاطين والامراء هذه الرقابة الصارمة على مماليكهم الا انهم لم يضنّوا عليهم بالارزاق والاموال ،حيث خصصوا لهم الاطعمة المختلفة من لحوم وحلوى وفواكه (٥) كما صرفوا لهم الكسوات الفاخرة من القطن البعلبكي والكتان الخام المتوسط . (٦)

وقد ذكر ابن فضل الله العمرى" وصية مقدم المماليك " ، وهي توضح كيف كان مقدموا المماليك يوّصون بحسن معاملتهم ويوجهون رعايتهم ،فطلب من المقدم أن يكرمهم" وليعلم انه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم وليأخذ بقلوبهم مع اقامة المهابة التي يخيّل انه معهم وخلفهم وبين ايديهم .وليكن لاحوالهم متعهدا ، ولا مورهم متنفذا ،

---

١ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .
٢ . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .
٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٣٨ .
٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٧٢٨ ، ابناء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .
٥ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .
٦ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .

وليستعلم اخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ، ويتعرف على ما هم عليه مما لا يخفى عليه فانهم وان لم يكونوا اهلا فهم جسيرة (١)

واذا شب المملوك وادرك سن البلوغ، بدأ يعلمه فنون الحرب والفروسية (٢) ، حتى اذا انتهت هذه المرحلة التعليمية خرج من الطباق وانتقل الى دور الخدمة السلطانية ، مرتبة بعد اخرى حتى يصبح من الامراء .

وقد أورد المقريزى وصفا لما جرت به العادة من الاحتفال عند تأمير السلطان مملوكا من المماليك . وأشار الى اليمين الذى يقسمه المملوك عندئذ للدلالة على أمرته وهما فيما بعد يبدو يمين الاخلاص للتبعية للسلطان (٣) على انه من الملاحظ ان فرص الترقي لم تكن مهيأة لجميع المماليك بالتساوى اذ يبدو ان الحصول على لقب الامارة كان مهيئا للمماليك السلطانية بنسبة أكبر بكثير منها لمماليك الامراء وذلك كما ورد عند القلقشندى عن المماليك السلطانية " وهم ارفع الاجناد شأنا ، واعظمهم قدرا ، وأشدهم قربا ، وأوفرهم اقطاعا ، ومنهم تؤمر الامراء رتبة بعد رتبة" (٤) .

ومهما كان الامر فان المملوك اذا وصل الى مرتبة الامارة اصبح على حد تعبير القلقشندى " سلطان مختصر (٥) له اسطبل ، اى مجموعة من المباني تشمل ، مسكنه وبيوت مماليكه ، وموضع خيوله ، ومخازن مؤونتها وسروجها ، ويصبح لكل أمير موظفون من الطشت خاناه ، والفراش خاناه ، ويصبح له من اجناده استاددار ورأس نوبة ودوادار ، كأنه سلطان ، واطلق على بيوت الامراء في العصر المملوكي اسم " البيوت الكريمة " ، كما اطلق اسم البيوت الشريفة " (٦) على بيوت السلطان (٧) .

---

١ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٨-٩٩ .
٢ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .
٣ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .
٤ . صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ١٥-١٦ .
٥ . صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٦٠ .
٦ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١١١ ، حاشية رقم (٤)
٧ . صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٦٠ .

ويلاحظ دائما ان المملوك يتحرر ويصبح أميرا ، ويقتني بدوره عددا من المماليك ، فانه يوليهم حظا من العطف والرعاية مثلما نال هو من استاذه فيما قبل ، فكان الامير لا يأكل الا وجميع أجناده معه ويأخذ غلمان جنده الطعام كل يوم من مطبخه ، واذا رأى نارا توقد سأل عنها فقال له : فلان اشتهى كذا ، فيغضب ممن لا يأكل معه (١) .

وأعلى درجات الامراء أمير مائة مقدم ألف وتدق على بابه ثمانية أحمال ، (٢) طبلخاناه (٣) وزمران واربعة انفره ، ويليه في المرتبة امير طبلخانة وتدق على بابه ثلاثة احمال طبلخاناة ، ونفيران ثم تطورت واصبحت طبلان وزمران ، ثم أمير

---

١ . الخطط ، ج ١ ، ص ٨٧-٨٨ .

٢ . أمير مائة مقدم الف : -

اعلى مراتب الامراء في العهد المملوكي ، وهذه المرتبة خاصة با رباب السيوف ، ويكون في خدمة صاحبها مائة مملوك وهو في نفس الوقت مقدم على الف جندى من اجناد الحلقة في وقت الحرب ، ابن القلانسي ، ابو يعلي حمزة ، " ذيل تاريخ دمشق " ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٩١ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٩ . حاشية رقم (١) .

٣ . الطبلخاناه :

مكان خاص لحفظ الطبول والابواق وما يتبعها من الالات ، وهي كلمة فارسية يقصد بها ايضا فرقة الموسيقى السلطانية ، وقد جرت العادة ان تدق مرة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكن صحبة السلطان في الاسفار والحروب ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٢ ، وكانت فرقة الموسيقى الطبلخاناه السلطانية تتكون من اربعة طبول واربعين من الكوسات واربع زمارات وعشرين نقاره ، ولم يسمح بتكوين فرقة موسيقية غير الفرقة السلطانية الا لامراء المماليك البارزين وهم الذين يطلق عليهم اسم امراء الطبلخاناة ، صبح الاعشى ج ١٢ ، ص ٧-٨ ، وقد بلغ عددهم ثلاثين اميرا وتتكون فرقة كل منهم من عشرة رجال ، وزمارتين واربع نقارات ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٧٤ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨-١٦ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٥٢ ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .

عشـرة (١) ، فأمير خمسة (٢) ، وشغل بعض هؤلاء الامراء وظائف الدولة على ان بعضهم عاشوا دون ان تكون له وظيفة سوى رتبته العسكرية في جيش السلطان وقد ارتبطت هذه الوظائف بعدد من التقاليد المماليكية ، فوظيفة أمير كبير او امير سلاح او أمير مجلس يجب ان يكون صاحبها من مقدمي الألف ، ووظائف شاد الشرابخاناه (٣)

والدوادار الثاني يجب ان يكون صاحبها من امراء الطبلخاناة ، وهكذا (٤) هنا نلاحظ ان الانضمام برتبة الامارة لم يقتصر على المماليك وحدهم ، وانما وجد حالات انعم فيها السلاطين بهذه الرتبة على ابناء الامراء المتوفين بامرة خمسة او عشرة وذلك رعاية لسلفهم ، وليس بموجب اى حق اقطاعي (٥) . وقد تمتع معظم امراء المماليك بثروة ضخمة

---

١ . أمير عشرة : مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك وصغار الولاة من افراد هذه المرتبة ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .

٢ . أمير خمسة : اصغر مرتبة من مراتب الامراء بدمشق ، ويعتبر اصحابها من كبار الاجناد وكانت هذه الرتبة تمنح لاولاد الامراء المتوفين من باب التشريف ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٤ ، ١٨ ، العصر المماليكي ، ص ٣٩٢ ، ويكون بخدمته خمسة مماليك ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ .

٣ . الشرابخاناه : بيت الشراب ويحوى مختلف انواع الاشربة ومنها الادوية التي يحتاج اليها السلطان فضلا عن اواني نفيسة مصنوعة من الصيني الفاخر ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠ ، نهاية الارب ، ج ١٨ ، ص ٢٢٤ .

٤ . الدوادار : وتعني ممسك الدواة ، والوظيفة اسمها الدوادارية وصاحبها يحمل دواة السلطان ، او الامير ، ويقوم بابلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى اليه ، العصر المماليكي ، ص ٤١٦ .

٥ . زبدة كشف الممالك ، ص ١١٤-١١٥ .

حيث نطقت قصورهم بمظاهر الترف (١) والنعيم، اما مصدر هذه الثروة فهي الاقطاعات السخية التي اجراها السلاطين على الامراء والجند كل حسب درجته (٢) ورتبته، وقد ذكر القلقشندي ان اقطاع الامير الكبير مائتي الف دينار (٣) واقطاع امير طبلخاناة بين ثلاثين الف دينار وثلاثة وعشرين الف دينار في حين ان المشراوات كان اعلاها سبعة الاف دينار (٤) واجناد الحلقة اعلاها الف وخمسمائة دينار .

وكان نصيب الامراء والجنود من الاقطاعات في مصر كما يلي :

	قبل عام ١٣١٥م	عام ١٣١٥م
امير مئة	٨٠،٠٠٠ - ٢٠٠،٠٠٠	٨٥،٠٠٠ - ١٠٠،٠٠٠ دينار حبيشي (٥)
امير طبلخانه	٢٣،٠٠٠ - ٣٠،٠٠٠	١٥،٠٠٠ - ٤٠،٠٠٠ = =
أمير عشرة	٩،٠٠٠ - أو أقل	٥،٠٠٠ - ١٠،٠٠٠ = =
أمير خمسة	٣،٠٠٠	———
مماليك سلطانية		
المملوك الواحد	——— ..	١،٠٠٠ - ١٥٠٠ دينار (٦)
أجناد الحلقة	٢٥٠ - ١،٥٠٠	٣٠٠ - ١،٠٠٠ = =

١. الخطط، ج ٣، ص ١١٧-١١٨.

٢. Poliak ,A.N, "Feudalism in Egypt,Syrial, Palestine and Labanon," London, 1939,P.99. "Feudalism " سيشار اليه

٣. صبح الاعشى، ج ٤، ص ٥٠ .

٤. الخطط، ج ٣، ص ٣٥٠-٣٥١ .

٥. الدينار الحبيشي : دينار مسمى لا حقيقة، يستعمله اهل ديوان الجيش في الاقطاعات صبح الاعشى، ج ٣، ص ٤٣٨، ويرى بولياك ان قيمته تتراوح عام ١٣١٥ م ما بين ٧-١٠ دراهم، وفي عام ١٣٧٥ وصلت الى ٣ 1/3 درهم

٦. صبح الاعشى، ج ٤، ص ٥٠-٥١ .

اما أقطاعات بلاد الشام فلا تقارب هذا المقدار بل تكون بقدر الثلثين في جميع ما تقدم ما عدا كبار المقدمين بمصر فليس بالشام من يصل الى علو منزلتهم سوى نائب دمشق (١) .

وكان الاقطاع في العصر المملوكي امرا لا دخل لحقوق الملكية او احكام الوراثة فيه فكان المقطع يحل في الاقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وايراداته ثم يؤول جميعه الى السلطان بمجرد انتهاء مدة الاقطاع المتفق عليها او بسبب وفاة المقطع اذا كان الاقطاع مدى الحياة او بسبب اخلال المقطع بشروط العقد القائم (٢) .

وكان السلطان يتولى بنفسه - عادة - توزيع الاقطاعات ، فاذا ما تقدم اليه مملوك وسأله عن اسمه وأصله وتاريخ مقدمه الى مصر ، واستاذه الذى اشتراه من تاجره ، وعن حياته التعليمية من الكتاب في الطباق الى ميدان الفروسية (٣) ... فاذا وقع اختياره عليه ليمنحه اقطاعا أمر ناظر الجيش ان يكتب ورقة مختصرة تسمى " المثال " (٤) مضمونها خير فلان كذا ر ويكتب اسم المقطع ثم يناولها للسلطان ، وبعد ان يوقع عليها السلطان يعطيها الحاجب لمن رسم له فيقبّل الارض ثم يعاد " المثال " الى ديوان الجيش فيحفظ فيه (٥) .

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٥٠-٥١ .

٢ . السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٩ ، حاشية رقم (٣) .

٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٥١-٥٢ .

٤ . المثال : عبارة عن ورقة ، اى وثيقة رسمية تصدر عن ديوان الخراج الى كل جندى او مملوك مبينا بها مقدار ما خصه بالفدان من الارض الزراعية التي يستغلها وحدودها واسم الاقليم ، او القرية ، والحوض الكائنة فيه والتي خصصت له ، الخطط ، ج ١ ، ص ٨٧ ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٩١ ;

٥ . صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٣ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٠ .

وقد اختص السلطان باصدار مناشير الامراء واجناد الحلقة، اما اجناد الامراء فصدرت مناشيرهم عن امرائهم (١)، كذلك روعي ان يعين في منشور الامير ثلث الاقطاع للامير نفسه ولا جنادة الثلثان (٢)

اما الامراء والمماليك المسنون الذين لا يتحملون متاعب الاقطاع، فاعتاد سلاطين المماليك ان يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية، تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها، ويذكر المقريزى انه جاء وقت اصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في الدولة المملوكية "عليها اقطاعات الامراء والاجناد" (٣)، ليس للنواب في الممالك التابعة للدولة المملوكية اى تدخل في الامراء مثال : اذا مات امير صغير او كبير يقوم السلطان بتأمير من يريد مكانه، اما جند الحلقة فمن مات منهم يحق للنائب ان يستخدم عوضه (٤) . وان يكتب بذلك في ديوان الجيش في تلك المملكة ويجهز كتابه مع ساعي البريد ليقوم بايصاله الى ديوان الجيش في القاهرة (٥) .

نلاحظ مما تقدم ان الاقطاع لم يكن ينتقل في الوراثة كما كان قبل عهد المماليك، حيث يذكر المقريزى في عهد آل زنكي انه "اذا مات الجندى اعطي اقطاعه لولدة وان كان صغيرا رتب معه من يلي أمرة حتى يكبر، فكانوا يقولون : الاقطاعات املاكنا يرثها اولادنا الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها وبها اقتدى اكثر ملوك مصر" (٦) .

ولم تقتصر الاقطاعات في العصر المملوكي على الاراضي بل تعدتها الى جميع موارد الدولة، ويذكر القلقشندى في ذلك "اما في عهد المماليك فقد خرجت الامور

---

١ . السلوك، ج ١، ص ٦٧٣-٦٧٤ .
٢ . الخطط، ج ٣، ص ٣٥٠ .
٣ . الخطط، ج ١، ص ٨٨-٨٩، ١٠٣-١١١
٤ . التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٩٧، صبح الاعشى، ج ٤، ص ٥١ .
٥ . صبح الاعشى، ج ٤، ص ٥١
٦ . الخطط، ج ٢، ص ٢١٦، راجع ابراهيم عواد، لبنان في عهد المماليك، "مجلة المشرق" سنة ١٩٤٢-١٩٤٣، عدد ٤٠، ص ٤٦ .

عن القواعد الشرعية ،وصارت الاقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الاموال من خراج الاراضي والجزية وزكاة المواشي والمعادن والعشر وغير ذلك ،ثم تفاحش الامر وزاد حتى اقطعوا المكوس على اختلاف اصنافها"(١) .

ظل الاقطاع شاملا الاراضي والمعادن والمكوس حتى قام الملك الناصر محمد قلاوون بمسح اراضي الدولة المملوكة (راكها) (٢) ،وابطل عدة مكوس وجعل الاقطاع مقتصرا على الاراضي عام (٧١٥هـ/١٣١٥م) (٣) ،كذلك اصبح من القواعد المستقرة. منذ الروك الناصري الا يكون الاقطاع وحدة متماسكة من الارض،بل يوزع اقطاع الفرد بين عدة جهات مختلفة وهكذا اصبح زمام القرية الواحدة مقسم بين عدة مقطعين لكل منهم اتباعه الذين يدفعون المستحق عليهم لسيدهم مباشرة أو لمندوبه المسمى "القاصد"(٤)وفي جميع هذه الاحوال لم يتعد المقطع حدوده المرسومة له ، ولم يأخذ من اقطاعه الا ما جرت به العادة ،فاذا ظلم أحد جاز للمظلوم ان يدفع أمرة الى الديوان السلطاني او الى السلطان في دار العدل (٥) .

كان يقوم بعملية الروك في دمشق نائب السلطنة وناظر الجيش وعدد من المباشرين ، (٦) .

وقد اصطلح على تسمية ما يكتب في الاقطاعات للامراء والجند والعربان والتركمان بالمناشير . (٧)

---

١. صبح الاعشى ،ج٣،ص١١٧.

٢. الروك ،مسح الاراضي لحصرها وتقديرها لاعادة توزيع اقطاعاتها بشكل يراه السلطان مناسبا ،راجع: طرخان،"النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط"،القاهرة،١٩٦٨، ص٩٥،سيشار اليه " النظم الاقطاعية " .

٣. الخطط ،ج٣،ص٣٥٣،النجوم الزاهرة ،ج٩،ص٤٢.

٤. Feudalism ,P. 104.

٥. صبح الاعشى ،ج١٣،ص١١٨.

٦. صبح الاعشى ،ج١٢،ص٢٤٨،٥٢١.

٧. صبح الاعشى ،ج١٣،ص١٥٧،التعريف بالمصطلح الشريف ،ص٨٨.

اما الاسباب التي تدعو الى " الروك" فهي كثيرة منها اسباب مالية واسباب اقتصادية واخرى سياسية ، فمن الاسباب المالية ان يشكو بعض الامراء من تراكم الخراج عليهم وعجزهم عن الدفع، أو ان يتذمر الفلاحون من تعنت الامراء معهم وكثرة المغارم التي يخضعون لها (١) ، ومن الاسباب الاقتصادية التي تدعو لاعادة النظر في توزيع الاقطاعات ، ان يطرأ تجديدات على الاراضي من اصلاح او اعمار او اهمال او فتح بلاد جديدة حتى يؤدى الى زيادة الخارج او نقصانه (٢) ، وبالنسبة لدمشق فانه في عام (٧٣٨هـ/١٣٣٧م) قام نائب دمشق الامير سيف الدين تنكز ونائب حلب علاء الدين الطنبغا بفتح بلاد سيس(٣) فلما علم السلطان بذلك ، اقطعها اليه والى نائب دمشق سيف الدين تنكز ، كما اقطع بعضا منها للتركمان وبعض الاجناد (٤) .

وقد تكون عملية اعادة النظر في توزيع الاقطاعات لاسباب سياسية كان يوزع السلطان اقطاعات على الموالين اليه بدلا من الخائنين له ، والمشكوك في ولائهم (٥) ، ومن امثلة ذلك اقطع السلطان قطز مدينة سلمية لآل مهنا بعد موقعة عين جالوت نتيجة وقوفهم لجانبه ضد التتار (٦) ، وتأمير السلطان الظاهر بيبرس عيسى بن مهنا بن نافع على عربان الشام وتوفير الاقطاعات له ومن امثلة ذلك ايضا منح السلطان الملك الناصر الاقطاعات الى مهنا بن عيسى بعد عودته من العراق عام (٧١٦هـ/١٣١٦م) حيث لحق مهنا بخذابندا وبقي عنده الى ان توفي فعاد الى الشام وارسل ابنيه موسى ومحمد للصلح ، مع ان السلطان الناصر الذى اكرمه منحه الاقطاعات (٧) .

---

١ . النظم الاقطاعية ، ص ٩٥ .

٢ . النظم الاقطاعية ، ص ٩٧ .

٣ . سيس ، بلدة كبيرة ذات قلعة باسوار ثلاثة على جبل مستطيل حولها بساتين ونهر صغير، " تقويم البلدان " ، ص ٢٥٧ ، وهي العمل السادس من اعمال حلب المعروفة ببلاد الارمن (صبح الاعشى) ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .

٤ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ ، النظم الاقطاعية ، ص ٧٣ .

٥ . النظم الاقطاعية ، ص ٩٨ .

٦ . ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٠٤ .

٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٦

نلاحظ من هذه الامثلة السياسية محاولة السلاطين كسب ود عربان الشام مما يدلنا على اهمية دورهم في الحياة السياسية فكان السلطان باستمرار يحاول كسبهم بتخصيص الاقطاعات لهم . (١)

وقد كانت الثروة التي تمتع بها بعض الامراء والمماليك كبيرة جدا بحيث يذكر ابن كثير في حوادث عام (٧١٠هـ/١٣٢٠م) ان السلطان طلب الامير سيف الدين السلار من دمشق فحضر اليه فعاتبه ،ثم استخلص منه امواله وحواصله في مدة شهر ،ثم قتل بعد ذلك " فوجد معه من الاموال والحيوان والاسلحة والمماليك والبغال والحمير ايضا والرباع شيئا كثيرا ،اما الجواهر والذهب والفضة فشيء لا يحد ولا يوصف في كثرته . وحاصل الامراء انه استأثر لنفسه طائفة كبيرة من بيت المال واموال المسلمين تجرى اليه ،ويقال انه كان مع ذلك كثير العطاء كريما محببا الى الدولة والرعية (٢)

وفي عام (٨٧٥هـ/١٤٦٨م) وصل الخبر بوفاة الامير فارس السيفي دولات باى الزردكاش من دمشق ،وكان في بداية أمره دودارا في خدمة استاذه مقدما عنده وحصل في ايامه وهو داودار اموالا جمه وبنى دورا ومساكن عظيمة البناء واشترى ضيعا ورزقا وصار يعد من المتمولين ووجد صحبته عند وفاته خمسة آلاف دينار ولبوس غيرها (٣).

وقد خلف الامير سيف الدولة تنكز الذى تولى السلطنة بدمشق في عصر السلطان الناصر وتوفي عام (٧٣٥هـ/١٣٣٤م) من الذهب الفين ثلثمائة الف وست وثلاثون الف دينار ومن الدراهم الفضة الف الف وخمسون الف درهم ومن الجوهر واللؤلؤ

---

١ . المختصر في اخبار البشر ،ج ٤ ،ص ٨٣ ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٢٠٧ .
٢ . البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ٥٨-٥٩ .
٣ . انباء الهصر ،ص ٢١ .

والزركش والقماش ثمانمائة ،ثم استخرج بعد ذلك من بقايا امواله اربعين الف دينار والف الف ومائة درهم" (١) .

وقد تمتع امراء المماليك بمكانة كبيرة في المجتمع ومنزلة رفيعة عند السلاطين ،كما يبدو ذلك جليا في العهد الصادر عن المنصور وقلاوون الى ولده الاشرف خليل ومنه يوصيه برعاية الامراء " فهم السور الواقي .. وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك .... فكن لجنودهم متحببا ولمصالحهم وآرئهم مستصوبا ،وفي شكرهم مسهبا " (٢) .
وقد بعث السلطان الظاهر بيبرس وهو في اوج مجده وقوته برسالة من دمشق الى امرائه بمصر ،فقال لكبار الامراء" ولدكم" ولبقيتهم " اخوكم ووالدكم يسلم عليكم ويتشوق اليكم وايثاره الا يفارقكم وانما قدمنا راحتكم على راحتنا ... (٣) .

وكثيرا ما نزل السلطان من قصره ليعود اميرا مريضا (٤) ،فاذا دخل عليه اثناء زيارته بعض كبار الامراء قام لهم (٥) ،واذا مات احد الامراء مشى السلطان في جنازته ،وقد كان نفوذ الامراء يطغى احيانا على نفوذ السلطان المماليك في الشؤون العامة فضلا عن الشؤون الخاصة المتعلقة برغباته وطعامه وأفراحه ومن الواضح أن نفوذ كبار الامراء وتحكمهم في السلاطين ازداد وضوحا في حالة قيام سلطان صغير السن في منصب السلطنة ،مثلما حدث للسلطان الناصر محمد بن قلاوون عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م) وعام (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)من ازدياد نفوذ وسلطة الاميرين بيبرس الجاشنكير وسلار (٦) .

---

١. الخطط ،ج٣ ،ص ٢٤ ،بدائع الزهور ،ج١ ،ص ١٧٢ .
٢. صبح الاعشى ،ج١٠ ،ص ١٦٦-١٧٣ .
٣. السلوك ،ج١ ،ص ٥٩٩ .
٤. النجوم الزاهرة ،ج٥ ،ص ٣٧٦-٣٧٧ .
٥. النجوم الزاهرة ،ج٩ ،ص ٥٧ .
٦. النجوم الزاهرة ،ج٨ ،ص ١٧٥ ،٢٧٥

ويذكر ابن الفرات في تاريخه في حوادث عام (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) أن الملك المنصور استدعى الامير سنقر الاعسر شاد الدواوين بدمشق من دمشق على خيل البريد فلما وصل الى بابه بقلعة الجبل بمصر أكرمه وقال له : اعلم انني ما اشتريتك وأمرتك ووليتك شاد الدواوين بالشام الا علماً مني انك تنصحني وتحصل اموالي وتنهض في مصالح دولتي ، فالتزم بتحصيل الاموال فخلع عليه وفوض له مضافا الى شد الدواوين بالشام الحصون بسائر الممالك الشامية والساحل وديوان الجيش فعاد الى دمشق وتعاظم في نفسه وكثر تجبره (١)

هذه الرواية توضح لنا مدى ثقة السلاطين بمماليكهم واعتمادهم عليهم في تسيير امورهم في جميع انحاء الدولة المملوكية .

والمعروف ان الامراء ومماليكهم لم يحاولوا الزواج من اهل البلاد ،بل اختاروا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللاتي جلبهن التجار (٢) ،كذلك السلطان رسم للقضاة والشهود الا يعقد احد منهم قران مملوك من مماليك السلطان الا باذنه (٣) ، ويستثنى من ذلك بعض الحالات كما حدث ايام الظاهر برقوق عندما رخص للمماليك بالاختلاط باهل البلاد والزواج من نساء اهل البلاد من غير المماليك (٤) .

ومن امثلة البعد الفاصل بين طبقة المماليك وسائر الاهالي ان الوظائف الادارية الهامة ظلت وقفا على المماليك .(٥)

---

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج٨ ، ص ٩٠

٢ . The Mamluke or Slave ,P. 225.

٣ . انباء الغمر ، ج٢ ، ص ١٥١ ، بدائع الزهور ، ص ٣٢٨ .

٤ . الخطط ، ج٣ ، ص ٣٤٧ .

٥ . The Mamluke or Slave , P. 225-226.

دأب السلاطين في الدولة المملوكية الى تحذير الناس من انتقال مملوك من المماليك عن طريق البيع الى كاتب او عامي ، اى الى احد من غير المماليك " ومن كان عنده مملوك فليبعه ، ومن عثر عليه بعد ذلك ان عنده مملوكا فلا يلوم الا نفسه (١) ، غير ان هذا التحذير بذاته يدل على وجود المماليك عند عامة الناس ، هذا فضلا عن قول المقريزي ان الخوف كان يستولي على قلوب الناس عند اذاعة مثل هذا التحذير السابق ، فيبيعون مماليكهم ويخفون بعضهم (٢) .

وهذه العزلة الاجتماعية التي عاش فيها المماليك جعلتهم يشعرون دائما بانهم اغراب عن اهل البلاد ، مثال ذلك قول السلطان الظاهر بيبرس في الامير بدر الدين بيسري " هذا ابن سلطاننا في بلادنا " (٣) واختارت زوجة احدى السلاطين لابنها ابنة احد الامراء لان هذه الزوجة جاءت الى مصر مع زوجة الامير " فمالت اليهم للجنسية (٤) ولذا لم يكن عجبا ان بعض المماليك لم يفهم العربية الا قليلا ، وانهم فيما بينهم يتحدثون باللغة التركية مع تنوع اجناسهم واصولهم (٥) .

من الواضح ان هذه العوامل مجتمعة ادت الى شدة الترابط بين المماليك وكانت من اقوى الروابط بينهم ، الاستاذية ورابطة الخشداشية ، اما رابطة الاستاذية فهي الرابطة التي تربط المملوك بسيده ، اى استاذه الذى اشتراه رقيقا في صغره ، وتعهده بالتربية والرعاية ، حتى كبر واعتقه ، وكانت هذه الرابطة على درجة من القوة جعلت الكثيرين ينصون في الحجج الخاصة باوقافهم على تخصيص جزء من ريع الوقف

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ ، السلوك ، ج ١٢ ، ص ٣١٣ .

٢ . السلوك ، ج ١٢ ، ص ٣١٣ .

٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ ، السلوك ، ج ١٢ ، ص ٣١٣ .

٤ . زبدة الفكرة ، ورقة ٢٢٢ .

٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٠٨ .

على رتبة الواقف ، فان لم تكن له رتبة " صرفت على رتبة استاذه " (١) اما رابطة الخشداشية - اى الزمالة - فكانت اقوى الروابط فيما بين المماليك جميعا بل ان نظام التعاقب الوحيد الذى جرى عرفهم عليه كان قائما عليها . (٢)

كانت العزلة الاجتماعية التي عاش فيها المماليك سببا في جعلهم يحتفظون باخلاقهم وطباعهم على مر السنين دون ان يتأثروا باخلاق اهل البلاد وعاداتهم كما ظل المماليك المجلوبون من الخارج موردا مستمرا يحيى طباعهم الاولى ويذكرهم باصولهم واذا وجدت وجوه اختلاف بين مسلك المماليك في القرن السابع الهجرى ومسلكهم في القرن العاشر الهجرى فمرجع ذلك الى اختلاف نظامهم الاجتماعي والحربي واهمال الاسس التي قامت عليها تربيتهم ونشأتهم الاولى ، وذلك ان المماليك الاجلاب لم يعودوا يأتون الى مصر صغارا بل جاء بعضهم بعد بلوغ سن الرشد ، ثم ان السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقيه ليربيهم بالاداب والحشمة والحرمة (٣) وتركوهم وشأنهم كما سمحوا لهم بالنزول من طباقهم وتهاونوا معهم في اخطائهم (٤) .

---

١ . عبد اللطيف ابراهيم علي ، " دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المماليك " ، مجلدا ، ص ٣٩ . سيشار اليه " دراسات تاريخية " .

٢ . زيادة ، محمد مصطفى ، " بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دول المماليك بمصر " ، مجلة كلية الاداب ، المجلد الرابع ، الجزء الاول ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٨١- ٨٢ .

٣ . السلوك ، ج ١٢ ، ص ٥٢٤ .

٤ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ -٣٤٨ .

٣ . وظائف ارباب السيوف :

الجيش :-

يقسم الجيش المملوكي بشكل عام الى ثلاثة اقسام : (١)

أ . اهل الحلقة (٢) وهم من الجند النظامي وحرس الوالي الخاص.

ب. المماليك السلطانية : وهم مشتريات السلطان وجلبنانة وما تبقى عنده من مماليك من سبقه في السلطنة ومرتباتهم جميعا من ديوان المفرد (٣)

جـ. مماليك الامراء : وهم من المماليك التابعون للامراء مباشرة ومنهم تتألف الوحدات الحربية التي يذهب بها الامراء مع السلطان في حروبه (٤)

اما مدينة دمشق فقد ضم جيشها مماليك الامراء واجناد الحلقة ،يضاف الى هذين النوعين المتطوعين والرديف الذين يدعون في ايام الحاجة والشدة ،فقد قدّر عدد الجيش الذى كان باستطاعة المماليك جمعه بين ٤٥،٠٠٠ و ٦٠،٠٠٠ وكان يتألف من جميع العناصر التي تسكن المنطقة (٥) ،حيث اشتمل جيش دمشق في العهد المملوكي

---

١. زبدة كشف الممالك ،ص ١٠٤-١٠٥.

٢ . اجناد الحلقة : من اهم اقسام الجيش المملوكي من حيث حيازة الاقطاعات ،فهم قلب الجيش المملوكي والاصل في التوزيع الاقطاعي ،ويبلغ اقطاع الواحد من مقدمي الحلقة في مصر الى ١٥٠٠ دينار في السنة ،اما اجناد الحلقة فمتوسط اقطاع الجندى منهم ٢٥٠ دينار في السنة ،اما اقطاعات الشام فتكون بمقدار الثلثين ، نهاية الارب ،ج ٨ ،ص ٢٠٢ ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٥٠ ،الخطط ،ج ٣ ،ص ٥٣ ، زبدة كشف الممالك ،ص ١١٦ ،النظم الاقطاعية ،ص ٥٢٥ ، Feudalism, P.2. Ayalon, David, "The Halaqa" Bulletin of the School of Oriental and African Studies, London. Vol.XV, 1953, PP. 448-464, Ayalon D., 'Halaka', E.I. ,Vol. III, P.99.

٣ . ديوان المفرد : وهو الديوان الذى يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليف وكسوة وايرادات من البلاد المفرده له ،صبح الاعشى ،ج ٣ ،ص ٤٥٧ .

٤ . النجوم الزاهرة ،ج ٦ ،ص ٢٨٦-٢٨٧ ،انباء الغمر ،ج ٩ ،ص ٢٢٦ .

٥ . دمشق في عهد المماليك ،ص ٦٥ .

على عناصر مختلفة من ترك وجركس وروم وروس (١) وربما يقصد بالروم والروس الجند القادمين من الامبراطورية البيزنطية (٢) .

كما ضم جيش دمشق فئات من التركمان المستخدمين والمتميزين عن صفة الترك وزيهم (٣) وقد اورد ابن شاهين الظاهري احصائية بيّن فيها عدد جيش النيابات الشامية في عهد المماليك وخاصة الملك الناصر محمد بن قلاوون عام (٧١٥هـ/١٣١٥م) يمكن وضعها في جدول على النحو التالي :-

اسم المدينة	اجناد الحلقة	مماليك الامراء
دمشق	١٢٫٠٠٠	٣٫٠٠٠
حلب	٦٫٠٠٠	٢٫٠٠٠
طرابلس	٤٫٠٠٠	١٫٠٠٠
صفد	١٫٠٠٠	١٫٠٠٠
غزة	ـــ	١٫٠٠٠
المجموع	٢٣٫٠٠٠	٨٫٠٠٠ (٤)

نلاحظ من هذا الجدول ان مجموع الجيش المملوكي في بلاد الشام بلغ ٣١٫٠٠٠

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٢

٢ . Urban Life , P. 26.

٣ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .

٤ . زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ -

مملوك ما بين جندى حلقة ومماليك امراء وقد شكل جيش دمشق في تلك الفترة ٠٠٠ر١٥ مملوك اى ما يعادل النصف من جيش بلاد الشام باكمله وتأتي مدينة دمشق في المرتبة الاولى بالنسبة لعدد الجيش الموجود في كل مدينة في عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م).

ويذكر المقريزى انه كان للظاهر بيبرس ١٢ ألف جندى خاص وهؤلاء كان ثلثهم بمصر وثلثهم بدمشق وثلثهم بحلب وانه كان يطلبهم عند الحاجة (١).

اما بالنسبة لعدد الامراء في جيش [illegible] كل من دمشق وحلب فكان على النحو التالي :

اسم المدينة	أمير مئة	أمير طبلخانه	أمراء من رتب مختلفة
دمشق	١٢	٢٠	٦٠
حلب	١ - ٣	١٠	٢٠ (٢)

وهذا الجدول يؤكد ما ذكرناه حول عدد الجيش في دمشق عام (٧١٥هـ/ ١٣١٥م) وتأتي بعد مدينة دمشق مدينة حلب في عدد الجيش.

وفي عام (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) اصبحت حلب اكبر رتبة من دمشق واضيف من عسكر دمشق الى عسكر حلب اربعة آلاف فارس (٣)، وقد يكون السبب في ذلك ان المماليك ارادوا زيادة قواتهم الدفاعية على ولاياتهم الشمالية خاصة حلب لان غارات الارمن ازدادت عليها في تلك الفترة.

١. السلوك، ج١، ص ٦٣٨.
٢. زبدة كشف الممالك، ص ١٣١-١٣٣
٣. السلوك، ج٣، ص ١٢٧.

هذا الا ان نظام تقسيم الجند وتربيتهم تطرق اليه الخلل ، فبعد ان كـــان الجند ، ثلاثة اقسام ، كما ذكرنا تغير منذ ايام السلطان برقوق وتفصيل ذلك ان الامراء صاروا يشترون اقطاعات (١) من الحلقة او يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم ، ثـم يقيدون هؤلاء المماليك ايضا في ديوان السلطان بجامكية ، وبذلك يصبح الواحد منهم جندي حلقة ومملوك سلطان وفي خدمة امير في وقت واحد اى انـه يستأثر بـــرزق ثلاثـــة (٢) مماليك ، كذلك فشى بين المماليك منذ القرن الثامن الهجرى النزول عـن الاقطاعات والمقايضة بها في الباطن مما ادى الى تدهور نظـام الجيش المملوكي وكثرة الدخلاء في الاجناد ومن الواضح ان النزول عن الاقطاعات والمقايضات كان من اسباب تدهور الجيش المملوكي ، لما ترتب على ذلك من أن معظم الاجناد للحلقة اصبحـــوا

---

١ . لم يكن النظام الاقطاعي العسكرى في بلاد الشام شيئا جديدا أستحدثه المماليك ، وانما كان معروفا عند البويهيين والسلاجقة والفاطميين والزنكيين والايوبيـــين ، (الدورى ، عبد العزيز ، مقدمـة في التاريخ الاقتصادى العربـي ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٨٨-٩٠ ، ٩٧ - ، ٩٨ ، ١٠٤) Urban Life, PP. 39-40.

وكان يشرف على النظام الاقطاعي المملوكي " ديوان الجيش " ، (ألتعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٨٨-٨٩ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، نهايـة الارب ، ج ٨ ، ص ١٩٦ .

A.N. Poliak, "SomNotes on the Feuda System of Mamluks" , Journal of the Royal Asiatic Society , 1939, PP. 98-107, Urban Life , P.44.

٢ . النجـوم الزاهـــرة ، ج ٦ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ، انبـاء الغمر ، ج ٩ ، ص ٢٢٦ .

"أصحاب حرف وصناعات وخربت منهم اراضي اقطاعاتهم (١) .

وترتب على ذلك كله ان فقد المماليك روح النظام والطاعة وهي الروح التي ميزت اسلافهم الاوائل ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان ، فاذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه ، امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد بل بلغ الامر ببعضهم ان قتل استاذه من اجل السيطرة على زمام الامور كما فعل يلبغا الخاصكي عندما قتل استاذه السلطان حسن عام (٧٦٢هـ/١٣٦٠م) (٢) وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعا واحزابا متطاحنة في عهد سلطان واحد ، كما نسمع عن المماليك الاشرفية والظاهرية والمؤيدية في عهد السلطان مؤيد شيخ (٣) ، واخذت كل طائفة من هذه الطوائف تتجسس على الاخرى فاذا مرض مملوك من غير طائفته ، او انقطع في بيته اسرع مملوك آخر لأخذ اقطاعه ، حيّا كان او ميتا (٤) ، كذلك اكثر المماليك من التعرض لحريم الاهالي واولادهم ، حتى اصبحوا رمزا للسلب والنهب والاجرام ، وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار في البلاد ، وهذا ما صارت اليه طبقة المماليك في ايام المقريزي الذى قال عنهم "ليس فيهم الا من هو أزنى من قرد والص من فأر ، وأفسد من ذئب (٥) .

اما ابو المحاسن فقد وصف المماليك في ايامه بانه "ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى في الرغيف ، وجهادهم الاخراق بالرئيس وغزوهم في التبن والدريس" (٦) والمعروف ان ابا المحاسن من ابناء المماليك ، ولم يصدر عنه هذا الامر اغتباطا .

---

١ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

٢ . ابو المحاسن ، جمال الدين بن تغرى بردى ، " منتخبات من حوادث الدهور في مدى الايام والشهور" ، ج ٤ ، نشرها وليم بيبر ، كاليفورنيا ، ١٩٣١ ، سيشار اليه " منتخبات من حوادث الدهور " ، التبر المسبوك ، ص ٣٥٢ .

٣ . منتخبات من حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ .

٤ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ .

٥ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، حاشية رقم (٢)

٦ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٩ .

٤ . اربـــاب الوظائــف الديوانيــــة :-

١ . نائــب السلطنــة : كان يمثل السلطان في النيابة وتعد وظيفتــه مـــن الابواب السلطانية (١) ، ووصفه شهاب الدين بن فضل الله العمرى (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) في كتابه " مسالك الابصار " بانه " سلطان مختصر نا ٔ عن الحضره وان النائب هو المتصرف المطلق في كل أمر ، (٢) وكان نائب دمشق اهم نواب الاقاليم واعظمهم شأنا حيث كـــان ينوب عن السلطان في ادارة شؤونها ، ونتبين مدى نفوذ نائب السلطنة في دمشق مـــن هذه (٣) العبارة التي اوردها القلقشندى " قائم بدمشق مقام السلطان في اكثر الامـــور المتعلقة بنياباتــه " (٤)

ويذكر العمرى " وتكون مكاتبــة نائب الشام وحلب وطرابلس وحماة وغزة وصفد متساوية او بعضها مميزا عن بعض ولكن ربما امتاز نائب الشام على بقيتهم فنذكره ثم نذكر بعــده نائب حلب وسائر النواب على الترتيب " (٥) ومن عبارة العمرى هذه يتضح لنا ان نائب دمشق كان يأتي في الدرجة الاولى بالنسبة لمكانة النواب في الدولة المملوكية ، ومـــن التقليد الذى منحه السلطان العادل زين الدين كتبغا - ٦٩٤هـ/١٢٩٤م-٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م - للامير سيف الدين اغرلوا العادل بتعيينه في نيابة السلطنة بدمشـــق والذى اورده القلقشندى يتبين لنا مدى النفوذ الذى كان يتمتع به هؤلاء النواب والشروط التي يجب ان تتوفر فيمن يرشح لهذا المنصب . (٦)

---

١ . صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٨٤-١٨٥ .

٢ . الامام ، رشاد ، " مدينة القدس في العصر الوسيط " ، (١٢٥٣-١٥١٦م) ، الـــدار التونسية للنشر - تونس ، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ، ص ٩٥ ، نقلا عن مسالك الابصار للعمرى سيشار اليه " مدينة القدس " .

٣ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٧٦-١٨١ ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٧٢ ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢١٩ .

٤ . صبـــح الاعشـــى ، ج٤ ، ص ١٨٤ .

٥ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٦٨ .

٦ . راجع نص تقليد الامير سيف الدين اغرلو لنيابة السلطنة بدمشق في الملحق رقم (٢) من هذه الرسالـــة .

كان النائب في دمشق يصدر القرارات باسم السلطان احيانا واحيانا اخرى باسمه (١) وتتمثل واجبات نائب دمشق بتفقد احوال الرعية (٢) ، والاشراف على امور القرى والغلات وايصال الحقوق الى مستحقيها (٣) ، وتنفيذ الاحكام الشرعيه وتوقيع المراسيم والمناشير (٤) ، وتفقد الجيش والركوب على راس فوق الجيش في المواكب الرسمية (٥) وتحصين البلاد واعمارها (٦) ، كما يقوم بتعيين اقطاعات الجند (٧) وحفظ المسالك وتسهيل مهمات البريد . (٨)

ومن اشهر نواب دمشق (٩) الامير سيف الدين تنكز الذى نال حظوة كبيرة لدى السلطان الناصر محمد منذ تعيينه في هذا المنصب عام (٧١٢هـ/١٣١٢م) حتى انه زوج ابنتي تنكز من ابنتي السلطان نفسه ولما عاد تنكز الى الشام بعد اتمام مراسيم الزواج كتب له الناصر تقليدا " بتفويضه الحكم " في جميع الممالك الشامية وان جميع نوابها تكاتبه وان تكون مكاتبته اعز الله انصار المعز الشريف بعد كانت : أعز الله انصار الجناب " وان يزاد في المقابه الزاهدى العابدى العالمي كافل الاسلام

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧-١٩ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

٢ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٣ .

٣ . معيد النعم ، ص ٢١ ، ٢٤

٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٥-٢٦ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧ .

٦ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٢-٩٣ ، صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ١٤٥-١٥٠

٧ . معيد النعم ، ص ٢١

٨ . صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٢١٣-٢١٧ ، راجع الملحق رقم (٣) من هذه الرسالة معيد النعم ، ص ٢١-٢٤ .

٩ . راجع الملحق رقم (٣) من هذه الرسالة حيث يشمل نواب دمشق واهم اعمالهم .

أتابك العسكر . (١)

من الواضح ان تلك المكانة التي يتمتع بها نائب دمشق في عصر المماليك كان من الممكن ان تصبح مصدر خطر على السلطان نفسه لذلك حرص " سلاطين المماليك على فرض رقابة خفية على نوابهم في الشام عامة وفي دمشق خاصة فكان السلطان يحرص على التدخل في شؤونهم احيانا لا شعارهم بوجوده ، ولم يكتف السلطان على ان يكون صاحب ديوان الانشاء عينا له على النائب وانما كان السلطان ايضا يجعل من نائب القلعة عينا له على النائب ويقاومه اذا حدثته نفسه بالخروج عن السلطان (٢) .

٢ . الحجوبيـــة :-

وتعني قيادة الجيش ويأتي الحاجب (٣) بعد نائب السلطنة في المرتبة كما يعتبر صاحب الحجاب نائب السلطنة في حالة غياب النائب عنها ، وفي حالة وفاته الى حين تولية نائب جديد ، واليه يأتي الامر بالقبض على نائب السلطنة اذا اراد السلطان ذلك (٤) .

ومن واجبات صاحب الحجاب ان يقوم بالنظر في مخاصمات الجنود واختلافاتهم في امور الاقطاعات (٥) ، كما كان ينصف بين الامراء والجند " تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب أن كان واليه تقدم من يعرض ومن يرد وعرض الجند وما ناسب ذلك (٦) وتحقيق الشرع الشريف بتطبيق احكامـه (٧) .

---

١ . أتابك العسكر : من الالقاب المركبة على لقب (اتابك) وكان في مصطلح ديوان الانشاء في عهد المماليك اعلى الالقاب الفخرية المضافة الى لفظ (الجيوش) ولذا كان يطلق على النائب الكافل ، صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ١١١ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، راجع نص تقليد الامير سيف الدين تنكز لنيابة السلطنة بدمشق في الملحق رقم (٤) من هذه الرسالة

٢ . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٧١-١٧٢ .

٣ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٤

٤ . معيد النعم ، ص ٤٠

٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٨ .

٦ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٦٠ ، السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، " حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة " ، القاهرة ١٨٨١م ج ٤ ، ص ٨٥ سيشار اليـه " حسن المحاضرة " .

٣ . نيابة قلعة دمشق :-

وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة (١) ويتم تعيين نائب القلعة من قبل السلطان (٢) وتكون رتبته "أمير طبلخانه" (٣) ، ومن اهم اعماله ان يحصن القلعة ويكتم سرها ويدافع عنها (٤) .

ويقوم بتشييد اقنيتها وتجديد ابنيتها وحفظ ذخائرها وقت الشدائد كما انه يقوم بالايعاز باغلاق ابوابها وفتحها وتفقد متجدداتها في كل صباح ومساء واقامة الحرس والاستمرار في الحذر ممن قد يتسور ويختلس الاخبار ، كما انه يقوم بارسال الاخبار والرد بسرعة على ما يأتيه من السلطان في القاهرة (٥) وكان لنائب القلعة جنودا مقيمون معه في القلعة ولا يتصلون بدار نيابة السلطنة في المدينة (٦) وذلك لأن السلطان كما ذكرنا كان يجعل من نائب القلعة عينا له على النائب اذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان (٧) .

---

١ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٥ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .
٢ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٥ ، ١٤٨ - ١٤٩ .
٣ . أمير طبلخانه : يلي صاحب امير مقدم الف ويسمى طبلخانه لأحقيته في دق الطبول على ابواب السلطان او النائب ، ويطلق امير طبلخانه ايضا على امير اربعين بمعنى ان يكون في خدمته اربعون مطوكا وقد يصل العدد الى ستين او سبعين او ثمانين ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٣٩ ، حاشية رقم (١) ، زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ ، المصر المماليكي ، ص ٣٩٢ .
٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٥ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .
٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .
٦ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .
٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

٤ ، الـــــوزارة

يلي نائب السلطنة في المدينة الوزير (١) ، ويتم تعيين الوزير من قبل السلطان ، والوزارة من الوظائف الديوانية ، واذا تولى الوزارة أحد من ارباب السيوف ــ وهـذا قلما يحدث ــ عيّن معه " نـاظـر (٢) مملكـة " (٣) ويقوم الوزيـر بحفظ امـوال المملكة وينميها ويستخدم الاشخاص ذوي الكفاءة والثقة ويوليهم اعمالهم ويلزمهم باتبـاع العدل ويحذرهم من الظلم والخيانة ويحلّي مكانـة من احسن عطه (٤) ، ويشـرف الوزير على جباية الاموال من اعشار التجار والخراج والغنائم ،كما انه يشرف على مصالح القلاع ويضاعف ذخائرها (٥) وكان على الوزير ان يتبع الطرق الصحيحة والسليمة في الجبايـة (٦) ، وكان الوزير يتناول راتبـا شهريا مقداره مائتان وخمسون دينارا عدا ما خصص له في كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز والزيت وعلف الدواب ومقادير من اللحم التي ترسل الى داره في شهر رمضان والعيدين (٧) .

٥ . كتابـــة السـر

يعيّن كاتب السر من قبل السلطان ويعبر عنه في ديوان الانشاء بالابـواب السلطانيـة بـ " صاحب ديوان الانشاء بالشام المحروسة " (٨) ويكون السلطان حريصا

---

١ . صبـح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٨٨ — ١٨٩ .

٢ . ناظر جمعه نظار وهم كبار الموظفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير فـي تصريف اعماله وقد تنوعت القاب النظار حسب الاعمال التي قاموا بها ،فناظر الجيش يتحدث في اموال الجيش وحساباتها ،وناظر خاص ينظر في خاص اموال السلطـان وناظر الدولة يشارك الوزير في التصرف عامة ،ويسمى الاخير ناظر الدواوين او ناظـر النظار او الصاحب الشريف ، ومقره ديوان النظر ،صبح الاعشى ،ج ٥ ،ص ٤٦٥—٤٦٦

٣ . صبـح الاعشـى ،ج ٤ ،ص ١٨٩

٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ٩٣ —٩٤ ، زبدة كشف الممالك ،ص ٩٤ .

٥ . صبـح الاعشى ،ج ١٢ ،ص ١٦٦ ، زبدة كشف الممالك ،ص ٩٣

٦ . التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ٩٣—٩٤ ، معيد النعم ،ص ٤٧ ، زبدة كشف الممالك ،ص ٩٦

٧ . الخـطط ،ج ٢ ،ص ٢٢٤ .

٨ . صبـح الاعشـى ،ج ٤ ،ص ٢٤١ .

على اختياره من خاصة الموثوق بهم ليطالعه بخفيان امور المملكة وما يحدث بها مما قد يخفيه النائب عن السلطان ، وبديوانه كتّاب الدست (١) وكتّاب الدرج(٢) وولايات كتّاب الدست والدرج من قبل نائب السلطنة ، وكان كاتب السر لا يحضر دار العدل مع النائب ، انما كان يحضر كتّاب الدست فقط ، فيوقعون بما تحتاج اليه في الجلسة ثم يذهب الى كاتب السر فيخبرونه بما اتفق ، وكاتب السر يجتمع بنائب السلطنة في اوقات مخصوصة فيما يتعلق بالامور السلطانية فقط ، وفيما بعد سمح لكاتب السر الحضور بدار العدل والتوقيع فيه (٣) .

ومن شروط متولي كتاب السر ان يكون له معرفة بآيات القرآن واسباب نزولها وعلم الحديث النبوى ، ومدلوله وفهم سير الملوك الاولين ، ومعرفة الحكم والامثال ، والتطلع على وقائع العرب والتوسع في ابحر المعاني الشعرية ، كما يجب عليه ان يكون كاتما للاسرار بصفته مطلعا عليها (٤) ، ويختار كاتب السر ضمن الشروط المسبقة لكي يكون بليغا وفصيحا حين يكتب في امر ما كالولاية والعزل (٥) .

---

١ . كتاب الدست وهم من ديوان الانشاء باسم الموقعين بتوقيعهم على جوانب القصص بعد كتابة السر ولقراءتهم القصص في موكب النائب بعد كاتب السر ايضا ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٣٧ .

٢ . كتاب الدرج وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر وكتاب الدست ، أو اشارة النائب او الوزير ، ونحو ذلك ، من المكاتبات والتقاليد والمراسيم وسمي كتاب الدرج بهذا الاسم لكتابتهم هذه المكاتبات في دروج الورق ، والمراد بالدرج الورق المستقيم المركب من عدة اوصال تصل عددها الى عشرين وصلا صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٣٨ ، زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٠

٣ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٠

٤ . زبدة كشف الممالك ، ص ٩٨ — ٩٩

٥ . صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ١٦١ .

٦. ولايـة المدينـة :

كان في دمشق وال يعيّن من قبل السلطان ،لكنه كان تابعا لنائب السلطان في دمشق (١) وكان يلقّب بأمير الجيوش (٢) وكانت واجبات الوالي تشمل الحفاظ على الامن ،الامر الذى كان يشرف عليه شخصيا عندما يتفقد الحارات في الليل وكان للوالي اعوان يتنقلون باستمرار وكانت الشرطة وصاحب الشرطة تحت اشرافه (٣) ،وكان من يلقي عليه القبض يحضر الى صاحب الشرطة اولا للتحقيق في امره ،ومن واجبات الوالي ايضا القضاء على الجرائم واللصوص وابعاد الناس عن المنكرات والابتعاد عن التجسس على الناس وعدم ازعاجهم وارعابهم اثناء تأديته لواجبه (٤) .

وكان يقطن دمشق عدد كبير من الذين يعبثون بالامن ويزعجون السكان ولما كان الوالي ان يراقب هؤلاء مراقبة تامة ،فانه كان يحتفظ بمساعدين بالاضافة الى الشرطة ،وكان يلجأ الى وسائل متعددة للقيام بمسؤولياته ،فالاحداث كانوا يتواجدون اثناء الليل في الاماكن العامة وكان شيخ الاحداث مسؤولا عن النظام في حارته وكانت اكثر شوارع دمشق منارة في الليل وكان هناك جماعة من الناس يسمون الضوئية كان عليهم ان يحفظوا المصابيح مشتعله باستمرار (٥) .

وعندما كان يقع جرم قتل كان الوالي كثيرا ما يلجأ الى ما يصح تسميته بالعقوبة المشتركة ،بمعنى ان يفرض على سكان الحارة ان يدفعوا ديّة القتيل بالاضافة الى غرامة اذا عجزوا عن اظهار القاتل (٦) وكان على الوالي ان يتأكد بان احكام الشرع

---

١. صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٨٧ .

١. الخطط ،ج ١ ،ص ٤٤٠ ،ذيل تاريخ دمشق ،ص ٧٢

. الالقاب الاسلامية ،ص ١٩٠-١٩١

٣. صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٢٢٢

٤. صبح الاعشى ج ٤ ،ص ١٨٦-١٨٧ ،٢١٨

٥. Visit to the Holy Places ,P. 183.

٦. مفاكهة الخلان ،ج ١ ،ص ٢٧٤ ،٢٩٢ ،٢٩٩ .

فيما يتعلق ببيع الخمر جارية تماما ، كما انه كان مسـؤولا عن سلامة الحجاج الى نحو خمسين ميلا من الطريق جنوبي دمشق (١)

٧ . نظـر البيمارستـان :

لم يكن من الضروري ان يكون ناظر البيمارستان طبيبا لكنه كان من المهم أن يختار رجل متين الخلق وكان النائب يفوّض نظر البيمارستان الى من يختاره من اصحاب الوظائف الديوانية (٢) ، وكان الناظر مسؤولا عن تصرفاته امام نائب السلطنة وكان ينظر في اوقاف البيمارستان .

٨ . رئاسة الطـب :

اما الاطباء فقد كانوا تحت اشراف رئيس خاص بهم سواء في ذلك الاطباء الموظفون في البيمارستان واولئك الذين كانت لهم عياداتهم الخاصة بهم ، وقد كان من المتعارف عليه ان يكون في دمشق ثلاثة رؤساء من هؤلاء هم : رئيس الاطباء ، رئيس للجراحين ، ورئيس للكحالين .

وقد يتولى احد هؤلاء اذا كان مبرزا في عمله الجسم الطبي بكامله وكان يتولى رئاسة الطب رئيس الاطباء ، وهو الذي يحكم على طائفة الاطباء ويأذن لهم في التطبيب (٣) ، ويعيّن في وظيفته من قبل النائب في دمشق (٤) ويلقب رئيس الطب " المجلس المالي القضائي " (٥) ومن الشروط التي يجب توفرها فيمن يتولى هذه الوظيفة ان يكون حاذقا في الطب ماهرا فيه ، متقدما على غيره في الفن والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضر ، والمعرفة بالامراض والعلل وطرق العلاج (٦) .

---

١ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٨٨

٢ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩١

٣ . صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٧

٤ . صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٧

٥ . صبح الاعشى ، ج ٢ ، ص ٢٩٣

٦ . صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٩٠

ويوصى بالنظر في امر طائفته ومعرفة احوالهم (١) ويأمر المعالج ان يعرف حقيقة المرض واسبابة وعلاماته ،ثم ينظر الى السن والبلد وحينئذ يشرع في تخفيف المرض ولا يخرج عن عادة الاطباء ولو غلب على ظنه حين يتبصر فيه برأى امثاله ،وعليه أن يتجنب القياس ،وان يحذر من التجربة مع الاحتراز في المقادير والكيفيات وفي الاستعمال والاوقات ولا يأمر باستعمال دواء ولا يستغرب من غذاء حتى يعرف حقيقة ويعرف جيدا من كشفة وليعرف مقدار قوته بالفعل (٢).

٩. رئاسة الكحالين :

اما رئاسة الكحالين فيتولاها رئيس الكحالين وهو الذى يحكم على طائفة الكحالين ويأذن لهم بالتكحيل ، (٣) ويعيّن في وظيفته من قبل النائب (٤) ومن الشروط التي واجب توفرها فيمن يتولى هذه الوظيفة ان يكون على معرفة في صنعة الكحل ،ومتقدما على ابناء صنعته فيه ،وان يعرف بحال العين وامراضها واصناف الاكحال وما يوافق كل علّة من ذلك وما ينخرط في هذا السلك (٥) ،ويوصى بالنظر في حال جماعته ومعرفة احوالهم وان لا يصرّف منهم الا من اعترف بحسن المداراة والملازمة في العلاج ويأمر كل منهم ان لا يقدم على مداواة عين حتى يعرف حقيقة المرض وان يتخيّر من الكحل ما فيه شفاء العين وجلاء البصر وان يستشير الاطباء فيها ولا يستغني عن رأى مثالهم فيه ،من تخفيف المادة بالاستفراغ او نقص دم او غير ذلك (٦).

---

١. صبح الاعشى ،ج ١١ ،ص ٩٨

٢. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٣٨-١٣٩ ،صبح الاعشى ،ج ١١ ،ص ٩٨-٩٩

٣. صبح الاعشى ،ج ٥ ،ص ٤٦٧

٤. صبح الاعشى ،ج ٥ ،ص ٤٦٧

٥. صبح الاعشى ،ج ١١ ،ص ٩٠

٦. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٣٩ - ١٤٠ ،صبح الاعشى ،ج ١١ ،ص ٩٨

٤ . رئاسة الجراحين :

اما رئاسة الجراحين فيتولاها رئيس الجراحين وهو الذى يحكم على طائفة الجراحين والمجبّرين ويأذن لهم بالجراحة (١) والتجبير ، ويعيّن من قبل النائب (٢) وعلى متولي هذه الوظيفة ان يكون على معرفة بكل ما يحتاج اليه في هذه الوظيفة وان يتوقى في كل اعماله فانه في صناعة كلها خطر ويكون مع الجيش في اوقات الحرب ليخفف عنهم ويجبّر كسورهم ويشد أزرهم ويداوى جراحهم (٣) .

٥ . أرباب الوظائف الدينية :

١ . المحتسب :

وظيفة" دينية المعنى والغاية " (٤) وكانت الحسبة لا تسند الا لمن كان من وجوه المسلمين ومن واجبات المحتسب ، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٥) وعليه تقع مسؤولية الاشراف على الاسواق والآداب (٦) ، وكان المعيّن لمنصب الحسبة يختار بدقة : يجب ان يكون فقيها عارفا بالشريعة ، حيث أن المحتسب يحتاج الى " معرفة

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٧

٢ . صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٧

٣ . التعريف بمصطلح الشريف ، ص ١٤٠

٤ . نهاية الرتبة ، ص ٨ ، ابن جماعة ، " تحرير الاحكام " نشر Hanskoler في مجلة Islamica المجلدين السادس ١٩٣٤ ، والسابع ١٩٣٥ ، سيشار اليه " تحرير الاحكام " ، مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٩٨ .

٥ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٤-١٢٦ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ ، ج ٥ ، ص ٤٥١ ، ابن تيمية ، تقي الدين ، " الحسبة في الاسلام " ، (ضمن مجموعة الرسائل الكبرى) ، القاهرة ، ١٣٢٣هـ ، ص ٦ ، مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٩٨ .

٦ . نهاية الرتبة ، ص ٧ -٨

الاحكام" من الصلاة والصوم والزكاة والبيع والشراء والنكاح والطلاق والمباح من الاطعمة والاشربة والمحرم وما يكفر فيه الانسان وما يسلم به ، والذبائح وشروطها والشهادات والاقرار وجميع هذه الاحكام ليأخذ الناس بها (١) كما ان عليه ان يكون عفيفا عن اموال الناس رافضا الرشاوى والهدايا (٢) ، وعليه ان يلازم الاسواق ، والدروب في اوقات الغفلة ويتخذ له فيها اعوانا يوصلون اليه اخبارها (٣)

وكان للمحتسب خطة يجب ان يتبعها في القيام باعماله من ذلك ان يتخذ له دكه في السوق يراقب فيها اهل ذلك السوق (٤) محاطا باعوانه وغلمانه الذين كانوا يرافقونه في غزواته وروحاته (٥) ، وكان يعيّن عرفاء لمباشرة الاسواق ، وقد كانوا من رؤساء التجار ، اذ انه كان لكل صناعة او تجارة سوقها الخاص في الغالب وقد يكون احد الشرطة واحد من هؤلاء الاعوان (٦) ويلتزم اعوانه وغلمانه بما يلتزم به هو (٧) وكان يشترط فيهم العفة والعناية والنهضة والشهامة ويؤدبهم ويهذبهم ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون في طلب الغرماء وكانوا لا يعرفون الخصم الذى طلب لماذا طلب لئلا يفكروا في حجة يتخلصون بها " فاذا طلب شخص بعدته وآلته

---

١ . نهاية الرتبة ، ص ١٠ ، معالم القربة ، ص ١٣-١٤

٢ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٥ ، معيد النعم ، ص ٦٦ ، معالم القربة ، ص ١٢٩ ، ٢٢٢

٣ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢٢

٤ . نهاية الرتبة ، ص ٣٨ ، معالم القربة ، ص ٩٤ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٤-٤١٥

٥ . معالم القربة ، ص ٢٢٠ ، صبح الاعشى ، ج ١٢ ، ص ٤٧١

٦ . نهاية الرتبة ، ص ٧-٩

٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢٢

فليحضروه على حالته التي وجدوه فيها ولا يمكنوه من ان يترك من ارطاله شيئا في الدكان ولا يودع فيها شيئا في طريقه (١)،

مع ان اكثر اعمال المحتسب كان تتم في الاسواق فما اكثر ما كان يتفقد المساجد ليتأكد من ان المشرفين عليها حافظوا على نظافتها وان الذين يفدون عليها يحسنون استعمالها (٢) وكان يراقب الازقة الوحشة خشية ان يسيء بعض الرجال والنساء استعمالها للاجتماع او الالتقاء (٣) ولا يجوز النظر الى الجيران من الاسطحة والنوافذ ولا ان يجلس الرجال في طرقات النساء من غير حاجة وكذلك النساء لا يجلسن على ابواب بيوتهن في طرقات الرجال (٤).

وكان على المحتسب ان يعني بنظافة الاسواق والشوارع وان يتأكد من أن المتاجر لا تزعج المارة وكان يمنع احمال الحطب واعدال التبن وروايا الماء وشرائح السراجين والزماد واشباه ذلك من الدخول الى الاسواق لما فيه الضرر بلباس الناس ويأمر اهل السوق بكنسها وتنظيفها (٥).

اما الطرقات ودروب المحلات فلا يسمح لاحد اخراج جدار داره ولا دكانه الى الممر المعهودة ،كذلك كل ما فيه أذية واضرار بالسالكين كالمزاريب الظاهرة من الحيطان في زمن الشتاء ومجارى الاوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف الى الطريق بل يأمر المحتسب اصحاب المزاريب ان يجعلوا عوضا عنها سيلا محفورا في الحائط يجرى فيه ماء السطح ؛

---

١ . معالم القربة ،ص ١٢٩ ، ٢٢٢

٢ .نهاية الرتبة ،ص ١١٣-١١٥ ،تحرير الاحكام ،ص ٣٦٩-٣٧٢

٣ . نهاية الرتبة ،ص ١١٣-١١٥

٤ . نهاية الرتبة ،ص ١١-١٤

٥ .نهاية الرتبة ،ص ١١-١٣

وكل من كان في داره مخرج للماء والقاذورات في الطريق فانه يكلفه سده في الصيف ويحفر له في داره حفرة يجتمع اليها (١).

كان المحتسب يحمي الناس من ان يقدم لهم الطعام الرديء او ان يغش بالكيل والميزان (٢)، ومن تجار النقود الزائفة والمحتكرين حيث كان المحتسب يميز موازينهم واقدارهم وينبغي اذا شرع في الوزن ان يسكن الميزان ويضع فيه البضاعة ولا يهمز حافة الكفة بابهامه فان ذلك بخس وتدليس ويكون جميع ما يكتالون به مختوما بالرصاص منقوشا في طرفه اسم الامام لئلا لا يبرد ورؤوس المكاييل بعد الغبار فتنقص ويلزمون ان يكون موازين الارطال معروضة في قوس الدكان ليشاهد الزبون ما يحمل به من ارطال عند الوزن والمأكولات (٣).

وكان المحتسب يجعل لاهل كل صنعة عريف من صالح اهلها خبيرا ببضاعتهم بصيرا بغشوشهم وتدليساتهم مشهورا بالثقة والامان، يكون مشرفا على احوالهم ويطالعه باخبارهم وما يجلب الى سوقهم من السلع والبضائع وما تستقر عليه من الاسعار وغير ذلك من الاسباب التي يلزم المحتسب معرفتها ولا يجوز المحتسب ان يسعر البضائع على اربابها، ولا ان يلزمهم بيعها بسعر معلوم (٤) وكان يمنع تلقي الركبان وهو ان تقدم قافلة فيلقاها شخص خارج مدينة فيخبرهم بكساد ما معهم ليبتاع منهم رخيصا، فانه عثر المحتسب على من يقصد ذلك ردعه عن فعله بعد التعزير (٥).

---

١. نهاية الرتبة، ص ١١ - ١٤

٢. نهاية الرتبة، ص ١١٣ - ١١٥

٣. مقدمة ابن خلدون، ص ٣٩٨ - ٣٩٩

٤. شيخو لويس، كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبه لابن بسام، مجلة المشرق، السنة العاشرة، ١٩٠٧، ص ١٠٧٩-١٠٨٠، سيشار اليه "نهاية الرتبة لابن بسام".

٥. نهاية الرتبة، ص ١١- ١٢، Urban Life, P. 148-149.

كان المحتسب يحمل على المصالح العامة في المدينة حيث يطوف نوابه على ارباب الحرف والمعايش وغيرها ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزّارة ،كذلك الطباخين ويتبعون الطارقات ويمنعون من المضايقة فيها ويلزمون الحمالين على البهائم الا يحملوا اكثر من حد السلامة ،وكذلك يأخذون السقايين بتغطية الروّايا وللسقايين عيار هو اربعة وعشرون دلوا كل دلو يكون رطلا وان يلبسوا السراويل القصيرة الضابطة لعورتهم ويكون لونها ازرق (١)

وكان على المحتسب ان يحمي الاطفال من الضرب على ايدى معلميهم ويحذر المعلمين من تعزير اولاد الناس ويفهمون بالردع والادب (٢) وكان يحمي الناس من تزوير الاطباء والكحالين (٣) والجراحين (٤) والبياطرة (٥).

كان المحتسب يضع اصحاب الصناعات القتالية تحت المراقبة المباشرة او غير المباشرة وهم " الجزارون " وقلاة السمك ،وطهاة الحلوى (٦) وصناع النقانق (٧)، والحاكه والخزافون والعطارون (٨) ،وصنّاع الابر وباعة الحنّاء والصناع في معاصر

---

١ . نهاية الرتبة ،ص ١٣
٢ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ٧٦
٣ . نهاية الرتبة ،ص ٩٨-١٠١
٤ . نهاية الرتبة ،ص ٩٧-١٠٢
٥ . نهاية الرتبة ،لابن بسام ،ص ١٠٨٣-١٠١٤
٦ . دمشق في العهد المملوكي ،ص ١٦٩-١٧٢
٧ . نهاية الرتبة ،ص ٣٨-٣٩
٨ . نهاية الرتبة ،ص ٩٧-٩٨

السيرج (١) وتجار الارز وسقاة الماء (٢) ،والقبانين (٣) ،وصنّاع المناخل (٤)، والدّباغون (٥) ،واللبادين (٦)وصانعوا الحصر وبائعو الحلي والمراوحيين وباعة الكبريت ،والمكانس والزفاتين وسقائين الكيزان وارباب الروايا والقرب والدلاء والزبالين والغاسلين لاقمشة الناس (٧)والطحانين وضامني الحمّام وفراشها (٨) .

وكان المحتسب يقصد مجالس الولاة والامراء ،ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعظهم ويذكرهم ويأمرهم بالشفقة على الرعية والاحسان اليهم ويذكرهم ما ورد في ذلك من احاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ويجب ان يكون في وعظه وقوله في ردعهم عن الظلم نظيفاً ظريفا ،ليّن القول ،بشوش الوجه "غير جبار ولا عبوس" (٩)

وكان يراقب سماسرة العبيد والجوارى والدواب والدور ويعاقب من أخل باحد

---

١. دمشق في العهد المملوكي ،ص ١٦٩-١٧٢ .

٢. معالم القربة ،ص ٢٣٢ .

٣. معالم القربة ،ص ٢٣٣ .

٤. معالم القربة ،ص ٢٢٨-٢٢٩ .

٥. معالم القربة ،ص ٢٢٩-٢٣٠ .

٦. معالم القربة ،ص ٢٣١ .

٧. معالم القربة ،ص ٢٣٨ .

٨. نهاية الرتبة ،لابن بسام ،ص ١٠٨٢ .

٩. نهاية الرتبة ،ص ١٠٣ .

الشروط المفروضة عليهم (١) . وكان المحتسب ايضا ينظر في أمر الوعاظ والفقهاء (٢) .

وكان على المحتسب ان يراقب اهل الذمة (٣) ، فيأخذهم بالغيار وما يميزهم عن المسلمين ويكفّ ايدى المعتدين ، ويعزّر من وجب تعزيره باجتهاده ويختلف باختلاف رعيته وبلاده ، ولا يبلغ في التعزير حدا من الحدود (٤) واذا طلب المحتسب من غلمانه واعوانه شخصا بعدته وآلته فليحضروه على هيئته التي وجدوه عليها ولا يمكّنوه ان يترك من ارطاله شيئا في الدكان ولا يودع منها شيئا في طريقة وان كان ذميا فوجدوه بلا زنار (ان كان نصرانيا) وبلا علامة ان كان يهوديا فليحضروه على هيئته التي وجد فيها حتى يعاقبه على ما يراه منه (٥) .

ارباب الوظائف الدينية

٢ . قضاة القضاة :

كان تنفيذ أحكام الشرع في انحاء المدينة من عمل القضاة الذين كانوا يقومون بذلك تحت اشراف قاضي قضاة المذهب ، وقد اقتصر الايوبيون على تعيين قاضي قضاة شافعي (٦) ، واستمر الحال على ذلك ايام المماليك عام (٦٦٤هـ/١٢٦٦م) .

---

١ . معالم القربة ، ص ١٥٢-١٥٣ .
٢ . معالم القربة ، ص ١٠٩-١١٠ .
٣ . نهاية الرتبة ، ص ٨٠ ، ٨٩ ، ١٠٢-١٠٣ ، ١٠٩ ، معالم القربة ، ص ١٥٩ - ١٦٩ ، ٢٢٢ .
٤ . تحرير الاحكام ، ص ٣٦٩-٣٧٢ .
٥ . معالم القربة ، ص ١٢٩ ، ٢٢٢ .
٦ . ابو شامة ، شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل ابراهيم المقدسي ، " الروضتين في اخبار الدولتين " (النورية والصلاحية ، نشر دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ص ١٦١ . ج ١ .

اذ أمر السلطان الظاهر بيبرس بوجوب تعيين اربعة من القضاة ليس في القاهرة فحسب بل في دمشق وحلب أيضا (١) ومنذ ذلك الوقت اصبح لكل من المذاهب الاربعة قاضي للقضاة ،وكان قضاة كل مذهب مرتبطين به وكانت ولاية القضاة الاربعة في دمشق تتم من قبل السلطان (٢).

وكان من واجبات قاضي القضاة الاهتمام بمصالح الامة واتباع العدالة في الحكم والفصل بين الناس كما يجب عليه ان يكون متضلعا في معرفة آداب القضاء ، رحب الصدر ثابت الرأى متبعا السنن القويمة (٣).

ولم يكن عمل قاضي القضاة في ذلك الوقت مقصورا على النظر في قضايا الاحوال الشخصية ،بل كان يتناول ايضا جميع القضايا المدنية والجنائية وامامة المسلمين في الصلاة والاشراف على دار الضرب (٤) ،ومما يشير اختصاص قاضي القضاة ان زاد واتسع نفوذه فتناول النظر في دعاوى اثبات الحقوق ،والاموال التي ليس لها وارث كما تناول

---

١. صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٩٢ ،ذيل مرآة الزمان ،ص ٣٢٤ ،البداية والنهاية ، ج ١٤ ،ص ٢٤٥ ، السلوك ،ج ١ ،ص ٣٨-٤٠ ،الخطط ،ج ٣ ،ص ٢٨٦-٢٨٨ ، المماليك البحرية ،ص ٣٦٤ ،عرنوس ، محمود ، "تاريخ القضاء في الاسلام"، المطبعة المصرية الاهلية الحديثة ،القاهرة ، (ب ت) ص ١٠٥ ،عاشور ، سعيد ، "مصر في عصر دولة المماليك البحرية " ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م ص ١٥٢ .

٢. صبح الاعشى ،ج ١٤ ،ص ١٩٢

٣. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١١٨ ،زبدة كشف الممالك ،ص ١٩١ ،

Urban Life , P. 22.

٤. صبح الاعشى ،ج ٩ ،ص ٣٤-٣٥ ،بدائع الزهور ،ج ١ ،ص ١٠١ .

النظر في اوصياء اليتامى (١) ،واموال المحجوز عليهم من المجانين والسفهاء وفي وصايا المسلمين ،وان يهتم بالشهود ولا يهمل أمرهم (٢) ،والنظر في الاوقاف والعمل على تنمية مواردها واستلام ريعها وصرفه في وجوهه ،وعهد القضاة في تسلم اموال المواريث المتنازع عليها واموال من يموتون من الغرباء ويحفظونها وديعة وامانة لديهم حتى يحضر ورثتهم (٣) .

وكان المسيحيون يلجأون الى المحاكم الكنيسية في القضايا الدينية واليهود يعرضون مثل هذه القضايا على محاكمهم الدينية (٤) .

٣ . قاضي العسكر :

وهو القاضي المسؤول في جيش دمشق وهو الذى يحكم بين الجنود في حالة حدوث خلافات بينهم (٥)وغالبا ما تكون الخلافات حول الغنائم والديون المؤجلة واستحقاقها ويتقاضى هؤلاء عند قاضي العسكر المختص بهم حفظا للوقت ولعدم انشغال الجنود عن واجباتهم ،ويكون لقاضي العسكر خيمة من الخيام يقصده الجنود للتقاضي فيها ،ويكون مع قاضي العسكر كتابا يسجل فيه قضاياه اليومية ، (٦)وكان في دمشق قاضيان للعسكر احدهما شافعي والآخر حنفي ،ويتم تعيينهما من جند السلطان (وليس في دمشق قاضي للعسكر مالكي ولا حنبلي) (٧) .

---

١ . التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٦-١١٧ ، زبدة كشف الممالك ، ص ٩٠ .
٢ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٦-١١٧ ، الخطط ج ٢ ، ص ٩٢ .
٣ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٦-١١٧ ، زبدة كشف الممالك ، ص ٩٠ .
٥ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٤ .
٦ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٦-١١٧ .
٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٢ ، معيد النعم ، ص ٥٦ .

٤.المفـــــتي

يلي قاضي العسكر في الاهمية مفتوا دار العدل وكان في دمشق مفتيان احدهما شافعي والاخر حنفي كما في قضاء العسكر ، وتتم توليتهما من قبل النائب في دمشق (١).

ويختلف اختصاص هؤلاء عن اختصاص القضاة ، فانهم لا يفصلون في خصومات المدنيين والعسكريين ، وانما يبينون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل كل حسب مذهبه وبهم تستنير الطريق امام القضاة عند نظرهم في القضايا كما يتبين افراد الشعب احكام دينهم ويعرفون ما اشكل عليهم من مسائل (٢).

كانت الولاية بكاملها تقع في نطاق اختصاص المفتي وقد يكلف مفتي دمشـــق بالاجابة عن اسئلة تحول اليه من ولاية مجاورة ان لم يكن فيها مفتي (٣).

٥. شاد الزكـــاة :

وكان اليه النظر في جمع الزكاة من كل مسلم مكلف بدفعها وكذلك كان يجمع من التجار العشور ويتم تعيينه من قبل النائب (٤).

٦. بشاد الاوقاف :

وكان اليه الاشراف على سائر اوقاف مملكة دمشق ومراقبة حساباتها ومراجعتها(٥) ان لم يكن الواقف اشترط سبيلا خاصا لادارة وقفه ويتم تعيينه من قبل النائب(٦).

١.صبح الاعشى ، ج ١١،ص ٢٠٨-٢٠٩ ، Urban Life , P. 22.

٢.صبح الاعشى ، ص ٢٢١-٢٢٢ ، ج ٤.

٣.معيد النعم ، ص ٥٦-٥٧.

٤.صبح الاعشى ، ج ٤،ص ١٨٧.

٥.السلوك ، ج ١،ص ١٠٠٥.

٦.صبح الاعشى ، ج ٤،ص ١٨٦.

٧. شاد الدواوين :

وكان يقوم بمراجعة حسابات الاموال السلطانية (١)، التي تشتمل الخراج والعشور والغنائم (٢) كما انه يرافق الوزير بمراجعة حساباتها وتدقيقها (٣) وكان عليه ان يسد حاجة القلاع ورجالها من الاموال والغلال والذخائر (٤). ويتم تعيينه من قبل النائب . (٥)

٨. شاد مراكز البريد :

ويشرف صاحب هذه الوظيفة على موظفي البريد ومراقبتهم ويقوم بالتفتيش عليهم (٦) وكان للبريدين رئيس مباشر اطلق عليه " مقدم البريدية " ، يضطلع لمهام البريد ويشرف على شؤونه ويعمل على النهوض به ويرجع في النهاية الى كاتب السر للموافقة على ما يقدمه هذا الموظف من الاقتراحات ويلي مقدم البريد في الرتبة سبعة من الموظفين اطلق عليهم " المقدمين " ويتولى كل منهم اعمال البريد يوميا في كل اسبوع ويعرض اعماله في نهاية كل يوم على مقدم البريدية وكان امير البريد يتولى الاهتمام بخيول البريد في دمشق ونواحيها (٧).

وكان في دمشق شدود صغار متعددة يولي بها اجناد من قبل النائب كشاد دار البطيخ الذى كان عليه ان يتأكد من الرسوم انها كانت تجمع بانتظام ام لا ،

---

١. صبح الاعشى ، ج ٤، ص ١٨٧ ، السلوك ، ج ١، ص ١٠٥ ، حاشية رقم (٢) .
٢. زبدة كشف الممالك ، ص ٩٤ .
٣. صبح الاعشى ، ج ٤، ص ١٨٧-٢١٨ ، الروض الزاهر ، ص ٩٨ .
٤. صبح الاعشى ، ج ١٤، ص ١٩٤ .
٥. صبح الاعشى ، ج ٤، ص ١٨٦ .
٦. صبح الاعشى ، ج ٤، ص ١٨٦-١٨٧ ، ٢١٨ .
٧. صبح الاعشى ، ج ٤، ص ١٩٧ .

وشادّ المسابك من الحديد والنحاس والزجاج وغير ذلك ،الذى كان عليه ان يهتم بمصلحة الدولة فيحتفظ بالقيود الصحيحة للمتاجر كلها ،وشاد المواريث الحشرية ونحو ذلك وشاد مصانع السكر ،وشادّ المشرالذى كان يتحتم عليه ان يضمن دفع الرسوم الجمركية المترتبة على التجار الاجانب (١) .

٩ . نظّار وخطباء وأئمة المساجد :

وكان يقوم على شوءون المساجد نظّار وخطباء وأئمة فالنظر يدير الوقف وينظر في صيانة البناء والخطيب كان مسوءولا عن خطبة الجمعة ،كما انه كان يقوم بقسط من التعليم وتعتبر الخطابة من اشهر شعائر الاسلام حيث يقول الخطيب بالابلاغ عن سنة الله ورسوله في الخطب حاثا الناس على اتباع الطريق السليم في معاملاتهم مع بعضهم (٢) ،وأقامةالآذان والصلاة في اوقاتها . (٣)

وعلى خطيب الجامع أن يدعو للسلطان بالصلاح ،والا يطيل الخطبة ، وأن يستعمل ألفاظا سهلة الفهم بعيدة عن التكلف (٤) ،ولما كان للجامع الاموى الكبير منزلة خاصة في دمشق فقد كان كثيرا ما يتولى نظرة قاضي القضاة الشافعي (٥) كما كان يرجع اليه النظر في التداريس (٦) بدمشق ،كبارها وصغارها ،ولا شك في ان التداريس الكبار كان يشغلها كبار العلماء وتختلف باختلاف حال من يتولاها في الرفعة وغيرها (٧) .

---

١ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٨٨ .

٢ .صبح الاعشى ،ج ١١ ،ص ٣٨١ .

٣ .التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٢٧ .

٤ .معيد النعم ،ص ١١٢ .

٥ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١١٢ .

٦ .التداريس : معناها اعداد الدروس،ابن منظور ابو الفضل جمال الدين بن مكرم، "لسان العرب" ،بيروت، دار الكتاب اللبناني ،١٩٦٨ ،ج ١٦ ،ص ٨ .

٧ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٩٣ .

مشيخـــة الشيـــوخ :

ومع ان الزوايا (١) كانت من مراكز العلم بالاضافة الى امور اخرى فان النظر فيها لـم يكن لقاضي القضاة ، فقد كانت مستقلة وكان لها مدبروها فكل زاوية حتى لو سميـــت خانقاه او رباط . كان لها شيخ يرجع اليه في امور جماعته او اتباعه ، وكان هـــؤلاء الشيوخ جميعا تحت امرة شيخ الشيوخ الذى كان مدبرا للجميع وحلقة اتصال بينهم وبين اصحاب السلطات فقد كان لهؤلاء اهمية خاصة في نظر أهل الحكم ، اذ انـــه كان باستطاعتهم ان يخلقوا متاعب في الدولة لو انهم أثاروا في الناس روح التذمـــر لكنهم لم يفعلوا ذلك وقد فضلوا ان يكونوا حلفاء للسلطان ، الا أن الزوايا كانـــت تقع تحت رقابة شديدة خشية ان ينظم اليها شيعة او اسماعيلية والواقع ان الكثيرون ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقيمون فيها كانوا شديدى الحرص على تعقـــب هؤلاء ، اما بوصف الزوايا مراكز

للصوفية فقد أدت خدمات كبيرة للادب والفكر في عهد المماليك الامر الـــذى سنتحدث عنه في الفصل الخاص بالمؤسسات الاجتماعية في هذه الرسالة .

اما مشيخة الشيوخ فكان يشرف صاحبها على الخوانق والفقراء ويعتني بما تحتاجه هذه الخوانق (٢) ، كما انه يحث الشيوخ على اتباع سنة الله ورسوله في جميـــــع أعمالهم (٣) ، وعليه ايضا ان يكون رحب الصدر اذ انه يستقبل الوفود التي تردة مـن السلطان ويقوم باكرامهم وتنفيذ مطالبهم ، كما ان عليه ان يستقبل كل مسافر او فقير ويساعد على ما يحتاج اليه (٤) ، والعادة ان يكون متولي هذه الوظيفة شيخ الخانقاة

---

١ . سنوضح المقصود بلفظ زوايا وربط وخانقاة في الفصل الخاص بالمؤسســات الاجتماعية التربويــة والتعليميــة .

٢ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٤ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ ، ٢٢٢ .

٣ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٨ .

٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٩ ، معيد النعم ، ص ١٢٦ .

الشميصاتيــة بدمشق ويكون تعيينه من قبل النائب (١) ويقوم شيخ الشيوخ في نهايــة كل شهر بتهنئة السلطان او النائب كما انه يقدم له التهنئة في الاعياد (٢).

١١ . وظائــف زعماء أهـل الذمــة :

وكان للمسيحين في دمشق بطركان (بطريركان) احدهما للملكيين والآخــر لليعاقبــة (٣) وكان كل منهما مسؤولا امام نائب السلطنة وكان اختصاص كل منهمــا يشمل المسيحية التابعين له في نيابة دمشق، وكانت الطائفة تختار بطريركها ، الا انه يتعين بمرسوم يصدره السلطان وقد جاء في التوقيع السلطاني بالاضافة الى امــور اخرى ما يلي : " فلذلك رسم بالامر الشريف لا زال احسانه العميم لكل طائفة شاملا ، وبره الجسيم لسائر الملك بالفضل متواصلا - ان يستقر بطركا على النصارى الملكيــة بالشام واعطاله على عادة من تقدمه في ذلك وتقوية يده على اهل ملته من تقدم الكريم المستمر حكمه الى آخر وقت ، مشكورة لما تحلت به من جميل المناقب وليحكم بمقتضــى مذهبه وليسر سيرا جميلا ليحصل لهم غاية قصده ومأربــه ولينظر في اموالهم بالرحمـة وليعمل في تعلقاتهم بصدق القصد والهمة وليسلك الطريقة الواضحة الجلية وليتخلق بالاخلاق المرضية وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريثهم وانكحتهم وليعتمد الزهــد في اموالهم وامتعتهم حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتلك لأمره ، واقفا عند ما يقــدم به اليه في سره وجهره منصبين لاقامة حرمته وتنفيذ امره وكلمته وليحسن النظر فيمــن عنده من الرهبان وليرفق بذوى الحاجات والضعفاء من النساء والصبيان والاساقفــة، والبطارنة والقسيسين زيادة الاحسان ، احسانا جاريا في المساء والصباح والغــدو والرّواح ، فليتمثلوا امره بالطاعة والاذعان وليستجيبوا نهيه من غير خلاف ولا تــوان ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق الناقوس، ورفع اصواتهم بالضجيج ولا سيمــا عند اوقات الاذان لاقامة الناقوس وليتقدم الى جميع النصارى بان كلا منهم يلزم زيّــة

---

١ . صبـح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٩٣ .

٢ . زبـدة كشف الممالك ، ص ٩٢ .

٣ . صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٩٤ ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٥-١٤٦ .

وما جاءت به الشروط العمرية - عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لتكون احوالهم في جميع الحالات والوصايا كثيرة وهو بها عارف والله تعالى يلهمه الرشد والمعارف" (١).

كان رئيس اليهود يسمى الناغد في بادئ الامر ثم شاع استعمال كلمة الرئيس رئيس اليهود القرّائين والربانيين (٢)، وكان في دمشق .. مقدم لطائفة السامريين لكن رئيسهم كان في مدينة نابلس بفلسطين (٣)، وقد كانت واجبات رئيس اليهود توضح في مرسوم التعيين وهي تشبه وظيفة البطريك فالبطريك والرئيس كان لهما اعوان على مراتب متفاوتة، فالاول كان يعتمد على الاساقفة والكهنة، اما اعوان الثاني فكان منهم البرناس الذى كان يجمع الصدقات والمقدمون والديان (المراقبان) والحزان وبيت الدين (القاضي) وكان كل يقوم بواجباته على نحو ما نص عليه ناموس اليهود (٤).

ولم يكن البطريرك او الرئيس مسؤولين عن جمع الجزية، فقد كانت هذه تدفع الى موظفي الدولة رأسا، الا انه كان من الضرورى ان يطلع رجال الدولة على التطورات التي تجرى في الطائفة في سبيل تعيين المبالغ الواجب دفعها لذلك كان على رؤساء المسيحيين واليهود والسامريين ان يعدوا الرقاع المفصلة المحتوية اسماء المقيمين في مناطقهم واسماء الطارئين عليها واسماء المولودين والمتوفين والنازحين والذين اعتنقوا الاسلام، هذه الرقاع كانت تقدم الى شاد الجوالي (٥)، الذى كان عليه ان يتشدد في الحصول عليها .

---

١. صبح الاعشى، ج ١٢، ص ٤٢٥-٤٢٦.
٢. صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٩٤.
٣. انظر وصية رئيس السامرة في التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٤.
٤. انظر وصيّة رئيس اليهود في التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٤٢-١٤٣.
٥. الجوالي : ما يؤخذ من اهل الذمة من الجزية المقررة عليهم كل سنة، صبح الاعشى، ج ٣، ص ٤٦٢، نهاية الارب، ج ٨، ص ٢٣٦.

وقد ترتب على منح هذه الادارة الذاتية للطوائف الدينية المختلفة حل بعض المشكلات الادارية حيث مكن للحاكم ان يهتدى الى تلك الطوائف بيسر عندما يحتاجها بقطع النظر عن الباعث الى تلك الحاجة .

وبالنسبة للوظائف الادارية في دمشق في العهد المملوكي يمكننا ان نستخلص الجدول التالي مما اورده القلقشندى :-

اسم المدينة	عدد الوظائف ارباب السيوف	ارباب القلم	وظائف دينيه
دمشق	٢١	١٨	١٠
حلب	٢٢	٨	١١
طرابلس	١٢	٥	١٢
حماه	١٢	٥	١٧
صفد	١٢	٥	١٢
الكرك	٤	٣	- (١)

نلاحظ من الجدول السابق ان دمشق تحتل المرتبة الاولى بالنسبة لعدد وظائف ارباب القلم ، وتفوق حلب على دمشق في الوظائف الدينية على الرغم انها تلي صفد وطرابلس ونلاحظ ان عدد ارباب السيوف في حلب اكثر منها في منطقة اخرى وهذا يبدو طبيعيا ،اذ ان نيابات حلب اكثر عددا من النيابات الاخرى الموجودة في باقي المدن الشامية . واذا نظرنا الى انواع اصحاب الوظائف من الناحية العامة وجدنا ان هناك ثلاث أنواع من اصحاب الوظائف من الناحية العامة المسؤولين عن شؤون الولاية بأشراف نائب السلطنة وكان لكل من هذه الفئات واجبات تقوم بها ومنها اشتقت تسميتها وقد كان اصحاب السيوف يحتلون اعلى الرتب يليهم اصحاب الوظائف الديوانية وكانت

---

١٠ صبح الاعشى ،ج٤ ،ص ١١٩ - ١٢٠ .

وظائفهم مدنية ، اما الفئة الثالثة ولم تكن اقل الفئات اهمية فهي اصحاب الوظائف الدينية ونلاحظ ايضا انه لم يكن جميع شاغلي هذه الوظائف من طبقة الامراء بل كان بعضها لا يشترط فيه لقب الامارة ، وبعضها كان يتقلده موظفون غير طبقة الامراء يرى ابراهيم حسن انه ربما كانت لهذه الكثرة الملحوظة في عدد تلك الوظائف اكبر الاثر في تخفيف حدة الاحقاد التي كانت في نفوس كبار المماليك بين آن وآخر من أجل السلطة والنفوذ ومكنهم من ابقاء عدد كبير من الاتباع في خدمتهم وضمنوا بذلك نصرتهم في شدتهم و رضاءهم عن حكمهم (١) .

كانت حكومة المماليك تنظم بشكل مباشر وغير مباشر الاعمال الضخمة التي كان يقوم بها الموظفون في مدينة دمشق ، حيث نجد ان بعض الموظفين كانوا يدارون بواسطة رئيسهم ، فكانت المدارس تحت اشراف القاضي والمستشفيات كان يديرها الناظر ، اما التجارات المتنوعة مثل السكر والحديد والنحاس والزجاج كانت خاصة بالولاية حيث وجد موظفون خاصون لادارتها ، كذلك لاهل الذمة رؤسائهم والذين كانوا مسؤولون امام الحاكم عن جميع تصرفات واعمال اهل الذمة اما المتبقى من الاعمال فانه يدرج في قائمة المحتسب .

ويلاحظ وجود اضطراب في الوظائف واختصاصها حيث نجد ان بعض الموظفين كانت اختصاصاتهم مشتركة بالنظر في بعض الامور . كما كان يحدث بين والي دمشق والمحتسب مثلا ، وكانت سلطة الوظائف تتوقف الى حد كبير على اختصاص غيره .

ويرى ابراهيم حسن ان الاضطراب في الوظائف واختصاصها امر غير مستغرب في بيئة كان باب الخلاف في الرأى مفتوحا بين الفقهاء فيها ولم تكن النظم الادارية قد وضعت على أسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة . (٢)

---

١ . تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢١٨ .

٢ . تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٦٣ .

ويلاحظ في نظام المماليك عامة عدم الاستقرار في الوظائف اى كثرة التولية والعزل والحبس والاعدام ،حيث يذكر ابراهيم حسن ٧٥ نائبا للسلطنة في دمشق ٢٩ منهم اعلنوا الثورة على السلطان الحاكم ،ووصل منهم الى مرتبة السلطنة لاجين وشيخ ونجح اثنان من الهرب خارج الدولة وحصل خمسة على عفو السلطان وسجن خمسة ثم افرج عنهم واعدم خمسة عشر ،وكانت الاحالة على التقاعد بعد الخدمة طبيعيا بين صغار الموظفين ولكنها كانت نادرة جدا بين كبار رجال الدولة. (١)

---

١ .تاريخ المماليك البحرية ،ص ٢٩٣-٢٩٤ .

الفصل الثالث

ويشمل

القسم الثاني من بنية المجتمع الدمشقي زمن المماليك

٢- الفئات العامة في دمشق

١ . العلماء

٢ . التجار

٣ . فئات العامة الأخرى

١ . الصنّاع وارباب الحرف

٢ . الفلاحون " في البر "

٣ . العوام

٤ . أهل الذمة : المسيحيين ، اليهود

٥ . الاقليات الاخرى ، التجار الاجانب
الرحالة المسيحيون ، الاسرى من التتار
الارمن

٢ . فئـــات العامة في دمشق

أ . العلمـــاء

أما الفئة الثانية في بناء المجتمع الدمشقي في العهد المملوكي فهـــي فئة المعممين من ارباب الوظائف الديوانية ، والفقهاء والعلماء والادبـاء والكتـــاب ، وتسميهم بعض المراجع " اهل العمامـــة " (١) كما اطلق عليهم ارباب الاقلام تمييزا لهم عن غيرهم من الطوائف/ وبخاصة ارباب السيوف من المماليك وكان العلماء فـــي العهد المملوكي اصحاب نفوذ كبير، فقد كان منهم القاضي (٢) والمحتسب (٣) ومنهـم المفتي (٤) والمدرس والامام والخطيب والقارئ(٥)، وبذلك استطاعوا السيطرة على التعليم وكان اليهم النظر في القضاء ، واليهم تعود الفتوى ، وكان هناك عدد كبير من الوظائف الدينية وقفا عليهم ، فكتاب الانشاء (٦) ، ونظّار المؤسسات المختلفة كالبيمارستـان (٧) والجيش (٨) ، كانوا من العلماء ، وقد امتاز المعممـون لا سيما جماعة العلماء بمميزات معينة

---

١. ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٠٥ .

٢ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٢٤ ، صبـح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٢ ، ٢١٦ .

٣ . نهاية الرتبة ، ص ٨ـ ١٠ ، التعريف بالمصطلح الشريف ، معالم القربة ، ص ١٢ـ ١٤ .

٤ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، ج ١١ ، ص ٢٠٩ .

٥ . التعريف بالمصطلـح الشريف ، ص ١٢٧ ، صبـح الاعشـى ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ١٩٣ ، ج ١١ ، ص ٣٨١ .

٦ . صبـح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٠ ، ٢٤١ .

٧ . صبـح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

٨ . صبـح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

طوال العهد المملوكي ، ومن هذه الامتيازات نفوذهم في الدولة واحترام السلاطين واجلالهم لهم . (١)

ونلاحظ ان العلماء ورجال الدين البارزين بصفة خاصة كانوا يعيشون في ذلك العهد معيشة راضية بفضل ما كان يغدقه عليهم السلاطين والامراء من وظائف عالية رغبة منهم في استمالتهم الى جانبهم وضمانا لرضاهم عنهم لان اليهم قيادة العامة في السخط والرضى ، وفي ذلك يذكر ابن كثير انه في عام (٦٩٠هـ/١٢٨٩م) طلب القاضي بدر الدين بن جماعه من القدس على البريد الى مصر وقال عنه ابن بنت الاعز "وكان بيده سبعة عشر منصبا ، منها القضاء ، والخطابة ، ونظر الاحباس ، ومشيخة الشيوخ ونظر الخزانة وتداريس كبار (٢) ونجد ابن كثير يذكر في حوادث عام (٧٠١هـ/١٣٠١م) "انه في يوم الاربعاء تاسع عشر ربيع الاول جلس قاضي القضاة وخطيب الخطباء بدر الدين بن جماعة بالخانقاة الشمساطية شيخ الشيوخ بها عن طلب الصوفية له بذلك ورغبتهم منه ، وذلك بعد وفاة الشيخ يوسف بن حمويه وفرحت الصوفية به وجلسوا حوله ، ولم تجتمع هذه المناصب لغيره قبله ولا بلغنا انها اجتمعت الى احد بعده في زماننا هذا : القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ (٣) . من ذلك كله يتبين ان كثيرا من رجال العلم والفقه كانوا يجمعون وظائف كثيرة ، ولعل ذلك يرجع اولا الى ما كانوا يتميزون به من كفايات نادرة ، مع هذا فقد كان جمهرة رجال العلماء يعيشون حياة طيبة بسبب ما كانوا يقومون به من اعمال عديدة يسندها اليهم السلاطين والامراء . اما السبب لهذه السعة والبسطة في الحياة التي كان يعيش بها العلماء فهي ان المماليك احسوا دائما انهم أغراب عن البلاد واهلها .

---

١ . راجع ما كتب عن ذلك في الفصل الثاني من هذه الرسالة .

٢ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٢ .

٣ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٧-١٨ .

وبأنهم في حاجة الى دعامة يستندون اليها في حكمهم ، ويستمينون بها على ارضاء الناس، وطبيعي انهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء بحكم ما للدين ورجاله من تأثير في النفوس ،وعلى ذلك نستطيع القول ،ان بعض الاسباب التي دفعت بيبرس الى احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) هي السبب نفسه الذى أملى على من سبقوه وتبعوه من سلاطين المماليك احترام العلماء واجلالهم "لان بهم عرفوا دين الاسلام وفي بركتهم يعيشون " (١) ثم ان المماليك لم يكن لهم نظام ثابت في وراثة الحكم ،ولكن "عصائبهم يغلبون على الامر واحد بعد واحد "كما ذكر ابن خلدون (٢) (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ولذلك وجب على الامير الذى يطمع في الحكم ان يستميل هذه القوة من العلماء الى جانبه ليكتسب عن طريقها تأييد العامة في البلاد .

اما مظاهر احترام السلاطين للعلماء فهي كثيرة ومتعددة عندما دخل الشيخ "فتح الدين بن سيّد الناس على السلطان لاجين عام (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) كان السلطان لا يدعه يقبّل الارض حسب العادة المتبعة ويقول له "اهل العلم منزهون عن هذا ويجلس بجواره على المقعد (٣) وكان السلطان برقوق عام (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) اذا دخل عليه عالم أو فقيه انتصب له قائما (٤) ،بل ان السلطان خشقدم (٨٦٥هـ/١٤٦١م) لم ينسى وهو يعاني آلام الموت - ان يقوم من فراشه اذا دخل عليه احد العلماء" (٥) ، بالغ بعض السلاطين المماليك في اظهار اجلالهم للعلماء حتى ان لاجين عام (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) نزل عن سرير الملك ليقبّل يد الامام "محمد بن علي المنفلوطي " (٦) وان الاشرف قايتباى عام (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) مرّغ

---

١ . السلوك ، ج ٣ ،ص ٣٨٣ .

٢ . مقدمة ابن خلدون ،ص ١٨٣ .

٣ . النجوم الزاهرة ،ج ٨ ،ص ١٠٨ .

٤ . السلوك ،ج ٣ ،ص ٥٢٣ ، النجوم الزاهرة ،ج ٢ ،ص ٤٢٢ ، ٥٩٩ .

٥ . منتخبات من حوادث الدهور ،ج ٣ ،ص ٥٥٥ .

٦ . الدرر الكامنة ،ج ٤ ،ص ٩١-٩٤ .

وجهه على قدمي الشيخ عبد القادر الدشطوطي (١)، ولا عجب النزول بعض السلاطين من القلعة مرة أو مرتين في الاسبوع ليزور احد العلماء او يعوده في مرضه (٢) فاذا مات ذلك العالم حضر السلطان الصلاة عليه ومشى امام نعشه الى ان يدفن، ربما حاول السلطان ان يحمل النعش على كتفه فتحمله اكابر الامراء عنه (٣) ومن مظاهر احترام السلاطين للعلماء في عهد المماليك ما أضفته عليهم الرسائل السلطانية، ومن نماذجها "أعز الله تعالى احكام المجلس العالي القاضوى الامرى العالمي الافضلي .. جمال الاسلام والمسلمين .. فخر المدرسين ..." (٤) كذلك ظهر ذلك الاحترام في السماح لهم بركوب الخيل واقتنائها، شأنهم في ذلك شأن المماليك الا في اوقات الحرب عندما تشتد حاجة الدولة الى الخيل (٥) أو في اوقات الفتن والاضطرابات (٦).

وكان هناك من العلماء من لم يتولو أيا من وظائف الدولة، ومع ذلك كانوا يفرضون رأيهم على الدولة بسبب ما تمتعوا به من قوة الشخصية والخلق القويم، ولأن العامة الذى عرف عنهم العلم والاخلاص والحماسة احترموا العلماء وأيدوهم وتكفينا امثلة قليلة للدلالة على ذلك، فقد أصدر الملك العادل عام (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) نقودا جديدة سميت قراطيس (٧) فانتقد اليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) هذا

---

١. الشعراني، ابو المواهب عبد الوهاب بن احمد بن علي الانصارى، لواقح الانوار في طبقات السادة الاخيار"، القاهرة، ١٨٨١، ج٢، ص ٩٠، سيشار اليه "لواقح الانوار"
٢. النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٤٣١.
٣. البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٣٦، ابناء الغمر، ج ١، ص ٢٢٠-٢٢١، النجوم الزاهرة، ص ٤٣١.
٤. صبح الاعشى، ج ٣، ص ١٨٣، مجهول "تاريخ سلاطين المماليك"، تحقيق زيترشتين، ليدن، بريل ١٩١٩، ص ١٠، سيشار اليه "تاريخ سلاطين المماليك"
٥. السلوك، ج ٣، ص ١٧٣.
٦. النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٠٥.
٧. قراطيس: هي نوع من الفلوس النحاسية او الدراهم الملفوفة على شكل اصبع، العصر المماليكي، ص ٤٣٩.

العمل واتهم العادل بانه كان ينوى غشا التعامل بين التجار فما كان من العادل الا ان الغى القراطيس (١) ،وحين اراد الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٨هـ/١٢٥٩ -٦٥٩هـ/١٢٦٠م) الخروج لقتال التتار بالشام ،وجد قلة ما عنده من المال في خزانته وانه "محتاج الى المساعدة بشيء من اموال الرعية لاقامة الجند والتجهيز للسفر وما يعينهم على ذلك "فجمع القضاة والفقهاء والاعيان لاستشارتهم في هذا ، وطلب الموافقة عليه فسكت من كان في المجلس الا الشيخ "عز الدين الذى قال "اذا طرق العدو بلاد الاسلام وجب على الحكم قتالهم ،وجاز لكم ان تأخذوا من الرعية ما تستعينوا به على جهادكم بشرط الا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهبية والفضية والكبابيش (٢) المزركشة واسقاط السيوف والفضة وغير ذلك وتبيعوا الحوائص الذهبية (٣) والالات والسفن ويقتصر كل الجند على سلاحه وركوبه ويتساووا هم والعامة ،واما اخذ الاموال من العامة مع بقايا في ايدى الجند من الاموال والالات الفاخرة فلا " (٤) وبعد هذا يشير الى ما كان للشيخ محي الدين النووى المتوفي عام (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) في عهد الملك الظاهر بيبرس من مواقف

---

١. Urban Life , P. 148.

٢. الكبابيش : مفردها كبش وهو عبارة عن حجرة صغيرة مركبة على عجل مصنوعة من الخشب المحكم مغلفة بلبود او جلود منقوعة في الخل وبداخلها الجند الذين يحركونها بدفعها حيث لا أرض لها ،وقد يعلق في سقفها سلاسل يربط فيها عمودا افقيا له رأس كرأس الكبش وتقرب هذه الالة الى اسوار الحصن او القلعة وتعمل الرجال بتحريكها حتى تصطدم بحائط السور وتعمل الرجال في الاسوار لنقبها اما بالالات او بواسطة رأس الكبش ،زيدان جورجي ، "تاريخ التمدن الاسلامي" ٥ج ،القاهرة ،١٩٠٢ - ١٩٠٦ ،ج١ ،ص١٤٣-١٤٤ سيشار اليه "تاريخ التمدن الاسلامي" ،المماليك البحرية ،ص٣٠٩ .

٣. الحوائص : هي الحزام او المنطقة ،العصر المماليكي ،ص٤١١ .

٤. النجوم الزاهرة ،ج٧ ،ص٧٢ .

مشهودة معه ،ومراسلات اليه فيها التوجيه الرشيد والنصح الصريح وكان الشيـــخ محي الدين النورى بدمشق وكان كثير الوعظ للظاهر بيبرس يكتب اليه بما يسراه ان كان بمصر ،ويصرح بكلمة الحق امامه ان كان الظاهر بدمشق ،وقد سجل السيوطـــي طائفة كبيرة من تلك المكاتبات اكبرها خاص بطلب ترك بعض الضرائب المفروضة لضيق الحال ،وخشية المال (١)وكان قاضي القضاة شمس الدين بن عطاء الحنفي (ت٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤م) كثير التواضع قليل الرغبة في الدنيا لما وقعت الحوطة على امــــلاك الناس اراد السلطان ان يحكم بمقتضى مذهبه فغضب من ذلك " وقال هذه امــلاك بيد اصحابها وما يحل لمسلم ان يتعرض لها ثم نهض من المجلس وذهب فغضـــب السلطان من ذلك ثم سكن غضبه فكان يثني عليه بعد ذلك ويمدحه ويقول "لا تثبتـــوا كتابا الا عنه (٢) وفي عام (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) عقد الملك الظاهر بيبرس مجلسا في دمشق دعا اليه العلماء ،وطلب منهم ان يصدروا فتوى تسمح له بالاستيلاء على اراضي الغوطة ولكن العلماء عارضوا ذلك على اساس ان السلطان لم يكن له حق فـي الاراضي ونزل السلطان على رأى العلماء (٣).

وقد تمكن ابن عبد السلام وهو معاصر للظاهر بيبرس(٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م. - ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) من الغاء الاذن ببيع ذلك وفي عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) كان بيع الخموز وبيوت الفسق يسمح بها لمن له مكانة عند اولي الامر ،ولكن العلماء قاوموهـــا ونجحوا في ابطالها (٤).

اما مكانه العلماء في دمشق في العهد المملوكي عند عامة الناس فلم تقل عــن

---

١. حسن المحاضرة ،ج٢ ،ص ٨٩-٩٠.

٢. البداية والنهاية ،ج١٣ ،ص٢٦٨.

٣. Urban Life , P. 184.

٤. Urban Life , P. 185.

مكانتهم عند السلاطين ، ذلك ان الناس اكرموا العلماء وأضفوا عليهم مختلف القاب التقدير والتفخيم مثل " فقيه زمانه " " وعالم عصره " " وانتهت اليه برياسة العلم " ، " وانتهت اليه رياسة المذهب " ، وفي زحام الاسواق عند البيع والشراء اعتاد الناس ان يقدموا العالم على انفسهم (١) ، ولعل اقوى دليل على احساس الناس بمكانة العلماء انهم صاروا يقصدونهم لقضاء حوائجهم ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة (٢) ، وابن تيمية مثل حسن لتبني اثر العالم المتين الخلق في شؤون الدولة والمجتمع على ما يتضح من بضعة حوادث من حياته ، لما رأى الخطر التتري المحدق ببلاد الشام عام (٦٩٧هـ/١٢٩٨م) ، تحدث الى الناس في شؤون الجهاد ، فكان حديثه أوقع في النفوس من اوامر السلطان (٣) ، ولما احتل التتار دمشق بقيادة غازان (٤) كان ابن تيمية يحّض اراجواش نائب القلعة على وجوب الامتناع عن تسليمها (٥) ، وبعد رحيل جيش غازان من دمشق طاف ابن تيمية وأتباعه على

---

١ . التبر المسبوك ، ص ٣٦٦-٣٦٧ .

٢ . السخاوي ابو الحسن نور الدين علي بن احمد بن عمر ، " تحفه الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات " ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ٢٩ ، سيشار اليه " تحفة الاحباب " .

٣ . التبر المسبوك ، ص ٣٦٧ .

٤ . غازان : هو غازان محمود بن ارغون بن ابغابن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان تولى الملك عام (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) واسلم عام (٦٩٤هـ/١٢٩٤م) على يد الشيخ صدر الدين ابراهيم بن اسعد بن حموية الجويني ، مات بقزوين في الثاني عشر من شعبان عام (٧٠٣هـ/ نيسان ١٣٠٤م) ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٩٢-٢٩٤ .

٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٢٥ ، ابن ايبك الداوداري ، ابو بكر عبد الله ، " كنز الدرر وجامع الغرر - الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر " ، ج ٩ ، حققه هانس روبرت رويمر ، نشر قسم الدراسات الاسلامية بالمعهد الالماني للاثار بالقاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤ ، سيشار اليه " كنز الدرر " .

الا رض ويعزّرون اصحاب الحانات (١) واخيرا نشير الى خروج ابن تيمية عام (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م) الى بلاد الروم وتبعه نائب السلطنة جمال الدين الا فرم بنفسه فنصرهم الله عليهم، ثم عاد نائب السلطنة في صحبته ابن تيمية الى دمشق وقد كان حضور ابن تيمية لهذه الغزوة بنفسه اثر فعّال في النصر، وابان فيها ما هو معروف عنه من العلم والشجاعة وكان فيها خير كبير (٢).

ويذكر ابن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) بشجاعة ابن تيمية وعطه على رفع الظلم، ان رجلا من الناس شكا اليه من ظلم نزل به من قطلو بك الكبير التترى، وكان هذا فيه جبروت، ويأخذ اموال الناس غصبا فدخل عليه ابن تيمية غير هيّاب ولا وجل وتكلم معه فيما جاء به اليه فقال له قطلو بك الكبير انا كنت اريد ان اجيء اليك لانك عالم زاهد يعني الاستهزاء به، فقال له ابن تيمية: موسى كان خيرا مني وفرعون كان شرا منك، وكان موسى يجيء الى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الايمان (٣). قدمنا هذه الامثلة لنوضح الدور الذى قام به العلماء في الحياة العامة في دمشق فاذا اضفنا الى ذلك نشاطهم الفكرى، لا نتعجب اذا وجدنا ان حظهم في ارشاد العامه وتوجيه قضاياهم المختلفة كان كبيرا.

وهذا الاحترام الذى حظي به العلماء في الفترة المملوكية جعلهم يعتدون بانفسهم ومكانتهم ويصمدون في وجه الامراء والسلاطين (٤) على ان العلماء لم يحظوا بهذه المكانة طوال العهد المملوكي، بل تخلل ذلك العهد وبخاصة منذ

---

١. البداية والنهاية، ج١٤، ص١١.
٢. البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٥.
٣. فوات الوفيات، ج١، ص٥٣-٥٤.
٤. السلوك، ج١، ص٤٩٩.

النصف الثاني للقرن الهجرى- حوادث ظهر منها كره المماليك للعلماء بسبب قربهم من السلاطين - وهكذا اخذ المماليك يتعرضون للعلماء بالنقد ويتهكمون عليهم في مجالسهم مما أثار سخط المقريزى (١) (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) وكان المماليك لم يعجبهم ان تشاركهم طائفة اخرى في ركوب الخيل - فثاروا واشترطوا على السلاطين المناداة بالشوارع ان متعمما لا يركب فرسا كما حدث عام (٧٨١هـ/١٣٧٩م) وعام (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) وعندئذ كان يضطر السلاطين الى الاذعان لطلبهم (٢) ولكن سرعان ما تعود الحياة الى مجاريها عقب خمود الفتنة واستقرار الاوضاع فيستعيد العلماء مكانتهم ويركبون الخيل (٣) وتشير كثيرا من الشواهد ان العلماء تمتعوا في العهد المملوكي بكثير من السعة والبسطة في العيش حيث يذكر ابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٢م) ان بعض القضاة ملؤا دورهم بالجوارى الحسان والخدم والمماليك " مما يعجز كثير من الملوك عن مضاهاته (٤) هذا عدا ما جمعه العلماء في بيوتهم من الاواني الثمينة وآلاف المجلدات النفيسة التي يصعب تقديرها ، اما المصدر الرئيسي لهذه الثروة التي تمتع بها العلماء فهي الاوقاف والاحباس التي اوقفت على المؤسسات العلمية والدينية كالمدارس والمساجد والخانقاوات ، او على الاشخاص انفسهم فيتوارثون المرتبات ابنا عن اب (٥) .

بالاضافة الى هذه الاوقاف لم تضن الدولة في منح العلماء ذوى الوظائف مرتبات سخية ، حتى بلغ معلوم القاضي مبلغ خمسين دينارا شهريا . كذلك كان

---

١ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

٢ . منتخبات من حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٥٣٤ .

٣ . انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .

٤ . الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

٥ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

السلطان نفسه يتصدق على العلماء بخلع ويرسم لهم بغلّة من حواصل أهل دمشق (١) .

كذلك لم تحرم الدولة طائفة العلماء من الارزاق المينية التي اعتادت صرفها للماليك ، فأجرت على ذوى الاقلام انصبة شهرية من الغلّة ويومية من اللحم والتوابل والخبز والعليق ، هذا عدا عن السكر والشمع والزيت والكسوة والاضحية في كل سنة مع زيادة تعيين الحلوى والسكر في شهر رمضان (٢) .

ويبدو ان هذه المرتبات المينية التي صرفتها الدولة للفقهاء والعلماء قاطبة صارت موردا أساسيا يعتمدون عليه في حياتهم ، حتى انه عندما قطعت عنهم هذه المرتبات عام "٨٧٣هـ" حصل لهم غاية الضرر والبهدلة (٣) .

---

١ . المختصر في اخبار البشر ، ج٧ ، ص ٧١ .

٢ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ .

٣ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠٢-١٠٣ .

٢ . التجـــــار :

اما الفئةالثالثة من فئات المجتمع الدمشقي في العهد المملوكي فكانت فئة التجار ومن المعروف ان دمشق قامت بنشاط كبير في المجال التجارى بين الشرق والغرب في ذلك العهد حيث كان قيام دولة المماليك في مصر والشام في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى مصحوبا بازدهار طريق البحر الاحمر وموانىء مصر ، واضمحلال ما عداه من طرق التجارة الرئيسية الاخرى بين الشرق والغرب ، ذلك انه لم يكن مضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى التتار على بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)(١) وامتد نفوذهم الى الشام وآسيا الصغرى فضلا عن بلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزا لدولته (٢) ، وبذلك اضمحل طريق التجارة البرى بين الصين من جهة وآسيا الصغرى وموانىء البحر المتوسط من جهة اخرى ، وقد قام ماركوبولو برحلة شهيرة الى الشرق الاقصى في اواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، فأشار الى ما يترتب على غزوات التتار من انعدام الامن في الطريق واعتداء اللصوص على القوافل التجارية (٣)

واذا عرضنا للتجارة المصرية وتجارة بلاد الشام في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، وجدنا انها رغم الاضطراب السياسي في تلك الفترة كانت ناجحة جدا فقد كانت مصر تستورد من دمشق كميات كبيرة من الحرير الخام والقطن لمصانعها وجوز الغال والصباغ والنيلج ، وكذلك بذر السمسم والصابون والزيت والفقوع (المشمش المجفف) والقمر الدين والتين المجفف واحيانا القمح ، وهذه البضائع كانت تصدر بحرا اكثر مما

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠١ ، رحلة ابن خلدون ، ص ٢٦٢ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٥ .

٢ . الهمذاني ، رشيد الدين ، " جامع التواريخ " نقله الى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطي الصياد ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . سيشار اليه " جامع التواريخ " .

٣ . Marco Polo , " Travels ", 2 Vols , London , 1903, P. 107 - 108. سيشار اليه 'Marco Polo Travels '

تصدر بـرا ،وذلك على ظهر بواخر أوروبية وكانت المراكب والقوافل تحمل في عودتها الى سوريا الرز والحبوب والشعير منها خاصة - وبعض المنسوجات الكتانية والحريرية والسكر والصوف وبعض المنتجات الصوفية السودانية كسن الفيل والفول السوداني والجلود والعبيد ،رغم الاخطار المتأتية من قراصنة البحر وقطاع الطرق فان ارباح المتاجرين من مصر وبلاد الشام كانت تتراوح بين ١٠٪ و ٣٠٪ وكانت دمشق المركز الرئيسي للتجارة مع مصر ،ويأتي بعدها طرابلس وبيروت (١).

أما علاقة بلاد الشام ببلاد العرب الجنوبية فقد كانت عن طريق اتصالها ببلاد الحجاز ،ولا بد من الاشارة الى ان الحج كان يلعب دورا هاما جدا في حياة دمشق التجاريةفقد كانت قافلة الحجيج الدمشقية القافلة الاولى من حيث العدد والاهمية ، وكان نائب دمشق مكلفا بالسهر عليها وقيادتها بنفسه مع قوة من الجيش لحمايتها من غارات البدو ، فالحج لم يكن فقط رحلة دينية يؤديها المؤمنون من الناس وانما كان كذلك رحلة تجاريةيستفيد كثير من التجار عن طريقها : فالقافلة محمية حماية ممتازة والضرائب لا وجود لها ،وهكذا كان يحمل الحاج معه الى جانب المؤن الغذائية بضائع لا حصر لها . ويحملون عند عودتهم بضائع تلك المناطق او بضاعة الهند الوافدة عن طريق بلاد العرب الجنوبية كالتوابل واللؤلؤ والشالات والموسلين والفلفل ويمكن القول ان رخاء دمشق الاقتصادى في العهد المملوكي ارتبط ارتباطا كبيرا بحركة الحج ،اذ ان الموسم نفسه كان يوجد في اسواق دمشق حركة تجارية ضخمة فقد كان الحجاج يفدون اليها ليتزودوا قبل سفرهم منها بجميع ما يحتاجونه من مواد غذائية تكفيهم ثلاثة اشهر كاملة هي فترة الذهاب الى مكة والاياب منها . وكانت اعدادهم بالالاف حتى ان بعض القوافل الذاهبة الى مكة كانت تمتد من ثلاثة آلاف جمل الى

---

١. الحسني ،علي ، "تاريخ سوريا الاقتصادى " ،دمشق ، ١٣٤٢هـ،ص١٣٢-١٣٣، سيشار اليه "تاريخ سوريا الاقتصادى ".

اربعة آلا ف ، وكان يتطلب دخول بعضها الى دمشق او خروجها منها يومين كاملين (١) ، اما التجارة الخارجية لـ بين بلاد الشام واوروبافي العهد المملوكي فقد كانت تجارة الهند في البهارات والحجار الكريمة وما اليها تمر باراضي الدولة المملوكية ومع انه كان هناك محاولة لا حياء الطريق التجارى البيزنطي الشمالي ، فان هذا لم يؤثر في تجارة دمشق ، وقد عرفت المدن الايطاليةوفي مقدمتها البندقية ومدن فرنسا وارغون ، قيمة الاتجار بواسطة المماليك وكانت دمشق من المحطات الرئيسية لتلك التجارة ، حيث كانتاسواقا كبيرة للتجار ، ومخازن عظيمة للبضائع. وقد كان في دمشق قناصل للبنادقة وللجنوبيين وغيرهم ولكن لا بد من الاشارة هنا الى الاحتكار الذى كان سلاطين المماليك يلجأون اليه لزيادة ثروتهم ، فقد منع برسباى استيراد البهارات وخاصة الفلفل من الهند ، فارتفعت الاسعاروعندئذ باع الموجود عنده بارباح طائلة وادخل برسباى الخشب والمعادن ايضا في احتكارات الدولة لكن البنادقة احتجوا وقطعوا علاقاتهم التجارية ، وهدده القشاتلة والارغونين ايضا فعاد الى صوابه والغى الاحتكار الا عن الفلفل (٢).

ويمكن القول ان التجارة الخارجية بين دمشق واوروبا كانت مركزة في الجاليات الاجنبية الاوروبية ويساعدهم في ذلك بدافع المصلحة والتعاطف الديني الواحد للمسيحيين من اهل البلاد وكذلك اليهود ولم يدخر سلاطين المماليك وسعا في تقوية الروابط الاقتصادية بين بلادهم وبلدان الشرق والغرب عن طريق المعاهدات والاتفاقات والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان . من ذلك المعاهدات التجارية المديدة التي عقدها بسلاطين المماليك مع ملوك صقلية وقشتالة وارغوان فضلا عن جنوه والبندقية وغيرها من جمهوريات ايطاليا التجارية ، وقد حدث عام (١٢٨٣م) ان ارسل حاكم جزيرة سيلان - واسمه ابو نكبا - سفارة الى السلطان

---

(١) تاريخ سوريا الاقتصادى .

(٢) The Mamluk or Slave , P. 137.

المنصوري قلاوون تحمل كتابا يدعو فيه الى تنشيط التجارة بين دولة المماليك وجزيرة سيلان الغنية وقام هذا الحاكم في كتابه برعاية واسعة لجزيرته فذكر ما يمتلكه من سفن تجارية عديدة وما تنتجه سيلان من محصولات وفيرة فضلا عما يستخرجه اهلها من اللؤلؤ والاحجار الكريمة الثمينة ، وأكد ان التجار من المماليك سيجدون في سيلان كثيرا من الحاصلات التي يسعون للحصول عليها من الهند ثم طلب في كتابه تعيين مندوب تجاري لدولة المماليك في سيلان وكان ان رحب السلطان قلاوون بسفراء ملك سيلان واجزل لهم العطايا وارسل في سفارة تحمل رد كتاب ملكهم (١) .

لقد أدى النشاط التجاري في العهد المملوكي بين الشرق والغرب الى ثراء التجار ، وقد ادرك سلاطين المماليك هذه الحقيقة واحسوا ان طبقة التجار دون غيرها هي التي يمكن الاعتماد عليها كمصدر مهم يمد الدولة بالمال لا سيما في ساعات الحرج والشدة . ولذلك عمل السلاطين الى تقريب التجار منهم واصطنعوا منهم ندماء واصحابا ، حيث كان التاجر وجيه الدين محمد بن علي بن ابي طالب بن سويد التكريتي التاجر الكبير بين التجار ذوي الاموال الكثيرة ، موضحا عند الدولة ولا سيما عند الظاهر بيبرس حيث كان يجلّه ويكرمه (٢) والتاجر عثمان بن محمد بن ايوب بن مسافر الاسعردي ، الخواجا الذي احضر والد برقوق الى القاهرة وكان قد سعى في ابطال مكس الرمان في دمشق ، فأجيب الى ذلك وكان له جاه وصيت في البلاد ، (٣) اما التاجر الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن ابي الرجاء التنوخي الدمشقي المعروف بابن السلعوس قال عنه الشيخ صلاح الدين الصفدي في ان السلطان الاشرف خليل كان محبا له فكتب اليه بين الاسطر " يا شقير يا وجه الخير قدم السير فلما قدم وزره وكان اذا ركب تمشي الامراء الكبار في خدمته (٤) .

---

١ . زبدة الفكرة ، الورقة ٢٤٣أ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧١٣ .
٢ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٢ .
٣ . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٤٦ ، ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٧٢-٧٣ .
٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٥٣ .

وهكذا تمتع التجار باحترام كبير ومكانة بارزة في دمشق في العهد المملوكي فاذا ارادوا مدح شخص قالوا عنه "انه من بيت تجاره ووجاهه" (١) ولم يكتف السلاطين المماليك باتخاذ ندمائهم واصحابهم من بعض التجار بل انعموا على بعضهم بأمره "طبلخاناة" وهذا أمر نادر الحصول لغير المماليك وابيح في دمشق للتجار ان ينوبوا عن قضاتها (٢) لذلك تدل جميع الشواهد على ما تمتع به التجار في ذلك العهد من يسر ورخاء كما يبدوا ذلك جليا في قصص الف ليلة وليلة (٣).

وكان التجار من بين عامة الناس اغنى فئات المجتمع ففي عام (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) مات احد التجار واسمه الكمال مخلفا ٣٠٠،٠٠٠ دينار بالاضافة الى ١٠٠ حبة ياقوت، والتي يبلغ حجم الواحدة منها حجم بيضة الغنم (٤)، اما التاجر عثمان بن محمد بن مسافر الاسعرى. فقد كان من التجار ذو الاموال الكثيرة وكان له جاه وصيت في البلاد وعمّر بدمشق قيسارية مليحة (٥)، وكان التاجر صدر الدين اسعد بن المنجاة التنوخي المغربي ثم الدمشقي الحنبلي احد المعدلين ذوى الاموال والمروءات والصدقات "الدّارة البّارة" وقف مدرسة للحنابلة وقبره الى جانب تربة القاضي المصرى في راس درب الريحان من ناحية الجامع الاموى واستجد اشياء كثيرة منها سوق النحاسين قبلى الجامع الاموى، ونقل الصناعة الى مكانها الان، وقد كان قبل ذلك في الصاغة العتيقة، وجدّد الدكاكين التي بين اعمدة الزيارة

١. الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٤.

٢. الضوء اللامع، ج ١٠، ص ١٤.

٣. سهير قلماوى، "الف ليلة وليلة" القاهرة، ١٩٤٣، ص ١١٠-١١١، سيشار اليه "الف ليلة وليلة".

٤. Urban Life, P. 137.

٥. القيسارية: جمعها قياسر، وهي السقوف المسقوفة، واطلق على الخان أو الوكالة، اى البناء الذى يحتوى على غرف ومخازن للتجار ويعلوه طباق للسكن بارتفاع دورين او ثلاثة، ابناء الغمر، ج ٢، ص ٧٢-٧٣. المصر المماليكي، ص ٤٤١.

وتمر الجامع اموالا جزيله وكانت له صدقات كثيرة ، وذكر عنه انه كان يعرف صنعة الكيمياء (١).

وكان التجار يطون المراكز الهامة في الدولة حيث كان التاجر ابو بكر بن عبد الله بن مسعود الذرى البغدادى الطقب بجمال الدين التاجر المقيم بدمشق قد تعرف على الامير جمال الدين النجيبي لما كان نائب السلطنة بدمشق فولاه نظر الجامع الاموى ، والمارستان النورى ، والخوانق بدمشق ، وجمله شيخ الشيوخ ورفع قدره فبقي على ذلك مدة وفي مباشرته ذهّب رؤوس العمد ورخّم الحائط الشمالي في المسجد الاموى . واعجله العزل فلم يتمه واصلح كثيرا من المواضع المتشمتة (٢) ويبدو ان كثرة الثروة في ايدى التجار وجعلتهم دائما مطمع سلاطين المماليك ، ففرضوا ضرائب كثيرة . وعلى الوارد والصادر من المتاجر وضربت عليها مكوسا (٣) ، اختلفت باختلاف الظروف والاحوال ثم تختم البضاعة بختم خاص للدلالة على استيفاء المكس ، وربما كان هناك خاتم آخر للدلالة على مصدر كل سلعة حتى لا يكون سبيل الغش في بيعها ، وقام بهذا العمل موظفون اطلق عليهم اسم مباشرى الختم (٤) ، وقد غالى سلاطين المماليك في فرض الرسوم على التجار كما اكثروا من مصادرتهم ، ومن هذه الرسوم ما يؤخذ من التجار عند خروج الجند للغزو (٥) فاذا لاح خطر

---

١. البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٦ .

٢. تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١١٩ .

٣. المكوس : هي كل ما تحصل من الاموال لديوان السلطان او لاصحاب الاقطاعات او لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٣-١١١ ، ج ٢ ، ص ١٢١-١٢٤ ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨-٤٧١ .

٤. مباشرى الختم : اطلق هذا اللقب على موظفين أشبه بموظفي الجمارك في العصر الحالي ، يقومون بمراقبة الوارد والصادر من البضائع ، ويفرضون عليها مكوسا تختلف باختلاف الاحوال ، ثم يختمون البضاعة بخاتم خاص دلالة على استيفاء المكس ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ، حاشية رقم (١) .

٥. صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

مفاجئ • واحتاج السلطان الى الاموال لاعداد الجيوش فليس امامه في هذه الحالة سوى التجار ليقترض منهم ما يحتاج اليه بضمان وشهود (١) أو يصادر نصف اموالهم او ثلثها (٢) . أو ان يفرض عليهم مبلغا معينا يتعاونون في جمعه ودفعه في الحال (٣).

٣ • فئات العامة الاخرى :

١ • الصنّاع وارباب الحرف :-

وجد في دمشق في العهد المملوكي فئة كبيرة من العمال والصناع واصحاب المهن الخاضعة لنظام النقابات السائد بين افراد كل حرفة كما سنرى فأهل الحرفة الواحدة ويكونّون نقابة لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملتهم فيما بينهم بعضهم وبعض ، وفيما بينهم وبين الجمهور كما يكون لهم رئيس او شيخ ، يفض مشاكلهم ويرجعون اليه في كل ما يهمهم لا سيما في الوساطة بينهم وبين الحكومة(٤) ولما كان دخول اى فرد جديد في حرفة من الحرف من شأنه ان ينافس اصحابها الاصلين فانهم كانوا لا يمرّنون احدا على طرق صناعتهم الا اذا يكون من ابنائهم ولا يسمحون لاى شخص بمشاركتهم الا ان يكون اتى ليحل محل احدهم ، وفي هذه الحالة يقبل بشروط خاصة (٥) .

---

١ • انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٦٥ •

٢ • البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١١ ، مفاكهة الخلّان ، ج ١ ، ص ٤٢ •

٣ • السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤ •

٤ • جودت محمد ، " ذيل على فصل الاخية الفتيان " استانبول ، ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م ، ص ٣٤١ • سبشار اليه ، " ذيل على فصل الاخية الفتيان " •

٥ • الف ليلة وليلة ، ص ٢٣٢ •

شهدت مدينة دمشق من الناحية الصناعية ازدهارا كبيرا في القرون العاشر والحادى عشر الميلادى (١) وكانت الصناعة تقوم بشكل عام على استخدام اليد فيها وقليلا ما تلجأ الى قوى محركة كالماء أو الهواء، وكان الصانع في معظم الاحوال يصنع كميات محدودة وبناء على توصيات بعض التجار او العملاء والتاجر أو العميل هو الذى يقدم له المادة الخام التي تقوم بصنعها حسب الطلب، ولكن هذا لا يمنع من وجود صناع يعملون لحسابهم الخاص ويقوم بنفس الوقت بدور الصانع والتاجر معا، ويستدل من هذا ان الصناعة بشكلها القائم انذاك لم تكن لتتطلب راسمالا كبيرا طالما ان المادة الخام يقدمها التاجر او العميل ، وانما تتطلب اتقانا في العمل وسرعة فيه اى ايدى عاملة كافية واجورا لهذه الايدى العاملة ولم تكن الاجور في دمشق في العهد المملوكي مرتفعة بل كانت ذات مستوى منخفض بالنسبة لمستوى الحياة في دمشق ،في العهد المملوكي فان بعض المؤرخين يعللون ذلك لان الصناعة كانت تنحصرآنذاك في نطاق الاسرة الواحدة فيتوارثها الابن عن الاب حتى تغدو احتكارا لهم. وهذا التركيب الوراثي للصناعة يسهل القضاء عليها فيما لو انقرضت الاسرة لسبب من الاسباب او انتقلت هذه الاسرة الى مكان آخر كما حدث عندما غزا تيمورلنك دمشق ونقل امهر الصناع الى سمرقند (٢) وكانت ذات مستوى منخفض بالنسبة لمستوى الحياة العام والاسعار (٣).

---

١. Gibb and Bowen , ' Islamic Society and Hre West ' , 2 Vols , Oxford , 1957 , P. 282 ,

سيشار اليه 'Islamic Society '

٢. Bonne , ' State and Economics in the Middle East ' , London , 1959, P . 232.

سيشار اليه 'State and Economic '

٣. السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٧ ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٤٨ ، رحلة ابن خلدون ، ص ٣٧٤ ، تاريخ سوريا ولبنان ، ص ٢٩٦-٢٩٧.

وهناك عوامل خارجة عن يد دولة المماليك ترتبط بالوضع الصناعي والتجارى العالميين
وبمركز السوق العربي في تلك الفترة ،ففي هذه المرحلة من التاريخ اخذت الصناعة
الاوروبية تنشط عما كانت عليه سابقا وذلك لعدة عوامل منها تأثر الغرب بالصناعات
العربية اثناء الحروب الصليبية واقتباسهم منها وحملهم اسسها الى بلادهم . فقد
تعلمت اوروبا صناعة حياكة الاقمشة الحريرية من دمشق ، واكمل اصحاب معامل ليون
معلوماتهم الناقصة في صناعة الاقمشة الثمينة التي اشتهرت بها سوريا ، والتي كانت
مختصه بلباس الطبقة العليا بواسطة الحلبيين (١) يضاف الى تلك العوامل عامل
هام في اضعاف صناعة بلاد الشام وركودها وعدم توسعها هو القيود المتزمتية التي
كانت تميز مختلف الصناعات في اطارها " والنقابات" التي كان الصناع ينضمون تحت
لوائها فكل صانع مهما كانت مهمته ومهنته هو عضو نافع في طائفة صناعته او بمعنى آخر
لا يميز بعقله الفردى وطموحه الذاتي ، واندفاعاته الخاصة ، وانما في نطاق جماعة
لها تقاليدها وعاداتها ومبادئها ورمزها وهي التي يطلق عليها " الاصناف " أو
" الطوائف " والتي يعود تأسيسها الى القرن التاسع الميلادى وكانت لها علاقات
وتأثرت بفرق القرامطة والاسماعيليه (٢) وكان كل صنف يتألف من " معلمين " و" صناع"
"ومبتدئين " او بمعنى آخر على كل صانع ان ينخرط في جماعة حرفية كما ان كل
مبتدئ أو اجير صنعة عليه ان يرتبط بمعلم يعلمه سر المهنة وتقاليد الجماعة ويشهد
له عندما يتقن عمله ويصبح مهيئا ليحترف الصنعة من نفسه وقد كان ترتيب الجماعة
تركيبا اسريا بديعا فلكل حرفة شيخ ينتخبه معلمو الصنعة ممن اشتهر بحسن الاخلاق
والطوية وامتاز بمعرفة اصول الحرفة ولا يشترط ان يكون اكبر المعلمين سنا وأن

---

١. تاريخ سوريا الاقتصادى ، ص ٦ ، ٢٣ .

٢. تاريخ سوريا الاقتصادى ، ص ١٥ ، Urban Life , P. 156.

يكون مقربا من الناس والحكومة على السواء وعنده العام في الصنعة (١) وكما انه لكل حرفة شيخا يرأسهم فان لها شاد . ينتخب من اهل الصنعة جميعا ، وهو رسول الشيخ وامين سره يدعو باذنه شيخ الحرف وسائر اهلها للاجتماع ويكلفهم لحضور الشد والولائم ، ويبلغ العقاب لمن حكم عليه الشيخ بذلك اما " المبتدئون" الصنعة فهم الاولاد الحديثو السن الداخلون فيها مجددا ويبقى المبتدئ عادة عدة سنين بلا اجره او معاش، ولكن هذا لم يمنع بعض المعلمين من ان يرتبوا " جمعية" تدفع في كل اسبوع وتكون متناسبة مع مهارته ، الا ان اسمه يبقى (اجيرا) حتي يدخل في سن الرجولة او يصل في صنعته الى حد الاتقان فيدعى عندها صانعا اما اجرته فتبقى ضئيلة ولا يسمح له مزاولة مهنته وحده وعلى حسابه .

وهذا ما يدفع المبتدئين الى التعجيل في الشد املا في الحصول على حقوق جديدة والارتقاء الى رتبة صانع فمعلم ، هو المكافأة العظيمة التي ينتظرها عمال الحرف عن اجتهادهم في مهنتهم فلم يكن هناك معارض عمومية او خصوصية ولا مسابقات وجوائز ولا حكومة تضمن لمن اتى بتحسين في مهنته او باختراع جديد فيها ان يحصل على مكافأة مادية او امتيازا يكفل له المستقبل وينشط غيره للاقتداء به ، ولم تكن نقابات الحرف المختلفة مبعثرة متوزعة لا رابط بينها ، بل على العكس كان شخص " شيخ المشايخ " يجمعها اى رئيس اتحاد الحرف وكان في دمشق رئيسا لاكثر من ٢٠٠ حرفة

---

١ . معظم المعلومات عن الحرف والنقابات مأخوذة من المقالة العلمية التي قدمها الياس عبد الله قنصل هولنده في دمشق لمؤتمر المستشرقين في مدينة لايدن سنة ١٨٨٣م . ونقلها عن ترجمة محمد صعد جودت في كتابه ذيل على فصل (الاخية الفتيان التركية في كتابه الرحلة لابن بطوطة) ويذكر في ص ٣٢٨ ان شيخ حرفة الجليلاتيه في دمشق كانت تتراوح بين ٢٠ - ٢٧ سنة ، وشيخ الكمرجية ٢٠ سنة فقط .

يأمر وينهى ويقاصص ، ويفصل في كل مسألة وهذا الشيخ هو " الآمر الاعلى " " والحكام الاعظم" ، والرئيس الاسمى الذى ينتخب ولا يعزل ولا يبدل ولا يخلعه من منصبة الا الموت والاستقالة (١) ، وكانت السلطات التي تمتع بها هذا الشيخ كبيرة في عهد المماليك وكان يساعده في عمله " النقباء" وهؤلاء هم رسل يبعثهم شيخ المشايخ خاصة بنفسه ، وكما انهم صلة الاتصال بينه وبين مشايخ الخرف الاخرى ، وكانت تضم المسيحين واليهود (٢) ويخضع هؤلاء في تلك النقابات المختلفة لاحتفال الشد ولو انه يكتفي في تلك الاحتفالات بتلاوة من صلواتهم وبشدهم في المئزر وكان آباؤهم في الصنعة دائما من المسلمين (٣) ، ولكن هذا لا يمنع وجود حرف مقتصرة عن المسيحين كحرفة البنائين ، والنحاتين في دمشق ، واخرى محتكرة من قبل المسلمين كالعطارين والدهانين ، وكانت تسمة أعشار الاغذية وتجارتها بين المسلمين (٤) والى جانب تقاليد الحرفة التي ذكرناها سابقا تقوم قيود جديدة تضيق من مساحة الصنعة نفسها ، فقد كان من حق المعلمين " فقط فتح حوانيت خاصة بهم وكان عدد الحوانيت لكل طائفة محددا بدقة وهذا ما أعاق التوسع الصناعي الكمي ، كما أن الحانوت لا يمكن ان يكون ابدا لصاحبه ، وانما مستأجرا من قبله ، فهو يدفع عنه سنويا كمية محدودة من المال ، وقد كان امتياز امتلاك دكان او حانوت او ممارسة الصنعة بمعنى أوسع نوعا من الملكية يمكن ان تباع وتؤجر وتورث الى اولاد المعلم بعد وفاته فالولد يقوم بعمل ابيه اذا كان قد وصل الى مرتبته صانع متمرن في النقابة نفسها ، واذا لم يكن كذلك فان ذاك الامتياز يباع من قبل الورثة الى احد اعضاء النقابة الاخرين ويمكن الحصول على امتياز جديد من السلطان اذا دفع المعلم للخزينه مالا مقدما عن شرط ان يثبت انه يمتلك الادوات الضرورية والوسائل اللازمة لممارسة صناعته ، وامتياز امتهان الحرف الجديدة نوعان . امتياز محدود يسمح للمالك ان يتابع عمله بمكان

---

١ . ذيل على فصل الاخيه الفتيان ، ص ٣٢٥ .

٢ . المطوف ، صناعات دمشق ، "مجلة الغرفة التجارية" ، دمشق ، ١٩٢٢ ، ومن المهن المختلفة هذه الصياغ والنحاسون ، وصانعوا السجاد .

٣ . ذيل على فصل الاخيه الفتيان ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

٤ . ذيل على فصل الاخيه الفتيان ، ص ٣٣٩ .

معين . لا محدد يسمح للمالك فيه ان يمارس عمله في اى مكان يرغب فيه . والثاني نادر جدا ، وذلك لرغبة الحكومة في شد قبضتها على الصناع وهذا لا يتاح لها الا اذا كان الصناع يعملون في حي واحد وعلى هذا الاساس بقي صناع حرفة ما يجتمعون في سوق واحدة ، وهذا الامر ما يزال واضحا جدا في مدينة دمشق . حيث نجد فيها سوقا للخيلطين وسوقا للنحاسين وسوقا للسروجين ، وسوقا للمناخلية . . . وهكذا تدخلت الحكومة ووقفت في وجه المنافسه الفردية وأمرت بانه لا يمكن بيع ايه بضاعة من اى نوع فوق السعر الذى تحدده في كل موسم من الزمن ، كما لا يمكن لأى صانع ان يصنع شيئا غير المرخص له من نقابته . وابدت انه لا يجوز له اجراء اى تغيير في شكل البضاعة المصنوعة وهذه القيود كما يظهر واضحا جمدت الصناعة في قالبها القديم وافقدت عنصر التجديد . واضعفت في نفوس افرادها روح الخلق والتحسين ومن ثم انحط مستواها الكيفي مع الزمن ، وضعف الراغبون فيها ، وفي الواقع لم يكن التسعير الحكومي لمختلف البضائع قيدا للصناع فقط كأفراد ، أو دفاعا عن حقوق المستهلك ، ومنعا للمنافسة الضارة وانما كان موجها ضد الاستغلال النقابة كمجموع او احتكارها فالصناعة لم تكن تخضع لتقاليد النقابة وقيودها فحسب وانما لقيود الحكومة ومراقبتها ايضا واذا قبلنا النظرية القائلة بان النقابة لها علاقة بالاسماعيلية والقرامطة ، وان نضع بالاذهان سلوك الحكومة السنية تجاه الاشخاص والمنظمات ، والتي كانت مجمعة على شكل نقابات ، نخرج الى التصديق بان هذه النقابات كانت معارضة للسلطة (١) ، وتنظيم العمل كان له امرين متضادين في طبيعتهم وهدفهم ، الاول الحكومة التي اخرجت هذه المنظمة ووضعتها تحت قيادتها وجعلت لها حق ادارة اعمالها . الثاني النقابة التي حاولت ان تحمي نفسها وتواجه هذه الضغوط ، فالنقابة كانت عند الحكومة عبارة عن جسم تحت الارض يحاول ان يحد من حركتها ونشاطها ، والنقابة رأت في الحكومة تلك الالة التي تهدف لتدميرها . وكان المحتسب والعريف القائمين على هذه السلطة ، وكان هذا النقص في التعاون بين النقابة والحكومة لا يلاقي ترحيبا من ارباب الاعمال " العمال"

---

١. Urban Life , P. 165.

فقد كان هذا الحرفي (العامل) يقاسي بمرارة حيث انه اتهم وعرض لجميع وسائل التحقيق وكانت الكتب الموجودة في الحسبة ترينا هذا السلوك بوضوح فالعامل الذى يعاني من اعمال الحكومة هذه لا يمكنه النجاح في اعماله وليس هناك ما يدعو للدهشة لهذا السبب السابق،نجد ان العمال في دمشق فقدوا ذاتيتهم،واصحاب الحوانيت أصابهم البؤس في النهاية نقول ان تحطيما تاما او جزئيا كان النتيجة الحتمية لهذا الوضع (١) .

يبدو مما ذكر سابقا ان الحكومة كانت تخشى هذه النقابات والحركات الخفية الممتثلة فيها وفي الواقع كانت " الطوائف" جماعات متضافرة متعاونة وبقدرتها ان تلعب دورا خطيرا في المنحنى السياسي لوأرادت . ولكن التركيب الديني الاساسي لها وانصرافها الى اعمالها جعلها بعيدة الى حد ما عن التأثير السياسي او التوجيه الحكومي حتى عزا بعض المؤرخين الهدف من تضييق الحكومة على النقابات الى حماية الصناع انفسهم من انفسهم لا الى منع تمردهم وثوراتهم ،اى انها أرادت من وراء عدم السماح بفتح حوانيت جديدة تخفيف حدة المنافسة بين الصناع وتوفير العمل الكافي للصناع الموجودين فعلا بخاصة وان الجميع يعملون في حي واحد ومتجاورين .

ولكن الواقع ان الدولة كانت حذرة من هذه النقابات ونجد ان تمسك النقابات بمبادئها ـ رغم خنقه روح الابداع ـ منع الفساد الخلقي من التفشي في نطاق الصناع فقد حرصت على الاخلاق الفاضلة وتعهدتها جميعا بالرعاية والحماية حتى عرف الصانع العربي والسورى بخاصة في اوروبا بالصدق والامانة والاخلاص في عمله (٢) بالاضافة الى ذلك نجد ان التجمعات الحرفية كانت تؤدى غرضين فمن جهة كانت تحمي اعضاءها من المنافسة مهنيا وتحول دون ظلم الحكام لهم ومن جهة اخرى كانت الجماعات هذه

---

١. Urban Life , P. 166.

٢. Islamic Society , Part I , P. 292.

تنظم الاحداث للدفاع عن المدينة (١) وقد حدث في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادية ان تم لبني السيوفي رئاسة متوارثة بالاضافة الى مشيخة الاحداث وفي هذه الحالة كان هذا الشخص" يمثل مصالح المدينة ويدفع عنها الخطر الخارجي ويتوسط بين الناس والوالي الذى كان كثيرا ما يلجأ الى القلعة ، وكان في وساطته عصمة قوة الاحداث(٢) ولم تعد دمشق في هذه الفترة ذات شخصية متماسكة أو عضوا حيّا نشيطا لقد اصبحت مجموعة من الافراد ذوى المصالح المتعارضة بحيث يعني كل بما ينفعه في دائرته الخاصة مسخرا الظروف جميعها لاغراضه الذاتية ، بقطع النظر عن حاجات جيرانه (٣) ، لكن دمشق كانت ممزقة اجتماعيا وسياسيا كانت نشيطة في اقتصادها وتنعم بشيء من الازدهار ونختتم حديثنا عن الصناع وارباب الحرف في دمشق بفصل من صناعات الشام في القرن الخامس عشر الميلادى كتبه الدمشقي المولود عام ٨٤٧هـ جاء فيه :

"ومن محاسن دمشق ما يصنع فيها من القماش والنسيج على تعداد نقوشه وضروبه ورسومه ومنها عمل القماش الاطلس بكل اجناسه وانواعه ومنها عمل القماش الهرمزى على اختلاف اشكاله وتباين اوصاله ، ومنها عمل القماش الابيض القطن المصور لاحياء القصور واموات القبور ، ومنها ايضا عمل القماش السابورى بجميع الوانه وحسن لمعانه وفيها تتعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصّع وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقي اوصاله ، وفيها تعمل صناعة القرضية ودباغتها وفيها تعمل صناعة الزموط والاقباع ومخمل لسائر البلاد والضياع وفيها صناعة الحرير بالفتل والدواليب والسريره وفيها تعمل صناعة السلاح وفيها من الاعاجيب الاقتراح وفيها تعمل صناعة المواشي والمدهون بما تحتار به النواظر والعيون ، وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش التي تشرح صدر الناس ، ومنها صناعة الواح الصقال ودهن الواح صفار الكتاب وجفان القصيع وتفصيل القبقاب"(٤) .

---

١ . Visit to the Holy Places, P. 192.

٢ . دمشق في عهد المماليك ، ص ٦٦ .

٣ . دمشق في عهد المماليك ، ص ٦٧ .

٤ . نزهة الانام ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣ .

يتضح مما تقدم بانه قد انتشرت في دمشق صناعات متنوعة ، وقد لعب النصارى واليهود دورا كبيرا في كثير من الصناعات اليدوية والفنية (١) .

وتدلنا كثرة الصناعات المنتشرة في دمشق على مدى التقدم في مجال الصناعة في الفترة المملوكية وعلى الرغم مما تعرضت اليه دمشق من حوادث خارجية واخرى داخلية الا ان هذا لم يقض على صناعات دمشق ويعود السبب في ذلك الى عدم تعقيد هذه الصناعات اذ انها لا تحتاج الى الات ضخمة والات دقيقة وانما كلها صناعات خفيفة لا تؤثر عليها الحروب حيث ان العامل في مهنة معينة يستطيع ان ينتقل الى مكان يمارس فيه مهنته في اى وقت وبسهولة مطلقة هذا اذا استثنينا الصناعات التي تحتاج الى جهد جماعي مثل صناعة النسيج وصناعة الصابون .

٢ . الفلاحون في البر :

اما الفلاحون وعددهم قليل ويسكنون في الارياف في ضواحي دمشق فيبدو أن نصيبهم في المجتمع المملوكي لم يكن سوى الاهمال ومما قاله ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) عن الفلاحة واهلها " انها معاش المستضعفين ويختص اهلها بالذله "(٢) وهذا الحكم الذى اصدره ابن خلدون على الفلاحين يعبّر عن نظرة معاصريه اليهم فالفلاح في جميع المؤلفات المعاصرة موصوف بالجهل والتأخر وخشونة الطبع وقذارة المظهر . بل ان بعض المؤلفين المعاصرين كتب القصص الطويلة ليثبت ان الصفات السابقة متأصلة في الفلاح وليحاول ان يلصق به كل نقص(٣) وهناك امثلة يمكن

---

١ . سيرد ذلك بتفصيل اكثر عند حديثنا عن الاسواق في هذه الرسالة .

٢ . مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٤١ .

٣ . الشربيني ، يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر ، " هز القحوف في شرح قصيدة ابي شادوف " ، بولاق ، ١٨٩٠ ، ص ٢ ، سيشار اليه " هز القحوف " .

للباحث ان يستخرجها من المؤلفات المعاصرة ليشهد بها على موقف المماليك من الفلاح ونظرتهم اليه . فاذا صادف وارتقى رجل أصله من الارياف الى بعض وظائف الدولة الكبيرة ،غضب المماليك وصاحوا" ما كان في ممالك السلطان من يعتمد عليه الا هذا الفلاح " ،واذا تجرأ احد العوام على بعض المماليك صاحوا فيه " اخرس يا فلاح يا كلب "(١) واذا ولى احد امراء المماليك المتشردين على بعض الاقاليم " فانه لا يسمح لاحد الفلاحين ان يلبس مئزرا اسود أو يركب فرسا أو يتقلد سيفا أو حتى يحمل عصا مجلبه بالحديد "(٢) .

وهكذا عاش الفلاح في العهد المملوكي مربوطا الى الارض التي كان يفلحها ويفني حياته في خدمتها وليس له من خيراتها الا القليل ،لان اراضي دمشق الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلاطين والامراء ومماليكهم واوقافهم ، اما الفلاحون فلم يكن لهم سوى العمل والسخرة ودفع الاموال وهم صاغرون ،لذلك لم يكن عجبا الا يجد الفلاح ما يستر عورته وانه في افخر مأكوله لا يأكل الا الشعير والجبن والبصل (٣) ،وفي العهد المملوكي لم يظهر نواب دمشق من المماليك اثناء حكمهم لها اكتراثا بأحوالها الزراعية الا بمقدار ما يمكن ان تؤديه لاقطاعاتها من واردات ولحكومتهم من اموال وبذلك اقفرت كثير من القرى من ساكنيها ،وتركت الارض بدون زراعة ،حتى ان بعض الرحالة الاوروبين الذين زاروا الارياف في بلاد الشام في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (٤) يذكرون ان الارياف السورية كانت خربة مقفرة وان الايدى العاملة لاستثمار تلك الاراضي الخصبة كانت نادرة ،وكانت الزراعة

---

١ ."سيرة الظاهر بيبرس" ،القاهرة ،١٩٢٦ ،ج ١ ،ص ٩٤٦ ،سيشار اليه " سيرة الظاهر بيبرس " .

٢ . السلوك ،ج ١ ،ص ٩٤٦ .

٣ ،هز القحوف ،ص ٥٩ .

٤ .هو برايد ينباح الذى قام بزيارة لسوريا عام ١٤٨٧م الحسني ،علي ،" تاريخ سوريا الاقتصادى" ،دمشق ،١٣٤٢هـ ،ص ١٢٥ ،سيشار اليه " تاريخ سوريا الاقتصادى " .

في معظم انحاء سوريا ضعيفة في العهد المملوكي (١).

كانت الارض مقسمة الى نوعين رئيسين تفرع منها مع تطور الزمن قسمين آخرين وهذا التقسيم يرجع في واقعه الى فترة الفتح العربي الاسلامي فهناك :

١ . الارض الملك : وهي الاراضي التي بني عليها في المدن والضواحي وهذه تركت لاصحابها كاملاك خاصة وتسمى في سوريا " القسم " .

٢ . الاراضي الاميرية : وهي بقية الاراضي الزراعية وتسمى الديموس او تسمى " فصل " (٢) وقد اعتبرت عند الفتح الاسلامي غنيمة حرب ، ومن ثم اصبحت ملكا لجميع المسلمين . ولما لم يكن هناك سبيل لاستثمارها مباشرة فقد اعطي حق التمتع بها لملاكها الاول مقابل بعض الخدمات والضرائب ، ومن هنا نشأ على هذه الاراضي حق مزدوج ، (حق الرقبة) ويعود للجماعة الاسلامية اى للدولة ممثلة برئيسها الشرعي الخليفة او السلطان ، (وحق التصرف) او حق التمتع الذى ترك للملاك السابقين وسميت هذه الارض بالاراضي الاميرية اى التابعة لامير المؤمنين ، هذه الاراضي هي التي قام سلاطين بني ايوب والسلاطين المماليك باقطاعها اقطاعات حربية او وقفية كما اشرنا اليها سابقا ، ولقد انبثق من الارض الملك والارض الاميرية النوع الثالث وهو :

٣ . ارض الوقف : ويعني منح ارض خاصة او ملك معين لتمويل عمل خيرى أو لانشائه كالمساجد والمدارس والمستشفيات ، وهذه المنحة لا تسترد ومن الواجب حمايتها . وفي عهد المماليك نمت ارض الوقف وظهر الى جانب (الاوقاف الخيرية) نوع آخر يسمى (الاوقاف الذرية وقد لجأ الى النوع الاخير كثير من ملاك الارض ومقطعوها في اواخر العهد المملوكي ليتخلصوا من خطر المصادرات : والمالك

---

١ . تاريخ سوريا الاقتصادى ، ص ١٢٨ .

٢ . تاريخ سوريا الاقتصادى ، ص ١٤٩ .

يجعل ارضه او املاكه وقفا لصالح هذا العمل الخيرى او غيره على شرط الا ينفّذ هذا مثلا الا بعد زوال هذا الفرع او ذاك من ورثته (١)

٤ . الاراضي المشاعة : وهي واسعة الانتشار في سوريا فهناك ارض لا يملكها فرد أو له حق التصرف فيها ،وانما اعطيت ملكيتها ،أو حق التصرف فيها الى سكان قرية بمجموعها ،وبخاصة المراعي والساحات العامة واماكن الحصاد (٢) وهذا فيما يخص الاراضي الزراعية اما الاراضي الحرّة أو الموات فهي من املاك الدولة أو من الاملاك الاميرية وتصبح ارضا اميرية مع حق التصرف فيها لمن يصلحها . وتمتد هذه الاراضي بخاصة في المناطق الصحراوية حيث تقيم القبائل .

اشتملت دمشق على ثلاثة انواع من الارض هي : الاراضي البعلية وأراضي الريّ ،والمراعي ،وتعتمد الاراضي البعلية على مياة الامطار وتزرع مرة واحدة في كل عامين ،بحيث تزرع عام وتترك بورا في العام الذى يليه ،ثم يعاد زرعها في العام الثالث،وكان الفلاحون يقسمون اراضيهم الى قسمين كي يزرعوا قسما منها ويتركوا القسم الاخر بورا في العام الذى يليه (٣) وبهذه الطريقة يضمن الفلاحون انتاجا سنويا لاراضيهم ،اما اراضي الرى فتعتمد على مياه العيون والانهار (٤)وتزرع سنويا وتستعمل فيها انواع مختلفة من السماد ومن البديهي ان تكون الاراضي التي تسقى بمياه الانهار والعيون اكثر انتاجا من الاراضي التي تعتمد على مياه الامطار ،كما انها اكثر كلفة واكثر عملا . اما النوع الثالث من الاراضي فهو لا يصلح للزراعة وقد ... استعمل كمراعي للماشية (٥)وكان الفلاح عبدا مستأجرا لصاحب الارض(٦) ،فهو

---

١. Weulersse .J; " Les Paysans de Syrie et du Proche Orient Tours," 1946, P. 93, 'Les Paysans de Syrie' سيشار اليه

٢. Les Paysans de Syrie , P. 94.

٣. نهاية الارب ،ج ٨، ص ٢٥٦ . Les Paysans de Syrie,P. 94.

٤. نهاية الارب ،ج ٨ ،ص ٢٥٦-٢٥٧ .

٥. Les Paysans de Syrie, P.94.

٦. Feudalism , P. 64.

لا يملك حريته ويجبر على العمل لتقديم محصوله او جزء منه لصاحب الارض ولا يمكنه التهرب من هذا الواجب المشرى ، الا اذا اختار الموت جوعا ، وعلى الرغم من ان القاضي المحلي هو الوحيد الذى يتمتع بحق فض الخصومات القائمة بين الفلاح وصاحب الارض - اذ لا سلطة قضائية لهذا الامير - فان صاحب الارض كان لا يتورع عن معاقبة الفلاح بالضرب والحبس حتى الموت (١) دون الرجوع الى القضاء ، وعلى هذا فان الفلاحين في دمشق كانوا يفكروا ويعملون في الارض كأنهم اجراء وليسدوا رمقهم دون ان يفكروا باى ربح قد يجنونه عن طريقها ولذا عملوا فيها ولا حافز يدفعهم سوى العيش كما يعيشون فلم يقدموا لها سوى اقل جهد ولم يبحثوا عن طريقة يحفظون بها خصوبتها غير الطريقة المألوفة بتركها دون زراعة لمدة سنتين او بتسميدها بالسماد الحيواني الذى كانوا يجمعونه ويكدسونه اكواما في مزارعهم وهكذا كان نشاط الفلاح في عهد المماليك محدودا وفعاليته مقلّصة ولا يبدل من ذاته سوى القليل فحياته لم تبدل ولم يدخل فيها اى جديد يحركها ، فهو يحرث الارض ويزرعها بشكل متشابه من عام الى عام ، ويستقبل المحاصيل نفسها .

واصحاب الارض فوق رؤوسهم يراقبون الاعمال الزراعية من بدئها الى نهايتها(٢) ومما زاد الفلاحين سوءاً كثرة المغارم والمظالم التي حلت بهم من الولاة والحكام ليأخذوا منهم "غير العادة اضعافا" (٣) واما الضرائب والرسوم التي يدفعها الفلاح يمكن تصنيفها الى مجموعتين :

أ . الضرائب المفروضة على الارض وعلى انتاجها وعلى المواشي التي ترعى فيها .

ب. الضرائب المفروضة على الفلاحين انفسهم شخصيا ، القسم الاول يشمل الضرائب على الارض والمواشي ، اما على المواشي فكانت نوعين "عائدات الاغنام والعاجل الرسمي" وتدفع الاولى في موسم الاغنام بينما يدفع العاجل الرسمي في موسم حمل الاغنام وهي اقل بكثير من عائدات الاغنام . (٤)

---

١ . نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

٢ . تاريخ سوريا الاقتصادى ، ص ١٤٠ .

٣ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

٤ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ .

أما الضريبة على المراعي بالذات فان (صاحب الارض) كان يتمتع بسلطة تضمينها على الفلاحين الذي يستخدمون مساحات من اقطاعة للرعي الشتوي أو الصيفي ، وكانوا يدفعون في الواقع بحسب عدد الحيوانات التي رعت (١) .

اما الضرائب الرئيسية على الزراعة : يلاحظ ان الضريبة الرئيسية على الارض هي ضريبة "العشر" ، وتدعى كذلك (خراج المقاسمة) وضريبة العشر هي اسهام نوعي يجمعه المقاطعون والجباه وقت الحصاد ، والفلاحون مجدون على احضار جميع محصولهم لصاحب الارض لدرسه ثم ينقلون القسم المخصص للعشر أما الى اقرب سوق اسبوعية او الى مخزن القرية ، وقد كانت تشبه ما يؤخذ من كل محصول تختلف من مقاطعة الى اخرى وتتراوح بين عشره ونصفه (٢) .

الى جانب الضرائب المذكورة سابقا كان الفلاح يدفع رسم الطواحين وضريبة المسقفات على بيته ، كما انه لا يمكن التصرف والحصول على موافقة صاحب الارض الا بعد دفع ضريبة خاصة (٣) .

اما الضرائب الشخصية فتختلف بحسب دين الفلاح ، فغير المسلمين يخضعون للجزية وهذه لا يجمعها صاحب الارض بل يجبى لصالح الخزينة ، وهناك ضريبة تسمى "بمال الزراعة" او هي في الواقع (خراج الموظف) وهي رسم ثابت يؤخذ من جميع الفلاحين الذين يتمتعون (بالتصرفات) ويكون على بحساب مساحة الارض ونوعها .

---

١. Mantran and Sauvaget , ' Rement Fiscuax ' , Beyrouth , 1951 , P.7, Feudalism , P. 65.

٢. اما في الاراضي المروية فيؤخذ النصف، اما في الاراضي التي تعتمد على ري الامطار فيكتفي بالربع أو الثلث ، وفي الاراضي القريبة من البدو أو قرصان البحر $\frac{1}{7}$ أو $\frac{1}{8}$ ، نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

٣. Islamic Society , P. 282.

اما الفلاحون الذين لا يملكون (تصرفات) ما وانما يعملون على تصرفات اقربائهم كأجراء فانهم يخضعون لهم الاخرون لضرائب ثابتة الا انها اضعف من السابقةوالى جانب تلك الضرائب هناك ضريبة الزواج (رسم العرس) ويدفعها الفلاح عند زواجه لصاحب الارض وهي على المسلمين ضعف ما هي عليه على غير المسلمين (١) .

ومهما يكن فان الفلاحين في دمشق كانوا يزرعون آنذاك المحصولات التي يحتاجون اليها في غذائهم اليومي كالقمح والشعير (٢) وقد أوضح راسل (٣) كيفية زراعة القمح والشعير ، وهي لا تختلف كثيرا عما يطبق في بلاد الشام في وقتنا الحاضر الا باستعمال الالات الحديثة الزراعية وقد اشتهرت دمشق بزراعة القطن الذى كانت تصدر منه بعد أخذ حاجة استهلاكها المحلي الى الخارج واوروبا بالذات، وكان يزرع في اطراف دمشق (٤) ، وذكر الرحالة بركاردان " القطن ينمو في الجم يبلغ طولها الى ركبة الرجل " ويزرع في دمشق ايضا قصب السكر بطريقة العقل ، وموعد غرسه في فصل الربيع (٥) ، كذلك تزرع المحصولات بكثرة في غوطة دمشق ويذكر النويرى في حديثه عن تفاح دمشق وغوطتها ان " من خصائصها التفاح الذى يضرب به المثل في الحسن والطيب " (٦) كذلك يزرع في غوطة دمشق والرمان والباذنجان(٧)

والى جانب تلك المزروعات ، قامت زراعة الاشجار المثمرة وخاصة الزيتون فهو

---

١. Islamic Society , P. 242.

٢. مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٥٦ ، تاريخ سوريا الاقتصادى ، ص ١٤٠ .

٣. Russell , Alex.M.D. ' The Natural History of Aleppo ' , 2 Voulmes , London , 1962 , Voulm I ,P. 78-79.

سيشار اليه ' The Natural History of Aleppo'

٤. المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٢٨ .

٥. رواد الشرق العربي ، ص ١٦٥ ، نقلا عن بركارد ، ص ٩٩ .

٦. نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٣٢٨ .

٧. القول المستطرف ، ص ١٢ .

من نباتات البحر الابيض المتوسط الاصلية في بلاد الشام ، وتقوم زراعته في غوطة دمشق وكانت الكرمة ايضا من الشجيرات التي نبتت فيها منذ أزمنة بعيدة وممتد على سفوح الجبال والغوطة (١) ، وكان المشمش بانواعه يزرع في غوطة دمشق ويزرع ايضا اللوز والجوز والسفرجل والدراق والخوخ (٢) والبرتقال والليمون والموز (٣) .

ولم يسلم الفلاحون من اذى العربان وبطشهم ، فكثيرا ما أغار العربان على الارياف وفعلوا بالفلاحين " ما لا تفعله الخوارج ولا الكفرة " (٤) وقد تكررت هذه الاغارات بين حين وآخر وحاول البعض من السلاطين حماية الفلاحين من أذى العربان فولو بعض مشايخ العربان على الارياف المجاورة لهم ، لكن العربان انتهزوا الفرص لينزلوا بالفلاحين مختلف انواع العذاب باسم القانون (٥) وخلاصة القول ان الفلاحين " عاشوا في حالة من المغارم معروفة" (٦) .

والى جانب الغزوات البدوية التي كان يعيش الفلاح في خوف دائم فيها ، وكان هناك التنازع بين المقطعين والفلاحين انفسهم فالنزاع بين القيسيين واليمنيين كان لها سببا مستمرا في اجتياح الارض الزراعية وحرق المحاصيل واتلافها ، وترك الارض بورا دون ما زراعة ، ونتيجة للحروب والغزوات المتعاقبة فان الفلاح لم يكن لديه دوافع حقيقية للتحسين او العمل الجاد والشاق في الارض وذلك لانه كان يعتقد بانه بشكل رئيسي اداة بيد ذلك الذى يجمع الضرائب وصاحب الارض (٧) .

---

١ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٢٨ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .
٢ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٥٦ .
٣ . رواد الشرق العربي ، ص ١٦٥ ، نقلا عن بركارد ، ص ٩٩
٤ . حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٦٥٤ .
٥ . بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٦٠ ، ٣٠٢ .
٦ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٦٩ .
٧ . Urban Life , P. 144.

واذا كانت هذه الافات آفات انسانية فان الزراعة في بلاد الشام تعرضت لكوارث طبيعية فاكتساحات الجراد الوافد من الصحراء كانت تقضي بين آونه واخرى على كل ما بنتسه يد الفلاح (١) كما ان الاوبئة التي كانت تجتاح البلاد بين فترة واخرى تهلك الحرث والنسل . بالاضافة الى ذلك فترات الجفاف وانحباس المطر وكان الناس في ساعات ضعفهم يلجؤون الى صلاة الاستسقاء علّ الله يستجيب لدعائهم ويبعث بالغيث لارواء الارض (٢) .

وفي فصل الشتاء تهب احيانا ريح عظيمة تتلف كثيرا من المزروعات (٣) واحيانا يهطل مطر شديد يسبب السيول التي تقتلع المزروعات والاشجار وتغرق الخيل والجمال والماشية (٤) واحيانا تحصل صقعة تتلف الكروم والخضروات بغوطة دمشق (٥) واحيانا يسقط ثلج عظيم يتلف المزروعات (٦) .

وقد نظم احد شعراء دمشق يدعى ابن تميم ببيتين من الشعر عن شتاء دمشق

يا شهر كانون من حب الغصون اسد	الارض وجدا وابكيت السما حزنا
والحزن غسلها من فيض ادمعة	والثلج حاك لها من نسجه كفنا (٧)

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٨-١٩ .
٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧ -٨ ، ١٩٦ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٠٨ .
٣ . انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .
٤ . انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ٢٣ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٠٣ -٣٠٧ ، مفاكهة الخلان ج ١ ، ص ٢٧٢ .
٥ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ٢٣ .
٦ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٦ .
٧ . نزهة الانام ، ص ٢٧٢ .

٣٠ العـــــوام :-

والتقت مدينـــة دمشق في العهد المملوكي بعدد كبير من الباعة والسوقة (١) والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين ، والاصطلاح الذى تستخدمـــه عادة المصادر المعاصرة للتعبير عن هذه الفئات هولفظ " العوام" والحق بعض المراجـــع بالعوام طوائف البلاصية (٢) والزعر (٣) ، والحرافيش (٤) ، والمشاعلية (٥) ويبـــدو من استعمال هذه الالفاظ في المصادر المعاصرة انها تعني المعدمين واهل الفســـاد من الدهماء (٦) ، ظهر اسم الزعران في نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وهو يطلـــق على مجموعات من الشباب المنظمة في ذاتها ، وهذه المجموعات نظمت في احياء خـــارج اسوار مدينة دمشق في القرى المجاورة (٧) وكانت الاحياء في دمشق بحجم القرى تقريبـا وكان عدد احياء دمشق في اواسط القرن السادس عشر الميلادى حوالي ٧٠ حيّا لدمشق وحوالي ٣٠ ضاحية كبيرة في الصالحية وفي بعض الحالات كما هو في الصالحية فان قطعـة كبيرة تحتوى على احياء عديدة كانت وحدة لاعمال اجتماعية حيوية ، وكثير من الاحياء كانت عبارة عن وحدة متماسكة حيث وجدت مجتمعات متجانسة ، وكانت رغبة الجماعات المختلفـــة في ايجاد الراحة والحماية لاعضائها رغبة قوية في عالم لم يكن فيه الانسان محميا بشكـــل صحيـــح ، الا ضمن جماعته (٨) ، وكان العامل الاساسي لتماسك الاحياء هو العامـــل

---

١ ٠ السوقة : مفردها سواق وهو الشخص المكلف بادارة ساقية الماء في الجامع او غيره ، السلـوك ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ ، حاشية رقم (١) ٠

٢ ٠ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٢١ ، ٢٥٤ ٠

٣ ٠ الزعـر : الشلاق والزعر والرعاع هم الذين يضايقون الناس في الطرقات ويدخلـــون الخوف في قلوبهم والشلق الضرب بالسوط ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩٥ ، حاشية رقم (١) بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٩٣ ، النجـوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٣ ٠

٤ ٠ الحرافيش : أو الحرفشة ، وتعني الرعاع والدهماء وضعاف الخلق ، التبر المسبـــوك ، ص ١٤٦ ، العصر المماليكي ، ص ٤٠٨ ٠

٥ ٠ الخطط ، ج ١ ، ص ١٤٤ ، التبر المسبوك ، ص ١١ ٢ ٠

٦ ٠ التبر المسبوك ، ص ١٤٦ ٠

٧ ٠ Muslime Cities ,P. 153-154.

٨ ٠ Muslim Cities , P. 85.

الديني حيث وجد في مدينة دمشق احياء يهودية (١) ومسيحية، وعلى الرغم من أن الاقليات المسيحية واليهودية في دمشق كان لهم احياء خاصة منفصلة ولكنها كانت متجاورة لشوارع المسلمين ولم يكن هناك انعزال كلي بين هذه الاقليات والمسلمين (٢) ومن اهم احياء دمشق الشاغور، القبيبات، ميدان الحصى، الصالحية، باب الجابية المزابل، باب المصلى - المناطق المتفرقة من محلة حاجي حسن والسويمة (٣) وبذلك فان هناك سببين لظهور الزعران، فالعزل الجزئي لهم عن باقي الحياة المدنية والتنظيم العسكرى القائم على حماية النفس بالنفس (٤).

وكان زعران كل حي يقادون بواسطة رؤسائهم الذين اطلق عليهم لقب شيوخ الزعران (٥)، وقد ظهر نشاط الزعران في دمشق بشكل واضح عام (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) نتيجة لضعف الحياة السياسية والاقتصادية ولانعدام الامن في دمشق مما دفع بالزعران بالقيام باعمال من شأنها معارضة الحكم والتمرد على الواقع الموجود (٦).

كان لتنظيمات الزعران زى موحد، حيث كانوا يلبسون القبعات على رؤوسهم وكانوا يضعون ارواب خاصة على اكتافهم (٧) وكانوا يحملون خناجر وسكاكين (٨)، وللحد من خطر هؤلاء الزعران جعلهم المماليك في داخل جيوشهم كجيش مساند ثانوى (٩) حيث قام المماليك بتجنيد تنظيمات الزعران وتسليحهم والتقرب من

---

١. الدرة المضيئة، ص ٤٠-٤٩.

٢. Muslim Cities, P. 85.

٣. Muslim Cities, P. 153-154.

٤. Muslim Cities, P.160-161.

٥. مفاكهة الخلان، ص ٢٢٥، ٢٤٧. Muslim Cities, P.155.

٦. مفاكهة الخلان، ص ٢٧٩-٢٨١.

٧. Muslim Cities, P. 153.

٨. مفاكهة الخلان، ص ١٩٧، ٣٣٢.

٩. Muslim Cities, P. 160-161.

رؤسائهم ود فعوا لهم ثمن موالاتهم للدولة حتى يستطيعوا تنظيم هذه الفئات كوحدات مشابهة لوحدات الجيش ليتمكنوا من السيطرة عليهم ، حيث ان سياسة الزعران اذ اوزعت بشكل حازم ستؤدي بالنهاية الى تصلب رأى هذه التنظيمات ضدهم ونتيجة لذلك حملت الدولة على تقوية الزعران وخلق علاقات وديّة بينهم وبين المماليك وكانوا يعاملونهم معاملة الجيش الرسمي في الدولة المملوكية (١) وقد قويت العلاقة بين المماليك والزعران حيث ان الزعران كانوا ينضمون للجيش المملوكي كمتطوعين ، في الحروب الخارجية مع الاعداء وقد جهز الزعران للحملات العسكرية التي حدثت عام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) ، عندما قطع الاعراب خارج مدينة دمشق الطرق (٢) وكذلك عام (٩٠٨هـ/١٥٠٣م) عندما جهز النائب حملة للخارجي اسماعيل بن شاة الصوفي (٣) وكما حدث في عام (٩١٠هـ/١٥٠٥م) عندما ارسل النائب نجدة لدوادارة عندما حصره العرب (٤) وكذلك عندما همّ النائب في نفس العام بالتجريدة الى ناصر بن الحنش الذى قتل جانبك الفرنجي دوادار النائب (٥) وكما حدث عام (٩١١هـ/١٠٠٦م) عندما خرج النائب بعسكره لنجدة ناصر الدين بن الحنش، غير عدوه ، نائب بيروت، وكما حدث عام (٩١٢هـ/١٥٠٧م) عندما خرج النائب لمحاربة عرب كرك والشوبك (٧) .

كما حدث عام (٩١٤هـ/١٥٠٩م) عندما خرج النائب لقتال العرب ببلاد حوران (٨) وكان الزعران في دمشق يقومون بالاضافة الى المساهمة في حروب اعداء المماليك بالمساهمة في جمع الضرائب لصد هذه الغارات جميعها (٩) كذلك الحال فكان يرمى

---

١ . Muslim Cities , P. 160 -161.

٢ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٥-٢٤٩ .

٣ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٦١ .

٤ . مفاكهة الخلان ، ص ٣٣٥ .

٥ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٧٨ .

٦ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٩٢ .

٧ . مفاكهة الخلان ، ص ٣٠٩ .

٨ . مفاكهة الخلان ، ص ٣٠٣ .

٩ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩-٢٦١ ، ٢٧٨-٢٩٢ ، ٣٠٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ .

على اهل الحارات اموالا للتأهب لتلقي الحجاج (١) ،وكان النائب احيانا يقوم بفرض الاموال على اهل الحارات لنفسه كما حدث عام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) بعد ان فرغ من مال السلطان المفترض عليها (٢) . كذلك كان يرمي على اهل الحارات اموالا اذا قام شخص بشنق نفسه في هذه الحارة (٣) ،او اذا وجد قتيل بتلك الحارة (٤) ،أو أذا حدثت سرقة في هذه الحارة (٥) ،وقد استخدم الزعران ايضا لاظهار البراعات في الامور الرسمية وقاموا بتشكيل وفود رسمية منهم لتحية الحكام الجدد أو السفراء أو أى شخصيات اخرى رسمية كما حدث عام (٩٠٦هـ/١٥٠١م)عندما دخل من مصر الى دمشق الامير دوادار سكين بمصر ،مارا الى البلاد الشمالية ليكشف على قلاعها حيث خرج لتلقيه ارباب الوظائف على العادة ،وخرج معهم زعران الشاغور (٦) ،وكما حدث عام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) عندما دخل نائب الشام الجديد خرج الزعران لتلقية بالعدة الكاملة (٧) ،وكما حدث عام (٩٠٨هـ/١٥٠٣م) عندما دخل الى دمشق قاصد الروم بايزيد بن عثمان ،وتلقاه ارباب الدولة وزعران الحارات (٨)وكما حدث عام (٩٠٩هـ/ ١٥٠٤م) عندما خرج الزعران لتلقي الحاج الشامي (٩) وفي مناسبة اخرى فان الزعران قد بينوا اهمية الاحياء وحموها من الانقراض وكانوا يهاجمون باستمرار جامعي الضرائب الزائدة كما حدث عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م)(١٠) وعام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) (١١) وعام (٩١١هـ/١٥٠٦م) حيث كثرت في هذه السنة الرميات والمصادرات على الناس في كل حارة بحيث ضج سكان الحارات من ذلك ووقف حال الناس وشاط الزعران ،ولم يشاركوا

---

١ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٤٥ ، ٢٧٥ .

٢ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٥٨ .

٣ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٩٢ .

٤ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٢٧ ، ٣٤٨ .

٥ . مفاكهة الخلان ،ص ٣٤٧-٣٤٨ .

٦ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٣٢ . Muslim Cities , P.160.

٧ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٤٧ .

٨ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٦٢ .

٩ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٧٥ .

١٠ . مفاكهة الخلان ،ص ٢١٣ .

في رمية على الاسواق التي قد اصبح غالبها من تحت ايديهم يباع لهم فيها ، وهم في أكل وشرب ونهب وفساد في بناء المسلمين ودمائهم واموالهم حتى ان فيهم جماعة قد سمنوا ولا يمشون الا على اوساطهم الخناجر الطوال المذهبة (١) وفي هذه الحالة لم تأت المقاومة من كل حارة فقط وانما من زعران مدينة دمشق كلها ، كما حدث عام (٩٠٧هـ/١٥٠٢م) عندما قام شيخ زعران الشاغور بالاتحاد مع زعران الاحياء الاخرى لاخافة المماليك (٢).

ولجعل الروابط العدائية قائمة بين المماليك والزعران في دمشق قام الامراء باستخدام الزعران لتحقيق مآربهم الشخصية حيث استخدم الزعران في هذه الحالة كعصابات من القتلة كما حدث عام (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) حيث القي القبض على المجرمين من الزعران عندما وجدوا بخدمة علي بن شرباش والذى كان الاخ من الاب لاحد الامراء ومثل هذا حدث عندما قتل الزعران احد الشيوخ في زاويته عام (٩١٠هـ/ ١٥٠٥م) حيث تبين بعد ذلك من ان الجناة يعملون لخدمة احد الامراء (٣) وقد استأجر الامراء الزعران ايضا لاغتيال معارضيهم كذلك لابتزاز الاموال لهم من الناس (٤) واستطاع الامراء مثل أركماس ان يحلوا الزعران من قوات الاحتياط وحثهم الى اتباع للشخصيات البارزة وكان هذا عاملا من أهم العوامل في تعقيد مواقف الزعران السياسية في دمشق وكذلك العلاقة بين عامة الناس والمماليك (٥) وفي عام (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) بعد موت النائب قانصوة اليحياوى ، أغرى بعض الفقهاء للزعران بانه يجوز قتل اعوان الظلمة فاصبح من في قلبه من احد شيء أما يقتله او يغريهم ويعطيهم دراهم فيقتلونه فحصل بذلك فساد كثير وقتل في هذه الايام في الصالحية نحو الثلاثين وفي المدينة نحو المائة ، منهم قاضي حمص الذى كان قدم دمشق فبرطل عليه اعداؤه للزعران فقتلوه بسوق البرزويين (٦).

---

١ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٩٢-٢٩٣ . — Muslim Cities , P. 56.

٢ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٩٢-٢٩٣ . — Muslim Cities , P. 15.

٣ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٧٨-٢٧٩ . — Muslim Cities , P. 161.

٤ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٦٠-٢٦١ . — Muslim Cities , P. 161.

٥ . مفاكهة الخلان ، ص ٢٦٠-٢٦١ . — Muslim Cities , P. 161.

٦ . مفاكهة الخلان ، ص ١٨١-١٨٢ .

وعلى الرغم من مقاومة الزعران للحكم المملوكي فقد كان زعران الاحياء المختلفة يكنون عدوة بغيضة لبعضهم البعض، وعند ما انعكست هذه العداوات القائمة بينهم عليهم في مقاطعاتهم المختلفة ، الأمر الذى زجّ الزعران لمعارك جانبية بعضهم مع بعض (١) كما حدث عام (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) عند ما وقع بين اهل حوران من قيس ويمن فقتل منهم مقتلة عظيمة جدا حيث قتل من الفريقين نحو من الف شخص بالقرب من السويداء، ودخل كثير منهم الى دمشق في أسوأ حال واضعفه وهربت قيس خوفا من الدولة وبقيت القرى خالية والزروع سائبة (٢) ،كذلك حدث عام (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) ان اهل القبيبات الفوقانية ، وميدان الحصى عند جامع منجك ، وقع بينهم بسبب قيس ويمن دعوى جاهليةواقتتلوا وحصل بينهم قتلى وجرحى وقتل من القبيبات ثلاثة اشخاص ومسك منهم نحو عشرة اشخاص وضربهم وبالغ مع بعضهم بالمقارع وهرب الغرباء الى جهة داريا وحبس من مماليك الحاجب جماعة (٣) . وكما حدث عام (٩٠٩هـ/١٥٠٤م) عند عند ما اتفقت جماعة من اهل المزة على احد عرفائها يوسف الداراني فأوقعوا فيه ضربا بالسكاكين في بعض البساتين وثم سحب على وجهه ورمي قرب مزار قصيبان ، الذى يفتل عليه الصوف قبلي المزة ورمي بسببه على اهلها مال (٤) . وكما حدث عند ما هجم جماعة من الحارة القبلية من قرية داريا الكبرى على ابني بابية من الحارة الشمالية وقتلوهما وتخبطت البلد وما حولها (٥) وكان النزاع بين الزعران ينتهي بعقد صلح بينهم كما حدث عام (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) عند ما اجتمع الامير يلباى ، الاتابكي بدمشق وقضاتها بمدرسة ابن المزلق واصلحوا بين اهل الشاغور وميدان الحصى وشرطوا

---

١. Muslim Cities , P. 157.

٢. البداية والنهاية ،ج ١٤،ص ٥٥.

٣. مفاكهة الخلان ،ص ٢٧-٢٨.

٤. مفاكهة الخلان ،ص ٢٧٤.

٥. مفاكهة الخلان ،ص ٣٨٠.

عليهم شروطا ومن قتل بينهم هدر دمه (١) كما حدث عام (٩٠٣هـ/١٤٩٨م) عندما ثار زعران ميدان الحصى وزحفت على اهل الشاغور وكانت الوقعة بقرب مجد الزبيـــــان وارتجف الناس فوق ما هم فيه من الخوف من الوباء وقلة الحكام وكثرة الظلمة وقوة الاخبـار المخوفـة ،واستمر النزاع بينهم الى قريب منتصف الليل ثم اصبحوا كذلك ،والبشائر التي تقدم ذكرها تدق ،ثم كثر الشر بينهم وزحف اهل الشاغور على السويقة المحروقة بالنشاب والهدم الى قريب الظهر،فجاءت خيل الترك الذين بدمشق كالحواط وامير كبيرفحالـــوا بينهم بعد ثلاثة ايام صالحوا بينهم وسكن الشر بعض سكون (٢) .

وكان الزعران بعد نجاحهم في نزاعاتهم يحتفلون بذلك باقامة الولائم الكبيـــرة كما حدث عام (٨٨٩هـ/١٤٨٥م) عندما اجتمع اهل الصالحية وصنعوا ضيافة عظيمـــة حضرها خلق كثير وسبب ذلك اشياء منها ـ عزل دوادار السلطان اركماس عنهم ومنهـــا عزل الوالي الذى ولاه اركماس هذا عليهم وكان عبدا جنديا لابن التونسي وكان جـــرد مظالم عظيمة ومنها انهم قتلوا شخصيا من اعوان الظلمة ،فعمل عليهم النائب مصلحـــة خمسمائة دينار فوقفوا لقاضي القضاة ابن الفرفور،فمنع النائب من ذلك وغوش عليهم فـــي دار العـــدل (٣) .

وكما حدث عام (٩٠٢هـ/١٤٩٧م) عندما اجتمع غوغاء اهل دمشق بمحلة القطاع غربي ميدان الحصى في وليمة عملها زعر الميدان المذكور لزعر الشاغور فالمزابل وغيرهـا وقام فيها من اكابرهم الشهاب ابن المحوجب والسيد ابراهيم والقاضي تقي الدين بـــن قاضي الزرع وكانت بمال كبيـر ،وغالبه أخذ من المحتاجين والمستورين على وجه الحيـــاة ،

---

١ . مفاكهة الخلان ،ص ١٨٠ .

٢ . مفاكهة الخلان ،ص ١٨٤ .

٣ . مفاكهة الخلان ،ص ١٨٠ .

والقهر فلأجل ذلك لم يحصل لهم سعد في مرادهم من اظهار العظامة والابّهة عند عطها . ثم تفرق الجميع وقد ضحك على الجميع (١) وبما ان المماليك كانوا بحاجة ماسة الى الزعران كان عليهم ان يجعلوا لهم يدا طليقة في داخل المدينة (٢) كما حدث عام (٧٨٨هـ/١٣٨٦م) بعد ان انتصر الناصرى ومنطاش هجم الناس في دمشق على دار السعادة للنهب واخذوا كل ما فيها ونهبوا بيت السردار ، ودخل العوام الى بيت الهيذباني ونهبوا كل ما فيه من القماش والمال والاثاث وخرجوا من داره وهم يقولون مصرّحين " دار الظالم خراب ولو بعد حين" (٣) وكان الزعران يقومون بالسلب ايضا كلما زال نائب وتسلم نائب جديد حيث يكثر فساد الزعر وبغيهم (٤) .

٤ . أهل الذمة :

أما اهل الذمة فكانوا يكونون اقلية في مجتمع دمشق في العهد المملوكي وتشير مختلف المصادر المعاصرة الى تعرض اهل الذمة الى بعض الاضطهادات العنيفة ويعود ذلك الى عدة اسباب منها ان الحروب الصليبية في القرنين السادس والسابع الهجرى - الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين أثارت روح العداء بين المسلمين وغير المسلمين في بلاد الشام ومنها رغبة سلاطين المماليك في الظهور بمظهر حماة الدين لتدعيم مركزهم في نظر المسلمين (٥) ، ربما كان ايضا من اسباب اضطهاد اهل الذمة في ذلك العهد ان الكثير من سلاطين المماليك حسدوا أهل الذمة على ثروتهم وطمعوا في الاستيلاء عليها وهم مطمئنون الى انهم لن يتعرضوا في هذه الحالة لنقد او معارضة من الفقهاء ، يتضح مما ذكر المقريزى ان سياسة الظاهر بيبرس (٦٥٩هـ/١٢٦٠م) (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) في معاملة النصارى واليهود التي لم تكن تنطوى على شيء من العطف وان

---

١ . مفاكهة الخلان ، ص ١٨٠ .

٢ . Muslim Cities , P. 161.

٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٣ .

٤ . مفاكهة الخلان ، ص ١٨٥-١٨٦ ، ٢٦٠ - ٢٦١ .

٥ . التبر المسبوك ، ص ٤٠ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤ ، ٧٥ .

السلطان قلاوون ابا الناصر محمد (٦٨٩هـ/١٢٩٠م) -٦٩٣هـ/١٢٩٣م) وقد حرم المسيحين الالتحاق بالوظائف العامة ،وكان ينزل بهم اقسى انواع العقاب (١) وكان سلاطين المماليك في البداية يعينون المماليك في معظم الوظائف وقد احتفظوا بهذه القاعدة الى نهاية حكمهم فيما يختص بالوظائف الكبيرة ،ولكنهم اضطروا الى ان يتخذوا في وظائف كاتب السر وصاحب ديوان الانشاء موظفين غير المماليك بل كانوا يلحقون بها المسيحيين واليهود من اهل الذمة لان المماليك لم يكونوا يتقنون مثل هذه الاعمال ، ولكن في عهد المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي (٦٧٨هـ/١٢٧٩م- ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) . اضطهد المسيحيون وابعدوا عن الوظائف حيث ذكر ابو المحاسن في حوادث عام (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) ثم هذا العام رسم السلطان الا يستخدم احد من الامراء وغيرهم في دواوينهم احدا من النصارى واليهود وحرص على ذلك فامتثل ذلك الامراء جميعهم (٢) ويذكر المقريزي عن معاملة قلاوون للنصارى في عام (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) كانت واقعة النصارى ومن خبرها ان الامير سنجر الاشقر (٣) كانت حرمته وافرة في ايام الملك المنصور قلاوون فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير في (٤) اوساطهم ولا يجسر نصراني يحدث مسلما وهو راكب واذا مشى فينزل ولم يقدر احد منهم ان يلبس ثوبا

---

١ . الخطط ، ص ٣٠٢ ، ج ٢ .

Muir , " The Mamluke or Slave Dynasty of Egypt ." London , 1896, P. 31-38. 'The Mamluke or Slave' سيشار اليه

٢ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

٣ . الامير سنجر الاشقر : من كبار المماليك البحرية توفي عام (٦٩١هـ/١٢٩١م) ، لمزيد من التفاصيل عن حياته راجع : زبدة الفكرة ، الورقة ٧٨ب ، الوافي بالوفيات ، ج ١٥ ، ص ٤٩٠-٤٩٥ ، ابن خطيب الناصرية ، علي ، " الدر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة الجامعة الاردنية ، رقم ٣١٥ ، سيشار اليه "الدر المنتخب" ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣٧ ، اعلام الورى ، ص ٧-٨ .

٤ . زنانير : مفردها زنار وهو حزام أو وشاح تميز بلبسه اهل الذمة في العصور الوسطى ، العصر المماليكي ، ص ٤٢٤ .

مصقولا (١) ،ويذكر ابن الفرات في حوادث عام(٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م) انه في هذه السنة خرج مرسوم الملك المنصور الى الشام ان لا يستخدم احد من اهل الذمة واليهود والنصارى في المباشرات الديوانية فصرفوا منها (٢) وفي عهد السلطان خليل بن قلاوون قلّ اضطهاد النصارى وسمح لهم بالانخراط في سلك الوظائف الحكومية والاهلية ويظهر أن التفكير بعودة هؤلاء الى اعمالهم بعد اقصائهم كان يرجع الى انهم كانوا فئة وحيدة التي تصلح لادارة اعمال الدولة المالية غير ان سياسة السلطان الاشرف خليل التي كان قوامها الود وحسن التفاهم مع النصارى سرعان ما تبدلت (٣) وبلغ من غضب السلطان انه أمر بان ينادى ان لا يستخدم من النصارى واليهود عند أمير ،وأمر الامراء باجمعهم ان يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام (٤) وقد وردت القيود التي فرضت على النصارى واليهود بايجاز في كتب المقريزى وابو المحاسن وابن حجر العسقلاني والدواداري وابو الفداء وابن كثير وابن طولون (٥) .وكتاب تاريخ سلاطين المماليك (٦) . كما أخذ عنهم المؤرخون المحدثون امثال ميور Muir ولينبول Lane-Poole (٧) .

---

١. الخطط ،ج ٢ ،ص ٤٩٧ .

٢ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ٩٣ .

٣ . الخطط ،ج ٢ ،ص ٤٩٧ .

٤ . الخطط ،ج ٢ ،ص ٤٩٨ .

٥ . الخطط ،ج ٢ ،ص ٤٩٨-٤٩٩ ،السلوك ،ج ١ ،ص ٩١٠-٩١١ ،النجوم الزاهرة ، ج ٨ ،ص ١٣٢ ،البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ٣٤٠ ،مفاكهة الخلان ،ج ١ ، ص ٨٧ ،٨٧ ،الدرر ،ج ٢ ،ص ١٨ ،كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٥١ ،المختصر في اخبار البشر ،ج ٤ ،ص ٥٦ .

٦ .تاريخ سلاطين المماليك ،ص ٨٧ .

٧ . The Manluke or Slave , P. 61-66, Lane -Poole , " A Hist of Egypt in the Middle -Ages" , London , 1936, P. 301 , ' A Hist of Egypt ' سيشار اليه

على ان القلقشندى قد ذكر هذه القيود بالتفصيل فقال " وبحث الفقهاء في ذلك فاقتضت المباحث الشريفة بين العلماء ان يميز النصارى بلبس العمائم الزرق واليهود بلبس العمائم الصفر ، وتميز نساء أهل الذمة كذلك بعلامة تظاهر ولا يركبوا الخيول ، ولا يحملوا سلاحا ويركبون الخيول الحمر بالاكف عرضا من غير تميز لها ولا قيمة / ويتجنبوا اوساط الطرق للمسلمين في مجالسهم عن مراتبهم ولا يرفعوا اصواتهم على اصوات المسلمين ولا يضربوا بالنواقيس ولا ينصروا مسلما ولا يهودوه ولا يشتروا من الرقيق مسلما ولا من سبا مسلم ولا ما جرت عليه سهام المسلمين ومن دخل منهم الحمام يميز نفسه بعلامة عن المسلمين بجرس في حلقه ولا يفتشوا فصوص خواتيمهم بالعربي ولا يعلموا اولادهم القرآن ولا يستخدموا في اعمالهم الشاقة مسلما ولا يرفعوا النيران ، ومن زنا منهم بمسلمة قتل " (١) .

وفي عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) أصدر الناصر مرسوما يحرم استخدام احد من النصارى او اليهود بديوان السلطان اوبدواوين الامراء في جميع انحاء السلطنة المملوكية وكل من خالف احد هذه القيود كان جزاؤه القتل (٢) . وامر الناصر باذاعة هذا المرسوم في جميع الاراضي الممتدة بين النوبة والفرات عدا الكرك والشوبك لقلة عدد المسيحيين في كل منهما ولذلك لم يغير النصارى لون عمائمهم (٣) على ان تأثير مرسوم عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) اخذ يتضاءل شيئا فشيئا على مر السنين وتناسى الناس كثيرا من القيود التي وردت في ذلك المرسوم حتى كاد يهمل ويبطل العمل به وعاد الناصر الى العمل على تسوية المسيحيين واليهود بالمسلمين في تقلد مناصب الدولة العامة وسمح لهم بركوب ما يشاؤن من دواب الا ان العامل الاساسي الذى هدا الناصر الى انصاف المسيحيين يرجع الى مفاوضات مباشرة في مصلحتهم في عدة جهات (الاولى) من جانب

---

١ . صبح الاعشى ، ج ١٣ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

٢ . السلوك ، ج ١ ، ص ٩١١ ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٣٣-١٣٤ .

٣ . السلوك ، ج ١ ، ص ٩١٢ . The Mameluke or Slave ,P. 61.

الامبراطور في القسطنطينية الذى ارسل الى الناصر السفراء يحملون الهدايا كي يعامل المسيحيين الشرقيين من ابناء مذهبه في مملكته معاملة تنطوى على العطف واللين ، (الثانية) من جانب البابوات فانهم طلبوا من الناصر ان يعامل رعاياهم النصارى برفق ليعاملوا المسلمين المقيمين في بلاد الغرب بمثل تلك المعاملة ، وكانت النتيجة المباشرة بجميع المحاولات التي بذلها البابوات في هذا السبيل للحصول على بعض المزايا التي قد تمتع بها طائفة المسيحيين في الشرق : (الثالثة) ارسال ملوك أرغونة في اواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر بعض الرسائل الى الناصر بالتوصية على جميع المسيحيين المقيمين بالدولة المملوكية (١) .

كان النصارى يتمتعون بعطف الناصر (٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م-٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م) ، الذى كان يبذل قصارى جهده في سبيل انصافهم واقامة العدل بينهم وقد عوملوا في عهده أحسن مما عوملوا من قبل (٢) ، على ان بعض المسلمين وفقهائهم قد بدأوا يعلنون تذمرهم من المبالغة في التراخي مع المسيحيين ، وعلى الرغم من كل المجهودات التي بذلت لتهدئة خواطر المتذمرين فان العامة قد اقتحموا بعض الكنائس وخربوها ونهبوا اموالها ، ولكن الناصر لم يكن راضيا عن هذه الاعمال (٣) .

أثارت هذه الحوادث شعور المسيحيين فعمدوا الى اشعال النيران عام (٧٢١هـ/ ١٣٢١م) انتقاما من المسلمين الذين هدموا الكنائس وخاصة ان الجوامع ودور العبادة قد اصابها ما اصاب غيرها من الكنائس (٤) ومن ثم اعيد القرار الذى اصدره الناصر عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) خاصا بمعاملة النصارى وبعد ذلك عاد الحال بالنسبة للنصارى الى ما كان عليه عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) فمنعوا

---

١. The Mameluke or Slave , P. 73.

٢. A Hist of Egypt , P. 212.

٣. السلوك ، ج ٢ ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

٤. النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ .

من ان يتزيو بزى المسلمين / وطردوا من دواوين السلطان والامراء واغلقت الاديرة والكنائس حتى ان كثير من النصارى اعتنقوا الاسلام كما فعلوا عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) ليحتفظوا بوظائفهم ويتخلصوا من تلك القيود التي فرضت عليهم (١) ومما يدل على ان الناصر قد وقف من العامة موقف الحزم بعد وقوع هذا الحادث بزمن يسير ان احد الصوفيين المتعصبين رأى احد المسلمين يقبّل يد احد كتاب السر المسيحيين بدمشق فهجم عليه وقتله ،فأمر الناصر بشنق هذا الصوفي وتعليق جسمه على باب المدينة غير مبال بصياح العامة وحماستهم لتخليصه (٢) يتبين مما ذكرناه ان الناصر احسن معاملة النصارى ولولا ما ابداه العامة من عنت لتفاقمت حال النصارى وعمت الفتن وانتشرت الحروب الاهلية في كل ارجاء دولة الناصر وسار اولاد الناصر محمد واحفاده على سياسة ابيهم في العطف على المسيحيين الا انه في عهد ابنه السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢هـ/ ٧٥٥هـ - ١٣٥١ - ١٣٥٤م) وقعت بعض الحوادث أدت الى اصدار السلطان عام (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) مرسوما يشبه مرسوم عام (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) نص فيه على انهم يمنعوا من الخدم في جميع الاعمال ولا يستخدم نصراني ولا يهودى في ديوان السلطان ولا في شيء من دواوين الامراء وان تكون عمامة النصراني واليهودى عشرة اذرع ويلزموا بزيادة صبغتها ،وان لا يستخدموا مسلما ،وان يركبوا الحمير بالاكف واذا مروا بجماعة من المسلمين نزلوا عن دوابهم وان تكون قيمة حمار واحد منهم اقل من مابة درهم وان يلجوء الى اضيق الطرق ولا يكرموا في مجلس وان تلبس نسائهم مغيرة الزى اذا مرت في الطرقات ،حتى اخفافهن تكون لونين ولا يدخلن حمامات المسلمين مع المسلمات (٣) وتبع ذلك هدم بعض كنائسهم ومساكنهم ولكن ما لبث الحال اذ عادت الى مجراها الطبيعي ودخل كثير من النصارى في الاسلام وعادوا

---

١ . النجوم الزاهرة ،ج ٤ ،ص ١٣٢ - ١٣٣ .

٢ . The Mameluke or Slave , P. 73-74.

٣ . السلوك ،ج ٣ ،ص ١٧ ،النجوم الزاهرة ،ج ٥ ،ص ١٣٣ .

الى مباشرة اعمالهم ثم تزوجوا من المسلمات وصار من بين اولادهم " قضاة وشهودا وعلماء" (١) ولم تقع بعد ذلك حوادث من هذا النوع تستحق الذكر في البقية الباقية من عهد المماليك .

نلاحظ ان عهد المماليك لم يتميز كله بالاضطهاد لاهل الذمة لان هذه الاضطهادات اتخذت في الواقع شكل زوابع تهب بين حين وآخر وتستمر مدة من الزمن تطول وتقصر حسب الاحوال ، ثم لا يلبث بعد ذلك ان تعود الاوضاع الى الهدوء تدريجيا فيتخلص اهل الذمة من القيود التي فرضت عليهم حينا بعد حين سواء في الملبس والمظهر العام وغير ذلك كما كانوا يعودون الى مباشرة الوظائف الكتابية والمالية في الدولة وعند الامراء ويركبون الخيل والبغال (٢) ، كل ذلك والدولة راضية ما داموا يدفعون الجوالي وهي الجزية المفروضة عليهم (٣) .

اما الوان الاضطهاد الذى كان يتعرض له احيانا اهل الذمة في العهد المملوكي فهي كثيرة ومتنوعة منها : طردهم من مباشرة الدواوين وحرمانهم من مباشرة

---

١ . السلوك ، ج ٣ ، ص ١٧ .
٢ . تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٨٥ .
٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٤ ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ - ٤٦٣ ، وذكر المقريزى ان الجزية صارت تعرف في ايامه بالجوالي ، وقد قدرت هذه الجوالي عام ٥٨٧ هـ أى زمن الايوبيين بمائة وثلاثين الف دينار ، ولكنها تناقصت كثيرا في زمن المماليك بسبب تهرب النصارى منها واظهارهم الاسلام ، وهناك ما يشير الى وجود مكوس اخرى غير الجوالي كانت تجبى من اهل الذمة ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٧ .

الامراء (١) ومنها هدم بعض كنائسهم واديرتهم (٢) وحل الاوقاف المحبوسة عليها او تحويل بعضها الى جوامع (٣) ومنها التضييق عليهم في بعض مظاهر الحياة كالزامهم بتصغير عمائمهم دون العشرة او السبعة اذرع مع تلوينها باللون الازرق للنصارى والاصفر لليهود ، ومنعهم من ركوب الخيل والبغال ومن رأى من المسلمين احدا من اهل الذمة قد خالف ذلك فله سلبه (٤) ، وسمح لهم بركوب الحمير على ان تكون قيمة الحمار دون المائة درهم (٥) واذا مرّ احدهم بمسلم جالس نزل عن حماره "واظهروا المسكنة" (٦) ومنها عدم السماح لاحدهم بدخول الحمامات العامة الا بصليب او جلاجل في رقبته بحيث لا تدخل نساؤهم مع نساء المسلمين حماما واحدا .

وان رجال اهل الذمة اذا دخلوا الحمام يجعلون في اوساطهم حبلا وفي اواسط نسائهم جرسا (٧) وعلى اهل الذمة وضع الخواتم في اعناقهم ليتميزوا عن

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٢٤ ، تاريخ ابن الفرات ، ج٧ ، ص ١٠٢ .

٢ . الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٨ ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٨١ ، تاريخ ابن الفرات ، ج٧ ، ص ١٠٢ .

٣ . النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٢٤ ، تاريخ ابن الفرات ، ج٨ ، ص ٩٣ ، السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن "تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة" ، دمشق ١٩٣٢ ، ص ٣٢٢ ، سيشار اليه "تاريخ الخلفاء" .

٤ . البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٥ ،

A Voyage Beyond the Seas , P. 79.

٥ . السلوك ، ج٣ ، ص ٢١٦ .

٦ . البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٣٤٠ .

٧ . مفاكهة الخلان ، ج١ ، ص ٨٧ .

المسلمين في الحمام (١) وكانت عقوبة من اسلم وأرتد عن اسلامه القتل (٢) وعقوبة من وجد عنده امرأة مسلمة وهو يشرب الخمر بالحرق بسوق الخيل (٣).

هذا كله عدا ارهاقهم في فترات الاضطهاد هذه بالمغارم والضرائب وما تفرضه عليهم الدولة من الاف الدنانير يؤدونها " مصالحة" (٤) وفي تلك الاوقات تنتهز الغوغاء و" النهابة " الفرصة لمهاجمة دور أهل الذمة ونهبها (٥) كما يتسلطون عليهم في الطرقات فيضربونهم بالنعال ويمزقون ثيابهم حتى يضطر كثير من أهل الذمة الى الاختفاء حتى تهدأ الحال (٦).

كذلك نلاحظ ان هذه الموجات المتباعدة من الاضطهاد لم تنزل بفئة من دون اخرى من فئتي اهل الذمة فحوادث هدم معابد اليهود كثيرة ومتواترة في مراجع العهد المملوكي (٧) ولكن جرت العادة ان يشتد تيار الاضطهاد ضد طائفة ويهدأ عن الاخرى فاذا اشتدت الازمة ضد النصارى وسكن الموقف بالنسبة لليهود فان النصراني في هذه الحالة اذا أراد الخروج من داره يستعير عمامة صفراء من احد جيرانه ويلبسها في الطريق حتى يسلم من أذى العامة (٨).

---

١. ابناء الغمر، ج٢، ص١٨.
٢. البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٣٦، ابناء الغمر، ج٢، ص١٧-١٨، ١٣٩.
٣. تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٧١، البداية والنهاية، ج١٣، ص٣١٢.
٤. السلوك، ج٤، ص٣١٢، البداية والنهاية، ج١٤، ص٤١٣، ج١٣، ص٢٩٧.
٥. مفاكهة الخلان، ج١، ص٣٣٧.
٦. ابناء الغمر، ج٢، ص٥٩، ١٠٥، بدائع الزهور، ج٢، ص٣٤٩، مفاكهة الخلان، ج١، ص٧٣.
٧. التبر المسبوك، ص٢٥، بدائع الزهور، ج٢، ص٣٣٧، تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص١٠٢، البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٦٠ - ٢٦٥.
٨. السلوك، ج١، ص٤٢٥.

على ان يبدو أن أهل الذمة لم يستسلموا على الدوام لتلك الاضطهادات التي اخذت تنزل بين حين وآخر عليهم في العهد المملوكي بل كثيرا ما لجأوا الى بعض الاعمال الاستفزازية والانتقامية مثل حرق بعض المساجد وشرب الخمر ورشة على ثياب المسلمين في الطرقات ، وصبّه على ابواب المساجد واهانتهم لارباب الحوانيت أذا رفضوا القيام للصليب (١) .

فاذا فشل اهل الذمة في تحقيق اغراضهم عن طريق العنف حاولوا دفع البلاء عنهم بمختلف الوسائل السلمية ، ومن هذه الوسائل بذل الاموال الطائلة لاهل الدولة (٢) . ومنها ايضا اظهار الاسلام حتى يستردوا مركزهم الادبي في المجتمع ويستريحوا من ذلك العناء المضني (٣) ، وفي ذلك يذكر المقريزي " لجأت الضرورة عند بعضهم لاظهار الاسلام ، أنفه من لباس الازرق وركوب الحمير " (٤) ثم ان كثيرا من اهل الذمة الملحقين بخدمة الدواوين اظهروا الاسلام رهبة وخوفا ، عندما يأمر السلطان بفرض الاسلام على الكتاب ومن لا يسلم يصلب وتضرب عنقه (٥) فأذا اعتنق احدهم الاسلام لبس الابيض من الثياب وزاد في عمامته كيفما شاء ، وربما خلع عليه وتولى المناصب الرفيعة في الدولة (٦) ومنها محاولتهم عدم دفع الجزية

---

١ . السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٥ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢١٩ .
٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧١ ، البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٣١٢ ، ابن حبيب ، بدر الدين الحسن بن عمر ، " درة الاسلاك في دولة الاتراك " ، ٣ ج ، صورة من مكتبة بودليان اكسفورد ، مجموعة وارقامها ٣٨ ، ٢٢٣ ، ٣١٩ ، ويوجد نسخ عنها على ميكروفيلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية وارقامها ، ٥٣٣ ، ٥٣٩ ، ج ١ ، ص ١٥٢ ، سيشار اليه " درة الاسلاك " .
٣ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٩ ، ٧٥ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٥ ، ١٥٨ .
٤ . السلوك ، ج ١ ، ص ٤٢٥ .
٥ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .
٦ . صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٩٠ .

المفروضة عليهم (١) ، ومهما كان الامر فاننا نحب ان نؤكد مرة اخرى ان اهل الذمة لم يتعرضوا للهوان الا في اوقات الشدة والاضطرابات والفتن وفيما عدا ذلك تشهد كثير من الكتابات المعاصرة على انهم تمتعوا في العهد المملوكي بكل ما يتمتع به المسلمون من حقوق وامتيازات .

٥ . الأقليات الاخرى :

التجار الاجانب : بالاضافة الى سكان دمشق من الطوائف السابقة وجد فيها في العهد المملوكي مجموعة من الاقليات الاجنبية وخاصة فئة التجار ومن هؤلاء كان المسيحيون الوافدين من جورجيا وارمينيا وغيرها من البلاد ، حيث لم يدخر سلاطين المماليك وسعا في تقوية الروابط الاقتصادية بين بلدانهم وبلدان الشرق والغرب عن طريق المعاهدات والاتفاقيات والاتصالات الدبلوماسية مع ملوك وحكام تلك البلدان ، حيث عقدت المعاهدات مع ملوك صقلية وقشتالة وارغون فضلا عن جنوة والبندقية وغيرها من جمهوريات ايطاليا التجارية وكذلك مع ملك جزيرة سيلان (٢) حيث نجد ان العامل التجارى في التنقل والاسفار قد قوى كثيرا بعد خروج الصليبيين من بلاد الشام ونشطت التجارة في توطيد العلاقات التجارية مع بلاد الشام وغيرها من الاقطار ، وبعد المعاهدة التي عقدت في منتصف القرن الثامن الهجرى بين اهل البندقية وبين سلاطين المماليك عام (٧٤٥هـ/١٣٤٤م) (٧٥٦هـ/١٣٣٥م) (٧٦٣هـ/١٣٦١م) اقام التجار الطليان من اهل فينسيا (البندقية) في حلب ودمشق وبيروت وقد لاحظ (فون سوخيم) (٣) وجود البضائع والتجارة الاووربية في دمشق ونستطيع ان نضيف هنا الى ان دمشق استقبلت

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٩ .

٢ . زبدة الفكرة ، ورقة ب ٢٤٣ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧١٣ .

٣ . فون سوخيم : قسيس الماني قام بزيارة للاراضي المقدسة بين (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) و (٧٤٢هـ/١٣٤١م) تاريخ سوريا ولبنان ، ص ٢٧٨ ، رواد الشرق العربي ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

تجارا من الشرق بالاضافة الى تجار من فارس والهند والعراق واقطار اخرى مختلفة (١) وقد لفتت مدينة دمشق نظر بنجامين الطليطلي الذى زارها عام (٥٥٨هـ/١١٦٣م)، وكتب عنها " فيها تجمع التجار من جميع اقطار الدنيا حيث يتبادلون السلع على مقياس واسع " . (٢) .

وجميع الرحالة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر يشيرون الى البيوت التجارية والفنادق التي كانت للاوروبين في دمشق وغيرها من المدن ، مثل الاسكندرية والقاهرة، وعكا وبيروت (٣) ، حيث كان الاوروبيون يختارون الاقامة بصفة خاصة في المدن التجارية المهمة مثل مدينة دمشق ، وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شؤون افراد الجالية ومصالحها الاقتصادية وقد اتخذت كل جالية لنفسها فندقا أو أكثر ينزل فيه افرادها (٤) ، وقد رتبت امور هذه الفنادق بحيث يكون لكل منها ادارة مستقلة على رأسها مدير شؤون الفندق ، وعند وصول تاجر اجنبي لدمشق تفتش امتعته بدقة وعناية ، ويطلب منه دفع ٢٠٪ من قيمة ما معه من ذهب وعملة نقدية (٥) ، وبعد ذلك يقصد فندق جاليته حيث يضع بضائعه ويجتمع باخوانه ومواطنية ويستطيع ان يعيش وفق النمط الذى تعوّده في بلاده ، ذلك ان الفندق اشتمل على جميع ما احتاجه التاجر الاجنبي من " مأوى وكنيسة ومخبز وحمام " واشترط على الاجانب في دمشق بعض التعليمات والقيود وشدد عليهم في تنفيذها ، منها اغلاق ابواب فنادقهم مساء كل يوم ووقت صلاة الجمعة (٦) .

---

١. Urban Life , P. 138-140.

٢. The Travely of Rabbi Benjamin ,P. 90.

٣. رواد الشرق العربي ، ص ٤٠ .

٤. The Mameluke or Slave ,P. 137.

٥. صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

٦. The Travels of Bertrandon ,P. 303-304.

كذلك لم يسمح للاجانب داخل البلاد بارتداء ما يحتاجون من الملابس او يركبون الخيل - وانما فرض عليهم ركوب الحمير - شأن اهل الذمة من المواطنين (١) يستثنى من ذلك القناصل وكبار الامراء الزائرين الذين يسمح لهم بركوب الخيل واعتبر السلاطين هؤلاء الاجانب رهينة لدى الدولة ، فاذا اصاب المسلمين اذى أو اعتداء من جانب البلاد المسيحية ، يكون الاقتصاص في هذه الحالة من الفرنج الموجودين في دمشق (٢) وكان من حسن حظ دمشق ان بروكيه زارها في عام (٨٣٦هـ/١٤٣٢م) واعطى وصفا حيا للتجار الموجودين وخاصة الفرنسيين وقد ذكر بروكية استقبال اهل دمشق للنصارى الاوروبيون وللتجار بقوله قبل ان ندخل ترجلنا عن خيولنا حسب اشارة المكارى ، وهذه هي العادة المتبعة في هذه البلاد أذ لا يجوز لنصراني (اوروبي) ان يدخل المدينة راكبا ، ولم نكد ندخل مدينة دمشق حتى جاء بعض الناس يتفرجون علينا وكنت البس على رأسي قبعة سوداء ، وهممت ان الطمه لولا ان المكارى رمى بنفسه بيننا فحال دون ذلك وكان في تصرفه هذا نجاتي لان عدد الدمشقيين كان قد زاد ، ولو انني ضربت احدهم لكانت عاقبة ذلك علينا مما لا نستطيع تصوره ، واهل دمشق يكرهون الاوروبين ويتحتم على تجارهم ان يلجأوا الى بيوتهم في المساء فيقفل عليهم الابواب اناس ، معينون لهذا الامر ، ولا يفتحونها الا في صباح اليوم التالي وقد لقيت في دمشق كثيرين من الجنويين والبنادقة واهل فلورنسا وقد جاؤا ليبتاعوا اشياء متعددة وخاصة التوابل بقصد نقلها الى بلادهم بطريق بيروت (٣) .

ويذكر ايضا الرحالة فارسكوبالدى الذى زار دمشق عام (٧٨٦هـ/١٣٨٤م) عن سوء معاملة اهل دمشق للرحالة النصارى حيث يذكر انه عندما دخل واصحابه واحدة من ضواحي

---

١ . انباء الغمر ، ج٢ ، ص١٨ .

٢ . البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص١١ .

٣ . The Travels of Bertrandon ,P. 293-304.

دمشق قذفت عليهم الحجارة ،كما لو أنهم كانوا كلابا ،ولم يجرؤ على القول لهم بانهم اصدقاء أو أعداء ولكن حاولوا قدر الامكان تخبئة انفسهم الامر الذى افرحهم انهم لم يصاب اى منهم بأذى ،وعندما كانوا يدخلون الى دمشق كانوا يواجهون بكثير من الاستجواب من قبل النائب (١) هذا ،ولم يكن جميع الاجانب الذين اقاموا بدمشق في ذلك العهد من التجار بل شهدت مدينة دمشق جاليات من عناصر مختلفة استوطنوا البلاد واشتغل كثير منهم باعمال متنوعة ،فقد كان المماليك انفسهم من الاسرى أو المجلوبين بالبيع في عهد الايوبيين ثم آل الملك اليهم فكان منهم الوزراء والامراء والقواد ،واهل السلطان ،ولما أسر قطز والظاهر بيبرس ثم الناصر قلاوون من بعدهما طوائف كثيرة جدا من التتار كان لهم شأن خاص ولم يندمجوا في عامة الناس ،ولما دخلوا في الاسلام لم تكن كل تقاليدهم اسلامية ،وقد ذكر المقريزى بشأن ذلك ما نصه : ولما كثرت وقائع التتار في بلاد المشرق والشمال وبلاد القفجاق وأسروا كثيرا منهم وباعوهم وتنقلوا في الامصار واشترى الصالح نجم الدين ايوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم الظاهر بيبرس وملئوا مصر والشام فانتشرت عاداتهم وطرائقهم . . . وكانوا انما ربوا بدار الاسلام واتقنوا القرآن وعرفوا احكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل ووضعوا الجيد الى الردىء وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالامور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وناطوا به امر الاوقاف والايتام وجعلوا اليه النظر في الاقضية الشرعية كتداعي الزوجين وارباب الديون واحتاجوا في ذات انفسهم الرجوع لعادة جنكيز خان والاقتاء ،بحكم السياسة فلذلك نصبوا الحاجب ليقضوا بينهم فيما اختلفوا فيه من عاداتهم والاخذ على يد قويهم ،وانصاف الضعيف على وفق ما في الياسة ،وكذلك كان بحكم التجار المتازون من الاهالي على مقتضي قواعد الياسه وجعلوا للحاجب النظر في قضايا الديون السلطانية عند الاختلاف في امور الاقطاعات لينفذوا ما استقرت عليه (٢) .

---

١. Visit to the Holy Places ,P. 181.

٢. الخطط ،ج٢ ،ص٢٧ ،٢٢١ .

من هذا يتبين ان اولئك الاسرى من التتار من سكان مصر والشام كانوا في المسائل الشرعية الخالصة ويخضعون لسلطان القاضي المسلم الذى يمينه اولى الامر ليقضي بين الناس ،وبالنسبة للمعاملات الجارية كانوا يحاكمون الى الحجاب ويسيرون على قواعد الياسة ،وهو كتاب الحكم الذى وضعه جنكيز خان ،ويقول علاء الدين الجويني ان اكثره مخالف لما جاءت به الكتب السماوية واحكامه فيها قسوة وشدة وفيها يهدر الدم الجرائم دون القتل وقد نقل ابن كثير عن الجويني نصا من الياسة وهذا ما جاء فيه " ان من زنى قتل محصنا او غير محصن ،وكذلك من لاط قتل ومن تعمد الكذب قتل ومن سحر قتل ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان احدهما قتل ومن بال في انحاء الواقف قتل ومن اطعم اسيرا أو سقاه أو كساه بغير أذن اهله قتل ومن وجد هاربا ولم يرده قتل ...... ومن اطعم احد شيئا فليأكل منه أولا ولو كان المطعوم اميرا أو اسيرا ومن أكل ومن لم يطعم من عنده قتل ومن ذبح حيوانا ذبح مثله...." (١)

وهكذا نرى العقوبات مغموسة بالدم ونرى من هذا ان المماليك خصوا التتار الذين أخذوا أسرى اولا بمعاملة خاصة ولعل السبب في ذلك انهم جميعا من جنس واحد ،وهم ان لم يكونوا اخوتهم فهم ابناء عمومتهم لذلك خصوّهم بتلك المعاملة الخاصة. ومن الاقليات الاخرى في دمشق نجد الارمن : تمركز الارمن في بلاد سيس (٢) ،اطاع الارمن الدولة السلجوقية ودفعوا الجزية لها ،ومقدارها الغ الف ومائتي الف درهم (٣) ، واستمرت عليهم الجزية في العهد المملوكي ،ولكن بعد حروب طويلة بينهم وبين الدولة المملوكية تم اخضاعهم عام (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) للمماليك كليا (٤) ،وضمت مملكتهم الى الدولة المملوكية ،اتبع الارمن مذهب اليعاقبة وكان ملكهم يسمى

١. البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ١١٨.

٢. سيس : بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير ،تقويم البلدان ،ص ٢٥٧ ،وكانت حدودها كما يلي من الشرق جبال الدربند ومن الغرب سواحل بحر الروم .

٣. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ٥٦.

٤. ابناء الغمر ،ج ١ ،ص ٩٧-٩٩ ،تاريخ ابن خلدون ،ج ٥ ،ص ٩٢٣ ،السلوك ،ج ٣ ، ص ٢٣٧ ،النجوم الزاهرة ،ج ١١ ،ص ٦٦ .

" تكفور " (١) فنزح جزء منهم الى دمشق واستمروا فيها حتى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى وسار الذين نزحو منها الى دمشق على المذهب الكاثوليكي (٢)

وبعد ذلك، لنا ان نقول بصفة عامة بان المجتمع الدمشقي في عهد المماليك كان فيه قوتان كبيرتان لكل منهما نفوذها :

الاولى طبقة الامراء وعلى رأسهم السلطان ، وكان لها نصيب الاسد في النفوذ والجاه ان لم يكن النصيب كله ، ومصدر ذلك سلطان الحكم وقوته .

والاخرى هي طبقة العلماء والفقهاء ، وكبار رجال الدين ومصدر نفوذ هؤلاء هو الدين نفسه هذا الدين الجيّاش بالقوة والذى يقوى به ، حتى على من بيدهم الحكم ومن يمثله حقا ويعمل به في كل الشؤون والاحوال ويرى من نفوذ عز الدين بن السلام ومحي الدين النووى وابن تيمية ، وامثالهم جميعا ، على السلاطين انفسهم ومن اليهم ، وعلى الشعب والامة كلها ، وكانت الطبقة الثالثة تجيء بعد هاتين الطبقتين السالفتين الحكام ورجال العلم والدين وهذه الطبقة الثالثة تشمل العامة والشعب من تجار وصناع وزراع وهم الذين عليهم الكد والكدح ، ولم يكن الواحد منهم يصل الى ثمرة عمله كله ، لما كان ينوبهم من مظالم ومكوس مختلفة ، وكان الشيخ ابن تيمية يعني كل العناية بهذه الطبقة العاملة : فهو عليها عاطف ، ولها موجه ومرشد وكثيرا ما عمل لرفع ما كان ينزل بهم من مظالم على اختلاف انواعها ، كما كان كذلك معنيا بالطبقة الاولى الحاكمة ، فهو يبذل جهده في ابعادهم عن الظلم وتوجيههم للخير في الدنيا والدين .

وبعد فهذا عرض عام للطوائف والفئات المختلفة التي تألف منها المجتمع في دمشق في العهد المملوكي ومن الواضح ان النظم المملوكية شجعت على الفصل بين هذه الفئات.

---

١ . الالقاب الاسلامية ، ص ٢٣٣ .

٢ . بولس الارمني ، " الابرشية الكاثوليكية " ، المشرق ، ١٩٠٦ ، عدد ٩ ، ص ٦٧٦ .

٦ . دور الأعـراب في الحياة الاجتماعية لمدينـة دمشق :

لعبت الاعراب دورا هاما في الحياة الاجتماعية لمدينة دمشق في العهد المملوكي ، ويعتبر عربان آل فضل في بلاد الشام من اشهر القبائل في العهد المملوكي ،وكانت لهـم منزلـة مرموقة لدى السلطة المملوكية (١) ،وقد بلغ عددهم في القرن الثامن الهجري ٢٤ ألف نسمة (٢) . وكان لآل فضل امارة خاصة بهم يعين اميرها من قبل السلطان المملوكي(٣) واول من تولى منصب الامارة على آل فضل هو حديثه بن عقبة المتوفي عام (٦٣٠هـ/ ١٢٣١) في ايام الملك العادل اخو صلاح الدين الايوبي (٤) . . . . برز من آل فضل قبيلتـان هما قبيلـة آل مهنـا وقبيلة آل بشار ،أما آل مهنا فيعتبرون من القبائل الرحالة الـتي كانت تنتقل بين بلاد الشام والجزيرة الفراتيـة ،وتضم احياؤهم جماعات من زبيـد وكلـب وهذيل ومذحج ،واقتصرت رحلاتهم في العهد المملوكي على المناطق الواقعـة داخـل حدود بلاد الشام (٥) ،وامتدت منازلهم من خمص الى قلعة جعبر وحتى مدينـة الرحبة ، بمعنى انهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي نهر الفرات (٦) .

شارك آل مهنا في صد غارات التتار على بلاد الشام عام(٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)خاصة في موقعة عين جالوت واقطعهم السلطان قطز مدينة سلميـة (٧) التي اصبحت مـركـزا لهم (٨) وكان الامراء العرب من آل فضل (خاصة آل مهنا) دور في الصراع بين المماليك والتتار فقد أيدوا في البدايـة والمماليك ضـد التتار (٩) .

---

١. التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٧٩ .

٢. زبـدة كشف الممالك ، ص ١٠٥ .

٣ . التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٧٩ ،صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .

٤ . صبـح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

٥ . تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٩٣٦ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ١٧٥ .

٦ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٧٩ ،صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .

٧ . ذيـل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ،صبح الاعشـى ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

٨ . تتمـة المختصر ، ص ١١٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٠ - ٣١ .

٩ . التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٧٩ ،صبـح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١٨٥ ،ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ١٧٦ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٩٩ ،

Feudalism,P.9-10, A Yalon' Studies on the Stractuere of the Mamluk Army',BSOAS, Vol.15,P 1945, P.90-91.

لكنهم كانوا على استعداد للجوء الى التتار ومساعدتهم في الغارات على بلاد الشام في الاوقات (١) التي كانت تخرج فيها الامارة والاقطاعات من آل مهنا الـــى اقربائهم من آل فضل بن عيسى وآل علي بن حديثه (٢) . وعرف امراء العرب بميتهم لكل من المماليك والتتار ، فحاولوا الاستفادة من الجانبين المتنازعين ، واخذوا الاقطاعات من المماليك والتتار والتي كانت تشمل احيانا مناطق كثيرة من الشام والعراق ، وأما اذا فشل امراء العرب في الاستفادة من المماليك والتتار نتيجة الاتفاق من الجانبين (٣) ـ فقد كانوا يلجأون الى البادية ، حصنهم الامين ، ويبدأون بالاعتداء على طرق المواصلات ويستولون على ما كانوا يجدونه مع القوافل التجاريـــة ومواكب الحجـيج من اموال ومتـــاع (٤) .

يرجع اهتمام السلاطين بامراء العرب وقبائلهم وربطهم بجهاز الدولة واعطائهـــا الامتيازات الكثيرة من اقطاعات وهبات وانعامات (٥) الى الاعمال التي كان يقوم بهـــا العرب خدمة الى مصالح الدولة حيث كانت القبائل العربية تسيطر على القسم الاكبر من اراضي الدولة المملوكية في بلاد الشام ـ ونتيجة لذلك فقد لعبت دورا في الحيـــاة السياسيـة لبلاد الشام وباديتها لا يمكن اهماله خاصة وان هذه القبائل كانت تكـــون قوة عسكرية سياسية لها اهميتها (٦) وكان يمكن ان يكون لهذه القوة دورها الايجابي

١ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١٥ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٦٦ ، ٣٠٣ ، الامارة الطائية ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٢ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٠٢-٢٠٩ ، العزاوي ، عباس ، "تاريخ العراق بين احتلالين" ، ج ١ ، حكومة المغول ، مطبعة بغداد ، ١٩٣٥ ، ص ٤٦٩ ، نقلا عن عقـــد الجمان ، ج ٢٢ ، ص ٢٢١ ، أنظر الامارة الطائية ، ص ١٢٦-١٢٧ .

٣ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٢-٢٠٩ ، تاريخ العراق ، ج ١ ، ص ٤٦٩ ، نقلا عن عقد الجمان ، ج ٢٢ ، ص ٢٢١ ، الامارة الطائية ، ص ١٢٦-١٢٧ .

٤ . تاريخ العراق ، ج ١ ، ص ٤٦٩ ، نقلا عن عقد الجمان ، الامارة الطائية ، ص ١٢٩-١٣٠

٥ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٥٢-٤٥٣ .

٦ . كان العرب او العربان يعتبرون من ضمن عساكر الدولة المملوكية لكنهم لم يعتبروا من جندها ، مسالك الابصار ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، فكانوا من القوات غـير النظاميـة كما كان الامر دائما بالنسبة لهم

أو السلبي في حياة المنطقة تبعا لمقدرة الدولة المملوكية في المحافظة على استمرار ولاء هذه القبائل لها . سيما وان ما كان يهم العرب البدو في هذه الفترة بالدرجة الاولى المحافظة على مصالحهم دون النظر الى أى اعتبارات ولاء الارض أو دولة أو عقيدة دينية . ومن هنا كانت اقامة امارة العرب زمن الايوبيين ثم تقويتها وتثبيتها زمن المماليك وربطها بالسلطات مباشرة وذلك لتحويل القبائل عن الدور السلبي الذى مارسة معظم الاحيان في الفترات السابقة لدولة المماليك الى الدور الايجابي البناء الذى يمكن ان تقوم به (١) .

ومن الخدمات الهامة التي كان يمكن القيام بها المحافظة على طرق المواصلات حيث أهتم السلاطين المماليك بتتبع اخبار الممالك الشامية من بلاد دولتهم وعملوا على ادارة شؤونها من العاصمة باستمرار ،ولذلك فقد نظموا البريد بين مصر ودمشق وغيرهما من النيابات بشكل دقيق ،بحيث صار يصل الى دمشق في اربعة أيام ويعود في مثلها او أقل (٢) ،وجعلوا القبائل العربية كل في منطقتها مسؤولة عن محطات البريد التي كانت تقع ضمن حدودها وتزويد هذه المحطات بالخيل وكل ما تحتاج اليه . لكن العرب لم يقوموا بواجبهم على الوجه الاكمل فقد كانوا يرشون الامراء الذين يأتون للكشف والمراقبة بالخيول والاغنام (٣) ،لم يكتف السلاطين بذلك بل اهتموا بالمحافظة على هذه الطرق وسلامتها . فجعلوا القبائل مسؤولة ايضا عن الامن في اجزاء الطرق التي تمر في منطقتها (٤) ،لم تقتصر واجبات امراء العرب من آل فضل وغيرهم من امراء على المهام الرئيسية التي ذكرت سابقا وانما اشتملت مهام اخرى تدل على اتساع المجالات التي كان يمكن للعرب خدمة الدولة المملوكية بها فقد كان يستعان بهم للدلالة على

---

١ . الامارة الطائية ،ص ٤٥٢-٤٥٣ .

٢ . الروض الزاهر ،ص ٣٢ ،ذيل مرآة الزمان ،ج ٣ ،ص ٢٥٥ .

٣ . كنز الدرر ،ص ١١٤-١١٥ .

٤ . الروض الزاهر ،ص ٤٧ ،زبدة الفكرة ،ج ٩ ،ص ٦٠ ،رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٤ ،الامارة الطائية ،ص ٨٦ .

الطرق وبتتبع الامراء المماليك الخارجين عن طاعة السلطان (١) واحضارهم السنى السلطان او الى النواب طلبا للمكافأة التي كانت تخصص لهم ، واستعان بعض السلاطين بهم لتتبع اخبار الامراء والنواب وحركات الخارجين عن الطاعة وكان " بنو عقبة عيونا للسلطان يزودونه باخبار هذه الحركات باستمرار (٢) ، وعادة في اوقات حاجة الدولة لخدمات العرب كانت تصدر الاوامر بمنعهم من الخروج الى البرية " ألا اذا لم يبق في البلاد مقام " (٣) .

وكان لامراء العرب نفوذ قوى في الدولة اذ كان السلطان يستجيب لمعظم مطالبهم واستعملوا هذا النفوذ لتحقيق بعض الاعمال التي كانت تزيد من مكانتهم عند الناس ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل كانوا يتدخلون في شؤون السلاطين وذلك بالشفاعات لديهم في الامراء والاتراك المسجونين وغيرهم ، والتي كان يستجيب السلاطين لمعظمها (٤) .

كان العرب مصدرا من المصادر الاساسية التي تزود السلطان وجيشه بما كانوا يحتاجونه من الخيل والجمال التي كان امراء العرب يجلبونها من البحرين ومن المغرب وبلاد الشام (٥) مقابل هذه الخدمات الكثيرة التي كان يقوم بها أو يفترض بامراء العرب القيام بها للدولة المملوكية ، اعطيت لهم بعض الامتيازات وكان بعض هذه الامتيازات التي تقدم مقابل الخدمات التي كانوا يقومون بها في وقت معين من السنة مثل الخلع والانعامات الاخرى كالجوارى " والخيل للنتاج والنحول للمهاير

---

١ . كنز الدرر ، ص ١٩٨ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٠١ .

٢ . السلوك ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، ٥٧٢ ، ٦٢٤ .

٣ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١١٠ ، صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

٤ . A Yalon, " The Sustem of Payment in the Mamluk Military Scoiety ", Journal of the Economic and Social History of the Orient ,Vol.1,1958,P.263-264.

٥ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٧-٨٨ ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ .

والاموال الجمة " (١) التي كانت تشمل الامراء ونساءهم لكن اهم الامتيازات التي كانت للامراء واكثرها ثباتا هي الاقطاعات لانها كانت تشكل مورد دخل ثابت لهم ولقبائلهم يغني عن اللجوء الى الاساليب التي كانوا يتبعونها في السابق وفي حالات خروجهم عن الطاعة - للحصول على ارزاقهم كالسلب والنهب والاعتداء على القوافل بانواعها ،وقد كانت اقطاعات امراء العرب جزءا من النظام الاقطاعي المملوكي السابق الذكر .

وكانت مكانة الامراء (آل فضل) في بلاد الشام مرموقة ،ليس فقط لانهم كانوا يقومون احيانا بقضاء مصالح الناس ،بل لعلاقتهم ببعض الشخصيات البارزة في البلاد فقد كانوا على علاقة طيبة مع الشيخ "احمد بن تيمية الذى كان له عندهم منزلة وحرمة واكثر ما يسمعون قوله ويمتثلونه " كما قال ابن كثير كان ابن تيمية بنفسه يهتم بامورها فقد كان ينهاهم عن الغارة على بعضهم البعض وعلى غيرهم من العرب حتى انه وضع مؤلفا كما قال ابن كثير بتحريم ذلك . (٢) .

---

١. السلوك ،ج٢ ،ص ٤٥٢-٤٥٣ .

٢. البداية والنهاية ،ج١٤ ،ص ١٧٢ .

الفصل الرابع

المؤسسات الأجتماعية

القسم الأول

المؤسسات الاجتماعية التربوية

١. المكاتب
٢. المدارس
٣. المساجد والجوامع
٤. الخوانق والربط والزوايا

نستطيع ان نقسم المؤسسات الاجتماعية في دمشق الى قسمين :-

القسم الاول ويشمل : المؤسسات الاجتماعية التربوية وتضم المكاتب والمدارس ، والمساجد والربط والزوايا .

القسم الثاني : ويشمل المؤسسات الاجتماعية الاخرى من بيمارستانات ، حمامات ، السجون ، أماكن التسلية والترويح عن النفس ، الاسبلة ، الفنادق ، والخانات والقيساريات .

١ . المؤسسات الاجتماعية التربوية

المكاتب :-

نهضت المكاتب في دمشق في العهد المملوكي بالمرحلة الاولى من مراحل التعليم (١) ، حيث كان يطلق اسم المكاتب على مدارس الاطفال ويختار موقع المكتب في الاسواق العامة بجانب الدكاكين لاظهار شعائر الدين امام المارين من الاسواق(٢) ويفهم من المصادر المعاصرة ان الغرض الاساسي من انشاء المكاتب في عهد المماليك كان تعليم ايتام المسلمين ، ولذلك سارع اهل الخير الى انشاء المكاتب وحبس الاوقاف عليها للعناية بامر الايتام وتعليمهم وتوزيع الغذاء والكساء عليهم (٣) ، ويكون المكتب ملكا لشخص اباحه للتدريب أو وقفا وقفه شخص من اهل الخير (٤) . كان يقوم بالتدريس في هذه المكاتب شخص يدعى المؤدب ، واشترط ان يكون متدينا وأمينا على اطفال المسلمين رقيق الخلق ، متزوجا ، عارفا بمهنته (٥) صحيح

---

١ . الخطط ، ج٣ ، ص ١٦٣ .

٢ . ابن الحاج ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري ، المدخل ، " مدخل الشرع الشريف على المذاهب " ، ج٤ ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ص ٣١٣ - ٣١٤ ، سيشار اليه " المدخل " .

٣ . الخطط ، ج٣ ، ص ١٦٣ .

٤ . المدخل ، ج٢ ، ص ٣١٤ .

٥ . معالم القربة ، ص ١٧٠ .

المقيدة (١).

ومن اهم واجبات المؤدب في الدولة المملوكية مراعاة ابناء المسلمين كأولاده (٢) ومعاملة كل منهم بنفس الطريقة والاهمية سواء كان الطالب غنيا او فقيرا (٣). كما ان عليه ان يرفض ما قد يأتيه من اطعمه واشربة في الاعياد والمراسم (٤). اما طريقة التربية والتدريس في المكاتب فقد اشترط على المؤدب ان يترفق بالصغير وان يعلمه السور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل. ويدرجه بذلك حتى يألفه، ثم يعرفه عقائد السنن ثم اصول الحساب وما يستحن من المراسلات ويأمرهم بتجويد الخط، ويكلفهم بحفظ ما أملاه عليهم غيبا، ومن كان عمره سبع سنوات أمره بالصلاة في الجماعة، ويأمرهم ببر الوالدين والانقياد لا مرهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما وتقبيل اياديهما عند الدخول اليهما، ويضربهم على اساءة الادب وعلى الكلام الفاحش وغير ذلك من الافعال الخارجة عن الشرع الاسلامي مثل اللعب بالكعب والبيض وجميع انواع القمار. ولا يضرب صبيا بعصى غليظة تكسر العظم ولا رقيقة لا تؤلم الجسم، بل تكون وسطا ويتخذ مجلدا عرض السير ويعقد بضربه على الالايا والافخاذ واسافل الرجلين، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة وينبغي للمؤدب ان لا يستخدم احد الصبيان في حوائجه واشغاله التي فيها عار على آبائهم كنقل التراب وحمل الحجارة وغير ذلك (٥)، ولا يعلم الخط لا مرأة ولا لجارية لان ذلك يزيد المرأة شرا. وقد قيل ان المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحيةتسقى سما. وينبغي ان يمنع الصبيان من حفظ القصائد والاشعار والكلام الذى لا خير فيه، ويمنعوا من

---

١. معيد النعم، ص ١٣٠.

٢. التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٣٥، المدخل، ج ٢، ص ٩٧-٩٨، صبح الاعشى، ج ١١، ص ٢٤٧.

٣. المدخل، ج ٢، ص ٣٠٩.

٤. المدخل، ج ٢، ص ٣٢٢.

٥. معالم القربة، ص ١٧٠-١٧١، نهاية الرتبة، ص ١٠٣-١٠٤، ابن بسام، مجلة الشرق العدد ١٠، ١٩٠٧، ص ١٨٤-١٨٥.

الزينة والبهرجة في يوم عيدهم (١)، اما واجبات الطلاب فعليهم التفهم على قدر افهامهم والمواظبة على الدوام وعدم التغيب الا بعذر شرعي ، وعليهم الاستماع الى ما يقوله المؤدب اثناء الدرس وعدم التحدث مع بعضهم اثناء قراءة القرآن (٢) أما مواد التعليم فتشمل على معرفة الحروف وضبطها بالشكل وكتابتها على الالواح . ثم حفظ السور القصار من القرآن الكريم (٣) . ثم يقوم المؤدب بتعليم الطلاب القرآن والحديث وآداب الدين وعقائد اهل السنة والجماعة (٤) وبعض اصول الحساب وما يستحسنه من المواد والمراسلات والاشعار (٥) وكانت العطل تشمل يومين في الاسبوع وايام الاعياد ، ويعطل الطلاب قبل العيد بيومين او ثلاثة وبعد ذلك يعودوا الى مكاتبهم في همة ونشاط (٦) واذا أتم الطفل حفظ القرآن في المكتب احتفل بتخريجه منه ويسمى هذا الاحتفال بالاصرافة حيث يقوم الطلاب بتزويق المكتب وتزيين ارضه وسقفه كما انهم يزينون الطفل صاحب الاصرافة بتلبيسه الحرير وقلائد من الذهب والعنبر ويركبونه على فرس مزين بالحرير المذهب ومزركش وجه الفرس بالذهب ويحملون امام الصبي اطباقا فيها ثياب من حرير وعمائم ويمشون بين يديه بقية صبيان المكتب ينشدون طوال الطريق مارين في الاسواق وفي بعض الاحيان يمشون فيل أو زرافة امامه أو مغنية تقوم بالغناء ، الى ان يصل البيت وهناك يدخل المؤدب ويعطي اللوح لأم الصبي صاحب الاصرافة فتعطيه مبلغا من المال (٧)، ولم يكن هذا الاحتفال خاصا بمدينة دمشق وانما كان يطبق في كافة المدن المملوكية ومنها مدينة دمشق (٨) .

---

١ . ابن بسام ، مجلة المشرق ، العدد ١٠، ١٩٠٧، ص ١٨٤-١٨٥ .

٢ . معيد النعم ، ص ١٠٨-١٠٦ .

٣ . نهاية الرتبة ، ص ١٠٣ ، معالم القربة ، ص ١٧٠-١٧١ .

٤ . معيد النعم ، ص ١٣٠ ، نهاية الرتبة ، ص ١٣٠ .

٥ . نهاية الرتبة ، ص ١٠٣ ، معالم القربة ، ص ١٧٠-١٧١ .

٦ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

٧ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٣٢١ - ٣٣٣ .

٨ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

ويبدو ان هذه المكاتب الخاصة بتعليم الاطفال اختصت بالبنين دون البنات، فلم يصادفنا في وثائق عصر المماليك أو مصادره ما يشير الى وجود مكاتب لتعليم البنات، بل على العكس، جاء في كتابات المعاصرين بان "لا يعلم الخط امرأة ولا جارية، فقد ورد النهي بذلك" وقيل "المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية التي تسقي سما" (١).

٢. المدارس :

أعظم دليل على النشاط العلمي في عهد المماليك كثرة المدارس التي أنشأها السلاطين من عهد السلطان بيبرس (٦٥٩هـ/١٢٦٠م - ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) فصاعدا حتى عهد السلطان الاشرف قانصوة الغوري (٩٠٢-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) ولا مبالغة في قول القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) ان هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس "ما ملأ الاخطاط وشحنها" (٢) ولا يعني ان دمشق لم تكن من قبل دار علم، بل ان المدرسة في دمشق كانت موضع اهتمام خاصة ايام آل الزنكي والايوبيين حيث كانت عامرة بالمدارس الكبرى وقبلة العلماء يؤمونها من كل مكان بالشرق والغرب، وكثر تنقلهم بين دمشق والقاهرة (٣). وقد كانت المدرسة على نحو ما نظمها السلاجقة، على العموم تحت اشراف الدولة، ثم اصبحت في ايام الايوبيين اداة لمكافحة الشيعة ودعم الرأي السني الرسمي (٤). وبذل صلاح الدين ورجال دولته كل طاقة في انشاء المدارس ودور الحديث في بلاد الشام خاصة دمشق واستدعي علماء السنة وفقهاءها وأغراهم بالحضور، وسار خلفاؤه على سنته ونهجوا نهجه، وبذلك اصبحت المدن الكبرى في مصر والشام كالاسكندرية والقاهرة واسيوط والقدس ودمشق وحلب

---

١. معالم القربة، ص ١٧١-١٧٢.

٢. صبح الاعشى، ج٣، ص ٣٦٧-٣٦٨.

٣. البداية والنهاية، ج٦، ص ٢٨٠.

٤. دمشق في العهد المملوكي، ص ٦٩.

وطرابلس مراكز لعلوم السنة والفكر السني ، وكانت ملتقى العلماء الوافدين بين مشارف العالم الاسلامي ومغاربه (١) . ونذكر للتمثيل لا الحصر بعض ممن وفدوا من مشرق العالم الاسلامي فاشتهروا والفوا ودرسوا بدمشق في عهد المماليك حيث كانت دمشق محطا لكثير من علماء المغرب والاندلس ، وممن جاءها في هذا العهد من كبارهم ابن سعيد علي بن موسى - توفي عام (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) العالم الاديب الذى جاء من المغرب وجال في مصر والشام والعراق وجمع ، وصنّف ، والتقى بكثير من أجلّة علماء دمشق وادبائها وترجم لهم ونقل عنهم في كتابه المشهور (المغرب في حلى المغرب) وله كتاب " المشرق في اخبار المشرق " و " المرقص والمطرب " و " ملوك الشعر " (٢) . والشيخ تقي الدين الدمشقي الزاهد الورع العابد (٣) - ولد في اواخر عام (٧٥٢ هـ/ ١٣٥٤م) اشتغل بالعلوم ، وجمع بين العلم والعمل (٤) ، زاد تقشفه واقباله على الله عز وجل واجماعه عن الناس ، توفي عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م) ، له مصنفان في الفقه وغيره مفيدة ، ودفن في القبيبات من ضواحي دمشق وعلى قبره تابوت ، وهو معلوم وقبره مشهور ويزار ، والشيخ المفتي والمعيد بعدة مدارس الجمال المحقق اشتغل بالفقه على مذهب الشافعي ، وبرع فيه ، وأفتي واعاد ، وكان فاضلا في الطب وقد ولي شيخة المدرسة الداخورية لتقدمة في صناعة الطب وغيره ، وعاد المرض بالمارستان النورى على قاعدة الاطباء ، وكان مدرسا للشافعية بالفرخشانية ومعيدا بعدة مدارس ، وكان جيد الزهد مشاركا في فنون كثيرة (٥) يبدو أنه لا يمكن القول

---

١ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ ، عاشور ، سعيد ، " الظاهر بيبرس " ، القاهرة ، ١٩٣٦م ، ص ١٤٧ ، سيشار اليه " الظاهر بيبرس " .

٢ . وفيات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .

٣ . ابن الوردى ، عمر بن مظفر الدين بن محمد بن ابي الفوارس " تاريخ ابن الوردى " ، القاهرة ، ١٩٣٩م ، ص ٢٨٩ ، سيشار اليه " تاريخ ابن الوردى " .

٤ . تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٨ .

٥ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٤٢ .

بوجود سياسة تعليمية للدولة او السلاطين في عهد المماليك، وكل ما هنالك هو أن سلاطين المماليك وامراءهم امعنوا في بناء المدارس والمكاتب والمساجد (التي قامت احيانا بوظيفة المدارس) مدفوعين الى ذلك بعدة عوامل منها : محاربة المذهب الشيعي، واتخاذ المدرسة اداة تضمن بقاء الحكم في ايديهم ودعم مركزهم في اعين الشعب (١). وكانت المدارس في دمشق في عهد السلاطين المماليك عبارة عن عدة اقسام، منها مدارس للشافعية، يقرأ فيها فقه الامام محمد بن ادريس الشافعي (٢). واخرى للحنفية يتلى فيها فقه الامام ابي حنيفة (٣). وغيرها للحنابلة، يتلى فيها فقه الامام احمد بن حنبل (٤) وبعضها للمالكين يتلى فيها فقه الامام مالك بن انس (٥)، ومنها مدارس او دور للفقراء يتلقون فيها القراءات على الاصول وما يتعلق بذلك (٦) ومنها دور للحديث يأخذون فيها فنون الحديث (٧) ويردونه وكانت في دمشق مدارس لتعليم الطب والصيدله والحكمة والكحالة (٨). ومدرسة للهندسة يتخرج منها مهندسون وبناؤون، وقد افتتن ابن جبير عند زيارته لدمشق بالمدارس ووصفها بانها بيوت العلم في الاسلام أو رمز التماسك الاجتماعي واعمال البر والاحسان، وحماسته

---

١. الظاهر بيبرس، ص ١٤٧.

٢. ابن شداد، عز الدين ابي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم، "الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة"، ٢ج، نشر وتحقيق دومينيك، سوربيل، دمشق، ١٩٥٣، ص ٢٢٩، ٢٤٨، سيشار اليه "الاعلاق الخطيرة" النعيمي، عبد القادر بن محمد "الدارس في تاريخ المدارس"، ٢ج، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٨-١٩٥١م، ج١، ص ٢٢٥-٤٥٥، سيشار اليه "الدارس في تاريخ المدارس".

٣. الاعلاق الخطيرة، ص ١٩٩-٢٢٥، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٤٨١-٦١٩.

٤. الاعلاق الخطيرة، ص ٢٥٥-٢٥٧، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٢٠.

٥. الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ٣-٧.

٦. الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٣٥-١٨٠.

٧. الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٨٠-٢٥٠.

٨. الاعلاق الخطيرة، ص ٢٦٥-٢٦٦، الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص ١٢٧-١٣٥.

لها تبدو واضحة في وصفة اياها . وفي كل ذكر ان بدمشق نحو عشرين مدرسة (١) من هذا يبدو لنا ان المماليك ساروا على سياسة اسيادهم الايوبين في الاكثار من المدارس ودور العلم بل وزادوا في عدد هذه المدارس وتخصصاتها ، وقد ذكر ابن شداد أن مدارس دمشق ٨٦ مدرسة عرفتها المدينة زمن المماليك ، وكان بعضها قد انشىء قبل ايامهم (٢) ، وقد كان منها مدرستان طبيتان مرتبطتان بالبيارستانين ، المدرسة الداخورية داخل دمشق ، والمدرسة اللبودية النجيبية خارج دمشق (٣) .

اما المدارس الاخرى في دمشق فقد كانت مدارس دينية ينحصر التدريس فيها المذهب الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي ، وقد كان من بين المدارس الدينية ٨٤ مدرسة في دمشق ٣٥ مدرسة شافعية داخل دمشق (٤) .
و٣٤ مدرسة حنفية ، منها ٢٠ مدرسة حنفية داخل دمشق (٥) و١٤ مدرسة خارج دمشق (٦) و ٨ مدارس حنبلية ٤ منها للحنابلة في داخل دمشق و٦ مدارس للحنابلة خارج دمشق (٧) . و٧ مدارس مشتركة لمذهبين او اكثر (٨) . اما النعيمي (ت٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠م) فقد ذكر ان مدارس دمشق في زمنه كانت ٥٧ مدرسة شافعية (٩) و ٥١ مدرسة للحنفية و ٤ مدارس للمالكية (١٠) ، و ١٠ مدارس للحنابلة (١١) و ٤ مدارس

---

١ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ -٢٧٣ .
٢ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٩٩ -٢٦٤ .
٣ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٢٦ .
٤ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٢٩ -٢٤٨ .
٥ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٩٩ -٢١٨ .
٦ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢١٨ -٢٢٥ .
٧ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٥ -٢٥٧ .
٨ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٦٠ -٢٦٤ .
٩ . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٢٥-٤٥٥ .
١٠ . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٨١ -٦١٩ .
١١ . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣ - ٧ .

للطـــب (١) و ٧ مدارس دور القرآن (٢) و ١٨ دارا للحديث (٣) .

هذا العدد المرتفع من المدارس يدلنا على زيادة اهتمام سلاطين وامراء المماليك في الحياة العلمية والفكرية في دمشق .

وجرت العادة في عهد المماليك عند الفراغ من بناء مدرسة ان يحتفل بافتتاحها فينزل السلطان او نائب السلطنة اليها في جمع من الامراء ، ويجتمع الفقهاء والاعيان في صحن المدرسة حيث يمد سماط زاخر بمختلف الوان الاطعمة من لحوم الخيل والخـــراف والاوز والدجاج بالاضافة الى الحلوى والفواكه ، كما تملأ فسقية المدرسة بشراب السكـر والليمون فيأكل جميع المدعوين وتنهب العامة بقية السماط ، ثم يخلع السلطـان أو نائب السلطنـة على كل من اسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين (٤) كما يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤدبين والقراء والفراشـــين وغيرهـــم (٥) .

يبدو أن النشاط التعليمي في عهد المماليك لا يمكن فصله عن النشاط الديني ، لان التعليم كان مرتبطا الى احد كبير بالعلوم الدينية من حديث وتفسير وفقه (٦) .

وكانت وظيفة التدريس بالمدرسة جليلـة القدر (٧) وولايتها عن النائب بتواقيع

---

١ . الدارس في تاريخ المدارس، ج ١ ، ص ١٢٧ - ١٣٥ .

٢ . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٨٠ .

٣ . الدارس في تاريخ المدارس، ج ١ ، ص ١٨٠ - ٢٥٠ .

٤ . السلـوك ، ج ٣ ، ص ٤٦٤ .

٥ . درة الاسلاك ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٧٧٢ .

٦ . الظاهر بيبرس ، ص ١٤٧ .

٧ . التبر المسبـوك ، ص ٢٠٤ .

كريمـــة (١) وكان لكل مدرسة ناظرها الذى كان اليه النظر في الوقف وضبط الحسابات وتدبير انفاق الموارد وفق رغبات المواقف . وكان الناظر يختار من اهل العلم، وغالبا مـا كان قاضي قضاه المذهب الذى كان يرجع اليه النظر في التدريس (٢) . بدمشق كبارهـا وصغارها (٣) . ولا شك ان التداريس الكبار كان يشغلها كبار العلماء وتختلف باختـلاف من يتولاها في الرفعة وغيرها (٤) وكان من بين اصحاب التداريس في دمشق المحدثـون والقراء والفقهاء وشيوخ النحو (٥) . وقد اشتملت دمشق على مدارس جعلها واقفوهـــا وقفا على الفقهاء من احد المذاهب (٦) ويقوم بالتداريس ايضا شيوخ ومعيدون والشيـخ استاذ المادة ، يساعده المدرس ، جرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس ليعيد للطلاب ما القاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوا كما يشرح لهم ما يحتاج الى الشرح (٧) . وكان على المدرس ان يظهر " مكنون علمه " للطلاب ويقبل على الدرس وهو طلق الوجـــه منشرح الصدر ليستميل اليه الطلاب " ويربيهم كما يربي الوالد ولده " (٨) وعلى المدرس " أن ينظر في طلبته ويحثهم على الاشتغال في كل وقت " وينشىء الطلبة حتى تنمو فيهم العروش ويؤهل منهم من لا كان يظن منهم انه يتعلم لان يعلم ويلقي الدروس (٩) .

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

٢ . التداريس ، معناها أعداد الدروس ، راجع ابن منظور ، ابو الفضل جمال الديـن محمد بن مكرم ، لسان العرب ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٨ ، ج ٦ ، ص ٨ ، سيشار اليه " لسان العرب " .

٣ . لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٨ .

٤ . صبـح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

٥ . دمشق في عهد المماليك ، ص ١٢١ .

٦ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١١٠ — ١١٨ .

٧ . السلوك ، ج ١ ، ص ٧٠٠ ، حاشية رقم (٣) .

٨ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٣٤ — ١٣٥ ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

٩ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

١٠ . معيـــد النعـــم ، ص ١٠٧ .

واذا كان المدرس يلقي الفقه على طلابه فعليه الاستمرار بالقائه والا يخرج عن موضوع الدرس واذا خرج عن الموضوع المقرر له يعتبر كآكل الحرام وكذلك في مدرسة التفسير فمن واجب المدرس ان يلقي فيها دروسا في التفسير ، ومن الواجب على المدرس في النحو ان يلقي دروسا في النحو ايضا (١) .

ومن واجبات المدرس ان يحسن القاء الدرس، وان يفهمه للحاضرين والا يلقي على المبتدئين ما لا يناسبهم من المشكلات " ومن اقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين او ثلاثة من كتاب ويجلس يلقيها ثم ينهض فهذا ان كان لا يقدر الا على هذا القدر فهو غير صالح للتدريس (٢) .

اما الطلاب فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث لا يمنع فقيه او يستفيد من الطلاب بما يختاره من انواع العلوم الشرعية ، وكثيرا ما اعتمد هذا الاختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية . ويظل الطالب يحضر دروس احد المدرسين او الشيوخ حتى يأخذ منه كفايته فينتقل الى آخر ، وهكذا ، حتى قال السيوطي عن نفسه " اخذت العلم عن ستمائة شخص" وتطلبت هذه الطريقة من طالب العلم ان يجول في مختلف البلاد والاقطار ليسمع من مشاهير العلماء فيها لذلك كان من المألوف في ذلك العصر ان يطوف الطالب بمختلف مدن العالم الاسلامي ليتتلمذ على هذا الفقيه أو ذاك المحدث (٣) .

---

١ . معيد النعم ، ص ١٠٨ .

٢ . الشعراني ، ابو المواهب عبد الوهاب بن احمد بن علي الانصاري " لواقح الانوار في طبقات السادة الاخيار " ٢ج ، القاهرة ، ١٨٨١م ، ج ١ ، ص ٣ ، سيشار اليه " لواقح الانوار " .

٣ . الحسيني ، الحافظ ابو المحاسن ، " ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي " دمشق ، ١٩٢٨م ، ص ٣٤ ، سيشار اليه ذيل تذكرة الحفاظ الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز " من ذيول العبر " ، حققه محمد رشاد ، راجعه صلاح الدين المنجد ، الكويت ، (ب ـ ت) ، ص ١٣٤ ، سيشار اليه " من ذيول العبر " .

وقد الحقت بكل مدرسة خزانة كتب يرجع اليها المدرسون والطلاب في الفحص والاستقصاء (١) وقد كان في المدرسة الضيائية بجبل الصالحية بسفح قاسيون في دمشق (٢) مكتبه احتوت المهدين القديم والجديد ، علما ما ذكر ابن عبد الهادي ، وقد ظلت موضع اشراف حسن الي حملة تيمورلنك على دمشق (٣) وكانت مكتبة المدرسة العمرية التي بناها الشيخ ابو عمر الكبير ، والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي وكان من الاولياء المشهورين بالغة الثروة في الكتب ولم يكن استخدامها مقصورا على اهل المدرسة فحسب (٤).

اما المدرسة البادرائية التي انشأها الشيخ نجم الدين البادرائي — وهي داخل بأبي الفراديس (٥) والسلامة شمالي جيرون (٦) فقد جعل مؤسسها " خزانة كتب حسنه نافعة " (٧).

---

١ . صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٤٦٧ .

٢ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٨ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٩١ .

٣ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢١ ، نقلا عن ابن عبد الهادي .

٤ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٩ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٢ .

٥ . الشيخ نجم الدين البادرائي والبادرائي نسبة الى بادريا ، قرية من عمل واسط ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢ ، حاشية رقم (٢) وهو الشيخ الامام العلامة نجم الدين ابو محمد عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي البادرائي ، ولد عام (٥٩٤هـ/١١٩٧م) وسمع الكثير وبرع وافتي ودرس وترسل عن الخليفة الى ملوك الشام ومصر اكثر من مرة ، ولي قضاء القضاة ببغداد ، وتوفي في (أواخر ذي الحجة عام ٦٥٥هـ/كانون الثاني ١٢٥٨م) ، الذيل على الروضتين ، ص ١٩٨ ؛ ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٧٠ — ٧٣ ، الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن قايماز ، " العبر في خبر من غبر " ، ٥ج ، حققه صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٠ — ١٩٦٦ ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ ، سيشار اليه " العبر في خبر من غبر " ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ...

٦ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٩ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٢ .

٧ . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

واذا اتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس اجاز له شيخه ذلك وكتب له اجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخة ومذهبة وتاريخ الاجازة وغير ذلك (١) وهناك انواع اخرى من الاجازات عرضها المعاصرون منها اجازة "بمراضة الكتب" فيحفظ الطالب كتابا في الفقه او النحو مثلا ثم يعرضه على احد مشايخ عصره فيتفتح الشيخ الكتاب ويستقرأ الطالب في اعدة اماكن متفرقة فاذا مضى الطالب فيها من غير توقف او تلعثم كتب له شهادة بذلك، وتتوقف فيه الاجازة على سمعة الشيخ الذى صدرت عنه ومكانته العلمية (٢).

ولم تخل الحياة العلمية في مدارس العهد المملوكي من ضروب الترويح عن النفس، فاقيمت بالمدارس بعد حين وآخر حفلات لمختلف المناسبات العلمية كختم البخارى (٣) او الفراغ من تصنيف كتاب (٤)، وفي مثل هذه الحفلات المدرسية يقوم الداعي باحضار الحلوى والمخبور والفاكهة والبخور حتى تصل النفقات احيانا الى ٥٠٠ دينار، ويجلس اهل المدرسة ومعهم الاعيان والقضاة وغيرهم حيث يمضون بعض الوقت في احاديث ومناقشات علمية مفيدة، وربما صرفت المدرسة على الحفلة من اوقافها (٥) كانت اوقاف المدارس غنية، وقد كان الوقف لتوفير النفقات للمؤسسات امرا قديما في الاسلام ويبدو ان هذا كان موجودا زمن السلاجقة وآل زنكي والايوبيين والمماليك (٦) والواقع أن الاوقاف والاحباس هي التي مكنت المدارس من القيام برسالتها في عهد المماليك، فقد كان السلاطين ونوابهم يقومون بتكاليف المدارس وشيوخها ويوقفون عليها الاوقاف الكثيرة ويرتبون الرواتب الشهرية للفقراء والعلماء (٧)، فاذا ما عين شيخ في

---

١. صبح الاعشى، ج ١٤، ص ٣٢٢.
٢. صبح الاعشى، ج ١٤، ص ٣٢٧.
٣. التبر المسبوك، ص ٢١٦.
٤. السلوك، ج ٤، ص ٨٥٥- ٨٦٠.
٥. العصر المماليكي، ص ١٤٧.
٦. دمشق في العهد المملوكي، ص ١٢٠.
٧. رحلة ابن جبير، ص ٢٦٨-٢٧٠، معيد النعم، ص ١٥٣.

التدريس باحدى المدارس فانه يأخذ ما هو مقرر له في شروط الوقف من مرتب شهري يصل في المتوسط الى ٤٠ دينارا ،عدا مقادير الخبز واللحم التي تصرف له يوميا ،وكان المألوف ان يزود الوقف المدرسة بحاجتها من المدرسين الذين احيانا يبلغ عددهم ثلاثين مدرسا بالاضافة الى الماء والنور والاثاث (١) ،وكانت بعض الاحباس الفنية توفر الخبز والنفقات للطلاب (٢) ويبدو ان هذه المقررات لم تكن واحدة لجميع طلاب المدرسة وانما اختلفت وفق ما يراه ناظر الوقف من التسوية والتفضيل وقد أدى ذلك الى التحاسد بين الطلاب بسبب نقص مقرر أحدهم عن زميله ، فيقول "كيف يأخذ فلان كذا وكذا بينما انا اكثر منه بحثا وقد حفظت الكتاب الفلاني" (٣).

واوقفت بعض المدارس على علوم بعينها كالفقه والحديث أو التفسير او تعليم القرآن" ويقول السبكي انه لا يجوز تدريس غير هذه العلوم الموقفة عليها المدرسة او التي اشترطها الوقف ويجوز الفاء او تدريس بعض العلوم الجانبية المساعدة للعلم الاصلي الذى اوقفت من اجله للتنوير (٤).

ولم تقتصر الاوقاف على الاراضي بل شملت كثيرا من البيوت والاسواق والمعاصرة بعض انواع التجارة (٥) فقد كان وقف المدرسة الريحانية التي انشأها خواجا ريحان(٦) خادم نور الدين زنكي في عام (٥٦٥هـ/١٢٤٨م) مكونا من بساتين وقطعة ارض وبساتين

---

١. دمشق في العهد المملوكي ،ص ١٢٠.

٢. معيد النعم ،ص ١٥٣.

٣. المدخل ،ج ٢ ،ص ١٢٨.

٤. معيد النعم ،ص ١٥٥.

٥. Urban Life ,P. 155-156.

٦. خواجا ريحان : هو جمال الدين الريحاني والي القلعة والسجن (ت٥٧٥هـ) ، الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٠٩ ، الدارس في تاريخ المدارس ،ج ١ ،ص ٥٢٢.

للخضار وخمسة اسداس مزرعة واسطبل (١).

وكان وقف المدرسة الجوانية التي انشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف (٢) داخل باب الفراديس شمال الجامع الاموى (٣) غنيا على ما يبدو من نفقاتها : فقد كان كل من مدرسيها البالغ عددهم ٢٥ مدرسا يتقاضى ١٣٠ درهما شهريا بالاضافة الى كيل كثير من القمح وآخر من الشعير (لدابته) ايضا ، وكان الناظر على المدرسة يتقاضى عشر مدخول المدرسة لقاء اتعابه وسهره ومراقبته ما تملكه المدرسة وقد خصصت ٨٠٠ درهم لتنفق على الاحتفال بليلة نصف شعبان ، وكان للناظر ان يزيد عدد المدرسين وغيرهم اذا رأى في ذلك نفعا ، اما المدرسة السريانية في دمشق (أسست عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وكان لها وقف تضمن حماما في دمشق ، وقرية برقوم بجانب حلب ، وارض حمام في برسا ، وكان لها حصة من داخل القرية بيت الدير (٤) ، اما المدرسة القيمزية - داخل بابي الفراديس والسلامة شمالي جيرون (٥) فكان واقفها الامير الكبير الناصر الدين ابو المعالي الحسن بن العزيز بن ابي الفوارس القيمرى الكردى (٦) وعمل على بابها الساعات التي لم يسبق لها مثيل يقال انه غرم عليها ٤٠ ألف درهم (٧) . اما المدرسة العمادية - داخل بابي

---

١. الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، Urban Life, P.155-156.

٢. الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٥٩ ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٤٤ .

٣. الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .

٤. الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٥٦ . Urban Life, P.155-156.

٥. Urban Life ,P. 156.

٦. الامير ناصر الدين القيمرى الكردى : من اعظم الامراء مكانة عند الملوك ، وهو الذى سلم الشام الى الملك الناصر صاحب حلب حين قتل توأرنشاه بن الصالح ايوب في مصر ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٥ .

٧. البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٠ .

الفرج والفراديس [١] كان لها دخل ما يقارب ١٠٧٢ درهم [٢] اما المدرسة البادرائية ـ داخل بابي الفراديس والسلامة على شمالي جيرون [٣] أنشأها نجم الدين عبد الله البادرائي [٤] وشرط على المقيم بها العزوبية ، وان لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس ، وانما اراد بذلك " توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم " ومن شروط وقفها الا تدخل امرأة وقد اوقف البادرائي على هذه المدرسة " اوقافا حسنة دارّة " وجعل فيها خزانة كتب واسعة مفيدة [٥] وقد حددت شروط الوقف الخاصة بكل مدرسة كيفية الانفاق على ما تحتاج اليه المدرسة من الحصر والقناديل والبسّاقات ، والزجاج والاطباق النحاس والسلاسل والاباريق والجرار [٦] ويبدو ان الحياة العلمية في عهد المماليك لم تخل من عيوب ، اظهرها التباغض والتحاسد بين العلماء والمواطأة لبعضهم بعضا [٧] ذلك ان بعضهم كره ان يعرف تلميذه غير شيخة الذى يعمل معه فيوهم كل شيخ تلاميذه انه وحيد عصرة وفريد زمانه في العلم ، وان من سواه جهلاء لم يأتوا من العلم الا قليلا [٨] ، وتطلب ذلك الوضع في طالب العلم ان يطيع استاذه طاعة عمياء ، فيأخذ كل ما يرويه الاستاذ على انه قضيةمسلم بها حتى قيل " من لم يعر خطأ شيخة صوابا لم ينتفع به " [٩] وتشوق بعض الشيوخ في عهد المماليك الى المناصب وبذلوا الاموال في سبيل الوصول اليها [١٠] وقد شمر المعاصرون بهذه المفاسد

---

١. Urban Life , P. 156.

٢. الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٣٧ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .

٣. الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

٤. الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٤٥ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٠٥ .

٥. البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٦-١٩٧ .

٦. نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٣٤١ .

٧. المدخل ، ج ١ ، ص ١١٩ .

٨. زكي مبارك ، " التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق " ، ٢ج ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٦٩ ، سيشار اليه " التصوف " .

٩. المدخل ، ج ١ ، ص ٩٨ .

١٠. التبر المسبوك ، ص ١٦١ ، المدخل ج ٢ ، ص ١٥٧ .

فنقدوها وطلبوا باصلاحها في شعرهم ونثرهم (١) ويلاحظ ان مدارس دمشق في عهد المماليك لم تكن في كثير من الحالات بناء مستقلا قائما بذاته وانما كانت جزءا ملحقا بالقبة التي بناها السلطان ليدفن بها بعد وفاته (٢) ومثال على ذلك ان الظاهر بيبرس (٦٥٩هـ/١٢٦٠م-٦٧٦هـ/١٢٧٧م) اوصى ابنه الملك السعيد ببناء مدرسة ليدفن فيها - فاشرف الامير عز الدين ايدمر السيفي (٣) نائب دمشق دار الشريف العقيقي - داخل باب الفرج مقابل المدرسة العادلية بستين الف درهم وغيّر معالمها وبنى فيها مدرسة للشافعية واخرى للحنفية وبنى فيها قبة وجعل تحتها ضريح (٤)، وفتح لها شبابيك على الطريق (٥) وكان الهدف من ذلك ما يبدو هو طلب الرحمة لصاحب المدرسة بوصفها المكان الذى تدرس فيه العلوم الدينية المتنوعة وفي عام (٦٦٢هـ/١٢٦٣م) كملت المدرسة الظاهرية ورتب لتدريس الشافعية فيها قاضي تقي

---

١. الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٣٦ .

٢. النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

٣. السيفي : اصطلاح السيفي وهو نسبة كثيرة الاستعمال في اسماء امراء المماليك في كتب المؤلفين المعاصرين وكان لاستعمالها وترتيب الاسم دلالة على معاني اصطلاحية مختلفة ، فاذا وردت في اول الكلام كالسيفي يلبغا ، كان معناها ان لقب هذا الامير سيف الدين ، واذا وردت بين اسمين مثل ارغون السيفي دمرداش ، كان معناها ان صاحب هذا الاسم من مماليك الامير دمرداش ، واذا جاءت آخر الاسم ، مثل عز الدين ايدمر السيفي كان معناها أن صاحب هذا الاسم قد مات سيدة واستاذه ونقل الى ديوان السلطان ، وبالنسبة لاقباى يعني ان لقبه كان سيف الدين ، راجع : السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٣٦ ، حاشية رقم (٦) .

٤. رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٦ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٩٧ ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ .

٥. النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ .

الدين محمد بن الحسين بن رزيق ، ولتدريس الحنفية محي الدين عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن المديم - والمشيخة الحديث الشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف (١) ولا تزال هذه المدرسة قائمة في دمشق وهي مثال ممتاز عن المدارس في دمشق في عهد سلاطين المماليك ، كانت ابنية المدارس في دمشق ضخمة وكانت المدرسة تتألف من صحن تتوسطه نافورة من الرخام (٢) وكان للمدرسة ساقية تقوم باجراء الماء من البئر الى الصحن امام ايوان القبة والى الفسقية التي بوسطها المدرسة وتدور بالصحن اروقة في نهاية الاربعة واحد هذه الاروقة يؤدي الى المسجد فيما كان رواق ثاني ينتهي بمقصورة تعلوها قبة ويقوم في وسطها في غالب الاحيان قبر صاحب المدرسة وكان يحاذي الجانبين الآخرين الغرف المعدة للقراءة والدرس (٣) . ويصف بن جبير (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م) مدارس دمشق بالروعة والفخامة حيث ان ابن جبير حصل على انطباعا ممتازا عن المدرسة النورية في دمشق (٤) حيث قال في وصفها انها اجمل المباني المدرسية في العالم (٥) وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذورات وسط الدار فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر . وكل من يبصره يجود الدعاء الى نورالدين (٦) وكانت مدارس الضواحي تغلب عليها السمة ، الشديدة مثل مدارس الصالحية والمدرسة الضيائية ، (٧) .

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٢ .

٢ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢١ .

٣ . نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٣٤١ .

٤ . المدرسة النورية : انشأها الملك العادل نور الدين زنكي بن اقسنقر عام (٥٦٣هـ) الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٠٣ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٠٧ .

٥ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٣ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

٦ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٣ .

٧ . المدرسة الضيائية : بناها الفقيه ضياء الدين محمد (ت ٦٤٣هـ) ، (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٢٤) ، بجبل الصالحية بسفح قاسيون ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٥٨ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٩١ .

والاتابكيــــة (١) والصاحبـــة (٢) والعمريـــــة (٣)كما وكان لها اوقفا كثيرة.

وكانت المدرسة العمرية ابعد مدارس الصالحية ثراء انشئت في البداية كمدرســة للحنابلة (٤) . في اواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي لكنهــــا اصبحت فيما بعد مدرسة للمذاهب السنية جميعها ، وقال ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ / ١٣٣٧م) ان بسبب الاضافات المستمرة تدريجيا آلت اليه مجموعة كبيرة من القاعـــات والصحون ومسجد وغرف صغيرة كان الطلاب يعيشون فيها ،وكان لها من أوقاف ما يمكن ناظرها من توزيع الف من الارغفة يوميا بالاضافة الى الخبز الذي كان يعطى الى اصحاب التدريس وكان مئات من الناس يتناولون طعام الافطار في رمضان في مطبخ العمريـــــة اوكان الطعام يتكون من اللحم والحبوب والحلوى اذا جاءت ايام الاعياد اطعـــــم الحاضرون لحم وحلوى ،وسمح لهم باستعمال الحلل والماء الساخن (٥) ويضيف ابــــن بطوطة الى ذلك قوله وبداخل دمشق ايضا مدرسة مثل هذه المدرسة تعرف بمدرســة ابن منجا (٦) ،واهل الصالحية كلهم على مذهب الامام احمد بن حنبــل (٧) .

---

١ . المدرسة الاتابكية : بنتها بنت نور الدين رسلان بن أتابك ،صاحب الموصل ، (الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٥) ،وهي بصالحية دمشق شرقي الرشدية ودار الحديث ، الدارس في تاريخ المدارس ،ج ١ ،ص ٢١٥ .

٢ . المدرسة الصاحبة :انشأتها ربيعة خاتون وهي اخت صلاح الدين ،وست الشـــام ، (توفيت ٦٤٣هـ) ،(الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٥٦) ،والمدرسة بسفح قاسيون مــــن الشرق ،الدارس في تاريخ المدارس ،ج ٢ ،ص ٧٩ .

٣ . المدرسة العمريــة : واقفها وبانيها الشيخ ابو عمر الكبير والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي ،الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٥٦ ،الدارس في تاريخ المدارس ،ج ٢ ،ص ١٠٠ .

٤ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٥٩ ،الدارس في تاريخ المدارس ،ج ٢ ،ص ١٠٠ .

٥ . رحلـة ابن بطوطــة ،ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

٦ . وهي زوايا في الجامع الاموى ،انظر الاعلاق الخطيرة ،ص ٢٥٩ ،الدارس في تاريخ المدارس ،ج ٢ ،ص ١٢٠ .

٧ . رحلـة ابن بطوطـــة ،ص ١٣٠ .

٣ . المساجد والجوامع :

وقد استلزم النشاط العلمي والديني في دمشق في عهد المماليك الاكثار من تشييد المساجد وقد كان في دمشق ٦٦٠ مسجدا (١) موزعة حسب قول ابن شداد (ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) كما يلي :

داخل دمشق من قبلة السوق للداخل من باب الجابية ١١٧ مسجدا (٢) وعن يمين الداخل الباب الشرقي ١٢٦ مسجدا (٣) . وفي قلعة دمشق مساجد خمسة (٤) فهذه مساجد دمشق كما ذكرها ابن شداد ومجموعها ٢٤٨ مسجدا (٥) .

اما ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) فيذكر ان عددها ٢٤٢ مسجدا (٦) وقد نقل عنه ابن شداد ، مع ذكر ابن شداد لمساجد لم تكن ايام ابن عساكر ، اما النعيمي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) فقد ذكر عدد المساجد ٢٤٦ مسجدا (٧) ان هذا الاختلاف في عدد المساجد ليس كبيرا فهو لا يتجاوز بضعة مساجد والسبب في ذلك على ما يبدو ان بعض المساجد زالت اعيانها وتغيرت احوالها وخططها ، داخل دمشق وخارجها وتجددت مساجد كثيرة وخصوصا في ضواحيها ومن هنا كان اختلاف عدد المساجد في دمشق عند المؤرخين في تلك الفترة وذكر ابن شداد ٥٧ مسجدا لم يذكرها ابن عساكر منها ٤٠ مسجد داخل دمشق (٨) ، و١٠ مساجد في المزة (٩) ، و١٠ مساجد في النيرب (١٠) ، أما المساجد التي في ارباض دمشق وظاهرها مما ليس في قرية مسكونة

---

١ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٢ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .
٢ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٢ - ١٠٨ .
٣ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٠٨ - ١٢٥ .
٤ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
٥ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٢ - ١٢٦ .
٦ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٩٢ - ١٢٦ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٢٢ .
٧ . الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ .
٨ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .
٩ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٣٠ .
١٠ . الاعلاق الخطيرة ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

أو معمورة فعدد ها ٢٦ مسجدا (١)، ويذكر ابن شداد ايضا ١٨٤ مسجدا منها ١١ مسجدا ناحية الشرق (٢) و ٩١ مسجدا من ناحية الشام بشرق (٣)، اما التي بغربيه منها ٦٦ مسجدا (٤) ويضيف ابن شداد الى ذلك قوله ان هذا العدد الكبير من المساجد يدل على اهتمام اهل دمشق بالدين وكثرة المصلين بها والمتعبدين (٥) والمساجد التي لم تذكر عند ابن عساكر ١٢٩ مسجدا (٦) داخل دمشق و٣٢ مسجدا (٧) خارج دمشق (٨) بالاضافة الى ذلك فهناك مساجد المزارات في داخل دمشق وضواحيها كالربوة ومقام ابراهيم، وكهف جبريل، والمغارة (٩). وقد اثارت مساجد دمشق دهشة واعجاب الرحالة العرب والاوروبين وخاصة الجامع الاموى، فقد ملأ هذا الجامع قلب الرحالة ابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) حبورا (١٠)، وقد قضى فيه ساعات وتسلق قبته وعدد جميع الاماكن والمواقع المباركة فيه، وقد كان الجامع دوما من اروع معالم المدينة حيث ذكر ابن جبير ان من اشهر جوامع الاسلام واتقنها بناء، وغرابة صنعه،

---

١. الاعلاق الخطيرة، ص ١٣٢ -١٣٥، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٣٨، حيث نقل هذه الارقام عن ابن شداد.

٢. الاعلاق الخطيرة، ص ١٣٦ - ١٣٧، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٤٢.

٣. الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٤٤-٣٤٧.

٤. الاعلاق الخطيرة، ص ١٤٩ - ١٥٦، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٥٥-٣٥٩.

٥. الاعلاق الخطيرة، ص ١٥٩.

٦. ما اضافه ابن شداد ولم يرد في ابن عساكر.

٧. الاعلاق الخطيرة، ص ١٥٧ - ١٦٤، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٦٣.

٨. الاعلاق الخطيرة، ص ١٥٧ - ١٦٤، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ٣٦٣.

٩. الاعلاق الخطيرة، ص ١٦٩ - ١٨٨.

١٠. رحلة ابن جبير، ص ٢٦٠ - ٢٧١، دمشق في العهد المملوكي، ص ٧٦.

واحتفال تنسيقي وتزيني (١) ، ومن عجيب شأنه انه لا تنسج به العنكبوت ولا تدخله ولا تلم به الطير المعروفة بالخطاف" (٢) ووصف ابن جبير ساعة كانت تقوم في باحة الجامع الاموى ، ويشير فيها الى مرور الوقت نهارا نسران من النحاس ليلا .. جهاز خاص من الانوار (٣) ، وقد ذكر هذه الساعة ابن فضل الله العمري (ت٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) عند باب الساعات وقال سمي الباب الساعات لانه عمل هناك بيكار الساعات ، يعلم بها كل ساعة تمضي عليها عصا فير من نحاس وحية من نحاس وغراب من نحاس ، اما اذا تمت الساعة خرجت الحية وصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة في الطسة (٤)

اما الرحالة المغربي الشهير بان بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٣٧م) الذى زار دمشق في القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، واقام فيها بعضا من الوقت ، فقد ترك لنا وصفا طويلا للمسجد الاموى ومع انه نقل بعض ما قاله عن ابن جبير ، فقد أضاف بضعة انطباعات شخصية يجد فيها القارئ متعة خاصة حيث لاحظ ابن بطوطة ان الجامع "اعظم مساجد الدنيا احتفالا واتقنها صناعة ، وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ، ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه " (٥) ، وقد وصف ابن بطوطة الساعة في الجامع الاموى حيث قال أنه عن يمين الخارج من باب جيرون وهو بشباب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صفار مفتحة لها ابواب على عدد ساعات النهار والابواب مصنوع باطنها بالخضرة وظاهرة بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب باطنها الاخضر ظاهرا والظاهر اصفرا باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عند مضي الساعات (٦) ، وقد اثار الجامع الاموى اعجاب ياقوت ايضا ،

---

١ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٠-٢٧١ .

٢ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

٣ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٠-٢٧١ .

٤ . مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٤٠ .

٥ . رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

٦ . رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) فوصفه بقوله " هو جامع المحاسن ، كامل الغرائب ، معدود احدى العجائب، وقد زود بعض فرشه بالرخام والف على احسن تركيب ونظام ، وفوق ذلك اقدارة متفقة وصنعته مؤتلفة ببساطة يكاد يقطر ذهبا ويشتعل لهبا ، وهو منزه عن صور الحيوان الى صنوف النبات وفنون الاغصان ، لكنها لا تجني الا بالابصار ولا يدخل عليها الفساد كما يدخل على الاشجار والثمار ، بل باقية على طول الزمان مدركة بالعيان في كل أوان " وقالوا عجائب الدنيا اربع قنطرة سنجه ومنارة الاسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق . (١)

وقد اثار الجامع الاموي ايضا اعجاب القزويني (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) في آثار البلاد فوصفه وصفا يكاد يطابق وصف ياقوت السابق الذكر وكأنه اخذ عنه الوصف (٢) .

كان الجامع في عهد المماليك يتميز بانه مربع الشكل عادة ويتألف من صحن يحيط به اربعة ايوانات تبدو وكأنها حنيات في الجدران واكبرها ايوان القبلة ، وكان للمسجد اربعة مآذن واحيانا يكتفي باثنتين (٣) فقط ، وامتازت المآذن في جوامع عهد المماليك بشكل عام بانسجامها ورشاقتها وتوسط ارتفاعها (٤) . وامتازت دمشق في عهد المماليك بالذات بكثرة الرسوم والزخارف ورقيها ، فضلا عن ان هذه الرسوم اتصفت بالطابع العربي الواضح ،

---

١ . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٥٩٠ .

٢ . القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، "آثار البلاد واخبار العباد" ، بيروت ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، سيشار اليه . آثار البلاد .

٣ . حسن عبد الوهاب ، "تاريخ المساجد الاثرية" ، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ج١ ، ص ١٧٦ - ١٨٠ .

٤ . زكي محمد حسن ، "فنون الاسلام" ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٧٨ - ٧٩ . سيشار اليه " فنون الاسلام " .

ويؤكد الباحثون ان تعرض العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر الميلادى، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير الى اراضي دولة المماليك في دمشق والقاهرة، بعد ان هاجر الى هذه الاراضي كثير من فناني العراق فرارا من وجه التتار، فامتازت التصاوير التي انتجتها دمشق في عهد المماليك بمحافظتها على التقاليد العربية الى حد كبير - وخلوها الى حد كبير من المؤثرات المغولية التي ظهرت في البلاد الاخرى التي حكمها التتار (١) ففي العمارة في عهد المماليك نجد ان ايوانات المساجد قد كسيت بالرخام وزخرفت زخارف جميلة، من وحدات نباتية او رسوم هندسية، فضلا عن بعض الايات القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجميل المزخرف (٢).

واذا تم بناء جامع او مسجد في دمشق رتب له خطيب وخدم، واحتفل بافتتاحه احتفالا كبيرا (٣) ومدت به الابسطة بعد اول صلاة فيه (٤)، على ان استعمال المساجد في دمشق في عهد المماليك لم يقتصر على الفرض الاساسي الذى شيدت من اجله وهو العبادة، وانما استخدم في اغراض كثيرة منها التدريس، وقد عدد ابن الحجاج مواضع التدريس فجاءت ثلاثة : البيت والمدرسة والمسجد، وقال ان المسجد افضلها جميعا لأن الفائدة من التدريس ان تظهر به سنة او تخمد به بدعة او يتعلم به حكم من احكام الدين والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد لانه موضع مجتمع من الناس (٥).

على ان التدريس بالمساجد في دمشق لم يقتصر على العلوم الدينية، بل كانت تلقى الدروس في شتى العلوم والفنون (٦) كالطب وغيرها (٧).

... الباشا، "التصوير الاسلامي في العصور الوسطى"، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٦٥،

... مماليكي، ص ٣٧٦.

... كي، ص ٣٧٦-٣٧٧.

... ص ١٣٤، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٧، السلوك، ج ٢، ص ١١٤-١١٥،

... ١، ص ٤٢.

... ١٤، ص ٤٢.

... ص ٣٢١.

... ٧٨-٧٩، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٤٧٥.

وكذلك اقيمت المحاكم في المساجد في بعض الاحيان في ذلك العهد (١) وكانت جلسات المحاكم تعقد في مساجد دمشق عادة اول النهار وآخره (٢) ويجلس القاضي في المسجد ويأتي اليه الناس من نساء ورجال ليحتكموا اليه فتكثر الخصومات وترتفع الاصوات والصيحات (٣) واختار بعض الناس المساجد مكانا لاقامتهم فيلجأون اليها وينامون فيها ويجلس بعضهم لقص رؤوسهم ويتناولون فيها الطعام الى غير ذلك من الافعال التي استنكرها بعض الفقهاء المعاصرين (٤). وكان لكل من يقيم بالجامع موضع قد افرده واقتطعه وعمل فيه صندوقا واحاطه بمقصورة حتى "صار بهم كأنه خان"(٥) وكان الجامع الاموى المكان الكبير الذى تمركزت حوله حياة دمشق في عهد الامويين. وقد ظل محتفظا باهميته ونظافته في عهد المماليك والامثلة كثيرة على احتفاظ الجامع الاموى بمكانة خاصة طوال عهد المماليك من ذلك ان الذى تولى شؤونه عادة كان احد الامراء او احد كبار القضاة. وفي الغالب يكون مع قاضي القضاة الشافعي (٦) وعند حد وثمجاعة او انتشار وباء في البلاد ،جرت العادة بان يجتمع في الجامع الاموى ، القضاة والقراء والفقهاء حيث يضرعون الى الله ان يكشف عنهم الغمة (٧)؛ واذا كان السلطان في ميدان الحرب، وجاء الى دمشق بلاغ يبشر بانتصاره جمع الناس بالجامع الاموى حيث يقوم احد كبار القضاة بقراءة ذلك البلاغ عليهم (٨) وكانت كتب السلطان

١. المدخل ، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٦٤ ،عرنوس، محمود محمد ، "تاريخ القضاء في الاسلام" القاهرة ، ١٣٠٢هـ/١٩٣٤م ، ص ١٣٦ ، سيشار اليه "تاريخ القضاء".

٢. تاريخ القضاء ، ص ١٣٦.

٣. المدخل ، ج ٢، ص ٢٢٧ ، ٢٦٤.

٤. المدخل ، ج ٢، ص ٢٢٥-٢٣٥ ، ابناء الغمر ، ج ٢، ص ٢٦٠.

٥. الاعلاق الخطيرة ، ص ٨٠.

٦. رحلة ابن بطوطة، ص٩٣-٩٤ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص١٩١ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧، ص ٢٤٠-٢٤١ ، ٢٥٥.

٧. الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٣ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٠ ، تاريخ ابن الفرات، ج ٨ ، ص ١٩٦ ، ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ١٥ ، المقريزى ، تقي الدين احمد بن علي ، "اغاثة الامة لكشف الغمة" ، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال طبعة ثانية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣٢ ، سيشار اليه "اغاثة الامة" النجوم الزاهرة ، ج ٧، ص ٣٠٥ ، الدرة المضيئة ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، مفاكهة الخلان ، ص ٣١٩-٣٢٠.

٨. السلوك ، ج ١، ص ٩٣٦.

ويؤكد الباحثون ان تعرض العراق لغزو التتار في القرن الثالث عشر الميلادى ، ساعد على انتقال المدرسة العربية في التصوير الى اراضي دولة المماليك في دمشق والقاهرة ، بعد ان هاجر الى هذه الاراضي كثير من فناني العراق فرارا من وجه التتار ، فامتازت التصاوير التي انتجتها دمشق في عهد المماليك بمحافظتها على التقاليد العربية الى حد كبير - وخلوها الى حد كبير من المؤثرات المغولية التي ظهرت في البلاد الاخرى التي حكمها التتار (١) ففي العمارة في عهد المماليك نجد ان ايوانات المساجد قد كسيت بالرخام وزخرفت زخارف جميلة ، من وحدات نباتية او رسوم هندسية ، فضلا عن بعض الايات القرآنية المكتوبة بالخط الكوفي الجميل المزخرف (٢) .

واذا تم بناء جامع او مسجد في دمشق رتب له خطيب وخدم ، واحتفل بافتتاحه احتفالا كبيرا (٣) ومدت به الاسمطة بعد اول صلاة فيه (٤) ، على ان استعمال المساجد في دمشق في عهد المماليك لم يقتصر على الغرض الاساسي الذى شيدت من اجله وهو العبادة ، وانما استخدم في اغراض كثيرة منها التدريس ، وقد عد ابن الحجاج مواضع التدريس فجاءت ثلاثة : البيت والمدرسة والمسجد ، وقال ان المسجد افضلها جميعا لأن الفائدة من التدريس ان تظهر به سنة او تخمد به بدعة او يتعلم به حكم من احكام الدين والمسجد خير مكان تتوافر فيه هذه الفوائد لانه موضع مجتمع من الناس (٥) .

على ان التدريس بالمساجد في دمشق لم يقتصر على العلوم الدينية ، بل كانت تلقى به الدروس في شتى العلوم والفنون (٦) كالطب وغيرهما (٧) .

١ . حسن الباشا ، "التصوير الاسلامي في العصور الوسطى" ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦٥ ، العصر المماليكي ، ص ٣٧٦ .

٢ . العصر المماليكي ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٣٤ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٤٢ .

٤ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٤٢ .

٥ . المدخل ، ج ١ ، ص ٨٥ .

٦ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٢١ .

٧ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٨ - ٧٩ ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ .

وكذلك اقيمت المحاكم في المساجد في بعض الاحيان في ذلك العهد (١) وكانت جلسات المحاكم تعقد في مساجد دمشق عادة اول النهار وآخره (٢) ويجلس القاضي في المسجد ويأتي اليه الناس من نساء ورجال ليحتكموا اليه فتكثر الخصومات وترتفع الاصوات والصيحات (٣) واختار بعض الناس المساجد مكانا لاقامتهم فيلجأون اليها وينامون فيها ويجلس بعضهم لقص رؤوسهم ويتناولون فيها الطعام الى غير ذلك من الافعال التي استنكرها بعض الفقهاء المعاصرين (٤). وكان لكل من يقيم بالجامع موضع قد افرده واقتطعه وعمل فيه صندوقا واحاطه بمقصورة حتى "صار بهم كأنه خان"(٥) وكان الجامع الاموى المكان الكبير الذى تمركزت حوله حياة دمشق في عهد الامويين. وقد ظل محتفظا باهميته ونظافته في عهد المماليك والامثلة كثيرة على احتفاظ الجامع الاموى بمكانة خاصة طوال عهد المماليك من ذلك ان الذى تولى شؤونه عادة كان احد الامراء او احد كبار القضاة. وفي الغالب يكون مع قاضي القضاة الشافعي (٦) وعند حدوث مجاعة او انتشار وباء في البلاد، جرت العادة بان يجتمع في الجامع الاموى، القضاة والقراء والفقهاء حيث يضرعون الى الله ان يكشف عنهم الغمة (٧)؛ واذا كان السلطان في ميدان الحرب، وجاء الى دمشق بلاغ يبشر بانتصاره جمع الناس بالجامع الاموى حيث يقوم احد كبار القضاة بقراءة ذلك البلاغ عليهم (٨) وكانت كتب السلطان

١. المدخل، ج ٢، ص ٢٢٧-٢٦٤، عرنوس، محمود محمد، "تاريخ القضاء في الاسلام" القاهرة، ١٣٠٢هـ/١٩٣٤م، ص ١٣٦، سيشار اليه "تاريخ القضاء".

٢. تاريخ القضاء، ص ١٣٦.

٣. المدخل، ج ٢، ص ٢٢٧، ٢٦٤.

٤. المدخل، ج ٢، ص ٢٢٥-٢٣٥، ابناء الغمر، ج ٢، ص ٢٦٠.

٥. الاعلاق الخطيرة، ص ٨٠.

٦. رحلة ابن بطوطة، ص٩٣-٩٤، صبح الاعشى، ج ٤، ص١٩١، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٤٠-٢٤١، ٢٥٥.

٧. الذيل على الروضتين، ص ٢٠٣، رحلة ابن بطوطة، ص٦٠، تاريخ ابن الفرات، ج ٨، ص ١٩٦، ابناء الغمر، ج ٢، ص ١٥، المقريزى، تقي الدين احمد بن علي، "اغاثة الامة لكشف الغمة"، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٢، سيشار اليه "اغاثة الامة" النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٣٠٥، الدرة المضيئة، ص ٢٠٥، ٢٠٧، مفاكهة الخلان، ص ٣١٩-٣٢٠.

٨. السلوك، ج ١، ص ٩٣٦.

السلطا ن الواردة الى دمشق بشأن القدوم او اعلان الحرب او ولاية العهد وغيرها من المواضيع المختلفة تقرأ في الجامع الاموى بعد صلاة الجمعة (١) وكان السلطا ن اذا وصل دمشق يصلي الجمعة في الجامع الاموى ويزور الاماكن فيه (٢) .

وقد اهتم السلاطين المماليك باصلاح الجامع الاموى وترميمه حيث ان الملك الناصر (٦٩٣هـ/١٢٩٣م - ٦٩٤هـ/١٢٩٤م) فرغ من ماء القنوات زيادة على ماء باناس للجامع الاموى ، عند انقطاع ماء باناس مقدار سبعة عشر اصبعا من اصابع الماء للكلاسة ، وللبركة المحدده بجانب البريد ، والقسطل المساق للبيمارستان الدقاقي ومشهد بن عروة داخل باب البريد (٣) وفي ايام الظاهر بيبرس (٦٥٩هـ/١٢٦٠م - ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ، شرع عام (٦٦٣هـ/١٢٦٤م) في تبليط ما بين الجامع الغربي الذى عند القناة المعروفة باب البريد وجد في الصف المقابل لذلك بركة وشادروان وكان موضعها قناة جددت قبل ذلك يجرى اليها الماء من نهر القنوات وكان الناس ينتفعون به اوقات انقطاع نهر باناس الذى فيه ماء الجامع بدمشق (٤) وفي عام (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) جدد الحوض الذى يقع شرقي القناة باب البريد يجرى اليه الماء من القناة المذكورة في انابيب وشادروان في حائط القناة (٥) وفي عام (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) ، اخرجت الصناديق والمجاورون وقلعت الدرابزينات وفكت المقاصير وذلك بولاية افتخار الدين اياز الحرائي الذى صلى في هذه السنه بعض الجمع ، وطاف بالمسجد فرأى الحائط القبلى قد اتسع رخامة وتشعثت الفسيفساء فأمر باصلاحها وغسل الاساطين وتذهيب رؤوسها وتغيير ما يجب تغييره من

---

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٩٠ .
٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ ، ٢٢٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٦١ ،
٣ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٨-٧٩ .
٤ . الذيل على الروضتين ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .
٥ . الذيل على الروضتين ، ص ٢٣٧ .

الرخام واذهب تأزيره والكرمة وهي التي تدوربه (١) ولما طاف بالحائط الشمالي وبقية الحيطان رآها غير مرخمة فأمر بترخيمها على مثال ترخيم الحائط القبلي (٢) ، فجلب اليها الرخام من كل جهة فجاءت احسن مما عملت قديما واصرف ما يزيد على عشرين الف دينار وبنى مشهد السيد زين العابدين ،وكان قد استولى عليه الخراب (٣) وامر بتجديد باب البريد وفرشه بالبلاط ،ونقل سوق الشماعين الى الحوانيت التي في حائطه وكان فيها قبل سوق الاكفان (٤) وفي عام (٧١٠هـ/١٣١٠م) رسم قراسنقر نائب الشام بتوسيع المقصورة فاخرجت سدة المؤذنين الى الركنين المؤخرين تحت قبة النسر ،ومنعت الجنائز من دخول الجامع وفي عام (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) اثناء ولاية الامير تنكز على دمشق (٧١٢هـ-٧٤٠هـ/ ١٣١٢-١٣٣٩م) (٥) اصلح الجدار الجنوبي المتهدم من الجامع الاموى وفي عام (٧٤٠هـ/١٣٣٩م) حدث حريق في الجامع الاموى احدث اضرارا كبيرة لكنها اصلحت جميعها بعد ذلك الحريق (٦) وقد كان الجامع الاموى بدمشق جامعة عامرة تلقى به الدروس في شتى العلوم والفنون ويتنافس كبار العلماء لينالوا حظوة التدريس فيه ،وتولى التدريس به الخطيب القزويني (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) وتقي الدين السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) وفسر القرآن العلامة المفسر عماد الدين بن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) (٧) وقد ذكر ابن شداد (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) المدارس التي كانت في الجامع الاموى وذكر ان عددها سته مدارس: مدرسة الشافعية بالكلاسة ، المدرسة الغزالية وتعرف بالشيخ نصر الدين المقدسي ،ومدرسة

---

١ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٨-٧٩ .

٢ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٩ ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ .

٣ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٩ .

٤ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٨٠ .

٥ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٨١ ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٣٩٠ .

٦ . انظر تفاصيل الحريق عند العمرى ، مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٤٠-٤١ .

٧ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٢١ .

ابن شيخ الاسلام، ومدرسة ابن منجا ، ومدرسة للمالكية ومدرسة المظافر الشافعية (١) وفي الجامع الاموى حلقات للتدريس للطلاب وللمدرسين وقد عدد ابن شداد الحلقات في زمنه وكانت ١٢ حلقة هي : حلقة تاج الدين عبد الرحمن ابن ابراهيم بن سباع حلقة الشافعي ، حلقة الشيخ رشيد الفارضي ، حلقة الشيخ شرف الدين احمد بن مقدسي ، حلقة الشيخ برهان الدين بن المراغي ، حلقة القاضي زين الدين بن المرجل ، حلقة الشيخ زين الدين على بن منجا الحنبلي ، حلقة الشيخ نجم الدين ابن الشماع الحنفي ، حلقة الشيخ تاج الزواوى المالكي ، حلقة القاضي شمس الدين بن عبد الله الشافعي ، حلقة الشيخ الزواوى المالكي ، حلقة الشيخ مجد الدين الماردانى (٢).

اما حلق الحديث في الجامع الاموى فعددها خمسة ذكرها ابن شداد هي :

ميعاد بالكلاسةللقاضي الفاضل ، ميعاد لمجد الدين ، تجاه قبر هود ، ميعاد الامير سيف الدين بن الفرس خليل ، الزاوية القوصية الحنفية والسفينية ، المقصورة الكبيرة الحنفية (٣) والمحدثون يقرأون كتب الحديث على كراسي مرتفعة (٤) ، ومن شروط المحدث ان يكون متضلعا بالسنة النبوية وان يعامل الطلاب معاملة مجرب ونشيط وينشط الاقرباء منهم ويؤنس الغرباء ، ويوضح لهم الحديث ويعلمهم ما يجب تعليمه من المتون والرجال وينبصرهم بمواقع الجرح والتعديل والتوجه والتعليل والصحيح والمعتل (٥).

وفي الجامع الاموى من الحلق المرصدة لقراءة القرآن وتعليمه مائة وعشرون

---

١ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٨٤ .

٢ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٨٣ - ٨٤ .

٣ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٨٥ ؛ الدارس في تأريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

٤ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٣ .

٥ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

حلقة (١)، حيث ان الجامع الاموى مجتمع عظيم كل يوم اثر صلاة الصبح ،لقراءة سبع من القرآن دائما (٢) وعند فراغ المجتمع السبعي من القراءة صباحا يستند الى كل اثنان منهم الى سارية ويجلس امامه صبي يلقّنه القرآن ،وللصبيان ايضا على قراءتهم جراية معلومة فأهل الجدة من آبائهم ينزهون ابناءهم عن اخذها ،وسائرهم يأخذها وهذا من المفاخر الاسلامية (٣) ،وبعد صلاة العصر يعقد ايضا اجتماع عظيم لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها سورة الكوثر الى الخاتمة (٤) ،وقفها الشهيد نورالدين على صبيان صغار يقرأون في كل ليلة بعد العصر ثلاث مرات : "قل هو الله احد" ويبهدون ثوابها للواقف ،ولهم على ذلك مرتب يتناولونه من ديوان السبع الكبير (٥) ، وقد وصف ابن بطوطة التعليم في الجامع الاموى معتمدا على ما ذكرة ابن جبير مع اضافات تعبر عن انطباعاته الشخصية بقوله : وقراء القرآن يقرأون بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان تلقينا ، ويقرئهم ،وهم لا يكتبون القرآن في الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرأون القرآن تلقينا ،معلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره (٦).

ويذكر ابن شداد في الجامع الاموى لا قراء القرآن في زمنه ثلاث وسبعون متصدرا ورتب (٧) الظاهر بيبرس في الجامع الاموى مصحفا يقرأ بعد صلاة الصبح تحت قبة

---

١ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٥ ،الدارس في تاريخ المدارس ،ج ٢ ،ص ٤١٢ .

٢ . رحلة ابن جبير ،ص ٢٥٧-٢٦٠ ،الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٥ ،رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٣-٩٤ .

٣ . رحلة ابن جبير ،ص ٢٧٩ -٢٨٠ .

٤ . رحلة ابن جبير ،ص ٢٨٩ - ٢٨٠ ،الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٥ .

٥ . رحلة ابن جبير ،ص ٢٧٩-٢٨٠ ،الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٥ ،الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢ ،ص ٤١٢ .

٦ . رحلة ابن بطوطة ،ص ٩٣ - ٩٤ .

٧ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٨١ .

النسر ،واجرى على القارئ فيه كل شهر شيئا معلوما (١).

ومن اشهر من تصدر للاقراء بالجامع الاموى مدة طويلة محمد بن علي الخراساني ثم الدمشقي (٢)، وبعد الفراغ من القراءة واعطاء الدروس في الجامع الاموى كان يوزع على الحاضرين اقراص ومعمول (٣)، "وعلب حلاوة صابونية ودراهم في قراطيس"(٤)، ويسقى (٥) الحاضرين سكرا (٦) وكان بصحن الجامع الاموى حواصل للمنجنيقات (٧)،

١. الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٠.

٢. انباء الغمر ،ج ٢ ،ص ٣١٩.

٣. مفاكهة الخلان ،ج ١ ،ص ١١٧.

٤. قراطيس: هي نوع من الفلاس النحاسية او الدراهم الملفوفة على شكل اصبع، العصر المماليكي ،ص ٣٩.

٥. مفاكهة الخلان ،ج ١ ،ص ٢٤٨.   ٦. مفاكهة الخلان ،ج ١ ،ص ١٤٧

٧. المنجنيقات : مفردها منجنيق : وهو آله حربية ترمى بها الحجارة على الاعداء، (صبح الاعشى ،ج ٢ ،ص ١٣٧) ويركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب يصل منها القاعدة وفوقها قائمتان على الجانبين وتتصل هاتان القائمتان بمرفة ثم يركب على هذه المرفة سهم يراعى في وضعه عليها أن يكون احد طرفيه قصيرا والاخر طويلا وتشغل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسيا ، وفي الجهة الطويلة تركب الكفة التي يوضع فيها الحجر للقذف بعد ان يجذب حتى يجعل عاليه اسفله وعندئذ يخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف ولم يكن المنجانيق لقذف الاحجار فقط بل كان يقذف منه الحديد وقدور الفخار او الزجاج تملاء بالنفط والزرنيخ والافيون وترسل على الاعداء فتقوم مقام الغازات الخانقة في يومنا هذا ،ومن هذه القذائف ما يرمى باليد كالقوارير المصنوعة من الزجاج التي تملاء بالنفط فاذا اريد القاءها اشتعلت ثم رمي بها بواسطة سلسلة ،فاذا انكسرت على شيء اشعلت فيه النار، جرجي زيدان، "تأريخ التمدن الاسلامي" ،ج ١ ، ص ١٤١-١٤٢ ،وكانت المجانيق تحمل على الابل بعد فصل اجزائها عن بعضها البعض ثم تركب عند الحصار، النجوم الزاهرة، ج ٦ ،ص ٢٥٦.

وحواصل الامراء من خيم وغيرها ،فأمر بازالتها ،فاتسع وزاد رونقه (١) وكان يقوم على شؤون المساجد في دمشق في عهد المماليك نظار وخطباء وائمة ،فالناظر يدير الوقف والخطيب كان مسؤولا عن خطبة الجمعة والامام كان يؤم الناس في الصلاة ،ويذكر ابن شداد ان الجامع الاموى يشمل في وقفه تسعة أئمة يصلون فيه الصلوات الخمس منهم الخطيب وامام مقصورة الحنابلة وامام مقصورة الحنفية ،وامام في الكلاسة وامام في مشهد عروة وامام في مقصورة الكندى (٢) ،اما ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٣٧م) فقد لاحظ انه كان للجامع الاموى ثلاثة عشر اماما يقومون على خدمته هم : امام الشافعية ،امام مشهد على ،امام مشهد الحسين ،امام مشهد الكلاسة ،امام مشهد ابي بكر ،امام مشهد عمر ،امام مشهد عثمان ،امام مشهد المالكية ،امام الحنفية ،ثم امام الحنابلة، ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الطوائف فلا تزال الصلاة في هذا المسجد من اول النهار الى ثلث الليل (٣) وعكف كثير من الناس في دمشق في عهد المماليك على المبيت بالجامع الاموى طلبا للبركة واقبالا على الصلاة والقراءة والذكر لا سيما في ليالي الصيف وليالي شهر رمضان واهل البلد يمينونهم باعطائهم الملابس من غير ان يسألوهم شيئا من ذلك (٤) وفي عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) دخل الظاهر بيبرس الى الجامع الاموى متخفيا فرأى قوما نياما وآخرون قياما فأمر بصدقة سنية وامر ان لا يبيت احد من المجاورين بجامع دمشق (٥) فاخرج من كان مقيما به سنتين ولم يبق فيه سوى رجل واحد رآه كثير العبادة مثابرا على ما هو بصدده (٦) ،وامر باخراج الخزائن والمقاصير التي كانت فيه فكانت قريبا من ٣٠٠ ،ووجدوا فيها قوارير البول والفرش والسجاجيد الكثيرة فاستراح الناس والجامع من ذلك واتسع على المصلين (٧) ،وكان منظر الصحن في الجامع الاموى من اجمل المناظر واحسنها وفيه مجتمع اهل المدينة

١ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٠ .
٢ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٨١ ،الدارس في تاريخ المدارس،ج ٢ ،ص ٤١٠ .
٣ . رحلة ابن بطوطة ،ص ٩٣ .
٤ . رحلة ابن بطوطة،ص ٩١ ،مفاكهة الخلان ،ص ٢٠٣ ،ج ٢ .
٥ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٧٩-٨٠ ،البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ٢٤٩ .
٦ . الاعلاق الخطيرة ،ص ٧٩-٨٠ .
٧ . البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ٢٤٩ .

" وهو متفرجهم ومتنزههم في كل عشية تراهم ذاهبين وراجعين ، من شرق الى غرب، ومن باب جيرون الى باب البريد فمنهم من يتحدث مع صاحبه ومنهم من يقرأ ولا يزالون على هذا الحال من ذهاب ورجوع الى الانتهاء من صلاة العشاء ثم ينصرفون ولبعضهم بالغداة مثل ذلك (١) ولعل خير ما وصل الينا في وصف الدور الذى كان يقوم به الجامع الاموى هو الذى تركه ابن فضل الله العمرى (ت٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) وهو من خيرة جغرافي القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، قال : وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل لانه قمر المدارس والبيوت والاسواق ، وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة والقراء ومشايخ العلم والاقراء ووجوه اهل التصوير والافتاء ووظائف الحديث وقراء الاسباع المجاورين من ذوى الاصلاح فلا تزال اوقاته معمورة بالخير ،آهلة بالعبادة ، قلّ ان يخلو طرفة عين في ليل او نهار من مصلي او جالس ناحية فيه لاعتكاف او مرتل القرآن او رافع عقيرته بآذان او مكرر في كتاب علم او سائل ومسؤول ومفت ومستفت هذا الى من يأتي هذا المسجد مستأنسا لحديث او مرتقبا لأخ متفرجا في فضاء صحنه وحسن مرآى القمر والنجوم ليلا فويسلبئه هذا الى فسحة الفضاء وطيب الهواء وبرد رواقه اوقات الهجير وحسن مرائي ميازيبه احيان المطر وفي كل ناحية من وجهها قمر (٢) ،اما بالنسبة لاوقاف الجامع الاموى فقد قال ابن جبير (ت٦١٣هـ/ ١٢١٧م) ان كل مسجد في دمشق له اوقاف معينة وبساتين وارض بيضاء ورباع حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها ، وكل مسجد يستحدث بناءه يعين له السلطان اوقافا بها وبساكنيها والملتزمين لها ، ومن النساء الخواتين او ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد وتنفق فيه الاموال الواسعة وتعين لها من مالها الاوقاف ومن الامراء من يفعل مثل ذلك (٣) .

---

١ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٥ - ٢٦٠ .

٢ . مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

٣ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٣ - ٢٦٥ .

وقال القزويني (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) في حديثه عن اوقاف دمشق ان للجامع اوقاف كثيرة وعليه الرزق ،كثير من الناس منهم صناع يعملون القسي والنبال للجامع ويدخرونها ليوم الحاجة ،ذكروا ان دخل الجامع كل يوم الف ومائتا دينار يصرف المائتان على المسجد والباقي ينتقل الى خزانة السلطان (١) وذكر ابن شداد (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) انه في عام (٦٦٩هـ/١٢٥٤م) لما دخل دمشق المولى الصاحب بهاء الدين علي بن محمد مع السلطان ظاهر بيبرس نظر في وقف الجامع الأموي وما يصرف منها لارباب الرواتب ممن كان مستغنيا ،وليس به انتفاع في علم ابطله ومن كان منهم ذا حاجة ،ولم يكن لديه علم رتب له على بيت المال ما يقوم به ،وصرف ما كان مقررا لمن ابطله في مصالح الجامع وفيمن للمسلمين انتفاعا بعمله (٢) وتطلب كتب وقفه وكانت قد اهمل النظر فيها واجرى الوقوف على شرط واقفيها وكان المتولي للنظر فيها يفعل بمقتضى رأيه في منعه او اعطائه فعطلت اليه بعد ما شق على الباحث عنها وجودها فوجدها قد تمزقت وخاصة القديم منها ،وما كان وقفه الملك العادل نور الدين محمود ومن بعده من الملوك قد كادت كتبها ان تتلف فأمر باحياء خطوطها واثباتها عند سائر القضاة واجتهد فيها حسبما تقتضية آراؤه وافعاله (٣) وكانت سائر الوقوف المرصودة مضافة الى وقف الجامع وكانت لا تصرف في اربابها ،وانما تصرف في مرتب الجامع، فأفردها عنه وولاها من يصرفها على شرط من وقفها واثبت كتبها كما فعل فيما عداها من الاوقاف الجامعية والبيمارستانية (٤) ،وذكر العمري (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) ان على الجامع الاموى من الوظائف المرتبة ما لا يستقل به لا ديوان ملك وعليه جلائل الاوقاف" الا ان الايدى العادية قد استولت على كثير منه لشبه الاكابر والناحيات وغير ذلك مما عمل على سبيل النصبات " (٥) ،اما ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) فقد ذكر انه جرت

---

١. آثار البلاد ،ص ١٩١ .

٢. الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٠ .

٣. الاعلاق الخطيرة ،ص ٨٠-٨١ .

٤. الاعلاق الخطيرة ،ص ٨١ .

٥. مسالك الابصار ،ج ١ ،ص ٢٠٣ .

المادة بان يوقف على الطلاب بالجامع الاموى من سائر المذاهب راتب شهرى قدرة عشرة دراهم ، وللمعيد عشرون درهما ولكاتب الغيبة عشرون درهما ، وللمدرس ثمانون درهما (١) . وذكر ابن بطوطة (ت ١٣٣٧م) ان فوائد ومستغلات الجامع الاموى وجبايته نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا في كل سنة (٢) .

يبدو ان كلا من المدرسة والجامع في دمشق في عهد المماليك قامت بدور مزدوج في خدمة الدين والعلم ، ولكن الفارق بين الحالتين هو ان المدرسة كما يتضح من اسمها استهدفت اولا خدمة العلم وجاء نشاطها الديني ضمنيا عن طريق تدريس العلوم الدينية مثلا ، والعكس كان الهدف الاول من الجامع او المسجد هو خدمة غرضا آخر ثانويا ، لان العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير احتلت مكان الصدارة في دراسات ذلك العصر (٣) .

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٢١ .

٢ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٨٩ .

٣ . انظر : العصر المماليكي ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

٤ . الخوانق والربط والزوايا :-

مقدمة عن الصوفية

اتصفت الحياة الدينية في دمشق في العهد المملوكي بانتشار ظاهرة التصوف واتساع نطاقه (١) . وقد استتبع انتشار التصوف وكثرة الصوفية وتنظيم انفسهم طرقا في عهد المماليك اقامة اماكن خاصة باجتماعاتهم اطلق عليها خوانق وربط وزوايا (٢) . ولمعالجة موضوع الخوانق والربط والزوايا لا بد لنا من مقدمة عن التصوف في دمشق في العهد المملوكي . لا شك ان العالم الاسلامي بوجه عام احاطت به في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي احوال قاسية ، منها هجوم التتار من ناحية الشرق ، والمسيحيين الغربيين من ناحية الاندلس ، على حين ظل الصليبيون يمثلون خطرا مباشرا على البلاد الاسلامية (٣) ، لكن الولايات في البلاد الاسلامية في ذلك الوقت لم تخفف من الاحوال القاسية ، حيث ان المماليك في مصر والشام مثلا ظلوا منفصلين عن اهل البلاد / ناعمين بالثروة وحياة البذخ والترف دون بقية السكان (٤) ، وكانت دمشق بين القرنين السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، والتاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي مركزا هاما للسنة والشيعة من جهة والتصوف من جهة أخرى ، وكانت كفة الناحية الاولى ارجح في غالبية الاحيان . وقد كان هناك عدة عوامل ادت الى ذلك منها النظام الجديد الذي ظهر في هذه الرقعة من العالم الاسلامي (٥) وعندما وفد على دمشق في القرن السابع / الثالث عشر كثيرين من مشايخ الصوفية وجدوا عامة

١ . وهناك آراء عدة بخصوص اشتقاق كلمة تصوف اهمها الرأي القائل بانها مشتقة من الصوف وهو لباس الصوفية المفضل ، درة الاسلاك ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٢٢ .

٢ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٦ .

٣ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٠٢-١٠٣ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٠١ ، تاريخ ابن الوردي ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤١٠-٤١١ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٠ ، عاشور سعيد ، " الحركة الصليبية " ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ١١٣٠-١١٣١ ، سيشار اليه " الحركة الصليبية " .

٤ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٥٨-٥٩ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٥٠ ، ج ١١ ، ص ١٦٦-١٧٣ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٩٠ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١١٢-١١٧ ، ١١٨-٣٥٠ ، ٣٥١ .

٥ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٨٣-١٨٤ .

اهل دمشق في ضيق بسبب سطوة المماليك وكثرة الفتن واختلال الامن عدا عن كثرة المجاعات والاوبئة مما دفع كثيرين الى الدخول تحت لواء مشايخ الصوفية ومن المبادئ التاريخية والاجتماعية المسلم بها ان اية حركة روحية تقوى وتشتد نتيجة لتأنيب ضمير الفرد على اخطائه، الامر الذى يأتي مصحوبا برغبة خالصة في التوبة والتوجه الى الله والزهد في الدنيا (١) وليس معنى ذلك ان اهل دمشق لم يكن لهم عهد بالتصوف قبل عهد المماليك، فهناك اصطلاحات والفاظ عديدة استعملها الصوفية في عهد المماليك وقرر الباحثون انها استعملت من قبل العهد السابق، ومما يتفق مع ما قرره ابن خلدون من ان الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع (٢). وقد استغل الفاطميون ناحية التصوف لنشر مذهبهم، وبالتالي فقد كان من الثابت ايضا ان صلاح الدين الايوبي استغل هذه الناحية نفسها للقضاء على آثار المذهب الشيعي عن طريق " التصوف السني " وهكذا يتضح ان مجتمع دمشق عرف التصوف قبل ان يعرف حكم المماليك لكنه ظل قليل الاثر ولم يشتد تياره في الحياة الاجتماعية الا في عهد المماليك (٣) وقد ازداد عدد المتصوفة وتأثروا بالمتصوفة اليونانية والهندية والمسيحية وغيرها (٤) بحيث انتهى الامر بما كان من آراء فردية في التصوف ان انقسم الصوفية الى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها، فالطائفة الاحمدية مثلا نسبت الى شيخها احمد البدوى (٥) وشعارها اللون الاحمر والرفاعية نسبة الى ابي العباس احمد

---

١. عاشور، سعيد، " المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك"، الطبعة الاولى، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١٦٢، سيشار اليه " المجتمع المصرى ".

٢. التصوف، ج ٢، ص ٣٥.

٣. التصوف، ج ٢، ص ٣٥، المجتمع المصرى، ص ١٦٢.

٤. دمشق في العهد المملوكي، ص ١٧٧.

٥. احمد البدوى : هو الشيخ المعتقد الصالح ابو الفتيان احمد بن على بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر المقدسي الاصل، البدوى المعروف بابي اللثامين السطوحي ولد عام (٥٩٦هـ/١١٩٩م) وتوفي في ربيع الاول عام (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) ودفن بطنطا، وقبره يقصده الناس للزيارة وكان من الاولياء، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٥٢-٢٥٣
Vollers, K-littmann, E, Ahmad, (Al Badawi, E.I., Vol.I, P. 280-281.
احمد البدوى، دائرة المعارف الاسلامية، ج ١، ص ٤٦٩.

المعروف بالرفاعي وشعارها العمائم السوداء (١) وكان في دمشق في عهد المماليك عدد من الطرق الصوفية الواسعة الانتشار في دنيا الاسلام وعلى نحو ما عرف في غيرها من المدن ، وكان اشهرها : القادرية والوقائية والقلندرية والنبوية التي كانت ابرزها واكثرها اتباعا في دمشق (٢) . وقد كان هناك ثلاثة طرق متجوله والتي شقت طريقها في دمشق هي اليونسية والحيدرية والاحمدية (٣) من هذه الفرق وغيرها تفرعت عشرات من الطرق الصوفية في دمشق (٤) .

وقد تطرف بعض الصوفية في آرائهم وافعالهم حيث نشأ عن ذلك طائفة اطلق عليها المجاذيب أو الدراويش (٥) واشتهر هؤلاء الدراويش بافعالهم الغريبة التي زعموا انها من الدين ومن افعال بعض هؤلاء الدراويش ان يركب الواحد منهم في قفص على رأس حمال ويتعمم " بشرطوط طويل جدا ويعاشر الزعران ويزعم ان ذلك من الدين " (٦) ومنهم من اتخذ في يديه سوارين من الحديد ، او حمل في عنقه طوقا من الحديد ووضع في اذنه حلقا وسار والاعلام في رأسه (٧) وقد اشار ابن خلدون الى هذه الطائفة من الصوفية بقوله " ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون ، اشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية واحوال الصديقين (٨) واطلق الصوفية على انفسهم اسم " الفقراء " وذلك " لان الفقر شعار الصالحين " (٩) وان من

---

١. وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣٤ .

٢. التصوف ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٧-١٢٨ .

٣. Urban Life, P. 162.

٤. دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٧٧ .

٥. هز القحوف ، ص ٧٦ ، المجتمع المصري ، ص ١٦٦ .

٦. المدخل ، ج ٣ ، ص ١٧٩ .

٧. المدخل ، ج ٣ ، ص ١٧٩ ، ٢٠٥ .

٨. مقدمة ابن خلدون ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

٩. لواقح الانوار ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

يدخل الخانقاه يدخلها للتعبد وليس حبا بجمع المال والتلذذ بامور الدنيا (١) وعلى الرغم من ذلك فقد وجد بينهم من يدخل الخانقاة "بلباس الزور" مخالفين بذلك الهدف الذى انشئت من اجله تلك الخوانق وهو التعبد (٢) وكان لكل واحد من هؤلاء الفقراء شيخه الذى يرتبط به وبطريقته وبأوامره فاذا ارتبط احدهم بشيخ من مشايخ الصوفية واصبح من مريديه البسه الشيخ خرقة التصوف وعند ذلك تصبح العلاقة بين المريد وشيخه كما عبر عنها الشعراني نقلا عن الدسوقي بقوله "ان المريد مع شيخه على صورة الميت، لا حركة ولا كلام ولا يقدر ان يتحدث بين يديه الا بأذنه ولا يعمل شيئا الا بأذنه، من زواج أو خروج او دخول او عزلة او مخالطة او اشتغال بالعلم أو قران او ذكر او خدمة الزاوية أو غير ذلك" (٣) وبالغ بعض الشيوخ الصوفية في عهد المماليك، فاشترط في العهد الذى يأخذونه على مريديهم ان المريد لا يبقى له تصرف في ماله ولا زوجه ولا نفسه (٤).

وقال الشيخ احمد ابو العباس "ينبغي للمشايخ تفقد حال المريدين ويجوز للمريدين "اخبار الاستاذ بما في بواطنهم، اذ الاستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة، والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى (٥) وكان عنوان اخلاص المريد لشيخه المداومة على حضور مجلسه، فاذا انقطع المريد عن مجلس الشيخ لخجله بسبب زلة وقع فيها امام الشيخ "كان ذلك كالطلاق الرجعي" فللشيخ ان يقبله اذا رجع لأن حرمة الشيخ في نفس المريد لا تزال باقية (٦).

---

١. معيد النعم، ص ١٢٥.

٢. معيد النعم، ص ١٢٥.

٣. لواقح الانوار، ج ١، ص ٢٤٢.

٤. المدخل، ج ٣، ص ٢٠٧.

٥. لواقح الانوار، ج ٢، ص ٢١، ٦٨، ٦٩، ٧٤، ٨٠.

٦. لواقح الانوار، ج ٢، ص ١٧٦.

ويبدو أن هذه الرابطة بين الشيخ ومريديه تعدت نطاق الحياة الى الممات، أذ حرص كثير من الصوفية على ان يدفنو بجوار مشايخهم واوصوا بذلك (١).

كذلك اتخذ الصوفية في عهد المماليك مقابر خاصة بهم واحاطوها باسوار حتى لا يشاركهم فيها غيرهم (٢) ،كان التصوف في اصله تعبيرا عن الرغبة في ايجاد الصلة بين الخالق والمخلوق بواسطة التقوى والتقشف انه تطور تدريجي الى حركة كان لها اثر بعيد في الفكر الديني في الاسلام (٣).

فان حياة الصوفية على اساس التقشف في الطبس والمأكل وغير ذلك من شؤون الحياة وكان الصوفي "قوته الجوع ومطره الدموع ووطره الرجوع" (٤) والبيت الذى يسكنه الصوفي سمي خانقاه من الخنق لتضيقهم على انفسهم (٥) وان لفظ الفقراء اطلق عليهم لافتقارهم في كل احوالهم الى الله تعالى (٦). ففي الطبس بالغوا في التخشن واكثروا لبس الصوف والمرقع من الثياب (٧). ويقول السبكي ان الصوفية اتصفت بالرحمة والرأفة والعفو والصفح (٨) وكثرة العبادة حيث كان فقير الخانقاه يمضي اوقاته في العبادة (٩) حيث ان نشاط الصوفية وجهده في العبادة والذكر ليسلموا من البطالة والكلام فيما لا يعني ، ومهما كان في هذه الامثلة من مبالغة واضحة فانها تكشف لنا جانبا من المثالية الصوفية ومستويات الحياة عند هذه الفئة من المتمذبين ، وشايع كثير

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٩٥ ، المجتمع المصرى ، ص ١٦٥ .
٢ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٩٥ ، المجتمع المصرى ، ص ١٦٥ .
٣ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٧٦-١٧٧ .
٤ . لواقح الانوار ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .
٥ . لواقح الانوار ، ج ٢ ، ص ٤٢ .
٦ . المدخل ، ج ٣ ، ص ١٨٤ .
٧ . التصوف ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .
٨ . لواقح الانوار ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .
٩ . معيد النعم ، ص ١٢٣ - ١٢٥ .

من سلاطين المماليك حركة التصوف وشاركوا عامة الشعب في الاعتقاد بالصوفية والعطف عليهم (١) فقد كان محي الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين ابي الفرج بن الجوزي واقف الجوزية بدمشق ولي استاذ دار الخلافة وكان رسولا للملوك من بني ايوب وغيرهم من جهة الخلفاء (٢) اما علم الدين الناصري، خدم الملك الناصر، كان ملازما لحضور الجماعات والخوانق كثير التلاوة والذكر، وله آثار حسنة بمصر ودمشق في ترميم السبل والخانات وهو آخر من مات من مماليك الناصر (٣). اما الشيخ خضر بن ابي بكر بن موسى المهراني العدوي فقد كان شيخ السلطان الظاهر بيبرس، وكان سبب معرفة الشيخ خضر بالملك الظاهر ان الامير سيف الدين قشتمر العجمي كان يتردد الى الشيخ خضر لما كان مقيما بجبل المزة وكان يقول له لا بد ما يتسلطن بيبرس البندقداري فلما ملك صار له عقيدة، وقرّبه وادناه وكان ينزل الى زيارته في الاسبوع مرة ومرتين وثلاثا على قدر ما يتفق لكن ما كان ينقطع عنه، وكان يطلعه على غوامض اسراره ويستشيره في اموره ولا يخرج عن رأيه ويستصحبه في سائر اسفاره، وكان يخبر الملك الظاهر بامور قبل وقوعها فتقع على ما يخبر به، ولما حاصر الملك الظاهر ارسوف (٤) وهي من اوائل فتوحاته سأله متى تؤخذ، فعيّن له اليوم الذي تؤخذ فيه فكان كما قال، وكذلك في قيسارية فبنى الملك الظاهر بجبل المزة بدمشق زاوية وبظاهر بعلبك زاوية وبحماة زاوية وبحمص زاوية وبالقاهرة زاوية وبالحسينية زاوية وعلى الخليج زاوية محاذية لارض الطبالة

---

١. البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١١، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ١٢، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٠٩.

٢. البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢١١.

٣. ابناء الغمر، ج ٢، ص ٣٧٣.

٤. ارسوف: مدينة تقع على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٠٧، نزهة المشتاق، ص ٣٦٤، ابو الفداء المؤيد عماد الدين بن اسماعيل بن الافضل، "تقويم البلدان"، حققه م. رينو . ر م . دي سلان، باريس، ١٨٥٤م، ص ٢٣٨-٢٣٩، سيشار اليه "تقويم البلدان".

ووقف عليها احكار يجيء فيها في كل سنة فوق ثلاثين الف درهم وفي جميع الزوايا يوجد فقراء (١) . اما السلطان برقوق فقد رتب للمدرسة التي انشأها عددا من الصوفية وقرر لهم المرتبات الكثيرة بل ان خوند شكرباى الاحمدية ، زوجة السلطان خشقدم - غلب عليها التصوف فاتبعت الطريقة الاحمدية ونسبت اليها ، وذهب اكثر من مرة لزيارة ضريح احمد البدوى بطنطا (٢) وعندما ماتت "لم يغط نعشها ببشخاناه" على(٣) عادة الخوندات بل جعل على نعشها خرقة مرقعة كالفقراء وجعل امام نعشها اعلام احمدية وذلك بوصية منها" (٤) اما عن امراء المماليك فقد ذكر عن الامير حسام الدين لاجين (٥) انه "يحب الفقراء ويجمعهم على سماطه (٦)" اما الامير جمال الدين

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٢ .

٢ . طنطا : من المدن المصرية القديمة وهي قاعدة مديرية الغربية ، رمزى ، محمد ، "القاموس الجغرافي للبلاد المصرية" ، ٣ج ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٤ ، ج ٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، سيشار اليه " القاموس الجغرافي " .

٣ . البشخاناة : جمعها بشاخين ، وهو ما يطلق عليها اليوم الناموسية المزركشة او دايتير السرير الحلية التي توضع فوق السرير وقد تكون حول الغرفة كلها ، العصر المماليكي ، ص ٣٩٦ .

٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨٠٩ .

٥ . حسام الدين لاجين : هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ، اصله من مماليك السلطان المنصور قلاوون اشتراه ورباه واعتقه ورقاه الى ان جعله من جملة مماليكه ، فلما تسلطن قلاوون أمّره وجعله نائبا بقلعة دمشق وتسلطن عام (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) ودامت سلطنته مدة سنتين وثلاثة اشهر ومع ذلك فقد كان " ديّنا متقشفا كثير الصوم وقليل الاذى ، قطع اكثر المكوس وقال : ان عشت ما تركت مكسا واحدا ، وكانت وفاته عام (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٨٦ - ٨٧ ، ٩٩ ، ١٠٨ - ١٠٩ .

٦ . درة الاسلاك ، ج ١ ، ص ٣٣ .

النجيبي فقد تصرف بجمال الدين التاجر المقيم بدمشق لما كان نائب السلطنة فولاه نظر الجامع الاموى والمارستان النورى والخوانق بدمشق وجعله شيخ الشيوخ ، ورفع قدره فبقي على ذلك مدة وفي مباشرته ذهب رؤوس العمد ورخم الحائط الشمالي واعجله العزل فلم يتمه واصلح كثيرا من المواضع المتشعبة وكذلك فعل في غيره وكان عنده نهضة في ذلك ، وكان صرفه بعد عزل الامير جمال الدين النجيبي وغرم مبلغا ولزم بيته الى ان توفي بدمشق في ليلة الخميس سابع صفر من عام (٦٧٧هـ/١٢٧٦م) ودفن بسفح قاسيون وهو في عشر الثمانين (١) ، فاذا بلغ اعتقاد السلاطين والامراء في الصوفية هذه الدرجة فلا عجب اذا آمن كثير من عامة الشعب الدمشقي في عهد المماليك بالصوفية ومشايخهم ايمانا راسخا فقصدوهم لمشاركتهم في اذكارهم او لقضاء حوائجهم (٢) ، واذا تعرض للصوفية احد بما يمسهم ، قام العامة عليه وارادوا قتله (٣) ومن كبار متصوفة اواخر القرن السادس الثاني عشر واوائل القرن السابع / الثالث عشر ابن عربي ، الذى صرف عشرين سنة او يزيد من حياته في دمشق حيث وضع قسما كبيرا من خيرة مصنفاته وقد حظي ابن عربي بدمشق بكل ما يمكن ان يطمع فيه من لقاء طيب وعيش رغيد ورعاية اولي الامر وكان بين الذين افاد وا عليه الرعاية ابن الزكي (٤) قاضي القضاة الذى كان يقوم على خدمة الصوفي الكبير بنفسه وقد خلف لنا ابن عربي عددا ضخما من المؤلفات تقدر بين ٤٠٠-٧٠٠ ، وقد سلم منها ما يزيد على المائتين وقد جمع ابن عربي في اطار تأملاته الجامع علوم الاسلام ولم تكن معرفته الوثيقة مقتصرة على ما وصفه الفقهاء والفلاسفة والسنيون والمتصوفون لقدماء المحدثون فحسب بل كان مطلعا على ما عند المخالفين لهم مثل المعتزلة والقرامطة والاسماعيلية

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١١٩ .

٢ . المجتمع المصرى ، ص ١٦٧-١٦٨ . نقلا عن الذهبي ، تاريخ الاسلام ، ج ٣٢ ، ص ٤١ - ٤٢ .

٣ . الدرر الكامنة ج ١ ، ص ٣٢-٣٣ .

٤ . ابن الزكي : ابو الفضل يحيى بن قاضي القضاة بهاء الدين ابي المعالي محمد بن القاسم بن الوليد القرشي الاموى بن الزكي ، تولى قضاء دمشق اكثر من مرة وكذلك آباؤه من قبله ، وقد سمع الحديث عن حنبل وابن طبرزد ، والكندى وابن الحرستاني وجماعته ، وحدث ودرس في مدارس كثيرة وقد ولاه هولاكو قضاء الشام ، توفي في مصر وقد جاوز السبعين ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٧-٢٥٨ .

ومذهبه على ما فيه من اتساع وتنوع يكشف عن ما عرفته مصادره من تأملات وتعابير (١) ،
والملاحظة التالية توضح موقفه من اسلافه وتأثره في الذين تلوه من المتصوفة :

١. الله هو الوجود الحق وهو مصدر كل الموجودات وفي الله وحده يتحد الوجود والكيان .

٢. الكون له وجود نسبي اما واقعي او تصوري وهو في الوقت ذاته مجرى دائم وعدم مؤقت فالوجود الدائم هو في علم الله اما العدم المؤقت فهو خارجي بالنسبة للـه .

٣. ان الله منزّه ومشبه ، ذلك بان التنزيه والتشبيه مظهران اساسيان للحق على ما يدركه الانسان فالحق الذى يقوم على التنزيه هو الخلق الذى يقوم على التشبيه مع ان الخالق يتميز عن المخلوق .

٤. ان الوجود بعيدا عن الله يقع بارادة الله وهو خاضع للنواميس المتعلقة بالاشياء الكائنة ويتم ذلك بواسطة الاسماء الحسنى والاراء الكلية .

٥. كانت الاشياء في العالم الظاهرة ، قبل ان تصبح موجودات قائمة في العقل الالهي كاعيان ثابتة ومن ثم فقد كانت شيئا واحدا مع الكيان والوعي الالهيين .

٦. ليس ثمة شيء اسمه اتحاد الله ، بمعنى ان يكون المرء واحد مع الله ولكن هناك تحقيق للكيان الواقعي وهو ان الصوفي واحد مع الله .

٧. ان الاصل الخلاق المحيي العاقل في الكون او العقل الاول هو الحقيقة المحمدية المسماة ايضا حقيقة الحقائق هذا الاصل يظهر على او في اية صورة الانسان الكامل

٨. كل نبي هو حقيقة الحقائق الله والحقيقة هي محمد سيد الانبياء وهذه الحقائق جميعها تتعمقها الحقيقة المحمدية .

٩. الانسان الكامل هو مصغر الحقيقة ، انه العالم الاصغر الذى يعكس الصفات الكاملة للعالم الاكبر جميعها وكما ان الحقيقة المحمدية كانت المبدأ الخلاق في الكون فان الانسان الكامل هو علة الكون لانه تحقيق لرغبة الله في ان يعلن ذلك بان

---

١. دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

الانسان الكامل وحده هو الذى يعرف الله ويحب الله ويحبه الله . فقد وضع العالم من اجل الانسان فقط ، وفي اسلوب ابن عربي كثير من التعقيد والغموض والاضطراب مما يثير حفيظة القراء ويعجز عنهم ويعلل زيادة سبب ذلك بقوله انه يكون نتيجة طبيعية لهذا المدى الواسع الذى امتد فيه تفكيره وتجاربه الروحية وتأملاته ، او انه تعمد هذا الاسلوب ليتحفز عن معاصرية امور ما كان لهم ان يقبلوها لكنه كان حريصا على ان يودعها على القرطاس (١) ويقول ابن عربي في " فصوص الحكم " واذا كان الامر من هذا الوجه ممتنعا ولم تكن الشهادة الا في مادة فشهود الحق في النساء اعظم الشهود واكمله (٢) .

وكان ابن عربي كثيرا ما يشرح شعره ، على نحو ما نرى في القصيدة التاليـة

ما رحلوا يوم بانوا البزل العيا   الا وقد حملوا فيها الطواويسـا

فيها بمعنى عليها ، البزل : الابل المسمنة ، رحلوها : جعلوا رحالها عليها ، الطواويس : كناية من احبته سنشبههم لهن لحسنهن ، المقصد : البزل ، يريد الاعمـال الباطنة والظاهرة فانها ترفع الكم الطيب الى المستوى الاعلى كما قال تعالى : " واليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه " والطواويس : المحمول فيها ارواحها فانيه لا يكون العمل مقبولا ولا صالحا ولا حسنا الا متى يكون له روح مزينة عاملة او عمـه وشبهها بالطيور لانها روحانية وكنى عنها ايضا بالطواويس لتنوع اختلافها في الحسـن والجمال وعلى هذا النحو سار في سائر الابيات ' والابيات التالية توضح لنا موقف ابن عربي من الحب باسلوب معنوى مجرد جامع (٣) .

لقد صار قلبي قابلا كل صوره   فمرعى كغزلان ودير كرهبـان

---

١ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

٢ . ابن عربي ، محي الدين ، فصوص الحكم ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربيـة ، ١٩٤٦ ، ص ٢١٧ .

٣ . ابن عربي ، ترجمان الاشواق ، بيروت ، دار صادر ، ص ١٥ .

وبيتلا وثان وكعبـة طائف والواح توراة ومصحف القرآن

ادين بدين الحباني توجهت ركائبة فالحب ديني وايماني (١)

ووضع ابن عربي "كتاب الاجوبة اللائقة عن الاسئلة الفائقة" الذى تصور فيه نفسه يجيب سائلا عن القضايا التي تعترضه (٢) ويمكن تقصى المدى الذى تأثر فيه المتصوفة بابن عربي في اكثر من اتجاه واحد فحتى اؤلئك الذين لم يقبلوا او تظاهروا بانهم لم يقبلوا نظرته بالوهية الكون كثيرا ما عبد من محبين ابن عربي وخاصة آرئه في الحب، وحتى القاهرة التي اقضت مضاجعة اثناء اقامته فيها وجدت فيط بعد الكثير عندة ونجد انه في نهاية القرن السابع / الثالث عشر اصبح جماعة من المتصوفة في القاهرة من اشد المؤيدين لآرائه وحتى العلماء حفزعم ابن عربي على العمل لانهم انصرفوا الى نقده وما كان ذلك بالامر اليسير وقد اختلف المفكرون والمؤلفون المسلمون المتأخرون في تقييم آرائه بسبب تنوع ما مربه من التجارب الروحية والتأملات وعمقها (٣).

شعراء الصوفية ومذاهبهم : اشتهر في العهد المملوكي ثلاث طبقات من الشعراء الصوفية تتلمذت الطبقة الاولى منهم فنيا وفكريا على ابن الفارض وتأثروا في الصوفية بأئمة الصوفية في العصر امثال ابن عربي وشهاب الدين السهروردى وابن سبعين والشاذلي والحريرى ومن رؤوس هذه الطبقة الششترى توفي (٦٦٨هـ) وابن الخميني محمد بن عبد المنعم (توفي ٦٨٥هـ)، ومحمد بن اسرائيل توفي (٦٦٧هـ)،

---

١. ابن عربي، محي الدين، "ترجمان الاشواق" بيروت، دار صادر، ص ١٥.

٢. ما يزال هذا الكتاب مخطوطا في مكتبة India Office لندن، انظر : دمشق في العهد المملوكي، ص ١٩٩.

٣. دمشق في العهد المملوكي، ص ١٩٨-١٩٩

وعفيف التلمساني (ت ٧٩٣) وفي الطبقة الثانية نجد البوصيري محمد بن سعيد (توفي ٦٩٥هـ) وتقي الدين السروجي (توفي ٧٩٣هـ) وفي الطبقة الثالثة نجد ابن المعجمي وابن ابي حجلة التلمساني (توفي ٧٧٦هـ) ويبرز بين شعراء الصوفية في هذا العصر اتجاهات ومذاهب ومنها اتجاه او مذهب وحدة الشهود وعلى رأسه نجم الدين محمد بن اسرائيل (توفي ٦٧٧هـ) (١) ولد في دمشق عام (٦٠٣هـ) ولبس خرقة من الشيخ شهاب الدين السهرودري وسمع عليه واجلسه في ثلاث خلوات وصحب الشيخ الحريري علي بن الحسين بن منصور (توفي ٦٤٥هـ) (٢) وتأثر به في اتجاه الصوفي وآرائه وهو يأخذ بطريقة وحدة الشهود في اقواله وقد رثا شيخه الحريري بقوله :

خطب كما شاء الاله جليل	ذهلت لديه بصائر وعقول
ومصيبة كسفت لها شمس الضحى	وهو ببدر المكرمات أفول
وجنا زناد المجد وانفضت عرى آل	علياء واغتال الفضائل عزل
وتنكرت سبل المعارف واغتدت	غفلا واقفر ربعها المأهول
ومضت بشاشة كل شيء وانقضت	فالوقت قبل والزمان عليل
وعلى ملاحات الوجوه سماحة	فخفيف تلك الكائنات ثقيل

وكان بعض الفقهاء امثال ابن الصلاح وعز الدين بن عبد السلام قد افتوا بقتل الشيخ الحريري لاتهامه "بالاباحية وقذف الانبياء والفسق وترك الصلاة") (٣) .

وكان نجم الدين محمد بن اسرائيل قد تجرد وسافر الى البلاد على قدم الفقراء ، وقضاء الاوقاف الطيبة وقال عنه ابن شاكر : "وكان يباجه المشاهد وريحانه السماعات" ، ويبدو من هذه العبارة انه كان يحضر حلقات الذكر والسماعات وانه ربما شارك فيهما

---

١ . راجع ترجمته : في شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٨٣ ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٤٣٥ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥١ .

٢ . راجع ترجمته في شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٣١ ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٠ ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٨٢ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٧٣ .

٣ . فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

بالانشاد والغناء وبما ينظم من الشعر الصوفي وذكر ابن شاكر انه حضروقتا وفيه نجم الدين ابن الحكم الحموى ، فغنى المغني " من شعر ابن اسرائيل قوله

وما انت غير السكون بل انت عينه ويفهم هذا السر من هو زائف

فقال ابن الحكيم : كفرت ، كفرت ، فقال ابن اسرائيل : لا ما كفر ولكن انت ما تفهم ولكن تشوش الوقت " (١) .

واضطر ابن اسرائيل الى ان يقصد الرؤساء وغيرهم من القضاة للمديح وكسب الرزق ، لكنه ضاق ذرعا بذلك ، قال ابن شاكر " حكى الشيخ عز الدين الدربندى المؤذن الجامع رحمه الله تعالى قال : اخبرني نجم الدين بن اسرائيل قال : ضقت ذرعا في بعض الاوقات ضيقا شديدا فقلت لنفسي : والله لا مدحت غير الله ، فقلت القصيدة التي اولها :

يا ناق هارون الاثيل ممرس جدى مضحك قد بدا يتنفس

واستصحبي عز ما يبلغك المنى لتظل تغبطك الجوارى الكنس (٢)

وقال عنه ابن كثير " وكان اديبا فاضلا في صناعة الشعر بارعا في النظم (٣)" .

وكان ينقح شعره بخلاف العجمي وقد ذكر عنه ابن شاكر الكتبي قوله :" وكان لي عادة ان انظم القصيدة وانقحها ، فيما بعد (٤)

وموضوعات شعره متنوعة بين مديح الناس والمديح النبوى ، والشعر الصوفي الخالص الذى يذهب فيه مذهب وحدة الشهود على طريقة الشيخ الحريرى قال ابو المحاسن "وابن اسرائيل هذا لمن تكلموا فيه ورموه بالالحاد ، والله اعلم بحاله" (٥)

---

١ . فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٤٣١ .

٢ . فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

٣ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٤ .

٤ . فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ .

٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ .

وقال ابن العماد : "كان فقيرا ظريفا نظيفا مليح النظم ،رائق المعاني ،لولا ما شأنه بالاتحاد صريحا مره ، وتلويحا مرة اخرى (١). واكثر شعره الذى يجرى فية الاغراض المعتادة من مديح وغزل ووصف يجرى على سنة شعراء العصر من الميل الى الصفة البديعية وخاصة الجناس والتورية التي سادت بين شعراء القرنين السابع والثامن الهجريين في مصر والشام وله في المديح قصائد كثيرة وله في الزهد والوعظ مثل تلك الابيات التي تدعو الى التوكل وتؤمن بالجبر :-

ايها المعتاد بالنوم السهر	ذاهلا يسبح في بحر الفكر
سلم الامر الى مالكه	واصطبر فالصبر عقباه الظفر
لا تكون آيسا من فرج	انما الايام تأتي بالعسر
كدر يحدث في وقت الصفا	وصفا يحدث في وقت الكدر
واذا ما ساء دهر مرة	سرا اهلة منها ساء سر
فارض عن ربك في اقدارة	انما انت اسير للقدر (٢)

وهكذا يدور بن اسرائيل في شعره حول فلسفة وحدة الشهود التي ثبتها الحريرى ونشرها في عصره ودوره ورددها هذا الشاعر الصوفي الواجد في شعره .

وفي هذه الفلسفة ضرب من التجرد النفسي والتسامي الاخلاقي والنظر للانسان والحياة والكون بجانبية الخير والشر نظرة محبة وصفاء وتعايش وألفه ، لا نظرة حقد وتنافر واجتناب وبغضاء ، ذلك ان المحبة والالفة لمظاهر الكون والاحياء والاشياء تريح النفس وتعطفها على الكائنات فلا تحس بالغربة ومن ثم بالوحدة وسطو الانية

---

١ . شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ .

٢ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٤ .

وحرارة الحنين (١) اتجاه او مذهب الحلولية" اصحاب مذهب وحدة الوجود " ومن اصحاب هذا المذهب الششترى علي بن عبد الله النميرى (ولد سنة ٦١٠هـ، توفي سنة ٦٦٨هـ) وعفيف الدين التلمساني وسليمان بن علي بن عبدالله (ت ٦٩٠هـ) . (٢)

على انه من الضروري ان نشير الى ان انتشار التصوف والمتصوفة في دمشق في عهد المماليك كان له اثر في خطير الحياة الاجتماعية وذلك انهم صبغوا القيم والمثل العليا بصبغة الزهد والرغبة عن الدنيا ومتاعبها والاتجاه نحو الاخرة والعمل لهما، وترتب اثره تطلمنى هذه الاتجاهات نشر روح الاستكانة والقناعة والتذلل بين عامة الناس مما ترك اثره في نفوس الكثيرين فترة طويلة .

الخوانق والربط والزوايا :-

وقد استتبع انتشار التصوف وتنظيم الصوفية انفسهم طرقا في العهد المملوكي ، اقامة اماكن خاصة باجتماعاتهم اطلق عليها خوانق وربط وزوايا كما ذكرنا (٣) .

وقد احتوت دمشق على عدد كبير من الخوانق والربط والزوايا ، فقد ذكر ابن شداد ان دمشق احتوت على ١٩ خانقاه و ١٩ رباطا و ٥ زوايا (٤) .

وقال النعيمي ان دمشق احتوت على ٢٦ خانقاه و ٢٣ رباطا و ٢٦ زاوية (٥) .

وقال الاربيلي ان دمشق احتوت على ٥٤ خانقاه ورباط والتي كان فيها ٢٧ داخل الاسوار. وهذا يعني لنا الزيادة الثابتة والمنتظمة لهذه المؤسسات الاجتماعية والخانقاه

---

١. الادب في العصر المملوكي ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .
٢. راجع ترجمته في شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٤١٣ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣٠ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٧٧ .
٣. دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٦ .
٤. الاعلاق الخطيرة ، ص ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٤٦ - ٢٤٨ .
٥. الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٤١-١٧٨ ، ١٩٢ - ١٩٤ ، ١٩٦-١٩٧ .

لفظ مأخوذ عن الفارسية ومعناه البيت الذى ينزل فيه الصوفية (١)، اما الرباط فهي عسكرية الاصل (٢). حيث ان اتساع الدولة الاسلامية وسيطرتها على رقاع متعددة جعل من الضرورى ان توضع اجزاءها النائية، والاجزاء التي قد تتعرض الى ثورات داخلية تحت رقابة مستمرة ومن هنا ينشأ الرباط حيث كان يقيم المدافعون عن الدين والدولة الذى كان تيتوجب عليهم ان يدفعوا الاذى عن الحدود واماكن الاضطراب (٣).

وقد كان اهل الرباط او المرابطون يجمعون بين الجهاد والحياة الدينية حتى ضعف خطر المسيحية على الاسلام في المشرق، وعندئذ اخذ الرباط يفقد طابعه الحربي وتغلبت عليه الصفة الدينية. ولم يلبث انتشار التصوف زمن المماليك كما ذكرنا ان خلق مبررا لبقاء الربط فتحولت الى دور للمتصوفة (٤) ويبدو من كتابات المعاصرين ان الرباط غلبت عليه صفة الملجأ، فقد ذكر المقريزى (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) ان بيبرس الجاشكنر (٧٠٨هـ/١٣٠٨م - ٧٠٩هـ/١٣٠٩م) بنى رباطا قرر به مائة من الجند واتباع الناس" الذين قعد بهم الوقت" (٥)، كذلك نفهم ان الغرض الاساسي من انشاء الربط الخاصة بالنساء هو أن تكون "كالمودع للنساء الارامل" فضلا عن النساء المطلقات (٦).

---

١. كرد علي، محمد، "خطط الشام"، ٦ج، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٢٧م، ص ١٣١ - ١٣٤، سيشار اليه "خطط الشام"،

٢. Urban Life, P. 162.

Urban Life, P. 162.

٣. دمشق في العهد المملوكي، ص ١٢٥ - ١٢٦.

٤. Urban Life, P. 162.

٥. الخطط، ج ٤، ص ٢٧٦.

٦. ابناء الغمر، ج ١، ص ٣٧٦، الضوء اللامع، ج ١٢، ص ١٢٥، التصوف، ج ١، ص ٣٥٧.

اما الزوايا فقد كتب ابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) عنها انها الاماكن التي يعيش بها رجال الدين وهؤلاء الرجال بشكل رئيسي من الاجانب (١) . اما زيادة فيقول ان الزاوية في غالب الاحوال مكان يلجأ اليه اهل التقوى والورع (٢) .

ونلاحظ ان الخانقاه والربط والزوايا متشابهة في معانيها في عهد المماليك، حتى اختلط الامر على بعض المعاصرين ولم يستطيعوا التفرقة بين مدلول هذه الالفاظ الثلاثة فلبن الحاج (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م) يقول ان الرباط هو المسمى في عرف العجم خانقاه (٣) وابن جبير (ت٦١٤هـ/١٢١٧م) يقول أن الربط التي يسمونها الخوانق كثيرة (٤) ، وابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٣٧م) يقول ان الخانقاة هي الزوايا وان الناس في العهد المملوكي يطلقون على زواياهم اسم خانقاوات او خوانق (٥) .

اما القريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) فقد فرق بين الخوانق والربط والزوايا ، وذكر كل نوع في قائمة مستقلة خاصة به ولكنه في تعريفة لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد هو انها كانت جميعا " بيت الصوفية ومنزلهم " (٦) .

ومهما كان الامر فقد اثارت كثرة هذه المؤسسات الخاصة بالصوفية دهشة الرحالة الاجانب الذين زاروا دمشق في عهد المماليك وشبهها بعضهم بالملاجيء . والحق هذا التشبيه جاء صادقا الى حد بعيد ، لأن منازل الصوفية في ذلك الوقت لم تكن بيوت عبادة فحسب ، كما اتخذت ايضا مأوى لطوائف الصوفية ، يقيمون فيها ليلهم ونهارهم ، كما اتخذت

---

١ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .
٢ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٦ .
٣ . المدخل ، ج ٣ ، ص ١٨٥ .
٤ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
٥ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٧١ .
٦ . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧١ - ٣٠٠ .

كذلك مأوى لاصحاب العاهات وكبار السن والعميان ، فضلا عن المطلقات من النساء (١).

ولم تكن هذه الاماكن مقتصرة على تجمع الرجال فقط ، وانما كانت هناك ظروف خاصة يتجمع بها الناس داخل هذه المباني وقد وصف ابن جبير بعض من هذه الخانقاة الموجودة في دمشق فقال ان ابنيتها تشبه ابنية القصور التي تذكر الواحد منها بالجنة ، فهناك واحدا عرف بالقصر حيث انه كان من الروعة بمكان ، اما الناس الذين كانوا يقيمون في هذه المباني فلم يكن لهم ما يقلقوا عليه حيث انهم جهزوا لهذة الحياة بشكل آخر وافر وهم خصصوا اوقاتهم لممارسة اعمالهم الدينية وتعلم المبادىء الصوفية وهذا المبنى وجد في مؤسسة للتعليم وبذلك ضمّ وحوّل الى مدرسة حيث ان الايمان والتعليم لم تكن مفصولة عن بعضها في الاسلام وهذه المباني كانت تعج وتحتل من قبل الصوفيين والزهاد وكان اكثرهم من الغرباء القادمين من الغرب ، وكانوا من المستقلين بآرائهم ولم يكونوا يتبعون لأي مذهب آخر (٢).

اما ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٢٧م) فقال ان اهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس وهم يحسنون الظن بالمضاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهل والاولاد ، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد ان يتأتى له وجه من المعاش من اقامة مسجد او قراءة مدرسة او ملازمة مسجد يجيء اليه في رزقه او قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة ، او يكون كحملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة . فمن كان بها غريبا لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة . ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله اسباب اخر من حراسة بستان او طاحونة او كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح ، ومن اراد طلب العلم والتفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك (٣).

---

١ . التصوف ، ج ١ ، ص ٣٥٧ .

٢ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ .

٣ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٧ — ٢٤١ .

وقد اهتم سلاطين المماليك وامراؤهم ببيوت الصوفية فشيدوا منها الكثير وحبسوا عليها الاوقاف السخية ،حتى قال ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/١٣٣٧م) عن امراء المماليك في القرن الثامن الهجرى انهم يتنافسون في بناء الزوايا" (١) واذا أتم بناء احدى الزوايا افتتحها السلطان او بعض كبار الامراء في حفل كبير يحضره رجال القضاء ومشايخ الصوفية (٢).

ومع ان الزوايا كانت من مراكز العلم ،بالاضافة الى امور اخرى ،فان النظر فيها لم يكن لقاضي القضاة ،فقد كانت مستقلة وكان لها مبرزها . فكل زاوية او خانقاه او ربط كان لها شيخ يرجع اليه في امور جماعته أو اتباعه ،وكان هؤلاء الشيوخ تحت امرة شيخ الشيوخ (٣) الذى كان في وقت واحد مدبرا للجميع ،وحلقة اتصال بينهم وبين السلطان فقد كان هؤلاء لهم اهمية خاصة في نظر الدولة اذ انه كان باستطاعتهم ان يخلقوا متاعب في نيابة دمشق لو انهم اثاروا في الناس روح التذمر لكنهم لم يفعلوا وقد فضلوا ان يكونوا حلفاء السلطان ،وكانت الزوايا تقع تحت رقابة شديدة خشية ان ينضم لها شيعة او اسماعيلية وكان كثير ممن كانوا يترددون على الزوايا ويقيمون فيها شديدى الحرص على تعقب هؤلاء ،وقد ادت الزوايا خدمات جلّى للأدب والفكر في العهد المملوكي (٤) اما واجبات شيخ الشيوخ الاخرى فقد كانت الاشراف على الخوانق والفقراء والاعتناء بما تحتاجه هذه الخوانق (٥) ،كما انه يحث الشيوخ على اتباع سنة الله ورسوله في جميع اعمالهم (٦) وعليه ايضا ان يكون رحب الصدر اذ انه يستقبل الوفود التي ترده من السلطان ويقوم باكرامهم وتنفيذ مطالبهم ،كما ان عليه ان يستقبل كل مسافر او فقير ويساعده بما يحتاج اليه (٧).

---

١. رحلة ابن بطوطة ،ص ٧١.

٢. تاريخ سلاطين المماليك ،ص١٧٥ ،١٩١ ،٢٢٦ ،درة السلوك ،ج ٢ ،ص ٢٩٣.
تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ١١٩ ،السلوك ،ج ١ ،ص ٦٥ ،النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص٧٩-٩

٣. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٢٩ ،معيد النعم ،ص ١٢٦.

٤. دمشق في العهد المملوكي ،ص ١٦٢ -١٦٣.

٥. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٢٤ ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٩٣ - ٢٢٢.

٦. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٢٨.

٧. التعريف بالمصطلح الشريف ،ص ١٢٩ ،معيد النعم ،ص ١٢٦.

وجرت العادة ان يكون متولي وظيفة شيخ الشيوخ ، شيخ الخانقاة الشميصاتية بدمشق . وولايتها على النائب بتوقيع كريم (١) . ويقوم شيخ الشيوخ في نهاية كل شهر بتهنئة السلطان او النائب كما انه يقوم لهم بالتهنئة في الاعياد (٢) ، وتمتعت معظم الخانقاة والربط والزوايا باوقاف يصرف عليها من ايرادها فقد بنى الظاهر زوايا وخانقاة وربط في مناطق مختلفة في دمشق وخارجها وقد وقف عليها احكار يجيء منها في كل سنة فوق ثلاثين الف درهم ، وفي جميع الزوايا الفقراء (٣) وكان لكل زاوية ورباط وخانقاة اوقاف معينة من بساتين واراضي ، حتى ان دمشق تكاد تكون الاوقاف قد استغرقت جميع ما فيها ، وكل مسجد او مدرسة او خانقاة او زاوية او رباط يستحدث بناؤه كان السلطان يعيّن له اوقافا تقوم به وبسكانه والملتزمين له ، ومن النساء الخواتين ذوات الاقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط او مدرسة وتنفق فيها الاموال الواسعة وتعيّن لها من مالها من الاوقاف ومن الامراء من يفعل مثل ذلك (٤)

ولم يكن ليكلف المقيمون في الزوايا والربط والخانقاة سواء في ذلك اهل البلد أو الغرباء أو المقيمون دوما والضيوف انفسهم من اى مشقة فقد كان رزقهم يأتيهم رغدا ، فكانوا ثمة يصرفون وقتهم كله في العبادة والتعلم ، اذ ان الزوايا والخانقاة والربط كانت مراكز للتعليم ، شأنها في ذلك شأن المدارس الا انها كانت اكثر انطواء حتى في الدروس الدينية ، كذلك يذكر المقريزى انه حرصت معظم الحجج المعاصرة الخاصة باوقاف الزوايا على وضع الشروط الكفيلة بانقطاع الصوفية للعبادة وعدم تغيبهم عن الزوايا والربط والخانقاة اكثر من ثلاثة ايام في الشهر الواحد وكثيرا ما نصت شروط الوقف على تقديم

---

١ . زبدة كشف الممالك ، ص ٩٢ .

٢ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

٣ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٢ .

٤ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٣ — ٢٦٥ ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٧٥ — ١٩١ ، ٢٢٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٧٩ — ٨٤ ، درة الاسلاك ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٠٢ .

الافقر والاحوج للنزول بالخانقاة او الربط او الزاوية وبعد ذلك يأتي الفقراء المغتربين كذلك كان يفضل الاعزب على المتزوج للمبيت في الخلاوى ، حتى يكون منقطعا للعبادة متفرغا لها ، ولم يكن من مصلحة اهل الزاوية ان يزداد عددهم لان الوقف ثابت فتؤدى زيادة العدد الى انخفاض مستوى معيشة الاعضاء (١) وظهرت العصبية الطائفية بين صوفية الزوايا المختلفة بمعنى ان المريد الذى انتقل من شيخ الى آخر او من زاوية الى اخرى يتهم بانه اراد الدنيا ولم يرد الدين وذلك لاختلاف الزوايا في ليونة العيش باختلاف الاوقاف الموقوفة عليها واقدار اشياخها . فبعض الزوايا يهدى لاهلها الخبز القفار ، والبعض الاخر يحمل الى اهلها اللحوم والوان الفاكهة وعسل النحل (٢) .

يتضح من دراسة الخانقاة ان كل منها كونت وحدة قائمة بنفسها وبداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لاحد الصوفية والحق بالخانقاة حمام ومطبخ وقد الحق ببعض الخوانق خزائن للاشربة والادوية وعيّن لحمامها حلاق لتدليك الابدان وحلق الرؤوس، وبذلك تتوافر لاهل الخانقاة الضروريات التي تغنيهم عن العالم الخارجي (٣) .

وقد وصف ابن جبير (٦١٤هـ/١٢١٧م) الصوفية والرباطات وقال انهم يسمونها الخوانق" وهي قصور مزخرفة يطرد جميعها الماء على احسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد لانهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وقطنوا بها وفرغخواطرهم لعبادته من الفكرة في اسباب المعايش واسكنهم في قصور تذكرهم بقصور الجنات والسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والاخرة ، وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشرق جميله ، وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المثابر

---

١ . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .
٢ . التصوف ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .
٣ . الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٨٥ .

رقــة وشوقا وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشا طيبا هنيا (١)

وكانت زاوية ابن داود اكبر زوايا الصالحية ،وكان فيها خزان للماء ومسجد حسن البناء ومقاصد كثيرة للفقراء ومكتبه وموضع خاص بالنساء وكان فيها معلموها وخطباؤهـــا وكانت تعقد حلقات الذكر فيها ليالي الخميس من كل اسبوع (٢).

وللصوفية في معيشتهم داخل زواياهم آداب خاصة وقواعد مرعية ،فقسم بعض مشايخ الخوانق ومريدهم من الصوفية ثلاثة اقسام : كهول وشباب واطفال ،وجعلوا لكل فئة قسما خاصا بحيث لا يختلط اهله بغيرهم ولا يجتمعون الا يوما واحدا في الاسبوع يتناقشــوا فيما ،وقع بينهم طوال الاسبوع ،ذلك انه اخذ عليهم العهد الا يثأر احدهم لنفســه الا اذا اعتدى عليه زميله ،بل يعفو عنه ويشكو للشيخ فيفصل به ما يشاء وقد بلغ بهم الامر ان الصوفي اذا جاءه ابوه او اخوه من البلاد بعد غيبة طويلة فانه يراه ولكنه لا يستطيـــع ان يسلم عليه حتى يشاور النقيب . (٣)

ومن عاداتهم مع الغريب القادم اليهم انه يأتي بباب الزاوية ويقف مشدود الوسط ، وعلى كاهله سجادته وبيمناه العكازة وبيسراه الابريق فيخرج اليه خادم الزاوية ويسألــه من اى البلاد أتى وبأى الزوايا ينزل في طريقة ،ومن شيخه فاذا تأكد من صحة قولــه ادخله الزاوية وفرش سجادته في موقع يليق به (٤) وللتأكد من حسن خلق الغريب القادم للزاوية وتحمله للاذى وكظمه الغيظ ،يخرجون اليه بعض الشباب ليؤذونه بالشتم والسب ويحاولون خرق حرمته وكسر ابريقه فاذا يئسوا من غضبه سمحوا له بالدخول ،فاذا اغضب منهم لا يدخلونه الزاوية كذلك يأمرونه عند دخول الزاوية الا يسلم على احد ،ولا يسلم

---

١ . رحلــة ابن جبير ،ص ٢٧٢ -٢٧٣ .

٢ . دمشق في العهد المملوكي ،ص ١٢٨ .

٣ . لواقــح الانــوار ،ج ٢ ،ص ١٢٠ - ١٢١ .

٤ . رحلــة ابن بطوطـــة ،ص ٧٣ .

احد عليه خوفا من ان يكون على غير وضوء ،فاذا توضأ صلى ركعتين ثم يأتي اليه اهل الزاوية يسلمون عليه ،ويقوم اليهم ويعانقهم ثم يتكلمون بالكلام " الذى لا يخلو من الغالب من التنميق والتزكية" (١).

---

١. المدخل ،ج٣،ص ١٨٥ - ١٩٠ .

الفصـــل الخامـــس

القسم الثاني من المـؤسســات الأجتماعيـــة

٢ . المؤسسات الاجتماعيـة الاخـرى

١ . البيمارستانات
٢ . الحمامـات
٣ . السجـون
٤ . اماكن التسليـة والترويح عن النفس
٥ . الأسبلـة
٦ . الخانات والفنادق والقيساريـات

٢ . المؤسسات الاجتماعية الاخرى :

امتازت دمشق وغيرها من المدن ذات الاهمية التجارية في العهد المملوكي بكثرة المنشآت الاجتماعية المتنوعة الاغراض وكان من هذه المنشآت ما هو عام لجميع اهل المدينه مثل البيمارستانات والحمامات والاسبلة وغيرها .

ومن هذه المنشآت ما هو خاص بالمسافرين والتجار مثل الفنادق والخانات والقيساريات(١)

١ . البيمارستانات :

اعتنى سلاطين المماليك بامر المرضى فقد بنى في دمشق بين عامي (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) و (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) ستة بيمارستانات كان اثنان منها قائمين لما زارها ابن جبير عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) (٢) فالبيمارستانات النورى وسع في القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، وقد بناه السلطان نور الدين بن محمود زنكي عام (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) وفيه زخارف منوعة على الحجر والخشب وعلى النحاس وبابة يشكل قطعة فنية رائعة ، ونوافذة من الجص المحفور باشكال هندسية وفيه زخارف ملونة ، وكان واحدا من اعظم المستشفيات وقد وسعت قاعاته وبناياته عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م) أما نفقات بنائه فقد اخذت من فدية اداها احد الاسرى الافرنج (٣) وقد زار ابن جبير هذا المستشفى عام (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) فوجده اذا دخل يدر عليه يوميا خمسة عشر دينارا ووجد القيمين عليه يعنون بتسجيل اصابات المرضى المنقولة اليه والاموال التي تنفق فيه ولاحظ ان الاطباء يهتمون جديا بالمرضى فيعينون لهم الطعام المناسب

---

١ . عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٥ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٣ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١١٨-١١٩ ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٤-٤٥ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٥-١٩٦ .

٢ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٣-٢٨٨ .

٣ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

ويعطونهم الدواء من غير مقابل (١) وقد عولج في هذا المستشفى المؤرخ المعروف ابن الاثير وعندما احتج على مجانية المعالجة بأنه ميسور الحال وقادر على دفع ثمن الدواء قيل له ان احدا لم يرفض بعد نعمة نور الدين (٢).

وقد وصف ابن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م) مستشفى نور الدين عندما زار دمشق عام (٨٣١هـ/١٤٢٤م) فقال انه زار مستشفى دمشق وكان برفقته حاج فارسي ظريف ادهشه ما اتيح للمرضى من اسباب الراحة فتظاهر بالمرض وقبل حالا في عداد المرضى لكن رئيس الاطباء جس نبضه وبعد فحصة فحصا مدققا وجد انه سليم ومع ذلك فقد وصف له الدجاج المسمن والاشربة الزكية، والفواكه الشهية واقراص الحلوى وغير ذلك من الاطايب وعندما حل الوقت كتب له وصفة اخرى هي ان الضيف لا يقيم فوق ثلاث ايام (٣).

وقد انشأت بيمارستانات اخرى قرب باب البريد وفي الميدان الاوسط وفي الصالحية والنيرب (٤) وكان من المألوف ان يقوم الحكام ببناء البيمارستانات لكن اثنين من البيمارستانات مثل مؤسسي المدارس يتركون لها الاوقاف ما يكون ايراده كافيا لصيانتها وضمان سيرها فالبيمارستان القيمري في الصالحية كان ينتفع بريع قريتين واملاك اخرى يبلغ مجموعها قريتين ونصف القرية ومنطقة فيها مطاحن وخمسة وثلاثين حانوتا واسطبل وخانين وغير ذلك. (٥)

---

١ . رحلة ابن جبير، ص ٢٨٣ .

٢ . ابن الاثير، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي المكارم بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني، "الكامل في التاريخ"، بيروت، دار صادر، ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦م) ج ١١، ص ٢٦٧ . سيشار اليه "الكامل في التاريخ".

٣ . زبدة كشف الممالك، ص ٤٤-٤٥ .

٤ . البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٩٥ .

٥ . Urban Life , P. 159.

وكانت اكثر البيمارستانات مقسومة الى موضعين احدهما للرجال والاخر للنساء، وكان هناك مقاصير للجراحة واخرى للامراض الداخلية وسواها لامراض العين . وكان للمجانين مقاصير خاصة بهم ، وكان الاطباء يشرفون على المقاصير ويخبرون الناظر الذى كان يعيّن لمثل هذا المنصب بعد تدبر دقيق للامر ، وكان الناظر اذا ولي امر البيمارستانات ان تلقى الاوامر والنصح في كيفية معاملة المرضى . ولم يكن من الضرورى ان يكون الناظر نفسه من الاطباء فقد كان من المتعارف عليه ان العمل كان يتطلب مقدرة ادارية ومناقب خلقية اكثر من تطلبه حذق الطب (١) .

اما البيمارستان القيمرى فقد أنشأه امير مملوكي من اصل كردى هو سيف الدين القيمرى (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) (٢) في ايام الملك الناصر يوسف (٣) في الصالحية لصيق جامع محي الدين بن عربي من الغرب وكان يشرف على دمشق لانه كان على سفح الجبل ، وهو من اعظم آثار دمشق شأنا يشبه في تخطيطه بيمارستان نور الدين زنكي الا انه اوسع منه وبه باب مقرنص (٤) عليه كتابات جميلة باوقافة ، على جانبية عمودان

---

١ . دمشق في العهد المملوكي ، ص ١٢٢ -١٢٣ .

٢ . راجع ترجمته في : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٣-٤٤ . Urban Life, P.159.

٣ . الملك الناصر : هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين بن ايوب ولد عام (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) بقلعة حلب ، كان ملكا بحلب منذ عام (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) وفي عام (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) اضيف اليه دمشق ، وكان مقتله على يد هولاكو ملك التتار عام (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) ، راجع زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٤٠ ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٤٦١-٤٦٢ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢١١ -٢١٢ ، زامبور ، ادوارد فون ، " معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي " ، اخرجه محمد حسن بك وحسن احمد محمود ، القاهرة ، ١٩٥١-١٩٥٢ ، ص ١٥٢ .

٤ . مقرنص : جمعها مقرنصات ، حليه معمارية استخدمت على نطاق واسع في العهد المملوكي في اجزاء مختلفة من العمارة مثل اركان القباب والمنازل ، العصر المماليكي ، ص ٤٥٣ .

اجدهما محفوظ ايوانه الجنوبي واسع كسي عقدة بالجص المزخرف وفيه قلادتان فيهما زخارف نباتية ، وكان يتألف ايضا من قاعة كبيرة ترتكز على اعمدة تحيط بها من جهتين من جهاتها مقاصير خاصة بالارض وكان بجانب هذه غرفتان كبيرتان واحدة للرجال واخرى للنساء مخصصتان للمصابين بالهيضة والاسهال . وكان هناك مقصورة كبيرة تحفظ فيها الادوية على اختلاف انواعها . وكان للبيمارستان عيادة خارجية تفتح للعامة يومي الاثنين والخميس منه كل اسبوع وكان المرضى يعطون الادوية مجانا (١) .

وكان مطبخ البيمارستان يمد الاطعمة العادية والاطعمة الخاصة للمرضى وكان هناك قسم للمجانين وكان القائمون على البيمارستان فيهم طبيب وكحال وصيدلي وممرضون وممرضات وخدم على راس ناظر يشرف على المكان ويدير شؤونه (٢) .

والجدول التالي يبين الموظفون ورواتبهم :

الموظف (العدد)	الراتب الشهري بالدرهم الواحد	حصة القمح الشهرية بالمكيال الواحد
الاطباء ٣	٦٠ - ٨٠	من نصف الى واحد
ناظر	٤٠	نصف
كحال	٤٥	نصف
خدم ٣	١٣	سدس
مساعدات	١٠	سدس
صيدلي	٢٦	ثلث
ناظر الوقوف	٦٠	واحد (وواحد من الشعير
امام	٤٠	ثلث
بناء	١٣	سدس
عتالون	٨	سدس

١ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٤ ، المحبي ، محمد الامين ، "خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادى عشر " ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤ هـ ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، سيشار اليه "خلاصة الاثر" . Urban Life , P. 160.

٢ . Urban Life , P. 160.

وقد الف مدرسو البيمارستان النورى واطباؤه ستة وثلاثين كتابافي الطب وهو عدد ضخم ينتجه معهد واحد (١).

وقد ادت عناية السلاطين المماليك بالشؤون الصحية وأمر المرضى الى اهتمامهم بمهنة الطب بوجه عام فالحقوا بالبيمارستان مدرسة الطب فيها " رئيس الاطباء لالقاء درس طب ينتفع به الطلبة" (٢) . مثل البيمارستان النورى حيث كان الاطباء يعنون بالمرضى ويدرسون الطب في بناء مجاور للبيمارستان وقد حفظ لنا ابن ابي اصبيعة (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م) اسم استاذ الطب الاول في هذه المدرسة وهو ابو المجد ابن ابي الحكم (٣).

اما رئيس الاطباء او مقدمهم فجرت العادة في عهد المماليك ان يعين بتوقيع من السلطان ،ثم يصبح هذا المقدم هو المتصرف في اعطاء تصريحات مزاولة مهنة الطب للافراد او حرمانهم منها (٤) ،وقد نصت كتب الحسبة المعاصرة ان يقوم مقدم الاطباء بامتحانهم فمن وجده مقصرا في عطه امرة بالاشتغال وقراءة العلم ونهاه عن المزاولة (٥) وتدل كثير من الشواهد على مهارة الاطباء في ذلك العهد (٦) ،وقد أدت عناية سلاطين المماليك بالشؤون الصحية ايضا الى مراقبة الاطباء والتشديد عليهم ،حيث كان يؤخذ على الطبيب في اى منطقة من مناطق الدولة المملوكية عهد يسمى بعهد ابقراط (Aipocrates) (وهو ابو الطب) حيث يقوم المحتسب بتحليف الاطباء القسم ويتعهد الاطباء بموجبه بالا يعطوا دواء قسرا والا يركبوا سمّا ،ولا يذكروا للنساء الدواء الذى يسقط الاجنه ولا للرجل الدواء الذى يقطع النسل . وعليهم ايضا ان

---

١. Urban Life , P. 156-160.

٢. الخطط ،ج ٤ ،ص ٢٦٠ .

٣. عيون الانباء ،ج ٢ ،ص ١٥٥ ، ٢٣٥ .

٤. صبح الاعشى ،ج ١١ ،ص ٣٧٧ ، ٣٨٤ .

٥. معالم القربة ،ص ١١٦ -١١٧ .

٦. الدرر الكامنة ،ج ٣ ،ص ٧٩ ، انباء الغمر ،ج ١ ،ص ٣٧٧ .

ان يكتموا الاسرار ويغضوا ابصارهم عن المحارم عند دخولهم الى المرضى (١) .

ومن واجب الطبيب ايضا ان يرفق بالمريض ، وينصحه ويعلمه بحقيقة مرضه (٢) ، وينبغي على الطبيب ان يحتاط الى جميع ما يلزمه من الات طبية قد تساعده على معالجة مرضاه (٣) .

اما اسلوب العلاج المتبع في كافة انحاء الدولة المملوكية ومن ضمنها دمشق فكان يتم بان يبدأ الطبيب بسؤال المريض عن سبب مرضه ، وما يجده من الالام ، ثم يقوم بفحص المريض آخذا بعين الاعتبار عمر المريض وبلده (٤) والفصل (اى فصل من فصول السنة) ثم يقوم الطبيب بكتابة ورقة يوضح فيها ما يحتاجه المريض من علاج (٥) ، ويحاول الطبيب قدر استطاعته ان يكون العلاج من الغذاء ، ويوضح للمريض المقادير والكميات والكيفيات في استعمال الدواء واوقاته (٦) ، ثم يقوم الطبيب بتسليم نسخة من هذه الورقة لاولياء امور المريض موقعه من قبل عدد من الشهود الذين حضروا اثناء الفحص . وفي اليوم التالي يحضر الطبيب عند المريض مستفسرا عن صحته ويقوم باجراء التعديلات اللازمة للدواء حسب ما يقتضيه حال المريض ، ويكتب ورقة بهذه التعديلات ويسلمها الى اولياء امره ، ويستمر الطبيب في هذه العملية يوميا الى ان يبرأ المريض أو أن يموت فاذا برىء من مرضه اخذ الطبيب اجرته ، اما اذا مات فيقوم اولياء امر المريض بعرض النسخ الذى كتبها الطبيب عن مريضهم على حكيم البلد المشهور ، فاذا رآها مناسبة وحسب اصول الطب من غير تقصير من الطبيب اعلمهم بذلك ، اما اذا كان الامر على العكس طلب من

---

١ . نهاية الرتبة ، ص ٩٨-٩٩ ، معالم القربة ، ص ١٦٨ .
٢ . معيد النعم ، ص ١٣٣ .
٣ . نهاية الرتبة ، ص ٩٨-٩٩ ، معالم القربة ، ص ١٦٨ .
٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٣٨ ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٣ .
٥ . نهاية الرتبة ، ص ٩٧ ، معالم القربة ، ص ١٦٧ .
٦ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٣٨ ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٤ .

اولياء امر المريض اخذ دية مريضهم (١) .

وقد كان هذا النظام سائدا في العهد المملوكي حفظا للسلامة العامة لدى اهالي البلد ، وحتى لا يتهاون احد من الاطباء بالمسؤولية الملقاة على عاتقه (٢) .

اما الكحالون فهم الاشخاص الذين يقومون بمعالجة العيون (٣) . ومن واجب الكحال ان يعرف حقيقة مرض العيون ومداواته بطريقة سليمة وعليه ان يستشير الطبيب في معالجته لمرضاه (٤) .

ويقوم المجبرون بمعالجة العظام وتجبير ما كسر منها ، وعليهم ان يكونوا على علم بما يحتويه جسم الانسان من عظام من حيث شكل كل عظم ومكانه الطبيعي والامراض التي قد تصيبه ليستطيعوا ممارسة مهنتهم بكل ثقة وحرية ، كما يشترط فيهم ان يعرفوا مكان المفاصل والعروق والشرايين والاعصاب ليتمكنوا من تجنبها اثناء عمليات التشريح ويشترط فيهم ايضا ان يكونوا على علم بما يحتاجه عظام الانسان من ادوية ومراهم لاستعمالها وقت الحاجة (٥) .

٢ . الحمامات :

وهناك نوع آخر من المؤسسات الاجتماعية الهامة التي زخرت بها دمشق في العهد المملوكي هي الحمامات التي وجدت بكثرة في دمشق بسبب غزارة مياهها (٦) .

---

١ . نهاية الرتبة ، ص ٩٧ ، معالم القربة ، ص ١٦٧ .
٢ . نهاية الرتبة ، ص ٩٧ ، معالم القربة ، ص ١٦٧ .
٣ . نهاية الرتبة ، ص ٩٧ ، معالم القربة ، ص ١٦٨ .
٤ . التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .
٥ . نهاية الرتبة ، ص ١٠١ ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٤٠ ، معالم القربة ، ص ١٦٩ .
٦ . راجع ما كتب في الفصل الاول عن انهار دمشق .

واول من تكلم عن حمامات دمشق ، الحافظ بن عساكر ، (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م) فقد افرد لها فصلا في تاريخه الكبير عند كلامه عن القني ، ثم خصها ابن شداد (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) بفصل في اعلاقه الخطيرة (١) ، ثم جاء ابو علي الحسن بن نصر الاربلي (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) فعدد ما وجده منها في كتابه " مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها " (٢) ، ثم تلاه يوسف بن عبد الهادي (٩٠٩هـ/ ١٥٠٥م) فألف رسالة اسماها (عدة الملمات في تعداد الحمامات) نقل فيها ماذكره ابن شداد والاربلي (٣) .

والمدقق فيما اورده هؤلاء المؤلفون من حمامات يلاحظ كثرة حمامات دمشق من جهة وتناقص عددها على مر العصور من جهة اخرى فلقد ذكر ابن عساكر ان فيها - الى عام (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) - سبعة وخمسين حماما (٤) . سوى حمامات القرى ، وذكر ابن شداد (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) - خمسة وثمانين حماما ، وهو قريب من عدد حمامات القاهرة في العصر نفسه ، فقد ذكر ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م) ان عدد حمامات القاهرة الى آخر عام (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) يقرب من ثمانين حماما (٥) .

اما الاربلي (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) فقد وجد في دمشق اربعة وسبعين حماما (٦) . وقد كان اهل دمشق يفخرون بحماماتهم هذه منذ زمن الامويين فقد ذكر ان الخليفة الوليد بن عبد الملك لما بنى مسجد دمشق الكبير قال (رأيتكم يا اهل دمشق تفخرون على الناس باربع خصال : تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فاحببت ان يكون مسجدكم الخامسة) (٧) .

---

١ . الاعلاق الخطيرة ، ص ٢٢٩ ، ٣٠٠ - ٣٠٢ .

٢ . نشره محمد دهمان ، دمشق ، ١٩٤٧ .

٣ . لابن عبد الهادي كتاب اسمه " آداب الحمام واحكامه " ، مخطوط في دار الكتب الظاهرية ، راجع ابوابه في الملحق رقم (٥) من هذه الرسالة .

٤ . راجع اسماء الحمامات في دمشق من مخطوطة تاريخ دمشق لابن عساكر في الملحق رقم (٦) من هذه الرسالة .

٥ . الخطط ، ج٢ ، ص ٨٠ .

٦ . مدارس دمشق ، ص ١٩ .

٧ . المنجد ، صلاح الدين ، حمامات دمشق ، المشرق ، العدد ٤١ ، ص ٤٠٢ .

وقد قصد الناس من مختلف الطبقات ـ رجالا ونساء ـ في العهد المملوكي الحمامات للاستحمام ذلك ان الناس في ذلك الوقت لم يألفوا الاستحمام في منازلهم ولم توجد الحمامات الا في قصور الامراء ، ويروى ان ابن الحاج وت٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) ان "الواحد يشترى الدار ويبنيها بنحو الالف ولا يعمل بها موضعا للوضوء او الغسل" (١) . لذلك طالب بعض الكتاب المعاصرين المحتسب بان يأمر بفتح الحمامات العامة وقت السحر لحاجة الناس اليها للتطهير فيها قبل وقت الصلاة (٢) .

وقد تحدث المقريزى (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) عن الحمامات في ايامه فذكر أن بعضها خاص بالرجال وبعضها خاص بالنساء وبعضها يفتح للرجال قبل الظهر وللنساء بعد ذلك (٣) .

واعتبر ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) كثرة الحمامات في المدن من مظاهر التمدن والغنى ، وما يتتبعه ذلك من الرغبة في التنعم (٤) ولم يتعرض المؤلفات التاريخية لوصف الحمامات العامة وتصميمها في ذلك العهد . وكذلك لم يحتفظ لنا الزمن الا بالقليل من بقايا الحمامات في العهد المملوكي التي لا تفيد في التعرف على طبيعة هذه الحمامات والمخصص منها للنساء بوجه خاص ومع ذلك فمن الممكن ان نتعرف على طريقة تخطيط حمامات ذلك العهد من خلال دراستنا للوثائق والحجج المملوكية المعاصرة . اذ جاء في احدها (٥) فصل في وصف حمام يتلخص في انه بناء تتوسط واجهته بوابة ضيقة ذات معالم معمارية وزخرفية تدل على صفة المبنى واحيانا توجد

---

١ . المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

٢ . معالم القربة ، ص ١٥٦ .

٣ . الخطط ، ج ٣ ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

٤ . مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٢٢ .

٥ . المجتمع المصرى ، ص ٩٤ ، نقلا عن وثيقة اوقاف الغورى على عمائرة ، وقد نشر الوثيقة وعلق عليها وحققها وشرح ما فيه من مسائل تاريخية واثرية الدكتور عبد اللطيف ابراهيم على "دراسات تاريخية واثرية" وهي رسالة ماجستير لم تنشر .

بوابتان اذا كان الحمام مخصصا للسيدات والرجال في آن واحد ، اما المدخل فغالبا ما يكون منحنيا وفي ركن منه تقبع المشرفة على الحمام لتستقبل الزبائن وتتلقى منهم الودائع من نقود وحلي وغير ذلك مما يخشى عليه من الضياع اثناء الاستحمام وهذا المدخل يؤدي الى بهو فسيح عبارة عن صاله معدة للحصول على قسط من الراحة قبل وبعد الاستحمام ، وبوسط هذا البهو توجد ردهة فسيحة مبلّطة بالفسيفساء ويتوسطها فسقية رائعة ، وفي جوانبها ايونات بها مصاطب ترتفع قليلا عن الارض ومغطاة بحصير او سجاجيد صغيرة ، واحيانا تحجب بعض هذه المصاطب بواسطة حواجز من الخشب لتمنع عيون الفضوليين من رؤية من بداخلها ، كما توجد خنينات أو دخلات صغيرة لحفظ الاحذية ، ويعلو هذه الردهة (شخشيخة) لاضاءة هذا المكان اضاءة خفيفة اذ ان معظم المستحمات كن يتواجدن فيها وهن في أزر من البشاكير أو الفوط ويلي هذه الردهة اجزاء الحمام الرئيسية وهي بيت اول وهو عبارة عن قاعة صغيرة مربعة تقريبا ، اعدت لتنتزع فيها النساء ملابسهن ، وتمتاز غرفة بيت اول هذه بالدفء وسميت كذلك لانها اولى الغرف الدافئة ، وعندما تخلع المستحمة ثيابها كانت تضع على جسدها أزرار يصل الى الركبتين وبعدها تنتقل الى الغرفة الرئيسية من غرف الحمام المسماة ببيت حرارة وهو عبارة عن قاعة تعلوها قبة ومبلطة بالفسيفساء وتحتوى على اربعة أواوين بكل واحد منها حوض حجرا ، وبه ايضا خلوتان وطهر وبيت نوره (١) وبعدها تنتقل المستحمة ثانية الى غرفة بيت اول حيث تقضي هناك بعض الوقت تحت ايدي الماشطة التي كانت تنحصر مهمتها في تزيين الوجه والرأس بكافة الطرق والوسائل حتى تبدو المرأة عند مغادرتها للحمام في اجمل زينة واكمل هيئة (٢) .

---

١ . انظر ما كتب عنها في الفصل السابع عند حديثنا عن المرأة في هذه الرسالة .

٢ . المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، انظر "تخطيط حمام نور الدين بدمشق ، في الرسم رقم (٦) في ملحق هذه الرسالة .

اما المياه اللازمة للحمام فكانت تجلب بواسطة ساقية خشب مركبة فوق فوهة بئر فترفعها الساقية الى مستوقد الحمام حيث يسخن الماء مرجل كبير (١).

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن الحمامات العامة ان نشير الى اهتمام الحكومة المملوكية بامر هذه الحمامات وتنظيم الدخول فيها وتوفير سبل الامن لتحقيق القيام باغراضها خاصة وقد اتضح لنا اهمية الحمام في العهد المملوكي لم تقتصر على انها كانت مكان لنظافة البدن فحسب ،بل كانت مراكز تجميل للرجال والنساء على السواء، ومن ثم فقد أسندت مهمة الاشراف عليها الى المحتسب ،بل الذى كان يأمر (ضامن الحمام بنظافته وكنسه وغسله بالماء الطاهر غير ماء الفسالة ،يفعلون ذلك كل يوم مرتين ويدلكون البلاط بالاشياء الخشنة لئلا يتعلق به الاوساخ والصابون فينزلق عليها أرجل الناس) ،كما كان يأمره بغسل الخزانة من الاوساخ المجتمعة في مجاريها والعكر الراكد في اسفلها كل شهر مرة لانها تركت اكثر من ذلك تغير الماء فيها في الطعم والرائحة .

وتبخير الحمام بالفحم واللبان في كل يوم مرتين لا سيما اذا شرع في كنسها وغسلها .... ويأمر ضامن الحمام ايضا بان يجعل عنده ميازر يكريها أو يعيرها لمن يحتاج فان الغرباء والفقراء قد يحتاجون الى ذلك ، فان كشف العورة حرام ،وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناظر والمنظورة (٢) .على ان اهمية الحمام في العهد المملوكي لم تقتصر على انها مكان لنظافة البدن فحسب بل كانت مركزا اجتماعيا كذلك ، فالمريض اذا دخل الحمام اعتبر ذلك اعلانا لشفائه (٣) ،واما العريس أو العروس يجب على كل منهما ان يدخل الحمام قبل حفل الزفاف. فيعتبر هذا الحدث عيدا من

---

١ . المجتمع المصرى ،ص ٩٥ ،نقلا عن وثيقة الغورى (٨٣٣ أوقاف) .
٢ . نهاية الرتبة ،ص ٦٩ - ٧٠ .
٣ . منتخبات من حوادث الدهور ،ج ٢ ،ص ٢٢٦ ، الدرر الكامنة ،ج ١ ،ص ٤٠٣ .

الاعياد العائلية . وفي الحمام اعتادت ان تجتمع النساء والصديقات فيتناقلن اخبار الناس ويقصصن على بعض كثير من اخبارهن وحياتهن المنزلية (١) . والى الحمام تتجه المرأة التي لا يراها الناس الا محجبة . فتكشف عن عورتها للبلانة (والنساء في هذا المقام اشد تهالكا من الرجال) (٢) . وتكون المرأة في هذه الحالة قد استطحبت معها أفخر ثيابها وانفس حليها لتلبسها بعد الاستحمام ، حتى يراها غيرها (فتقع المفاخرة والمباهاة) (٣) . لذلك لا عجب اذا كثر ادباء العهد المملوكي وشعراؤه من وصف الحبيب في الحمام (٤) . ويبدو ان هذا كان سببا في دفع بعض فقهاء ذلك العهد الى النفور من الحمام ، فالسيوطي يبيحه للرجال بشروط ، ويقول انه مكروه للنساء الا في حالات خاصة ، وابن الحاج ينصح معاصريه من العلماء بعدم السماح لنسائهم بدخول الحمام (لما اشتمل عليه هذا الزمان من المفاسد والعوائد الرديئة) (٥) وتؤدي بنا العبارة الاخيرة لابن الحاج الى الاشارة الى ان الناس قصدوا الحمام في العهد المملوكي للحلاقة وازالة الشعر عن الجسد فضلا عن الاستحمام ، وكان على المزيّن صاحب النوبة في الحمام ان يستعمل الامواس الجيدة المصنوعة من الفولاذ ، وان يكون المزين خفيفا رشيقا بصيرا بالحلاقة ، وتكون الامواس قاطعة ، ولا يأكل ما يغير نكهته بالبصل او الثوم في يوم نوبته لئلا يتضرر الناس برائحة فمه عند الحلاقة (٦) .

---

١ . سيرة الظاهر بيبرس ، ج ١ ، ص ٦٦ .

٢ . معالم القربة ، ص ١٥٧ .

٣ . المدخل ، ج ٣ ، ص ١٧٣ .

٤ . درة الاسلاك ، ج ١ ، ص ٢٣ .

٥ . المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، ج ٣ ، ص ٢٣٥ .

٦ . معالم القربة ، ص ١٥٦ .

٣ . السجـون :-

وقد عني سلاطين المماليك بالسجون ، فاهتم السلطان محمد بتجديدها عـام (٧٢٩هـ/١٣٢٩م) [(١)] ، وجعلت هذه السجون على انواع : منها ما هو خـاص بسجن الامراء والمماليك والجنود . ومنها ما هو خاص باسباب الجرائم من اللصـوص وقطاع الطرق، وغيرهم [(٢)] ، ومنها ما هو خاص بالنساء المذنبات [(٣)] .

ويفهم من المصادر المعاصرة ان هذه السجون بلغت درجة مخيفة من الانحطاط والقذارة وسوء معاملة المسجونين فيها ، حتى ان عقوبة الاعدام في كثير من الحـالات أهون من عقوبـة السجـن [(٤)] .

وكان الشخص احيانا قبل وضعه في السجن يطاف به في شوارع دمشق كما حصل عام (٧١٢هـ/١٣١٢م) عندما قام جماعة من الصالحين على ابن زهرة المغربـي الـذى كان يتكلم بالكلاسـة وكتبـوا عليـه محضرا يتضمن استهانته بالمصحف ، وانه يتـكلم في اهل العلم بغير معرفـة ، فأحضر الى دار العدل ، فاستسلم وحقن دمه وعزر تعزيرا شديدا بليغا . وطيف به في البلـد باطنه وظاهرة ، وهو مكشوف الرأس ووجهة مقلوب وظهـرة مضروب ، ينادى عليه هذا جزاء من يتكلـم في العلم بغير معرفة ، ثم حبـس [(٥)] ، ومن المكوس [(٦)] التي قررت في عهد المماليك ان كل من يسجن ولو لحظـة واحدة يجب عليه

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢١ ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٨٠ .

٢ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٨٦-٦٨٧ .

٣ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٩١ .

٤ . التبر المسبوك ، ص ١٤٦ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٦١ .

٥ . البداية والنهايـة ، ج ١٤ ، ص ٦٦ .

٦ . المكوس : هي كل ما تحصل من الاموال لديوان السلطان او لاصحاب الاقطاعـات أو لموظفي الدولة خارجا عن الخراج الشرعي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٣-١١١ ، ج ٢ ، ص ١٢١-١٢٤ ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨-٤٧١ .

أن يدفع رسما معينا قدره ابو المحاسن بمائة درهم (١) . وقدّره المقريزى بستة دراهم سوى كلف اخرى (٢) .

وظل هذا المكس جاريا حتى ابطله الناصر محمد عام (٧١٥هـ/١٣١٥م) ويبدو ان المسجونين في عهد المماليك قاسوا الكثير من الشدائد والاهوال ،ليس فقط بسبب سوء احوال السجون ،كما يتضح من الوصف السابق للمقريزى ،بل بسبب نسيان السلطان الحاكم اياهم حتى كانوا يقضون احيانا ثلاثة ايام كاملة دون ان يذوقوا شيئا مما دفعهم في احدى المرات الى قتل سجّانهم وخروجهم من السجن عن آخرهم (٣) .

اما المحكوم عليهم بالسجن المؤبد (٤) ،فكثيرا ما كانت الشفقة تأخذ السلاطين ما يطلقون سراحهم بعد مدة من الزمن " ظنا منهم ان في ذلك قربة الى الله المستعان"(٥) فاذا حكم على سجين بالاعدام ، سلم للمشاعلي لتنفيذ الحكم بواسطة السيف .

والواقع ان عملية تنفيذ الاعدام انطوت على كثير من العنف والقسوة في ذلك العهد فكثيرا ما اخطأ المشاعلي عنق المحكوم عليه في اول ضربة ،فيضربه بالسيف ثانية وثالثة حتى يصيب عنقه ،فاذا لم ينفصل الرأس عن الجسد ،لجأ المشاعلي الى حزّ الرقبة عدة مرات حتى ينجز مهمته (٦) ،ثم يطوف المشاعلي بعد ذلك بالرأس المقطوعة عدة

---

١ . النجوم الزاهرة ،ج٩ ،ص ٤٦ .
٢ . السلوك ،ج٢ ،ص ١٥٠ ،الخطط ،ج١ ،ص ٨٩ .
٣ . التبر المسبوك ،ص ١٤٦ ،السلوك ،ج٤ ،ص ٧٦١ .
٤ . السلوك ،ج٤ ،ص ٦٦٧ ،تاريخ ابن الفرات ،ج٨ ،ص ١٤٣-١٤٤ .
٥ . ابناء الغمر ،ج٢ ،ص ٣٧٨ ،السلوك ،ج٤ ،ص ٦٦٧ - ٧٦١ .
٦ . ابناء الغمر ،ج٢ ،ص ١٣٩ ،تاريخ ابن الفرات ،ج٨ ،ص ١٤٣-١٤٤ ، المختصر في اخبار البشر ،ج٧ ،ص ١٦٤ .

مرات في انحاء المدينة حتى يراها كافة الناس للعظة والاعتبار ، وبعد ذلك يعلق الرأس على باب الفراديس (١) ، واحيانا كان الشخص يحرق بعد تنفيذ الحكم فيه بالاعدام حيث كان يتم حرقه في سوق الخيل . (٢)

كذلك استخدم المماليك السم للتخلص من المنافسين يدسونه في الطعام والشراب على أيدى الجوارى والغلمان الذين يشترون الطعام بالمال (٣) .

وهناك طرق اخرى كثيرة للعقاب عدا السجن والاعدام ـ تفنن الحكام في التنفيذ ، من ذلك التشهير والتجريس ـ وهي ان يطاف بالشخص على حمار أو ثور ويضرب الجرس على رأسه والمشاعلية تنادى عليه ليجتمع الناس حوله واحيانا تزفه المغاني " ويوضع في عنقه ماشه وهون " وفي نهاية المطاف يضرب وسط الناس بالسياط عقابا له على ذنبه (٤)

ومن انواع العقوبات في العهد المملوكي العصر بالمعصرة ، وهي عبارة عن آلة تتكون من خشبتين مربوطتين بحبل ، يوضع بينهما وجه المعاقب او رأسه او رجلاه ، أو عقباه ثم تشد الخشبتان شدا وثيقا مما يؤدى في كثير من الاحيان الى كسر العظام (٥) المعصورة بين الخشبتين ، وقد استخدمت هذه الوسيلة غالبا لاجبار المذنب على الاعتراف بذنبه (٦) .

ومن انواع العقوبات التي استعملها المماليك في دمشق التسمير (٧) ، وهي عبارة

---

١ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٩١ ، بدائع الزهور ، ص ٣١٢ .
٢ . الذيل على الروضتين ، ص ٣٤٦ .
٣ . تاريخ ابن الوردى ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .
٤ . ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ، التبر المسبوك ، ص ٣٥٠ .
٥ . السلوك ، ج ١ ، ص ٧٤٠ ، حاشية رقم (٣)
٦ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٥ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٥٠ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢٠٥ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٥٥ .
٧ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ، النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٦٤ .

عن دق بعض اعضاء المذنب في لوح من خشب بواسطة مسا ميرغلاظ واحيانا يدفع وهو بهذه الصورة على جمل ليشهر بدمشق ، فاذا حصلت له الشفاعة نزعوا المسامير من جسده (١) ، اما اذا لم تحدث له الشفاعة فينتهي أمره غالبا بان يوسط ومعنى التوسيط ضربه بواسطة سيف بقوة قرب وسطه - اسفل السرة - فينقسم جسمه الى نصفين (٢) ، ويذكر ابن الفرات ان الشخص يمكن ان يبقى مسمرا يومين ثم يوسط (٣) .

وقد ترك لنا الرحالة فرسكوبالدى وصفا لما رآه من تسمير وتوسيط رجل في دمشق بسبب قتله رجل آخر بقوله : رأيت على سنامة احدى الجمال حيث رجل مقتول وعلى سنامة الجمل الاخر يوجد جسم رجل آخر مربوط بنفس الطريقة . وهذا الاخير كان قاتلا للاول حيث يقاد الان الى رجال الامن الذين يقومون بتطبيق الحكم ، وكان الحكم يطبق في ساحة كبيرة تقع جانب قصر السلطان في دمشق ، حيث احضروا هذا الرجل عارى على ظهر جمل ومربوط بسجاد معين مصنوع كالصليب وعليه كان الشخص معلقا على يديه بشكل عالي ويظهر لنا بانه معلق في الهواء . ثم جاء بعد ذلك الجلاد ومعه سيف مسلول ضخم حيث ضربه ضربة حامية على السرة حيث قطعت الى نصفين ، وبذلك فان اليدين والجزء العلوى مكثت معلقة على الجمل والفخذين وباقي الجسم بقيت ملتصقة بالجمل وبعد ذلك قاموا بلم الاحشاء التي سقطت على الارض (٤) .

واستخدم الضرب كذلك في عقاب المذنبين (٥) ويكون الضرب على أى جزء من اجزاء الجسم سواء الرأس او الجسد او القدمين ، ويستعمل فيها المقرعة او السوط أو العصا

---

١ . تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٩ ، درة الاسلاك ، ج ٢ ، ص ٥ .

٢ . السلوك ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ، حاشية رقم (١) .

٣ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢٠٥ .

٤ . Visit to the Holy Places, P. 85.

٥ . التبر المسبوك ، ص ٣٠٥ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٦٤ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٢ .

أو الدرة أو الضفيرة (١) .

وقد حددت ادوات العقوبة ووصفت وصفا دقيقا على ما نقله ابن الاخوة من ذلك السوط ، والدرة ، اما السوط فيجب ان يتخذ وسطا لا بالغليظ ولا الشديد ولا بالدقيق اللين ، بل يكون بين وسطين حتى لا تؤلم الجسد ، وأما الدرة فتكون من جلد البقر او الجمل مخروزة ، وتكون هذه الاله معلقة على دكة المحتسب ليشاهدها الناس ، " فترعد منها قلوب المفسدين وينزجر منها اهل التدليس " ، ويجب ان يضرب الرجل في الحد والتعزيز قائما ولا يمد ولا يربط لان لكل عضوا قسطا من الضرب ويتوقى الوجه بالرأس والخاصرة وسائر المواضع المخوفة ، ولا يجرد الرجل عند الضرب بل يكون عليه قميص ، فان كان عليه جبة مخشوة او فروة جرّد منها لانها تقيه الضرب ولا يتولى الضرب غير الرجال لانهم ابصر به ولا يبلغ بالضرب ما يجرح وينهر الدم ، اما المرأة فيجب أن تضرب جالسه في ازارها لانها عورة ، فاذا كانت قائمة ربما تكشفت ، وتشد عليها ثيابها لتتستر بها (٢) .

ويظهر ان بعض سلاطين المماليك شعر بما في هذه العقوبة من وحشية فأمر الناصر محمد عام (٧٠٩هـ/١٣٠٩م - ٧٤١هـ/١٣٤٠م) بابطال الضرب بالمقارع في سائر مملكته ، وكتب بذلك مراسيم كثيرة قرئت على المنابر في مصر والشام ولكن لم يعمل بها (٣) . على ان الضرب مهما بلغت قسوته فانه بلا شك أخف كثيرا من انواع التعذيب الوحشية التي استخدمت في عهد المماليك . ومن هذه الانواع قلع أضراس المذنب

---

١ . التبر المسبوك ، ص ٣٠٥ ، سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٨ ، ص ١٩ .

٢ . معالم القربة ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

٣ . ابو المحاسن ، " مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة " ، نشره كاربيل ، كامبردج ، ١٧٩٢ ، ص ٩٤ ، سيشار اليه " مورد اللطافة " .

واسنانه ثم د قها في رأسه (١) ، وغرس خازوق بالا رض لرفع المذ نب على قمته (٢) ، ثم تسخين طاسة من المعد ن والباسها للمذ نب في رأسه أو تسخين طشت واجلاسه عليه (٣) . ومنها كذ لك قطع بعض اجزاء من جسد المذ نب كالا نف او الا ذ ن او اللسان أو تكحيل العين بالنار (٤) ومنها كذ لك نعل الشخص في قد ميه كما تنعل الخيل ، أو تعليقه من يد يه وربط أثقال في قد مية حتى " تنخلع اعضاءه " (٥) .

٤ . اماكن التسلية والترويح عن النفس :-

كان السلطان وابنائه في د مشق في عهد المماليك يقضو ن فراغهم في ميد ان تحت القلعة بازاء باب الفرج وبها جامع السلطان تجمع فيه ، وعلى مقربة منها ، خارج البلد جهة الغرب، ميد انان كأنهما مبسوطان خزا لشدة خضرتهما يتصل بهما غيظه من الحور وهما من ابدع المناظر ، وكان السلطان يخرج اليهما ويلعب بالصولجة فيهما ، ويسابق الخيل فيهما ، ويخرج اليهما ابناء السلطان في كل ليلة للرماية ، والمسابقة واللعب بالصولجة ، واشتهر سلاطين المماليك وامراؤهم بولعهم الشد يد بالعاب الفروسية والصيد والرياضة على اختلاف انواعها " لما في ذ لك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد وحصول المسرة بكل ظفر جد يد " . (٦)

---

١ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٢٣ .
٢ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢١٥ .
٣ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٠٤ .
٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٤ ، ٧٩٧ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٦ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧١ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٥٤ .
٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٢٣ .
٦ . صبح الاعشى ، ج ١٤ ، ص ١٦٦ .

كذلك اهتم السلاطين بالطيور - طيور الصيد - وكلا بها على اختلاف انواعها فأنشأوا لها المطاعم وعينوا لها البازدارية (١) يشرفون عليها تحت رقابتهم واعتاد السلطان أينال العلائي الناصري (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) ان ينزل بين حين وآخر الى مطاعم الطير فتطلق البازدارية طيورا ثم يطلقون وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها حتى يتسلى السلطان برؤية هذا المنظر (٢).

كان سلاطين المماليك يسخّرون الخيول الفارهة لمواكبهم ،ولا يكتفون بما يركبون منها ،بل كانت الجنائب (٣) تقاد بين ايديهم مسروجة غير مركوبه (٤) ،ويبالغون في شراء الخيل ،ويتحرون الكريم منها ،حتى انهم كانوا يشترون الفرس على قول السبكي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) - بمائة الف درهم والمطوك بخمسين الف (٥) وكان بكتمر الساقي يمتلك ستمائة رأس من الخيل وكان في اسطبله مائة سطل لمائة سايس،كل سايس على ستة رؤوس خيل (٦) اما السلطان الناصر (٧) محمد فقد عني باقتناء الخيول وعمل ديوانا ينزل فيه كل فرس فيقيد اسمه واسم صاحبه وينسب الفرس والتاريخ الذى احضر فيه فاذا حملت الفرس من خيول السلطان احيط علما بذلك وأخذ يترقب الوقت الذى تلد فيه (٨).

---

١. البازدارية : مفردها بازدار وهو الذى يحمل الجوارح والطيور المعدة للصيد على يده ،صبح الاعشى ،ج ٤،ص ٤٦٩.

٢. حوادث الدهور ،ج ٣ ،ص ٤١٦-٤٨٤ ،النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ٢٩.

٣. الجنائب : هي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة اليها ، السلوك ،ج ١ ،ص ٤٣١ ،حاشية رقم (٣).

٤. معيد النعم ،ص ٥٢ - ٥٣.

٥. معيد النعم ،ص ٧٣ .

٦. الناصر محمد ،فترة سلطنته ١. (٦٩٣هـ/١٢٩٣م) ٢. (٦٩٨هـ/١٢٩٨م-٧٠٨هـ/١٣٠٨م) ٣. (٧٠٩هـ/١٣٠٩م-٧٤١هـ/١٣٤٠م).

٧. ابناء الغمر ،ج ١ ،ص ٤٣٥.

٨. الخطط ،ج ٣ ،ص ٣٢٣-٣٦٥.

ويقال ان الناصر كان يصرف المبالغ الطائلة دفعة واحدة في اثمان الخيول ، حتى مات على اربعة آلاف وثمانمائة فرس (١) .

واستخدمت الخيول في البريد وجلب ما يلزم سلاطين المماليك من ضروب المتع والملاذ كالجوارى والغلمان ، ويقول السبكي " وكانت أئمة العدل لا ترد البريد الا لمهمة من المهمات للمسلمين لمثلة تساق الخيول وتزعج النفوس، والا ن اكثر ما تهلك خيول البريد وتساق للاغراض الدنيوية من شراء المماليك وجلب الجوارى والا متعة ، واذا ركب فقيه فرس بريد انكر عليه ذلك ، وقيل اخطأ السلطان او نائبه في اركانه ، فان البريد لا يساق الا لمهمات السلطانة ، وكأنهم يعنون بمهمات السلطنة ، ما اعتادوا به من شراء مملوك مليح او استدعاء مغن حسن الصوت أو خراب بيت شخص " (٢) .

اما الالعاب الرياضية التي شغف بها السلاطين فأولها سرحات الصيد وموعدها عادة ايام الربيع عند ما يسرح السلطان عدة مرات الى مواضع مخصوصة وجميع الاعيان في خدمته بالكامل (٣) ، واعتاد سلاطين المماليك عند خروجهم للصيد ان ينعموا على اكابر امراء الدولة بالاموال والخيول والحوائص الذهب والسيوف والقماش وغير ذلك (٤) .

وان يصاحبوا معهم عدا الامراء والمماليك كل من تدعو الحاجة اليه من اطباء وكحالين واشربة وعقاقير فضلا عن عدد كبير من الخيام (٥) .

١ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ .

٢ . معيد النعم ، ص ٤٧ .

٣ . زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٧ .

٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ ، ج ٨ ، ص ١٤٢ .

٥ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٢٥ .

اما طريقة الصيد فهي ان تطلق الطير في الهواء ثم يرمى لها الحب لتهبط اليه ويضرب الامراء حلقة حولها وهي لاهية في التقاط الحبات فيذعرونها بضرب الطبول والسلطان والامراء مترقبون لصيدها (١) ، وبعد ان يأخذ السلطان حظه من الصيد الطير يتحول الى اقتناص الوحوش ، فتمد الخيول وتضرب العساكر حلقة كبيرة واسعة تطلق داخلها النعامات والضباء وبقر الوحش وغير ذلك فيطاردها السلطان ومعه الجوارح الصائدة وعندئذ تموج الوحوش ويستولي عليها الذعر وبعد ان يصيد منها السلطان ما يكفيه يترك لامرائه حرية الصيد (٢) وقد تواتر في بعض المراجع ان السلطان قطز (٦٥٨هـ/١٢٥٩م-٦٥٩هـ/١٢٦٠م) شغف بصيد الارانب خاصة (٣) .

اما لعبة الكرة وهي اللعبة المعروفة باسم بولو ، فكان لها شأن كبير عند المماليك ، اذ شغف بها سلاطينهم وحكامهم وانشأوا لها الميادين كما وضعوا لها نظاما خاصا وحددوا أوقات وحفلات تلعب فيها ، هذا الى ان سلاطين المماليك اعدوا لهذه اللعبة ما يلزمها من خيول وادوات وخصصوا موظفين من المماليك يشرفون عليها ، يسمى الواحد منها جوكندار اى الذى يحمل الجوكان وهي عصا مدهونة طولها نحو اربعة اذرع ، ورأسها خشبة مخروطة محدودبة تزيد عن نصف ذراع (٤) وكان السلطان يخرج للعب الكرة "على الهيئة المذكورة في الصيد عدا الجند خانهفانه لا يحمل رأسة وتحمل الحاشية امامة في اول الطريق وآخره ويصير الى الميدان " (٥) .

وقد شاهد الرحالة تافور سلطان المماليك وامراؤه يلعبون هذه اللعبة فقال : ان الميدان الفسيح الذى لعبوا فيه كان مقسما ومخططا بخطوط بيضاء وعلى جانبي الميدان

---

١ . صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ١٦٧ .

٢ . صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ١٦٩ - ١٧١ .

٣ . زبدة الفكرة ، الورقة ٢٣٠ أ .

٤ . صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٨ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤٤ ، حاشية رقم (١) .

Social Life in Egypt , P. 31.

٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٧ .

عدد كبير من الفرسان في يد كل منهم عصا طويلة ،وفي وسط الميدان كره ،ويكون اللعب بان يحاول كل جانب اجتذاب الكرة الى جانبه والذى ينجح في ذلك تكون له الغلبة (١) ،وجرت العادة ان يقوم المهزوم في اللعب بعمل مهم حافل أو وليمة كبيرة ،وربما وصلت تكاليف هذه الوليمة الى مائتي الف درهم نظرا لما يذبح فيها من مئات المواشي والخيول والطيور ،عدا الحلوى والمشروبات (٢) ،وفي بعض الاحيان تحمّل السلطان نفقات هذا المهم ،رغم ان السلطان هو الغالب ، وذلك تخفيفا عن الامير المغلوب (٣) .

ومن الالعاب الرياضية التي شغف بها سلاطين المماليك رمي القبق وتفصيل هذه اللعبة هو ان تنصب خشبة عالية في ميدان اللعب ويعمل باعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيّها وترمي بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها الى هدف معين ، وذلك تمرينا لهم عن احكام الرمي (٤) . واحيانا يكون بدل هذه الدائرة شكل قرعة عسلية ـ واسمها بالتركي القبق من ذهب او فضة ويكون في القرعة طير حمام ثم يأتي اللاعبين للمباراة في رمي الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل ،فمن أصاب منهم القرعة او اطار الحمام حاز السبق واخذ القرعة المعدنية نفسها (٥) . عدا ذلك ينعم السلطان على من يصيب القبق بفرس اذا كان من الامراء وبخلعة اذا كان من المماليك (٦) .

ويبدو أن السلاطين اعتادوا لعبة القبق ،ويأمرون بلعبه عدا أيام اللعب العادية

---

١. Tafur, (Pero) ," Travels and Adventurs",London ,1926, P. 80.

٢. النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٢٨-٢٩ ،السلوك ،ج ٢ ،ص ٧٨٥ .

٣. انباء الغمر ،ج ١ ،ص ٤٣٦ .

٤. الخطط ،ج ٣ ،ص ١٨٠ .

٥. السلوك ،ج ١ ،ص ٥١٨ ،حاشية رقم (٦) ،النجوم الزاهرة ،ج ٨ ،ص ١٦ .

٦. السلوك ،ج ١ ،ص ٦٢٦ .

في مناسبات الفرح والسرور ،كما حدث عام (٦٩٢هـ/١٢٩٢م) عندما امر السلطان الاشرف خليل (٦٨٩هـ/١٢٩٠م - ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) بلعب القبق وذلك بسبب طهور أخو الملك الاشرف وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون - وطهور ابن اخيه الامير مظفر الدين موسى بن عبد الملك الصالح علاء الدين علي بن قلاوون ،فأحتفل السلطان لطهورهما (١).

وكثيرا ما كان ينتهي امر لعبة القبق الى الطعان بالرماح أو بالدبابيس أو السيوف فينقسم اللاعبون الى فريقين عقب لعبة القبق ويأخذون في المبارزة والطعان فلا يرى الناس الا سيوفا تبرق (٢).

ومن الالعاب التي شغف بها المماليك ايضا الرمي بالبندق والبندق كرات تصنع من الطين والحجارة (٣) أو الرصاص يستخدمها الرماة في تطيير الحمام وكان البندق يرمى بالاقواس ثم صار يرمى بالمزاريق والانابيب عن طريق ضغط الهواء من مؤخرة الانبوب (٤). ويطلق على الشخص الذى يحمل جراوة البندق خلف السلطان ، أو الامير اسم البندقدار (٥) ،ومن السلاطين الذين شغفوا بهذه اللعبة السلطان الاشرف خليل قلاوون (٦) (٦٨٩هـ/١٢٩٠م - ٦٩٣هـ/١٢٩٣م) ويذكر ابن كثير في

---

١ . النجوم الزاهرة ،ج ٨ ،ص ١٦ .

٢ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٩ ،ص ٦ ،السلوك ،ج ١ ،ص ٦٢٦ .

٣ . السلوك ،ج ١ ،ص ١٧٢ .

٤ . تاريخ التمدن الاسلامي ،ج ٥ ،ص ١٥٣ .

٥ . البندقدار : يتركب هذا الاسم من كلمتين احداهما بندق ومفردها بندقية ، والثانية دار ،ومعناها ممسك ،فيكون البندقدار هو حامل البندقية : صبح الاعشى ،ج ٥ ،ص ٤٥٨ ،ج ١٢ ،ص ٢٦٩ ،الروض الزاهر ،ص ٩٤ .

٦ . تاريخ سلاطين المماليك ،ص ٢٧ .

حوادث عام (٧٣٣هـ/١٣٣٩) ان السلطان الناصر محمد (٧٠٩هـ/١٣٠٩م - ٧٤١هـ/١٣٤٠م) رسم بالمنع من رمي البندق والا تباع قسيها ولا تعمل، وذلك لافساد الرماة اولاد الامراء المماليك ونودي بذلك في البلاد المصرية والشامية (١).

ومن الاوضاع التي كان معمولا بها في دوائر الصيد في العهد المملوكي هو أن المبتدىء لا يصير في زمرة هواة هذا الفن الا بعد ان ينتسب او يدعي لاحد رماة الصيد القدماء سواء كان سلطانا او اميرا او غير ذلك (٢).

وقال القزويني :(٣) وأهل دمشق احسن الناس خلقا وخلقا وزيا واميلهم الى اللهو واللعب، ولهم في كل يوم سبت الاشتغال باللهو واللعب وفي هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك مجبر ولا للوالد على الولد ولا للزوج على الزوجة ولا للاستاذ على التلميذ . فان كان اول النهار يطلب كل من هؤلاء نفقة يومه فيجتمع المملوك باخوانه من المماليك والصبي باترابه من الصبيان والزوجة باخواتها من النساء والرجل باصدقائه، فاما اهل التميز فيمشون الى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة واما سائر الناس فالى الميدان الاخضر وهو محوط وفرشه اخضر صيفا وشتاء من نبت فيه وفيه الماء الجاري والمتعيشون يوم السبت ينقلون اليه دكاكينهم وفيها حلق المشعبذين والمسافرة والمغنيين والمصارعين والقرصاليين والناس مشغولين باللعب واللهو ،الى آخر النهار ثم يفيضون منها الى الجامع ويصلون به المغرب ويعودون الى اماكنهم (٤).
وقال ابن بطوطة: "ان اهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا وانما يخرجون الى

---

١. البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٦١.
٢. السلوك، ج ١، ص ٥٢٣.
٣. القزويني : هو زكريا بن محمد توفي عام (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) جغرافي كبير، ولد بقزوين، ورحل في شبابه الى العراق، وزار دمشق، وتولى قضاء الحلة وواسط ايام المعتصم العباسي، انظر : تاريخ الادب الجغرافي، ج ١، ص ٣٦١.
٤. آثار البلاد، ص ١٠١.

المتنزهات وشطوط الانهار ، ودوحات الاشجار بين البساتين النظرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل (١).

وقد تعددت وسائل التسلية والترويح عن النفس في دمشق في العهد المملوكي ومن هذه الوسائل كما رأينا خروج الناس الى الحدائق والمتنزهات ، وعندما زار بنجامين دمشق قال ان حدائقها وبساتينها تبلغ من الجمال حدا قلما يوجد مثله في الدنيا (٢).

وعندما زار البوغبونصي دمشق ذكر انه وجد فيها من الجنائنين (الذين يعنون بالحدائق) يبلغون عشرون الفا لا هم لهم سوى الاعتناء بالحدائق (٣).

ولم يحتار أهل دمشق ايام المماليك أين يقضون ايام المتعة والصفاء سواء في ذلك الربيع والصيف والخريف وعندهم الغوطة والجبهة ووادى البنفسج وبين النهرين وقطية واليكي والنيربين (٤).

وقد تحدث الظاهرى (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م) عن متنزهات دمشق بقوله" ان الواصف يعجز عن حصرها ومن جملتها " الجبهة والربوة والعاشق والمعشوق وبيت النهرين وتحت الطارمة والتخوت والمقاسم والوادى الفوقاني والتحتاني والصالحية والسبعية العناية" (٥).

ويقول القلقشندى (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) ، انه لكل من دمشق والصالحية البساتين الجميلة الانيقة بتسلسل جداولها وتغني دوحاتها وبتمايل اغصانها وتغرد اطيارها

---

١ . رحلة ابن بطوطة ، ص٥٢ .

٢ . The Travels of Rabbi Benjamin ,P.90.

٣ . A Voyage Beyond the Seas ,P. 77-78.

٤ . رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٩٩ - ٢٣٠ .

٥ . زبدة كشف الممالك ، ص ٤٥ .

في بساتين النزهة والتنزه ، بها العمائر الفخمة والجواسق العلية والبرك العميقة والبحيرات الممتدة تتقابل بها الاواوين والمجالس وتحف بها الفراش والنصوب المطرزة بالسرو الملتف والجور الممشوق القد والرياحين المتأرجحة الطيب والفواكه الجنية والثمرات الشهية والاشياء البديعة التي تغني شهرتها عن الوصف ويقوم الايجاز فيها مكان الاطناب (١) .

اما الرحالة فرسكوبالدى فيقول : خارج دمشق يوجد حدائق غناء جميلة مزروعة بشكل جيد بالفواكه المختلفة ، بل كل ما تحلم به من انواع الفواكه هذه الحدائق اذا ما أورقت اشجارها فانها تكون على درجة عظيمة من الكثافة ، بحيث انه يصعب على اشعة الشمس من اختراقها ، وفي هذه الحدائق يوجد اعداد ضخمة من الازهار بحيث أن في كل عام يصنع منها الاف عديدة من الكوكنا التي تحتوى على مياه الزهر ، وفي هذه الحدائق يقوم الرجال والنساء بنزههم وباستمتاعهم بالطبيعة ، وهذه جميعها تبعث رؤيتها على السعادة وهي جديرة ومحقة بالرؤيا (٢) .

وقد ذكر البدرى : يحيط بدمشق متنزهات من اجمل ما عرفت والطف ، وقد قال بدر الدين لؤلؤ الذهبي يصف النيربين :

رعى الله وادى النيربين فانني	قطعت به يوما لذيذا من العمر
درى انني قد جيته متنزها	فمد لاقدامي ثيابا من الزهر
واوصى الى الاغصان قربي فارسلت	هدايا مع الارياح طيبة النشر
واخذ مني الماء القراح وحيثما	سخت رأيت الماء في خدمتي يجرى

ويقول ايضا : وكان لدمشق متنزه يعرف بالبكي كان الناس يجتمعون فيه ايام زهر السفرجل ويسيبون الماء تحت اشجاره ويوقدون في ظله اشهر قشور البيض

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .

٢ . Visit to the Holy Places , P. 181-182.

ويطلقونها في الماء ويملقون قشور النار موقودة في الاشجار ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون فيه اوقات من اللذة والانشراح يعجز عن الوصف وفيها يقول الشيخ علاء الدين بن شرف الماردينى " انظر الى اليكي زهت أزهاره وزره فالزورة قد تعينت، أشرقت الارض بنور ا ربها واخذت زخرفها وازينت" (١).

ومن اشهر متنزهات دمشق الغوطة ،وقد وصفها القزويني (ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م) بقوله : هي كثيرة المياة ،نضرة الاشجار، متجاوبة الاطيار ،مونقة الازهار، ملتفة الاغصان ،خضرة الجنان ،استداراتها ثمانية عشر ميلا كلها بساتين وقصور تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ومياهها خارجة من تلك الجبال وتمتد في الغوطة عدة انهر ملفوفة كلها اشجار وانهار متصلة قلما يوجد بها مزارع (٢).

اما شيخ الربوة (ت٧٢٧هـ/١٣٢٧م) فقد وصف الغوطة بقوله :" في غوطة دمشق ونواحي ارضها مائة وواحد وعشرون الف بستان تسقى بماء واحد يأتي اليها من أرض الزبداني ونبع الفيجة" (٣)

اما ابو الفداء (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م) فقد قال : ان غوطة دمشق احدى الجنائن المفضلة عن متنزهات الارض (٤) .

اما النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م) فقد وصف غوطة دمشق بقوله : هي التي شرك العقل وقيد الخواطر وعقال النفوس ونزهة النواظر خلخلت الانهار اسواق اشجارها وجاست المياه خلال ديارها وصافحت النسيم اكف غدرانها وقفلت في باطنها موائس اغصانها يخال سالكها ان الشمس قد نثرت على اثوابه دنانير ومن لم يشاهدها فقد فاته من عمره الكثير (٥) .

---

١ .نزهة الايام ،ص ٢٧٤ .

٢ .آثار البلاد ،ص ١٩٢ .

٣ .نخبة الدهر،ص ١٩٣ .

٤ .تقويم البلدان ،ص ٢٠٣ .

٥ .نهاية الارب ،ج ٨ ،ص ٢٦١-٢٦٢ .

ومن متنزهات دمشق ايضا الربوة وهي كهف في واديها الغربي الذى ينقسم عنده مياه دمشق، يقال ان به مهد عيسى عليه السلام (١)، وللربوة مناظر جميلة جدا وفي جميع جوانبها الخضرة والاشجار والرياحين (٢).

ويتصل باسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت خلالها وتدانت اشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعا (٣).

وكان في جميع المتنزهات المذكورة حوانيت تبيع الطعام الجاهز والحلوى، وكان المؤمنون يجدون في الزوايا يختلفون اليها حيث يقيمون الذكر والصلاة مع غيرهم. وكان البعض يذهبون الى بعض الاديرة المسيحية طلبا للنزهة، وكانوا في اغلب الحالات موضع ترحيب، وكان الناس يحسنون التصرف في اماكن التنزه اما اؤلئك الذين يسعون وراء رغبات وامور لا يقبلها المجتمع فقد كانوا يختلفون الى اماكن محجوبة (٤).

كذلك اهتم الناس في دمشق في العهد المملوكي اهتماما كبيرا بانواع الموسيقى والغناء ومما جعل الموسيقى والغناء أهمية كبيرة في ذلك العهد بتشجيع السلاطين واغداقهم على المغنيين والمغنيات، ثم انتقال الاغاني الى الناس عن طريق السماع (٥) وشغف كثيرون من سلاطين المماليك بالموسيقى والغناء حتى جرت العادة زمن ابي المحاسن ان يكون لكل سلطان او ملك جوقة من المغاني في داره (٦).

ودفع ذلك بعض السلاطين الى تقريب ارباب الموسيقى والغناء الية، فاذا سمع

---

١. تقويم البلدان، ص ٢٥٣.

٢. آثار البلاد، ص ١٩٢.

٣. رحلة ابن جبير، ص ٢٦٤-٢٦٥، رحلة ابن بطوطة، ص ١٠٣.

٤. رحلة ابن بطوطة، ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

٥. الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٨٤.

٦. النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٧٨.

بمغني ارسل في طلبه وكلفه بتعليم جواريه من الغناء ،كما فعل الناصر محمد مع المغني كتيلة بن قرانفان (١) . وقد ترددت في مصادر ذلك العهد اسماء كثيرين من المغنيين والمغنيات مثل عبد العزيز الحنفي ،وقد وصف بانه أعجوبة زمانه في فن الغناء (٢) ،ومن المغنيين ايضا في دمشق الشهاب المقرى ،نقيب الاشراف المتعممين كان عنده فضائل جمة نثرا ونظما ،مما يناسب الوقائع وما يحضر فيه . التهاني والتعازى ، ويعرف الموسيقي والشعبذه ،وضرب الرمل ،ويحضر المجالس المشتملة على اللهو والسكر واللعب والبسط ثم انقطع عن ذلك كله لكبر سنه ،ولد بدمشق عام ٦٢٣هـ . عاش خمس وثمانين سنة .

ومن المغنيين بدمشق المطرب ابراهيم بن الجندى (٣) ،المطرب الذى كان رئيس دكه وكان له في الفن ادراك ،وكان سافر صحبته فارس الزردكاش فمات في دمشق عام ٧٨٥هـ (٤) . وكان الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ احمد بن عثمان الخلافي امام الكلاسة شيخا بهي المنظر كثير العبادة باشر خطابة المسجد الاموى شهر ونصف ،كان حسن الصوت طيب النغمة عارفا بصناعة الموسيقى (٥) .

وأكثر ادباء العهد المملوكي من ذكر الغناء والمغنيات في شعرهم ونثرهم ومن ذلك ما قاله احدهم وقد استأذنت عليه مغنية للدخول :

ادخلي تدخلي علينا سرورا انت والله نزهة العشاق
لا تميلي الى الخروج سريعا تخرجي عن مكارم الاخلاق

وكان في العهد المملوكي كثيرا من النساء يعملن بالمغاني ،وضروب الملاهي كالرقص ،واحترفت فئات منهن البغاء وخصصت لهن اماكن في احياء دمشق والقاهرة ، وتعقب بعض السلاطين المماليك اؤلئك النسوة من اصحاب المغاني وضايقوهن ،وأن يتساهل آخرون معهن ،ففي دمشق أمر نائب السلطنه بيدمر(٧٨٠هـ/١٣٧٨م) بان لا تغني

١ . الدرر الكامنة ،ج ٣ ،ص ٢٦٥ .
٢ . الدرر الكامنة ،ج ٢ ،ص ٣٨٤ .
٣ . الضوء اللامع ،ج ٨ ،ص ١٠٨ .
٤ . ابناء الغمر ،ص ٢١١ .
٥ . البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ٤٤ .

أمرأة لرجل ولا رجل لنساء ،وعلق ابن كثير على ذلك بقوله :" وهذا في غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها" (١) .

وقد فرضت الدولة على المغنين والمغنيات في ذلك العهد ضريبة عرفت باسم (ضريبة المغاني) ،استمرت حتى الغاها السلطان شعبان عام (٧٧٨هـ ١٣٧٦م) (٢) .

أما الالات الموسيقية التي استخدمت في العهد المملوكي فكثيرة وتنوعه منها :" الطبول والزمور والكمنجة والقانون والعود والربابة والطنبورة والساجات والدرق والنقارة "(٣) ،وقد أدى اهتمام الناس بالموسيقى في ذلك العهد ان ألف بعضهم (التصانيف المفيدة للموسيقى) ومن اشتهر بالبراعة في الموسيقى في ذلك العهد الامير اشتقتهر المارديني المتوفي عام (٧٩١هـ) (٤) وأحمد بن محمد والفقيه احمد بن محمد بن بركوت (٥) ،والاديب محمد بن علي ابن عمر المارديني (٦) ،ومن وسائل التسلية التي شاعت في عهد المماليك خيال الظل ،الذى قيل انه انتقل من الهند الى الصين ومن الصين الى بلاد العالم الاسلامي (٧) ،وتعرف التمثيليات لخيال الظل باسم البابات ومفردها بابه ،اما الطريقة التي عرض هذه التمثيليات فتتلخص في عمل عرائس وصور من الجلد أو الورق المقوى وتوضع خلف ستارة بيضاء ومن خلفها مصباح بحيث ينعكس ظلالها على الستارة ليراها النظارة من الوجهة الاخرى ،

---

١ . البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ١٦٧ .

٢ . ابناء الغمر ،ص ٧١ .

٣ . سيرة الظاهر بيبرس ،ج ٤٩ ،ص ٨ .

٤ . النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٣٦١ .

٥ . الضوء اللامع ،ج ٢ ،ص ٩٩-١٠٠ .

٦ . الدرر الكامنة ،ج ٤ ،ص ٧٨ .

٧ . Kahle (Paul) ,' The Arabic Shadow Playing in Egypt', London, 1940 , P. 31-34.

سيشار اليه " The Arabic Shadow "

والعرائس بها ثقوب ومفصـلات تجعلها سهلة الحركة ، ويحركها الذى يقدم البابـــه بعصا في يـده حسب الحوار الذى ينطق بـه صاحب البابة (١) .

واذا كان الناس في اوائل القرن العشرين اعتبروا خيال الظل تسليه شعبيـــة فانه في العصور الوسطى كان تسلية عامة لكافة طبقات المجتمع ، فالسلطان صـــلاح الدين الايوبي شغف بحضور التمثيليات خيال الظل ومعه وزيره القاضي الفاضـــــل (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) (٢) . كذلك عرف بعض سلاطين المماليك مثل قانصوة الغـورى (٩٠٢-٩٢٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م) خروجهم الى البر ومعهم خيال الظل وجوق المغاني لتسليتهـــم (٣) .

على ان بعض سلاطين المماليك مثل الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨ - ١٤٥٣م) (٤) رأى في تمثيليات خيال الظل ما ينافي الدين والاخلاق فأمر بجمـــع اصحاب الخيال ، وأحرق جميع ما معهم من " الشخوص " مع التنبيه عليهم بعدم العودة الى فعلـــه (٥) .

وتلهى الناس كذلك في العهد المملوكي بعدة العاب اتخذت طابع المقامـرة ، مثل تطيير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقـرة بالديوك ، فيراهن الشخص على هـــذا الطير أو ذاك ، الكبش أو الديك ، فاذا فاز كسب الرهان (٦) . ويدخل في هذا النوع

---

١ . محمد غنيمي هلال ، " الادب المقارن " ، القاهرة ، ص ١٩٦٢ ، ص ١٧٠ .

٢ . "تاريخ الادب الجغرافي " ، ص ٤٨٦ ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط ، ص ٥٤ - ٥٥ .

The Arabic Shadow ,P. 34.

٣ . بدائـع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

٤ . النجـوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٣١٧ ، اعلام الورى ، ص ٤٩ - ٥٠ .

٥ . التبر المسبوك ، ص ٣٥٣ ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ١١٧ ، بدائع الزهـــور ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

٦ . السلـوك ، ج ٢ ، ص ٧٥٤ ، النجـوم الزاهـرة ، ج ٧ ، ص ٤١ .

من الالعاب المعالجة أي لعبة رفع الاثقال (١) . وقد ذكره المقريزي (ت٨٤٥هـ١٤٤١م) ان امير من امراء المماليك كان "مشهورا بالملاج يعالج بمائة وعشرة ارطال" (٢) .

ومن الالعاب ايضا المثاقفة - من الثقاف وهو الخصام والجلاد والطعان بالرمح وكذلك الملاكمة والمشابكة ، اذ كانت هذه الالعاب كلها تتم بطريق المقامرة والرهان (٣) ، وكان يحلو لبعض المماليك ان يحضروا "الاوباش" ، يلعبون بالمصارعة بين ايديهم (٤) هذا كله عدا العاب البهلوانات والحواة التي تتسلى بها الناس في ذلك العهد والدبابة الذين يلعبون بالدببة والقرادة الذين يلعبون بالقردة (٥) .

اما الملاهي الهادئة فاولها الشطرنج ، ويفهم من المراجع المعاصرة ان لعبة الشطرنج ظلت ذات شأن كبير في عهد المماليك حتى نسب بعض الاشخاص (٦) اليها . وقد شغف كثير من السلاطين المماليك بلعب الشطرنج من المقربين اليهم من الامراء والعلماء والادباء (٧) . بل لقد حرص بعضهم اذا خرج في اسفاره ان يحمل معه كمية كبيرة وضخمة من العاج برسم غرط الشطرنج حتى اذا لعب السلطان بشطرنج مرة أخذه بعد ذلك ارباب النوبة ، وجدد غيره للسلطان (٨) .

---

١ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦٥ .

٢ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٩٥-٦٩٦ .

٣ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ .

٤ . البدر الطالع ، ج ١ ، ص ١٨٧ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٤ .

٥ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٤٢ ، ٦٨٩ ، ٦٩٥ ، سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ، ص ٤١ .

٦ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٢٥٣ .

٧ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٠١ .

٨ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٢٩ حيث ذكر ان هذه الكمية بلغت خمسة قناطير من العاج .

واعتبر الناس في العهد المملوكي الشطرنج لعبة ارستقراطية خاصة بالملوك والامراء "لا للفقراء والارذال" ومع هذا انتشرت هذه اللعبة في عهد المماليك بين مختلف الطبقات حيث لعبها السلاطين والامراء والتجار والفقهاء وغيرهم (١)، وقد ذكر الادفوي لعبة اخرى تلهى بها الفضلاء في مجالسهم وتفصيلها ان يجلس جماعة ويكتبون اوراقا في بعضها صورة شخص صاحب متاع وفي البعض الاخر صورة لص، فاذا حصلت الورقة التي فيها صاحب المتاع لاحدهم قال: "يا جماعة ضاع لي كذا وكذا وأريد فلانا ان يحضر لي اللص" (٢)

وفيما عدا هذه الالعاب كثيرا ما جلس الناس للحديث وسرد نوادر مضحكة من نمط ما يحكى عن جحا (٣)، أو عن قراقوش واحكامه، وربما اجتمعوا لسماع سيرة عنترة أو سيرة ذات الهمة، أو سيرة الظاهر، أو قصة ابي زيد (٤) وغيرها من سير الابطال والشجعان التي لا يملون سماعها ولا يسأمون تكرارها.

٥. الاسبلة :-

ومن المنشآت الاجتماعية الاخرى في دمشق في عهد المماليك الاسبلة. وكان الغرض من السبيل تيسير الحصول على ماء الشرب، ولذلك اهتم سلاطين المماليك بانشاء اسبلة للناس والحيوانات في مختلف المواضع (٥).

وبالاضافة الى الاسبلة التي يشرب منها الناس مجانا، وجد اناس محترفون يتكسبون من وراء سقاية المارة بالاسواق، وهؤلاء هم سقاؤن الكيزان وارباب القرب والادلاء (٦).

---

١. الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٩٦، التبر المسبوك، ص ٢٣٠، تاريخ سلاطين المماليك، ص ٥٠

٢. الادفوي، كمال الدين ابو الفضل جعفر بن ثعلب، "الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد"، القاهرة، ١٩١٤م، ص ٢٧٨، سيشار اليه "الطالع السعيد".

٣. الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٧٩.

٤. تحفة الاحباب، ص ١٨١.

٥. تاريخ الخلفاء، ص ٧.

٦. رحلة ابن جبير، ص ٢٨٣-٢٨٨.

٦ . الخانات والفنادق والقيساريات :

امتازت دمشق وغيرها من المدن ذات الاهمية التجارية في عهد المماليك بكثرة المنشآت الاجتماعية الخاصة بالمسافرين والتجار مثل الفنادق والخانات والوكالات ومن ثم القيساريات (١).

وقد لاحظ ابن بطوطة كثرة المنشآت الخاصة بالمسافرين مثل الفنادق والوكالات في مختلف البلاد المملوكية التي زارها - وقد ذكر ان من ملحقات المنشآت هذه سبيلا للماء وحانوتا يشترى منه المسافر ما يحتاج اليه (٢).

والخان لفظة فارسية الاصل بمعنى البيت والمنزل ، ولذلك اطلق في الاستعمال على الحانوت وهو منزل التاجر ، وعلى الفندق وهو منزل المسافر . ولا تزال الخانات في دمشق تتناول كلا المنزلين ، ففيها الخانات العامة كالفنادق والاسطبلات لبعض الغرباء والمكاريين وللدواب ، والخانات الخاصة للتجار أو الصيارف (٣) . واغلب ما كانت تعرف هذه الخانات التجارية باسم الوكالة او القيسارية (٤).

والقيسارية بدمشق كانت تطلق خصوصا على ما اتسع من الدور الجامعة ، تكون في وسطها غالبا بركة ماء ودكاكين او حجر للتجار كالاسواق يضمها سور واحد قال ابن كثير في اخبار عام (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) " فتحت في اول هذه السنة القيسارية التي انشأها النائب الامير بليغا ظاهر باب الفرج ، وداخلها قيسارية تجار وفي وسطها بركة ومسجد

---

١ . عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٩٥ ، ١٩٠ ، ٣١٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٣-٢٨٨ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٣ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١١٨-١١٩ ، زبدة كشف الممالك ، ص ٤٤-٤٥ ، النجوم ج ٧ ، ص ١٩٥-١٩٦ .

٢ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١١٠ .

٣ . حبيب زيات ، خانات دمشق ، المشرق ، العدد ٣٦ ، ص ٦٦ .

٤ . خلاصة الاثر ، ج ٤ ، ص ٣٥٦-٣٥٧ .

وظاهرها دكاكين واعاليها بيوت للسكان (١) وكانت القياسر بدمشق أوفر من الخانات لاصطلاح التجار فيها وارباب الصناعات على اختصاص دور وأسواق لهم تنفرد بها اصحاب الطبقة الواحدة كقيسارية القطن وقيسارية القواسين والكفتيين . وقيسارية الرماح وقيسارية الصوف وقيسارية الاقباعين ، وقيسارية العبي ، وقيسارية ابي البابي (٢) .

كذلك كانت الخانات تسمى كثيرا باسماء البضائع التي تباع فيها نظير خان الحرير ، وخان الجوخ او الجوخية ، وخان الجوار وهو الخان الذى كانت تجلب اليه الجوارى من الرقيق قديما ، وخان الزيت ، وخان القسمات ، وخان الخرفان ، وخان البيض وخان مخشي (٣) .

وربما نسبت الخانات الى بناتها أو المقيمين فيها أو النازلين بها ، كخان الخازندار عند مسجد القصب ، وخان الزنجارى بالقصيبة وخان الحياليت (٤) .

وقد تحولت بعض خانات دمشق الى حانات للسكر ومواخير للفسق والفجور وفي عام (٧٩٨هـ/١٣٩٥م) أخبر قاضي القضاة ان خانا بالقرب من قبة الشحم فيه خمور كثيرة ، يباع فيه الخمر جهارا ، فتوجه نحوه في طائفة يسيره ، فوجد الامر كما قيل ، وهرب من في الخان فاقتلعوا الخوابي وكانت مدفونه في الارض مملوءة خمرا . فحملت الى دار السعادة ، وضرب النائب اصحاب الخان ضربا مبرحا وطيف بهم (٥) .

---

١ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٩ .

٢ . الدرة المضيئة ، ص ١٧٣ .

٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

٤ . الدرة المضيئة ، ص ١٧٢ ، انظر اسماء خانات دمشق كما ذكرها ابن عبد الهادى في الملحق رقم (٧) من هذه الرسالة .

٥ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٩ .

الفصل السادس

الحياة المنزلية

١. القصور
٢. المنازل
٣. الحياة العائلية
٤. النوم
٥. الطعام
٦. الاحتفالات العائلية :
   ١. الزواج
   ٢. الولادة والنفاس
   ٣. الختان
   ٤. عودة الحاج

١. القصـــور :

اهتم المماليك اهتماما خاصا بقصورهم ومنازلهم كما يتضح من البقايا القليلة التي بقيت من تلك القصور والمنازل ، ولم تقتصر تلك العناية على هندسة البيوت وانما امتدت ايضا الى تجميلها وزخرفتها (١). فقد عاش المماليك عيش النعم والرفاهية في قصور تجمع كل اسباب الترف ويزخرفون سقوفها وحيطانها بالذهب(٢)، كما يتضح ذلك في القصر الابلق الذى شيده الظاهر بيبرس لنفسه في الميدان الاخضر على نهر بردى (٣). ويصف العمرى (ت٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) هذا القصر بقوله : وهو قصر عظيم مبني من اسفله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب واحكام عجيب ، بناه الظاهر بيبرس البندقدارى في سلطنته ، وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . وامام هذا القصر دركاه (٤) يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن مؤزر بالرخام ومذهب ، وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابيك شرفتيهما على الميدان الاخضر وغربيهما على شاطيء واد اخضر يجرى فيه نهر . وله رفارف عالية تناغي السحب تشرف من جهاتها على جميع المدينة والغوطة والوادى ، كامل المنافع بالبيوت الملوكية والاصطبلات (٥) السلطانية والحمام وغير ذلك من سائر ما يحتاج اليه ، وبالدركاه التي امام القصر جسر معقود على جانبي الوادى يتوصل منه الى ايوان براني يطل منه على الميدان القبلي استجده اقوش الأقيسرم (٦) في نيابة ايام الناصر بن قلاوون

---

١. فنـــون الاسلام ، ص ٨٠-٨٢.

٢. معيـــد النعـــم ، ص ٦٩ .

٣. الروض الزاهـــر ، ص ٦٩.

٤. دركـــاه : جمعها دركات وهي عبارة عن الفضـــاء والممر المؤدى لمدخل بناء كبيـــر ، العصر المماليكي ، ص ٤١٦.

٥. الاصطبلات : مفردها اصطبل وهو مجموعة من المباني يبنيها الامير المملوكـــي لسكنه وسكن اسرتـــه ومماليكـــه وخيولـــة . العصر المماليكي ، ص ٣٩١.

٦. راجـــع ملحق نواب السلطنـــة في هذه الرسالة .

وتجاه باب القصر، باب يتوصل من رحبته الى الميدان الشمالي ، وعلى الشرفتين المتقدم ذكرهما ابنية جليلة من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات ممتدة على جانبي وممتدين طولا لوادى ...... (١).

وتضم قصور السلاطين اماكن لاجتماع السلطان باهل الدولة ورجال السلطنة وخصص لهذه الاجتماعات والمجالس قاعة فسيحة في القصر السلطاني يتصدرها كرسي السلطان ، وعن يساره اهل الميسرة ، وعن يمينه اهل الميمنة ، ويجلس على راس اهل الميمنة كبير المماليك وغالبا ما يكون من رجال السيف وهو نائب السلطان ، وعلى راس اهل الميسرة قاضي القضاة ورجال الدولة من الوزراء والكتاب واهل القلم (٢).

وتضم الدور السلطانية منازل الحريم ، وبها زوجات السلطان وسراياة ومقتنياته وحظاياه ، وبها مجالسه الخاصة التي لا يحضرها الا هو وحريمه وخاصة خاصته (٣) ، وكان يتولى وظائف البلاط والحاشية ، في القصر السلطاني طبقة خاصة من الامراء ولم يكن لعامة الناس سوى نصيب ضئيل منها ، وكان للامراء اصحاب الوظائف الرئيسية أشعره خاصة تعرف باسم الرنوك (٤).

---

١ . المنجد ، صلاح الدين ، "مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين"، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ . نقلا عن ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٢ .

٢ . الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٧ .

٣ . الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٧ ، صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ ، زبدة كشف الممالك ص ٢٦ - ٢٧ .

٤ . الرنوك : كلمة فارسية الاصل معناها لون ، استعملت في العصور الوسطى للدلالة على الاشقر، وكان معظم الاعتماد في دراسة هذه الرنوك يرجع الى ما نقش منها على التحف الزجاجية والمعدنية وعلى العمائر الخاصة . وذلك للعناية التي كانت تبذل في دقة اظهار هذه الرنوك ، اذ أنه كلما كانت المادة المراد نقش الرنك عليها من معدنية نفيسة او مادة غالية الثمن فزادت قيمة العناية برقمة وقد نقش المماليك رنوكهم على التحف في مختلف المواد على الحجر والخشب والمعدن والخزف والزجاج والورق والنسيج والعاج ، وقد بلغ عدد الاشعرة المملوكية المعروفة الان خمسين شعارا عرف مدلول بعضها ، راجع مقالة " الرنوك المملوكية" ، مجلة المقتطف ، العدد الخامس ، المجلد ، ٩٨ ، ١٩٤١ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٨ .

ويطلق على المرافق الخاصة بمطالب السلطان وحاجاته اسم البيوت السلطانية أو حواصل السلطان ، وهي عديدة ويشرف على كل منها مباشر من امراء المئتين له مساعدون وغلمان عديدون (١) .

ومن هذه البيوت :

الشرابخاناه - أي بيت الشراب : كان يحتفظ فيها جميع انواع الاشربة والادوية التي يحتاج اليها السلطان ، فضلا عن السقوفات المسهلة والمقبضة والمبردة والمعاجين والاقراص (٢) . كما كانت تحفظ فيها ايضا الاواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر والتي كانت تستخدم في تقديم هذه الالوان للسلطان وزائريه (٣) . ويقوم غلمان الشرابخاناه بضبط جميع ما يصل فيها من اصناف ، وموضع استعمال كل منها ، بحيث يكون لهم معرفة بحاجات الاسمطة والطواريء والمعاجين "بمقتضى أوراق الاطباء" (٤)

اما الطشت خاناه : فهي المكان الذى يحفظ فيه جميع ما يخص السلطان (٥) من ثياب وجواهر وسيوف . وكانت تحتوى ايضا على كثير من المقاعد والوسائد والطشوت والاباريق اللازمة لغسل الايدى والوضوء وغسل الملابس والاقمشة السلطانية والمناشف ، عدا ادوات الحمام والوقود من السخانات والكراسي والستائر والسجادات والوسائد وفوط الخدمة والمباخر وانواع البخور والطيب وماء الورد ، وغير ذلك مما تحتاج اليه الدور السلطانية للاستحمام (٦) .

---

١ . صبح الاعشى ج ٤ ، ص ١٠ .
٢ . نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٢٢٤ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩-١٠ .
٣ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩-١٠ .
٤ . نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٢٢٤ ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩ .
٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩-١٠ .
٦ . نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٢٢٥ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٠-١١ .

ومن البيوت السلطانية كذلك الفراش خاناه : وتشمل على جميع انواع الفروشات من البسط والخيام - وتهيئة ما يحتاج السلطان استعماله منها اثناء سفره (١) .

اما السلاح خاناه - وهي الزردخاناه في اواخر العصر المملوكي - فاحتوت على جميع انواع الاسلحة من سيوف وقسي ورماح ونشاب ،وكان يشرف على السلاح خاناه امير السلاح ،ومهمته ضبط ما يخرج منها مما تسلمه المماليك السلطان من انواع الاسلحة عند ركوبه او جلوسه في مجلس عام ،او في الحروب ،واختزنت السلاح خاناه جميع ما يصنع من الاسلحة الجديدة برسم السلطان ،فيحمله الحمالون على رؤوسهم ويزف الى القلعة في يوم مشهود (٢) .

واما الركابخاناه فاشتملت على آلالات الخيل من سروج ولجموكنابيش (٣) وغير ذلك من ادوات الركوب المفشاة بالذهب والفضة برسم السلطان (٤) .

كذلك افرد مكان خاص لحفظ الطبول والابواق وما يتبعها من الالات في اماكن اطلق عليها اسم الطبلخانه - وهي كلمة فارسية يقصد بها غرفة الموسيقى السلطانية وقد جرت العادة بان تدق مرة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ،وتكون صحبة السلطان في الاسفار والحروب (٥) .

---

١ .نهاية الارب ،ج ٨ ،ص ٢٢٦ ،صبح الاعشى ،ج ٥ ،ص ٤٧ .

٢ .نهاية الارب ،ج ٨ ،ص ٢٢٧ ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١١-١٢ .

٣ .الكنابيش : هي البرذعة التي توضع تحت سرج الخيل وهي مصنوعة من القماش الفاخر والموشى بالذهب والمطرز والمزركش بالحرير ،الخطط ،ج ٣ ،ص ٢٢٤ .

٤ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٧ ، ١٢ .

٥ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٢٢ .

ويشرف على الطبلخاناه امير من امراء المشراوات يعرف باسم امير علم (١) وهو الذى يتولى تنظيمها وتوزيعها في القلعة وفي الاسفار (٢) ،وكانت فرقة الطبلخاناه السلطانية تتكون من اربعة طبول واربعين من الكوسات (٣) واربع زمارات وعشرين نقارة ولم يسمح بتكوين فرقة موسيقية غير الفرقة السلطانية الا لامراء المماليك البارزين وهم الذين كان يطلق عليهم لقب امراء الطبلخاناه (٤) . وقد بلغ عددهم ثلاثين اميرا ، وتتكون فرقة كل منهم من عشرة رجال وزمارتين واربع نقارات (٥) .

ومن اهم البيوت السلطانية " الحوائج خاناه" التي خصصت لها ميزانية يشرف عليها الوزير ،ويصرف منها على المطبخ السلطاني ،وما يحتاجه من لحم وتوابل ،وما يخص الامراء والمماليك والعلماء من مرتبات (٦) .

ويكفي ان نعرف للوقوف على ضخامة هذه الادارة ان عدد الدجاج الذى ذبح في المطبخ السلطاني في بعض الايام بلغ ٧١٠٠ طائر ،كما بلغ مقدار اللحم يوميا في مطبخ

---

١ .أمير علم : هو الذى يتولى امر الاعلام والسناجق والرايات السلطانية ،ويشترط فيه الدراية بنوع الاعلام اللازمة لكل موكب من المواكب السلطانية ،صبح الاعشى ،ج ٤ ، ص ٨ ،ج ٥ ،ص ٤٥٦-٤٥٨ .

٢ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٣ .

٣ .الكوسات : وهي طنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير ،يدق باحدهما على الاخر بايقاع مخصوص" والكوس هو الذى يضرب الكوسات،صبح الاعشى ،ج ١٤ ،ص ٩ ، ١٣ .

٤ .صبح الاعشى ،ج ٦ ،ص ٧-٨ .

٥ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٨ .

٦ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ١٢-١٣ ،الخطط ،ج ٢ ،ص ٢١٦ .

السلطان الظاهر بيبرس عشرة آلاف رطل (١) لحم وان قيمة التوابل التي كانت تستهلك في ذلك المطبخ بلغت عشرين الف درهم (٢) يوميا (٣).

---

١. استعملت دمشق الرطل في موازينها، وكان رطل دمشق يساوى ٦٠٠ درهم، ولما كانت ال ٦٠٠ درهم دمشقي هذه لا تعادل سوى ٥٩٢ ½ درهم مصرى كل درهم ١٢٥ر٣ غم فيكون رطل دمشق ٨٥ر١ كغم. ويؤيد هذا ايضا ج.دا اوزانوا في القرن الخامس عشر فهو يقول، ان رطلا واحدا كهذا كان يساوى ١/١٠٠ من القنطار الذى يزن ٦٢٠ باوندا بندقيا خفيفا او ٥٤٢ ½ رطلا فلورنسيا. وبذلك تتراوح زنة الرطل بين ٨٧ر١ كغم و ٨٤ر١ كغم أى انه يساوى في المعدل ٨٥ر١ كغم، انظر: هنتس، المكاييل والاوزان الاسلامية ص ٣٣، وكان الرطل الدمشقي حتى القرن السادس / الثاني عشر يعادل اثنتي عشرة اوقية، وكانت الاوقية الدمشقية تساوى ٥٠ درهما تساوى ١/١٢ من الرطل تساوى ١٦٦ر١٥٤ غم، المكاييل والاوزان الاسلامية، ص ٢٠. انظر: هنتس، فالتر، "المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المترى، " ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠، ص ٢٠، سيشار اليه "المكاييل والاوزان الاسلامية".

٢. سار المماليك في دمشق على الخطة التي اتبعتها الدول الاسلامية من قبل واتخذوا نقدين الواحد اساسة الذهب ووحدته الدينار (٥٤ر٥ دولار) وكان دوما نادر الوجود، والثاني قاعدته الفضة ووحدته الدرهم (٠٧ر٠ من الدولار) وهو الذى غلب وجودة واستعمالة، وقد اختلف نسبة الاول الى الثاني بنسبة وجود الفضة في الدرهم، انظر: صبح الاعشى، ج ٤، ص ١١٨، أما الدراهم فهي المعروفة بالدراهم الكاملية بنسبة الى الملك الكامل الايوبي ابن الملك العادل، حيث ضربها سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م. وكانت خير الدراهم النقرة وفيها الثلثان من الفضة والثلث نحاس وهي مستديرة الشكل، استعملها بنو أيوب كما استعملها من بعدهم المماليك، انظر: المقريزى، تقي الدين احمد بن علي، "اغاثة الامة بكشف الغمة" نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٦٥، سيشار اليه" اغاثة الامة"، عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، ص ٧٦. وكانت عشرون درهما من النقرة تساوى عادة دينار واحد، انظر: صبح الاعشى، ج ٤، ص ١٨٠، وتنسب ال النقرة عامة اثمان المبيعات وقيم الاعمار كما يؤخذ بها خراج الارض واجرة المسكن، انظر: اغاثة الامة، ص ٦٥.

٣. النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٩٨.

كذلك اغرت الاموال الطائلة امراء المماليك وكبار التجار بالترف والتفنن في مظاهر النعمة في كل مظهر من مظاهر حياتهم ،فقصورهم كانت تشابه قصور السلاطين ،وكانت تشتهر باسم الدور او البيوت او القصور ،وكانت منتشرة في احياء دمشق . اما الامراء فكان كل امير يتخذ لونا معينا لطلاء داره وملحقاتها من مطابخ ومراكب ،وما اليها كما يتخذ رمزا او اشارة الرنك (١) كما ذكرنا ،ينقش على داره وفراشة ولباسه وسلاحه وادوات منزله من مشكاوات وأوان خزفية وغيرها ،وقد يكون هذا الرنك اسدا او دواة أو قلما او كاسا يشير الى صاحبه او رتبته ويقول القلقشندى :"ومن عادة كل امير كبير او صغير ان يكون له رنك يخصه . . . بحسبما يختاره ويؤثره ،ويجعل ذلك دهانا على ابواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم كمطابخ السكر وشؤون الغلال والاملاك والمراكب وغير ذلك . (٢) .

٢ : المنازل :

واهتم اهل دمشق اهتماما بالغا بتشييد المنازل وتأثيثها وتزويدها بكل وسائل الراحة ويفهم من كتابات الرحالة الاجانب الذين زاروا دمشق في عصر سلاطين المماليك ان هذه المنازل كانت تبدو بسيطة في مظهرها الخارجي ،ولكنها كانت في الداخل مرتبة ومنسقة ومقسمة الى حجرات مختلفة ومزينة على خير صورة (٣) .

ويصف ياقوت الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م) دور دمشق بانها "غزيرة لكثرة اهلها والساكنين بها وضيق بقعتها" (٤) .

---

١ ـ راجع مقالة " الرنوك المملوكية" ، مجلة المقتطف ،العدد الخامس ،المجلد ٩٨ ، ١٩٤١ ،ص ٤٦٠-٤٦٨ .

٢ ـ صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٦١-٦٢ .

٣ ـ A Voyage Beyond the Seas, P.77, Visit to the Holy Places, P. 183.

٤ ـ معجم البلدان ،ص ٥٨٩-٥٩٠ .

وكانت عمارات دمشق مشتبكة من جميع جوانبها (١)، وشاهقة الارتفاع (٢)، يحيط بها البساتين (٣) وكان الماء حوّط على جميع نواحيها (٤)، وقلما تجد فيها دارا أو مسجدا او رباطا او مدرسة او خاناة الا وبها ماء جار (٥).

والفكرة الاساسية التي حرص عليها الناس في هندسة بيوتهم في دمشق في عصر المماليك هي عدم تمكين اى فرد بالخارج ان يرى شيئا من داخل المنزل ويتضح ذلك جليا في مدخل المنزل الملتوى وفي نظام المشربيات (٦) على النوافذ حيث اتخذت هذه المشربيات في واجهات البيوت لتلطيف الجو وادخال النسيم العليل وتمكين اهل الدار من رؤية من بالخارج دون ان يكون عكس ذلك ممكنا (٧).

ويقول المقدسي (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م) ان بنايات اهل دمشق من خشب وطين (٨) اما العمرى (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) فيقول ان ابنية دمشق من الحجر والخشب والاجر، ويصب بين مداميك البناء بالخشب الطبن واخشابها من خير اخشاب الارض ويسمى [illegible]

---

١. آثار البلاد، ص ١٨٩.

٢. Visit to the Holy Places, P.183.

٣. آثار البلاد، ص ١٨٩.

٤. دمشق في نظر الجغرافيين والرحالة المسلمين، ص ٢٨٤-٢٨٥، نقلا عن ابن الفضل الله العمرى، مسالك الابصار، ج٢.

٥. آثار البلاد، ص ١٨٩.

٦. المشربية: تحريف مشربه بمعنى غرفة عالية، او بمعنى المكان الذى يتسرب فنه نظرا لانه كان يصنع فيها خارجات صغيرة مستديرة او مثمنة تركب خارج المشربية وتوضع عليها القلل لتبريدها، انظر: فنون الاسلام، ص ٤٧٠.

٧. فنون الاسلام، ص ٤٧٠، المجتمع المصرى، ص ١١٣.

٨. احسن التقاسيم، ص ١٥٦.

٩. المنجد: صلاح الدين، "مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين" دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٦٧، ص ٢٢٤، نقلا عن العمرى، مسالك الابصار، ج٢، سيشار اليه "دمشق في نظر الجغرافيين والرحالين".

الحور (١) ،ويستعمل خشب الحور بدلا من خشب النخيل ولا يخشى البياض(٢) ، وكانت بيوت دمشق من الداخل جميلة ورائعة ،وجزء عظيم منها يحتوى على ساحة في منتصف البيت،وفي منتصف هذه الساحة توجد نافورة مياه جارية (٣) ومعظم هذه البيوت كانت تضاء بنور أزرق (٤) .

ويصف العمرى (ت٧٤٢هـ/١٣٤١م) بيوت دمشق بانها مذهبة السقوف مفروشة بالرخام ومنها ما هو " مؤزر الحيطان بالرخام المشوع المفصل بالصدف والذهب" (٥) .

ويصف الطهطاوى (ت٦٨٩هـ/١٢٩٠م) بيوت دمشق بانها نزهة من داخلها مزخرفة بنفيس ما يمكن ان يزين به ،ومبلط باحجار الرخام ويشاهد من جميع جهاتها المرمر الابيض والتذهب النفيس،وفي كل بيت عظيم منسقية او عدة منساقي تلعب مياهها في حياض ظريفة داخل بيت له ثلاثة مجارى ماء احداها في المطبخ والاخرى في الحديقة والثالثة لازالة النجاسات (٦) .

وجرت العادة في ذلك العصر ان الشخص اذا أتم تشييد دار جديدة احتفل بافتتاح هذه الدار احتفالا عظيما يتناسب مع مكانته وثروته ،ويعمل فيها وليمة ،

---

١. المنجد ،صلاح الدين ،"مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين" ، دار الكتاب الجديد ،بيروت ،الطبعة الاولى ،١٩٦٧ ،ص ٢٢٤ ،نقلا عن العمرى مسالك الابصار ،ج٢ ،سيشالا اليه ،"دمشق في نظر الجغرافيين والرحالين" .
٢. دمشق في نظر الجغرافيين والرحالين ،ص ٢٨٤-٢٨٥ ،نقلا عن العمرى ،مسالك الابصار ،ج٢ .
٣. A Voyage Beyond the Seas, P.77 , Visit to the Holy, P.183.
٤. A Voyage Beyond the Seas, P.77.
٥. دمشق في نظر الجغرافيين والرحالين ،ص ٢٢٥ ،نقلا عن العمرى ،مسالك الابصار ،ج٢ .
٦. دمشق في نظر الجغرافيين والرحالين ،ص ٣١٢-٣١٣ ،نقلا عن الطهطاوى .

كبيرة يدعو اليها الاصدقاء والجيران (١).

٣ . الحيـاة العائليـة :

اما الحياة العائلية داخل البيوت لا نكاد نجد شيئا عنها في المصادر المعاصرة عن طبقة المماليك ، سوى اسماء متناثرة لبعض الجوارى والنساء ، الامر الذى جعلنا نعتمد على قصص الف ليلة للوقوف على مظاهر الحياة العائلية في تلك الفترة ، ولعل السبب في ندرة ما وصلنا من احوال المماليك العائلية ، هو ان المماليك انفسهم لم تكن عندهم " حياة عائلية " بالمعنى المعروف على اساس وحدة الاسرة باركانها المعروفة وهي الاب والام والابناء ، وانما قام على اساس الرقيق والمماليك الذين احلوهم لنظامهم محل الابناء ، فمن نظمهم البارزة ان الابن لا يخلف اباه في مركزه ولا يرثه في ثروته ، وانما المملوك هو الذى يحل محل استاذه ويرثه حتى في الاستيلاء على حريمه (٢) ، وكان الامير منهم لا يأكل مع ابنائه او حريمه وانما يفضل ان يأكل مع مماليكه (٣) . ومن ثم اصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على العلاقة بين الرجل وزوجته وابنائه بقدر ما تقوم على العلاقة بين الامير ومماليكه او بين مملوك واستاذه ، والاشارات التي لدينا عن حياة المماليك العائلية لا تتعدى ناحية ابراز احترام الابن او البنت لابيها مثال ذلك انه عندما حضر الامير تنكز (٤) والد زوجة السلطان الناصر محمد (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) الى مصر عام (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) ان اسرعت اليه ابنته وقبلت يده (٥).

هذا عن المماليك ، اما طبقات الشعب الاخرى من علماء وتجار وعوام وغيرهم ، تبدر

---

١ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٨٦ .

٢ . The Mamluke or Slave, P. 225.

٣ . الخطط ، ج ١ ، ص ١٤١ .

٤ . راجع ملحق نواب السلطنة في هذه الرسالة .

٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٢٥-٣٢٦ .

ان الطابع العام للاسرة الاسلامية لم يتغير كثيرا في ذلك العصر سواء من ناحية مركز الاب ونفوذه على زوجته وابنائه ، او احترام الزوجة لزوجها والابناء لوالدهم بدليل ما يرويه الفقيه المغربي ابن الحاج (ت٧٣٧هـ/١٣٣٦م) من ان العادات جرت في ذلك العصر ان الزوجة والابناء لا يشاركون رب الاسرة في الاكل من وعاء واحد ، بل "للرجل طعام خاص به وزبدية خاصة به وكوز خاص به " (١) . وما جاء في القصص من الف ليلة عن الحياة العائلية وعن معاملات الزوج لزوجته ، وعن حب الام وعطفها ، وعن سلطة الاب في البيت، وعن مدى احترام الرجل لزوجته ، اذ ترى الاب في قصة قمر الزمان عندما يعزم على تجهيز متجر لولده ، لا يفعل شيئا قبل ان يستشير زوجتة في الامر، لانه يدين لها بالحب والاحترام (٢) .

ورغم هذا من الصعب ان نجزم بان الرجل في العصر المملوكي كان دائم الحب والاحترام لزوجته ، خاصة وان المصادر تحتوى على بعض الاشارات التي يفهم منها ان الزوج كان يعامل زوجته في بعض الاحيان بوحشية وقسوة الى درجة تصل الى الضرب والايذاء. فقد اشار احد فقهاء هذا العصر ان زوجة صديق له شكت له من اخلاق صديقه واخبرته انه "كسر معصمها " (٣) .

كما وجدت ايضا امثلة قليلة لرجال من هذا العصر - لا سيما من طائفة التجار ضعفوا أمام نسائهم، " فلا يقدر احدهم على مخالفته زوجته ابدا " (٤) وتبدو هذه الصورة واضحة في قصة معروف الاسكافي من قصص الف ليلة، اذ كانت زوجته " اسمها فاطمة والناس يطلقون عليها لقب (العوره) لانها كانت فاجرة ماكره ، خبيثة قليلة الحياء ، محبة للشر والفتنة ، تعامل زوجها اسوأ معاملة ، وفي كل يوم تسبه وتلعنه الف مرة ، ولا تتورع عن ضربه ، حتى صار يخشى شرها وأذاها وكل ما يربحه من عمله سواء أكان قليلا أم

---

١. المدخل ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

٢. الف ليلة وليلة ، ص ٣١٩ .

٣. الطالع السعيد ، ص ٢١٤ .

٤. التصوف ، ج ١ ، ص ٣٥٥ .

كثيرا يصرفه عليهـا . لكنها كانت لا تشكر على الكثير وتثور عليه اذا اعطاها القليـل فتنغص عيشته وتجعل ليلته اسود من صحيفتها " (١) .

ويروى لنا السخاوى (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) في ترجمة الفقيه محمد بن ابي بكر شمس الدين كيف انه تزوج بنفيسة زوجة الابدى وكيف قاسى منها نكدا عظيما حتى انه كـان يقول في اغلب الاحيان "يا سيدتي نفيسة خلصيني من نفيسة" (٢) .

واعتاد الرجل ان يقضي معظم نهاره في عمله خارج المنزل ، حتى اذا انتهى من عمله عند غروب الشمس عاد الى منزله " حيث يتصافى مع زوجته ويتم نهاره في بيته" (٣) .

اما الزوجة فتقوم بشؤون منزلها ثم ترتدى الثياب الرقيقة المذهبة المصنوعة من الحرير الفاخر لتظهر امام زوجها في صورة كلها فتنة واغـراء (٤) .

وقد اكثر فقهاء العصر المملوكي من نصح النساء باستكمال زينتهن داخل المنازل وذلك بتسريح الرأس وتزيين الشعر والتطيب بالطيب امام الزوج " حتى يطيب قلبه" (٥)
اما عن دور الام في دمشق في تربية ابنائها ، فلا نجد شيئا عنه بالمصادر التاريخيـة نتيجة لانصراف اغلب مؤرخي هذه الفترة الى الطبقة الحاكمة ، ونعني بها طبقة المماليك ، فالتاريخ كان في تلك العصور كما هو معروف لنا ربيب السلاطين والقصور والمدن ، اما فيما عدا ذلك من افراد الشعب وعامته فكان من نصيب الاهمال ، وحسبنا ما يعترف به مـؤرخ معروف مثل ابو المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) عندما يقول عن احد الافراد "وقد اضربنا عن شرح ما حدث له لانه لم يكن من اعيان الناس لتشكر افعاله او تذم" (٦) ومع ذلـك

١ . الف ليلة وليلـة ، ص ٢٢٨ .
٢ . الضوء اللامـع ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ .
٣ . سيرة الظاهر بيبرس ، ص ٦٢ .
٤ . المجتمع المصرى ص ١١٥ .
٥ . السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، "الايضاح في علم النكاح" ، القاهـرة ، ١٨٨٩ ، ص ٥ - ٦ .
٦ . منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٤٤ .

فكثيرا ما نجد صورة الام التي اعتادت ان تحب ابنها وتسرف في هذا الحب مثلة احسن تمثيل في بعض القصص من الف ليلة وليلة، بل كثيرا ما نراها تحاول ان تحميه من عقاب ابيه وتغفر له كل هفوة مهما عظمت، وقد تذهب الى الكذب في بعض الاحيان لتخلصه من هذا العقاب (١)، وتعكس لنا هذه القصص ايضا بعض دقائق خاصة بالحياة العائلية في عصر سلاطين المماليك، وهي عناية الاباء والامهات بتربية ابنائهم وتعليمهم كما يتضح من قصة قمر الزمان، اذ صارت الام تقرىء بنتها والرجل يقرى ولده حتى حفظا القرآن وتعلما الخط والحساب والفنون والادب من أبيهما وامهما، ولم يحتاجا الى معلم(٢)

وجاء ايضا في بعض المصادر الاخرى ان المولود اذا ولد في بيت يسر وثراء، كانت تتسلمه المراضع والدادات حتى يشب وعندئذ يقوم بتأديبه وتعليمه احد مؤدبي الاطفال (٣).

ويبدو ان هذا المؤدب قد تمتع باحترام ومهابه تفوق في بعض الاحيان مهابة الوالدين في نفس الطفل لدرجة ان اعتادت بعض الامهات، كما يروى احد المعاصرين، ان يلجأ الى مؤدب الطفل لشكوى ابنائهن اذا اخلوا بالادب في المنزل (٤).

٤. النـــوم :

واهتم الناس في عصر سلاطين المماليك اهتماما كبيرا باعداد اماكن النوم في منازلهم فصنعوا أسرّة من جريد النخل ووضعوا عليها وسائد مريحة محشوة بالقطن (٥).

---

١. الف ليلة وليلة، ص ٣١٩.

٢. الف ليلة وليلة، ص ٢٣٨.

٣. النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٨٠، التبر المسبوك، ص ١٥٨، سيرة الظاهر بيبرس، ج ٢، ص ٥٢، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٨٤.

٤. هز القحوف، ص ٣١.

٥. المجتمع المصرى، ص ١١٦. نقلا عن

Laurent d' Arvieux , Memoires du Chevalier d'Arviex,P.222.

وفي فصل الصيف اعتاد معظمهم النوم فوق الاسطح وفي احواش المنازل حيث يشيدون مصاطب خاصة لذلك الغرض وبذلك يتاح لهم الاستمتاع بالهواء المنعش اللطيف (١).

واحيانا كان الناس في دمشق ينامون على السقايف ليلة استقبال السلطان ، حيث انه نودى في ليلة ١٨ شعبان عام (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) بمدينة دمشق " ان تفتح الدكاكين وتزين البلد لقدوم السلطان الملك الناصر ، فزينت البلد لقدومه احسن زينة ، وخرج الناس باجمعهم من النساء والرجال والصغار والاطفال وباتوا تلك الليلة على السقايف وهم لا يصدقون بالصباح " (٢).

وقد نهى ابن الحاج (٧٣٧هـ/١٣٣٦م) عن بدعة تفشت في ايامه ، وهي ان الزوجة اذا جاءت لتنام مع زوجها فانه يجب ان يعطيها اجرا معلوما - بحسب حاله - يسمى " حق الفراش" وقال ابن الحاج ان هذا التصرف منكر لانه شبيه بالزنا (٣).

٥. الطعام :

اما عن الطعام في دمشق في عصر المماليك ، فالذى يوجب الالتفات هو ان الناس في ذلك العصر لم يطهوا طعامهم في منازلهم ، بل اعتادت الغالبية العظمى منهم مهما بلغ ثراؤهم - شراء ما يحتاجون اليه من الاطعمة المطهية التي تفيض بها الاسواق والطرقات (٤). حيث يذكر الرحالة فرسكوبالدى انه تباع في دمشق جميع المآكل في الشوارع كالخبز والماء واللحم على اختلاف انواعه ، وكل اصناف الفواكه ، اذ ان الناس هناك لا يطبخون في البيوت بل انهم يبعثون في طلب كل ما يرغبون فية من السوق ويقوم

---

١. المجتمع المصرى ، ص ١١٦.

٢. كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٧٣.

٣. المدخل ، ج ٢ ، ص ١٦٩.

٤. A Voyage Beyond the Seas , P. 77 , Visit to the Holy Places , P. 143.

في اماكن كثيرة في طول البلاد وعرضها طهاة امامهم اللحوم المنوعة ، يطهون كل ما يرغب فيه والكمية التي يريدها من لحم او غيره من مطهو الطعام يتنقلون في انحاء المدينة يبيعون ما عندهم ، حاملين متاعهم من موقد او مقلاة يغلي مافيها ولحم وماء وكبشة صغيرة وملح وكل ما هو لازم ، على موائد لكل منها اربع ارجل يركزها الواحد على راسه اما الزبائن فيجلسون على صفات الشوارع ليأكلوا على مهلهم والبائع ينتظر ، ويشربون الماء القراح والخشاف ، وما اقل ما ينفقونه على طعامهم او مطبخهم او ثيابهم (١) ، ووضع باعة الطعام والشراب في دمشق تحت رقابة شديدة من جانب الدولة حرصا على صحة الاهالي ، فكان المحتسب الذى روعي فيه ان "يكون ذا رأى وصراحه وخشونة في الدين" (٢) ـ بفحص الاطعمة والمشروبات التي تباع في الطرقات للتأكد من جودتها وسلامتها ، فاذا وجد بعضها فاسدا اخذ البائع بالشدة (٣) . كذلك امر المحتسب باعة الطعام بتغطية اوانيهم وحفظها من الذباب وهدام الارض بعد غسلها بالماء الحار ... ويأمرهم "بكثرة الاباريز وقلة ألامراق ونضاجة اللحوم والتغاطي وغسل الاوعية التي يأكل الناس بالماء النظيف" (٤) .

وقد ذكر الرحالة البوغبونصي انه في دمشق لا يوجد رجل غني او فقير يطابخ في بيته ولكن الجميع يشترون الطعام من المطاعم والشوارع حيث انهم يجدون كل ما يشتهون مطبوخا وجاهزا خلال الليل والنهار ، وكل ساعة يطلب بها الرجل طعاما . وكان اهل دمشق يأكلون ليلا ونهارا لذلك بدا لنا ان هؤلاء لهم معدة من الحديد

---

١. Visit to the Holy Places ,P. 143.

٢. معالم القربة ، ص ٨ .

٣. معيد النعم ، ص ٩٢ .

٤. معالم القربة ، ص ١٠٨ .

واذا ما وصل الى دمشق مئة الف من الرجال دفعة واحدة سوف يجد هؤلاء لهم طعاما جاهزا ومطبوخا ويكفيهم جميعهم (١) .

وقد عرف في عصر المماليك انواعا عديدة من الاطعمة مثل المأمونية والخيطية والسفرجلية، والرمانية ، والفولية ، والكمونية وغيرها (٢) .

وعرفت دمشق باعة الفول المدمس يتجولون في الصباح بشوارعها ويقبل الناس عليه لفطورهم ، قال شهاب الدين بن حجر : قال بدر الدين بن الصاحب في طبيخ يطوف بالفول :-

انا ابن الذى بالليل تسطع ناره   كثير رماد القدر للصب يحمل

يدور باقداح الموافي على الورى   ويصبح بالخير الكثير يفوّل

وكان بعض الخاصة يستعمل الملاعق ، وقال الخيمي الشاعر في وصفها :

ومحددة كيل المجتدى   بكّف على ساعد مسعد

ترى بعضها في فمي كاسن   وجلتها في يدى كاليد (٣)

والمواد الغذائية في دمشق وفيرة ، فهناك القنبرنيس - وهو الجبن الابيض المجفف والقرنبيط ، وثمة معاصر الدبس - من العنب - ومنها تصنع الحلاوة الجوزية - والملبن ومما يتقن صنعه هناك حلاوة الارز مع الزبيب (٤) ومن مآكل اهل دمشق في الحلوى

---

١ . A Voyage Beyond the Seas ,P. 77.

٢ . زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٥ ، وهناك كتب الفت في ذلك العصر تشبه في موضوعها وتنظيمها كتب التدبير والطهو في عصرنا ، وفيها شرح لجميع المأكولات المعروفة لدى المعاصرين ، وطرق عمل كل نوع فيها ، سواء الخضراوات ام اللحوم والطيور أو المخللات أو الحلوى ، فضلا عن الكتب العديدة التي وردت في كتب الحسبة انظر : معالم القربة : ص ٩١ -١١٥ .

٣ . فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٤٦٦ .

٤ . القول المستطرف ، ص ٨ .

ايضا القطايف و شراب التفاح ،ودهن اللوز (١).

وكانوا يقدمون في الافراح شراب الليمون ،وشراب الحامض بقلب الفستق مع البندق ومن شرابهم التمر الهندى ،واحيانا يباع البطيخ بالمزة (٢).

وتناول الناس الطعام في منازلهم وهم جلوس على الارض ،ولتناول الطعام آداب تمسك بها المعاصرون ،منها التسمية في أول الاكل والحمد والشكر في آخره وضها الاتكاء عند الجلوس للأكل على الفخذ الايسر ،ويكون الاكل بثلاثة اصابع مع مراعاة تصغير اللقمة وتطويل المضغة وعدم الكلام حين الاكل (٣).

كذلك روعي غسل الايدى قبل الاكل وبعده ،واحيانا يكون ذلك بماء الورد ،ثم تنشف الايدي بالمناديل والفوط الحرير (٤).

وجرت العادة في عصر المماليك ان الزوجة والابناء لا يشاركون رب الاسرة في الاكل من وعاء واحد ،بل للرجل طعام خاص بوزبدية خاصة به وكوز خاص به (٥) وانتقد ابن الحاج ذلك الوضع ،كما انتقد ما حرص عليه كثيرون من ضرورة قيام خادم خلف الشخص الذى يأكل لينش عنه الذباب (٦).

وامتاز عصر المماليك بكثرة الولائم المنزلية ،فكل مناسبة من مناسبات الفرح مقرونة بوليمة للاهل والاصدقاء ،اما هذه المناسبات فاهمها الزواج والولادة والختان وبناء دار جديدة والاحتفال بعودة مسافر أو حاج (٧).

---

١ . الدرر الكامنة ،ج ٣ ،ص ٢٧٤ .

٢ . ذيل مرآة الزمان ،ج ٢ ،ص ٩١ .

٣ . المجتمع المصرى ،ص ١١٧ ،نقلا عن النويرى ،الالمام بالاعلام ،ج ٢ ،ص ٢١٧ .

٤ . المدخل ،ج ١ ،ص ٢٣٢ .

٥ . المدخل ،ج ١ ،ص ٢١٦ .

٦ . المدخل ،ج ١ ،ص ٢١٧ .

٧ . الدرر الكامنة ،ج ٢ ،ص ٤٤٤ .

ووضعت لهذه المآدب المنزلية آداب وقواعد ، منها انه يجب على صاحب البيت ان يبدأ بالاكل ايناسا للضيوف ، ويعزم عليهم ، ولا يمعن في الاكل حتى اذا شبع الضيوف او قاربوا فحينئذ يأكل بانشراح كذلك يجب عليه ان يقدم لهم قبل الاكل وبعده ما يغسلون به ايديهم ، ويستحسن ان يتولى ذلك بنفسه على ان يبدأ بالغسيل افضلهم ويكون صاحب الدار آخر من يغسل يديه (١) .

والملاحظ انه عند تقديم الوان الطعام اتبع الناس في ذلك العصر النظام نفسه الذى نتبعه اليوم ، فيقدم الطعام اولا ، ثم الحلوى من بعده ، واخيرا الفاكهة (٢) .

وكان في دمشق في ذلك العصر غالب اصناف الفواكه الجيدة التي يحفظونها من سنة لاخرى ، والثلج موجود باستمرار في دمشق ، حيث كان يوضع في الصيف على الفواكه باصنافها فيحفظها طازجة ويبردها بحيث تكون لذيذة الطعم (٣) .

وما احسب اننا بحاجة الى ان ننقل الى ما قيل في فواكة دمشق ، ولكن القصة التالية التي نقلها الينا البدرى ، طريفة ، قال : " حكي عن ابن الصائغ الحنفي انه لما قدم من القاهرة الى دمشق المحروسة ، نزل في (الجسر الابيض) عند الامير مجير الدين بن تميم ونهر ثورا يمر بداره المأنوسة . فأجلسه على جانب النهر لاجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين بن الصائغ ما يمرّ به من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما اعجبه ثم التفت لابن تميم وقال له : انت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم وانشده في الحال ارتجالا :

يقول وقد رأى ثورا جليلي	يفيض بسائر الثمرات فيضا
ايكفيكم فلا تشترون شيئا	فقلت له : نعم ، ونبيع ايضا

---

١ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

٢ . انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .

٣ . Visit to the Holy Places , P. 143.

وقال ابن الصائغ : وهذه الفاكهة اليس يرميها في النهر ارباب الغيطان ؟ قال له ابن تميم : انما هذه من اشتباك الاشجار وانحنائها عليه ، فيلقيها النسيم عند ما تشتمل الاغصان واما البساتنة فانهم يضمون فواكه مجموعة على ابواب البساتين كالزكاة لمن يمر بها ويحتاج الى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين" (١) .

٦ . الاحتفالات العائليـــة :

١ . الـــزواج :

ومن الخصائص البارزة التي اتصفت بها الحياة العائلية في عصر المماليـك كثرة الاحتفالات والافراح والتفاخر في احياء هذه الافراح ، حتى بلغ الامر ببعض النـاس ان يبيع الواحد ثيابـه ويقترض الاموال بالربا ليتباهى امام الناس ويقال طعام فلان أكثـر من طعام فـلان (٢) .

واول الافراح العائلية الاحتفال بالزواج ، ونحن بحاجة الى التعرف على كيفيـة عثور الرجل على شريكة لحياتـه في مجتمع سيطرت عليه تقاليد معينه كالحجاب والفصـل بين الرجل والمرأة ، وعدم السماح برؤيـة العروس الا بعد زفافها . وكذلك التعرف علـى التقاليد والعادات التي صاحبت الزواج ، اذ يقول الفقيه المغربي ابن الحاج بهـذا الصدد "اما النكاح فلا تسأل عما احدثوا فيه ... وهو كثير متعدد قل ان يحضر او يرجع الى قانون معلوم لاختلافه بالنسبة الى الاقاليم والبلاد والعوائـد (٣) .

ان المصادر المملوكية التي بين ايدينا الان قد ضنّت علينا بالكثير من المعلومات الخاصة بمراحل الزواج الاولى ، ونعني بها مرحلة الخطوبـة الا انه من الواضح ان الخاطبة في ذلك العصر قامت بدور كبير في اتمام مهمة الخطوبـة . وصور هذا الدور بوضـوح

---

١ . نزهـة الانـام ، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

٢ . التصـوف ، ج ١ ، ص ٣٦٦- ٣٦٧ .

٣ . المدخـل ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ .

ابن دانيال الموصلي فوصف كيف يقصد راغب الزواج الخاطبة التي تتظاهر ببيع الطيب والبخور وغير ذلك من لوازم النساء ، وبذلك يتاح لها دخول البيوت والاطلاع على اسرار النساء ، فتستطيع ان تأتي للعريس بالعروس التي تتفق رغباته ومطالبه (١) ويفهم ايضا من تمثيلية ابن دانيال ، ان هذه المرأة قد اعتادت ان تبالغ في المعلومات التي تمد بها الطرفين ، فالامير وصال يفاجأ في النهاية على حد قول هذا الكاتب "بعروس شوهاء مخيفة" ، ولا يملك وقتها الا ان يغمى عليه من هول بشاعتها وبعد ان يفيق يصمم على الانتقام من الخاطبة التي اوقعته في هذا المأزق (٢) ، وجرت العادة انه اذا رضى الراغب في الزواج بالمعلومات التي قدمتها الخاطبة له فانه يسرع اليها ثانية مقدما لها هدية ويرسلها من جديد الى عائلة الفتاة لتبلغها رغبته في الاقتران بابنتها وعلى الرغم من ان الشريعة الاسلامية قد نصت صراحة على ضرورة موافقة الفتاة على شريك حياتها ، الا انه من الراجح ان الفتاة في العصر المملوكي لم يكن لها اى رأى في اختيار زوجها ، بل ظل الرأى الاول والاخير لوالدها ، وربما شاركته في ذلك امها (٣) .

اما افراد طبقة المماليك فقد ترك لهم حرية اختيار زوجاتهم من بين بنات جنسهم . ولعل فيما رواه المؤرخ بيبرس الدوادار بصدد زواج الملك الصالح بن السلطان قلاوون بخوند منبك خير دليل على ذلك ، اذ يقول : ان زوجة ابيه قد اختارت له بنت سيف الدين نوكيه وكان له بنتان فمالت اليهم للجنسية (٤) .

وهذا يعني ان الزواج عند هذه الطبقة كان بعيد كل البعد عن الاعتبارات السياسية التي نلاحظها في مجتمعنا الحديث . ومع ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد تزوج

---

١ . طيف الخيال ، ص ٣٩ - ٤٩ .

٢ . طيف الخيال ، ص ١٣٢ .

٣ . التبر المسبوك ، ص ٣٩١ ، الف ليلة وليلة ، ص ٢٦٥ .

٤ . زبدة الفكرة ، الورقة ١٣٨ ، ب .

عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م بخوند طولبية ، احدى اميرات المغول (١) ، بيد ان هذا الزواج لم يدم طويلا وسرعان ما هجرها (٢) ليقترن من بنات جنسه . فقد حرص افراد طبقة المماليك على مصاهرة بعضهم البعض حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة اذ جاء في قول المقريزى (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) ان السلطان الناصر زوج احدى عشرة ابنه من مماليكه (٣) ، وعن زواج ستيته ابنة السلطان المذكور بالامير منطاش (٤) وعن زواج الامير منكلي بغا الشمس بخوند ساره اخت الاشرف شعبان (٥) وعن زواج زينب اخت السلطان فرج بن برقوق بالامير سودون الحمراوى (٦) . وتتحدث المصادر التاريخية المملوكية عن السلاطين الذين تزوجوا من بنات الامراء مثل السلطان المنصور قلاوون الذى تزوج عام (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) بخوند اشلون ابنة الامير سنكاى (٧) ، وبابنة الامير شمس الدين سنقر التكريتي (٨) . والسلطان الكامل شعبان الذى حرص على اختيار زوجاته من بين بنات مماليكه (٩) . والسلطان الظاهر برقوق الذى تزوج بفاطمة ابنة الامير منكلي بغا (١٠) والسلطان جقمق الذى تزوج بخمس من بنات مماليكه (١١) .

---

١ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ . الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

٢ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

٣ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٣٦ .

٤ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٥١ ، ٣٥١ ، ابناء الغمر ، ج ١ ، ص ٣٧٩ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ .

٥ . السلوك ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

٦ . النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٩٧-٢٩٨ .

٧ . زبدة الفكرة ، الورقة ١٣٩ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٠٩ ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١١٥ .

٨ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٦٩ .

٩ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٩٠ .

١٠ . السلوك ، ج ٣ ، ص ١٥٣ .

١١ . الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٤٠ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

من هذا يتضح ان افراد طبقة المماليك لم يحاولوا الزواج من اهل البلاد ، بل اختاروا كما سبق ورأينا زوجاتهم وجواريهم من بنات جنسهم اللواتي جلبهن التجار فاذا انتهى دور الخطوبة ، جاء الدور الثاني الخاص بعقد القران ، ودفع المهر والصداق الذى لا زواج بدونه ، والذى كثيرا ما كان موضوع مساومات ومناقشات عديدة من كلا الطرفين (١) .

ويبدو ان المريس كان يتذمر دائما من الصداق (٢) ، واعتادت طبقة المماليك ان تدفع مبالغ باهظة من الصداق ، وقد حرص مؤرخو تلك الفترة على اثبات ذلك في مؤلفاتهم التاريخية لتشير الى المكانة الرفيعة التي احتلهتا المرأة في عصر المماليك اذ ذكر ابو المحاسن ان السلطان جقمق عقد قرانه على نفيسة ابنة الامير ناصر الدين بن دلغادر بعد ان حمل اليها المهر الف الف دينار وعدة اشياء كثيرة من الاقمشة والحرير وغيرها (٣) . وذكر المقريزى ان قاضي القضاة بدر الدين بن محمد بن جماعة عقد قران السلطان الناصر محمد بن قلاوون على خوند طولبية على ثلاثين الف دينار ، المقدمنها عشرون الفا ، والمؤخرة عشرة آلاف (٤) كما ان السلطان الصالح اسماعيل عقد على بنت الامير احمد بن بكتمر الساقي ، واصدقها عشرة الاف دينار (٥)

كما تزوج ناصر الدين بن محمد بن السلطان الاشرف قانصوة بابنة الامير سيباى نائب دمشق على صداق جملته نحو عشرين الف دينار (٦) .

كذلك ذكر في المصادر المملوكية ان السعيد بركة خان بن السلطان بيبرس

---

١. Social Life in Egypt ,P. 164.

٢. طيف الخيال ، ص ١٣٢ .

٣. النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١١٠ .

٤. السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

٥. السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٢٣ .

٦. السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٠٠ .

البند قداري تزوج بغازية خاتون ابنة المنصور قلاوون على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار المعجل منها الفا دينار (١).

وذكر اليونيني (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م) ان الامير سيف الدين القيمرى ـ واقف المارستان بجبل الصالحية ـ والامير سيف الدين المذكور كان قد تزوج ابنة الامير عز الدين بن المحلي على صداق كبير وجهزت بجهاز كثير واستصحبها معه الى مصر فتوفيت هناك من غير ولد فلما ملك الناصر صلاح الدين بن يوسف بن محمد دمشق والشام حضر الامير سيف الدين من مصر الى خدمته واخذ قماش زوجته المتوفاة وجهازها ومالها من الفضيات والمصاغ وغير ذلك وحملة على عشرين بغلا ووزن باقي صداقها ومائتي الف درهم، وجعلها في صناديق وحملها على بغال وسار الجميع الى الامير نور الدين على بن المجلي بحكم انه وارثها مع زوجها فلما وصل ذلك الامير الى نور الدين " انكره غاية الانكار ورده وقال لرسوله الاكراد ما جرت عاداتهم يأخذون صداقا ولا ميراثا فلما عاد ذلك الى الامير سيف الدين قال هذا شيء خرجت عنه وما يعود الى ملكه وصرفه جميعه في بناء المارستان واوقافه وتصدق به (٢).

ويوجد في دمشق اوقاف على تجهيز البنات الى ازواجهن " وهن اللواتي لا قدرة لاهلهن على تجهيزهن " (٣). كذلك كان يؤخذ من اوقاف دمشق لشراء الاسرى من النساء (٤).

وجرت العادة في عصر المماليك، انه في حالة زواج احد ابناء او بنات السلاطين او الامراء او اعيان الدولة، ان نكتب له خطبة صداق تكون في الطول والقصر حسب

---

١. السلوك، ج ١، ص ٦٢٣، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٧٠، ذيل مرآة الزمان ج ٣، ص ١١٩، تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٥١-٥٣.
٢. ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٤٣-٤٥.
٣. رحلة ابن بطوطة، ص ٦٣-٦٤.
٤. الروض الزاهر ص ٣٤٧.

مكانـة صاحب العقـد (١).

وبعد عقد القران تأتي الخطوة الثالثة ، وهي اعداد الجهاز ونقله الى منزل العريس ويتناسب الجهاز مع مركز اصحاب العرس ومدى ثرائهم ، ففي افراح السلاطين والامـراء يحمل الجهاز احيانا ما يزيد عن اربعمائة جمل (٢). وفي هذه الحالة ينقل الجهاز الى بيت الزوجية في موكب كبير تسير فيه الامراء بالمقدمون والمماليك في افخر ثيابهم وبأيديهم الشموع (٣).

ويذكر ابو المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م) في حوادث عام (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ، وعن زواج اقطاى من بنت الملك تقي الدين محمود صاحب حماة وكان اخوها الملك المنصور وهو يومئذ صاحب حماة بعد موت ابيه ، فخرجت بنت صاحب حماة من حماة ووصلت دمشق بتجمل عظيم من عدة محفات - وهي الهوادج المغطاة بالقماش التى تحمل على ظهور الجمال حيث يجلس المسافرون - مغشاة بالاطلس وغير ذلك من مفاخر الثياب وعليها الحلي والجواهر ثم خرجت بمن معها من دمشق متوجهة الى مصر (٤).

ويذكر الدوادار (توفي في منتصف القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) عن زواج بنت الامير تنكز نائب الشام بقولـه : " وفيها كان المهم العظيم الذى ما رأى الناس مثله ، الا ان كان مهم بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون امير المؤمنين وهذا المهم سببه دخول بنت المقر السيفي تنكز نائب الشام على ولد المقر المرحوم السيف بكتمر الساقي ، وذبح في هـذا المهم من الاغنام والابقار ما لا يحصى وعمل من التماثيل النفط شيء يذهل العقول وحمل

---

١. صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ٣٠٠.
٢. بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٤٤-٢٤٥.
٣. النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٧٩.
٤. النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠-١١.

من الشموع بالقناطير المقنطرة ، وحمل قبل ذلك جهاز العروس وفيه من الاموال والاقمشة والامتعة ما يجاوز حد القياس ولا يحصى بالتعبير ووقف السلطان بنفسه الشريفة في تعبئة هذا الجهاز وفعل من المعروف ما هو جميل احسانه معروف " (١) .

ويذكر ابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٢م) عن جهاز آنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون انه بلغ جهاز زواجه حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال كما بلغ الذهب في المصاغ والملابس الزركش ثمانين قنطارا ، ومع كل ذلك استصغر والده السلطان الناصر هذا الجهاز عند ما رآه وقال انه رأى جهاز بنت الامير سلار احسن منه واكثر (٢) .

ومهما كان في هذه الامثلة من مبالغة واضحة ، فانها تعطينا فكرة عن ثروة سلاطين المماليك وامرائهم في ذلك العصر .

اما اذا لم يكن اصحاب العرس من الامراء فانه يحتفل بنقل الجهاز في حفل يشترك فيه الاقارب والمعارف ، وجرت العادة في ان يكون في ذلك الجهاز سبع دكك من فضة ، ودكة من نحاس مكفت ، ودكة نحاس ابيض ، ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صين(٣) ، والدكة عبارة عن شيء يشبه السرير يوضع فوقها اواني مختلفة من كاسات واطباق وسرج واقطان واشنان وطشت وابريق ومبخرة (٤) ، هذا عدا عن الشطرنج وغيرة من الكماليات التي تحمل مع الجهاز (٥) .

---

١ . كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
٢ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤١٨ .
٣ . الخطط ، ج ٣ ، ص ١٧٠-١٧١ ، المدخل ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .
٤ . الخطط ، ج ٣ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، فنون الاسلام ، ص ٥٥٣-٥٥٤ .
٥ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٣٤ .

وفي ليلة الزفاف تقام وليمة كبيرة للاهل والاصدقاء تسمى وليمة العرس ، وهي في الواقع وليمتان ، احداهما للنساء وتقام في بيت العروس والاخرى للرجال وتقام في بيت والد العريس ، واحيانا تقام الوليمتان في بيت واحد (١) . وجرت العادة ان يعد صاحب العرس ما ليس من عادته ان يطبخه مما هو فوق طاقته ، فترى والد العريس وام العروس أو أم العريس يبيع احدهم ثيابه في عمل الطعام او يقترض غالب ذلك ولو بالربا ، فيعمل ذلك الطعام متكرما متفاخرا به (٢) .

وبعد الطعام - اى في المساء - يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الاهل والاصدقاء (٣) . وبوصول العريس الى منزل عروسه يبدأ حفل الزفاف الذى تحييه عدة جوق من المغاني ، فيختلط فيه الغناء بضرب الدفوف وزغاريد النساء(٤) وتحرص المدعوات اللواتي يحضرن الفرح على ارتداء الملابس الجاهزة الفاخرة والتحلي بالمجوهرات الثمينة (٥) . وكثيرا ما تباهى المدعون والمدعوات بالمبالغة في تقديم النقوط الى المغان (٦) ، وتقديم الهدايا من الشمع (٧) والتحف الفاخرة (٨) والخراف والسكر والارز وغيرها الى اصحاب العرس (٩) .

---

١ . التبر المسبوك ، ص ٣٠٢ ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٦٦-٦٧ ، التصوف ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

٢ . التصوف ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

٣ . التصوف ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

٣ . التبر المسبوك ، ص ٣٠٢ ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ٦٦-٦٧ .

٤ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٠١ .

٥ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٢٦ .

٦ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣١٧ .

٧ . تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٨٥ .

٨ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٠١-١٠٢ .

٩ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٠١-١٠٢ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٠٥-٣٠٦ .

ويبدو ان تلك الهدايا اعتبرت ضريبة او دينا لا بد من دفعه ، حتى تضايق بعض امراء المماليك في وقت من الاوقات بسبب كثرة الافراح وقالوا "هذه مصادرة" (١).

اما العروس فكانت تتصدر ذلك الحفل بعد ان تستكمل زينتها وبهائها ، اذ تقوم الماشطة بتكحيلها وتمشيطها وتحفيفها ، كما يفهم من قصص الف ليلة وليلة ، ثم الباسها افخر الثياب المطرزة ، وغالبا ما تضع على رأسها شربوشا (٢) . وهو اشبه بالتاج مثلث الشكل ، كان يحمل على رأس المرأة بغير عمامة (٣) . ومن العادات الغريبة في ذلك العصر ان الناس كان من عاداتهم في الاعراس ان يلبسوا العرائس لباس الرجال من جندى وقاضي وغيرهما (٤) .

ويبدو أن العادة جرت في افراح ذلك العصر ان تقدم العروس لزوجها في اللحظة التي تجلى عليه - سيفا فاخرا تمسكه من اطرافه فيتناوله العريس من مقبضه (٥) ، كما اعتاد العريس في اغلب الاحيان ان يعلق في شربوش العروس بعض الدنانير ، فقد اشارت المصادر المملوكية ان الامير منطاش علق بشربوش خوند ستيتة ليلة ان زفت اليه ، دينارا زنته مائتا مثقال ، ثم دينار زنة مائة مثقال (٦) . وفي نهاية الاحتفال اعتاد العريس ان يأخذ العروس من يدها ، وعندئذ تقبل العروس يد زوجها (٧) .

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢١٢ .

٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٧٩ ، طيف الخيال ، ص ١٣٦ .

٣ . الخطط ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٣٥١ ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٨٦ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ .

٤ . التصوف ، ج ١ ، ص ٣٤٧ ، لواقح الانوار ، ص ٣٣١ .

٥ . المجتمع المصرى ، ص ١٢٢ ،

٦ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٦١ ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٣٥١ ، انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٤٥ .

٧ . سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٩ ، ص ٢٣ .

اما افراح اهل الذمة فيذكر المؤرخ ابن حجر انه سمح لاهل الذمة في عصر المماليك باقامة افراحهم في الملاهي ، (والمغاني على عاداتهم) (١) ، وان كان قد اغفل ان يشير الى طبيعة هذه العادات .

والحديث عن الزواج في عصر المماليك يؤدي بنا ايضا الى الاشارة الى ظاهرة تعدد الزوجات ، وقد ذاعت ظاهرة تعدد الزوجات لدى طبقة المماليك ، وحسبنا ان نذكر في هذا المجال ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان متزوجا من اربع زوجات وشغف ايضا بحب الجواري ، حيث كتب لاعماله ببيع الجواري والمولدات وحملهن اليه ، واخذهن حتى الد من المغنيات ، فزادت عدتهن عنده على الف ومائتي وصيفة (٢) .

ولقد لفتت ظاهرة تعدد الزوجات نظر الرحالة الاجانب الذين زاروا دمشق في ذلك العصر ، حيث يذكر ان كل واحد من رجال دمشق كان له عدة زوجات ، وكانوا لا يحتفظون بهم جميعا معا ، ولكن كان لكل واحدة منهن بيتا خاصا وفي اثناء الليل يذهب الرجل الى واحدة من نسائه تهواها نفسه (٣) .

مما تقدم نستطيع القول بانه اذا كانت ظاهرة تعدد الزوجات قد شاعت في عصر المماليك ، فقد وجدت فئة غير قليلة من الرجال اكتفوا بالاحتفاظ بزوجة واحدة ، ولشدة اعباء الزواج كتب احد المعاصرين على سبيل المداعبة ، "لو كانت الشركة تصح في الزوجات لشاركت في جزء من اربعة وعشرين جزءا ، وقال آخر لصديق له "ان استطعت ان تكتفي في هذا الزمان بنصف امرأة فافعل " (٤) .

---

١ . انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .
٢ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢١٠ .
٣ . Visit to the Holy Places , P. 143.
٤ . الطالع السعيد ، ص ٢١٨ .

بل لعل من ابرع ما قيل في هذا الشأن ،تلك الابيات التي صاغها ابن منصور احد شعراء عصر المماليك بصدد قسوة الزواج واعبائـه :-

يا طالب التزويج انك بالذى　　　تبغيه مني جاهـل معـذور

هل ابصرت عيناك صاحب زوجة　　　الا حزينا ما لديه سـرور (١)

ورغم قلة الاشارات التي عثرنا عليها في المصادر المملوكية التي بين ايدينا ،فانه يمكننا القول ان نساء هذا العصر قد اعتادت ،فيما يبدو ،تقبل هذا الوضع دون اى اعتراض ،كما نلاحظ من قصص الف ليلة وليلة ،وكل ما هناك اشارات بعيدة جدا عـن غـيرة الزوجـة (٢) .

وقد نسمع ان شخصا اشترى جارية لخدمته فتحقد الجارية على سيدتها وتتملكها الغيرة وتعمد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدهـا (٣) .

كذلك لم تجد نساء هذا العصر اية غضاضة او مرارة او حرجا او موقفا غير عـادى ان هي اقدمت على الزواج بعد وفاة زوجها ،او بعد طلاقها (٤) .

٢ . الـولادة والنفـاس :

ومن الاحتفالات العائلية ذات الاهمية الكبرى في عصر المماليك ذلك النوع الخاص "بالنفاس والولادة" ،اذ جرت العادة ان يتفق قبل الوضع مع الداية على أجر معلـوم حتى لا يحدث نزاع " وكلام كثير " حول تحديد اجرها بعد الوضـع (٥) ،ويشير الفقيـه

---

١ . فوات الوفيات ،ج ١ ،ص ١٦ .

٢ . حوادث الدهـور ،ص ٣١ ،الف ليلة وليلة ،ص ٣٢١ .

٣ . السلوك ،ج ٢ ،ص ٨٧٢ ،بدائع الزهـور ،ج ٢ ،ص ١٣٤ .

٤ . بدائع الزهـور ،ج ٢ ،ص ٢٤٤ ،الضـوء اللامـع ،ج ١٢ ،ص ٢٥ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١١٧ .

٥ . الـدرر الكامنـة ،ج ٤ ،ص ١٤٤ ،المدخل ،ج ٣ ،ص ٢٨٣ .

المغربي ابن الحاج الى الدايات في ذلك العصر بقوله : ومنهن من اذا تعسرت الولادة على المرأة يأخذن لباب الخبز ويجعلن في قلبه زبل الفأرة ، ويطعمنها ذلك من حيث لا تشعر ويعللن ذلك بزعمهن انه يهون عليها الولادة (١) .

واذا وضعت الام مولودها ، اقبلت عليها النساء يزغردن ويرفعن اصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص واللهو واللعب في حين تدوى المزامير والابواق على ابواب المنزل "لتعلم ما في وسعها من الهرج والشهرة" (٢) .

وعند قطع السرة للمولود يجتمع حوله حشد كبير ، من صغار الاطفال ، وزعموا ان من لا يحضر من الصغار عند قطعها ودخل بعد ذلك تحول عيناه او يبكي كثيرا في طفولته (٣) .

اما السكين التي تقطع بها سرة المولود فتبقى عند راسه ما دامت امه جالسة عنده ، فاذا قامت حملتها معها . وتظل تفعل ذلك اربعين يوما حتى لا يصيبها شيء من الجان (٤) .

ويتضاعف الفرح اذا كان المولود ذكرا ، اذ كان الرجل كثيرا ما يركز كل آماله عندما تحمل زوجته ان يكون المولود ذكرا "يحيى به ذكره وينشرح له صدره" (٥) ، فاذا تم ما تمناه ينبغي عليه أن يقيم "وليمة مولود ذكر"(٦) يدعو اليها الاهل والاصدقاء ويفرط في عمل الوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعفت لام المولود في هذه الحالة (٧) .

---

١ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

٢ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٨ .

٣ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .

٤ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩١ .

٥ . زبدة الفكرة ، ورقة ٣٠٤ .

٦ . انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٥٦٠ .

٧ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣١٩ ، التبر المسبوك ، ص ٧ .

وتستمر هذه الافراح عادة سبعة ايام لا تنقطع مدتها وفود المهنئين والمهنئات، وكل من جاءت للتهنئة جددوا لها اللهو واللعب والرقص ، وعندما تحل الليلة السابعة وهي "ليلة السبوع" يضعون عند رأس المولود الختمة واللوح والدواة والقلم ورغيف من الخبز وقطعة من السكر، واذا كان اهل المولود من ذوى السعة ،عطوا رغيفا كبيرا ، و "ابلوجه من السكر" ووضعوها مع طبق الفاكهة " وقفة من النقل والشمع" عند رأس المولود . وفي صبيحة السبوع يفرق كل ذلك ، ويزعمون انه بركة لمن اخذه وانه ينفعه من الصداع ،كما يزعمون ان الملائكة تكتب بالدواة والقلم ما يجرى على المولود في عمره الى حين وفاته (١) .

واعتاد الناس ان يحتفلوا بيوم السبوع احتفالا كبيرا ،فتلبس ام المولود الثياب الجديدة الجميلة ،وتطوف في انحاء الدار في موكب كبير ،تحيط بها الشموع من كل جانب ،والقابلة امامها تحمل المولود ،وامام القابلة امرأة اخرى معها طبق به شيء من الملح المخلوط بالكمون تنشره في البيت يمينا ويسارا ،هذا كله عدا احراق نوع من البخور "مخصوص بالولادة" يحمي من الامراض والعين والجان ،ولا بد في ذلك اليوم من عمل الوان معينة من الطعام كالزلابية والعصيدة وتفريقها على الاهل والجيران والمعارف (٢) .

---

١ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٠ .

٢ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩١ .

ويفهم من كتابات بعض المعاصرين ان العادة اوجبت على والد المولود ان يجدد كسوة اهل المنزل جميعا ، وكذلك كل ما يحتاجة حتى الحصير لا بد من تجديدها الى غير ذلك مما اعتادوه (١) .

وتمسك الناس في عصر المماليك بهذه العوائد ، حتى تداين بعضهم لها ، ولم يخالف اهل العلم والمشيخة بقية طبقات الشعب في ذلك (٢) . ويتحدث السخاوى عن نفسه عندما رزق مولودا عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ، فأقام وليمة كبيرة دعا اليها الفقراء والصلحاء وطلبة العلم وغيرهم ممن توسم فيهم الخير (٣) .

٣ . الختان :

ومن الاحتفالات العائلية في دمشق في عصر المماليك " الختان " ، وقد اجمعت مختلف الطبقات في دمشق على الاحتفال بختان الطفل احتفالا عظيما ، وقد جرت العادة ان يقوم بعملية الختان " المزين "(٤) وعندئذ يقيم اهل الطفل احتفالا كبيرا يدعون اليه سائر الاهل والاصدقاء (٥) .

ولا بد للمدعوين في هذه المناسبة من تقديم النقوط لاهل الطفل ، فيضعون هذه النقوط في " الطشت الذى يطاهر فيه الولد " (٦) .

واذا كان الختان خاصا باحد اولاد السلطان ، نادى المنادى بذلك حتى يحضر الامراء والناس اولادهم ليختونهم بعد ابن السلطان ، وبلغ احيانا عدد الصغار الذين

---

١ . المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ .
٢ . التبر المسبوك ، ص ٢٤٩ ، المدخل ، ج ٣ ، ص ٢٨٨-٢٩٣ .
٣ . التبر المسبوك ، ص ٢٤٩ .
٤ . انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٦٦ .
٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٥٨٠ .
٦ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٦٦ ، ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٣٧٦ .

أحضرهم اهلهم ليختونهم بعد ابن السلطان اكثر من الف وستمائة طفل من ابناء الفقهاء والعوام ، هذا عدا ابناء المقدمين والامراء والجند ، وكثيرا ما طالت الافراح الخاصة بهذه المناسبة فاستمرت احيانا بين ثلاثة ايام وسبعة ، يأمر السلطان خلالها بعرض الجند ولعب القبق اظهارا للفرح كما يوزع كثيرا من الهبات والاموال والخلع (١) .

٤ . عودة الحاج :

ومن الاحتفالات العائلية ايضا ما اعتاد ان يفعله الناس عند سفر احد افراد الاسرة للحج ، او عودته من الحجاز ، فقبل خروج الحاج لاداء فريضة الحج تخرج بعض قريباته ومعارف الاسرة ليطفن بالطرق والاسواق على هيئة مواكب ويرفعن اصواتهن بنوع من الاناشيد يسمونها " التحنين " اى تشويق الناس للحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي اليوم المحدد لخروج الحاج يركب جملا مزينا بالحلي من ذهب وفضة واساور وقلائد ، هذا عدا عن كسوة حريرية فاخرة يلبسونها للجمل (٢) . فاذا ما قضى الحاج فريضة الحج ، ووصل المبشر بخبر سلامة الحجاج ، خرج اهل الحاج لاستقباله وصحبتهم انواع المأكولات والملنف " على العادة "(٣) حتى إذا ما عاد الحاج الى منزله اقيمت الافراح والولائم وضربت على ابوابه الطبول والابواق والمزامير ، ويسمون ذلك " تهنئة الحاج "(٤) .

هذا ويلاحظ في جميع الاحتفالات والافراح السابقة انه كان لا بد من الحصول على اذن ضامنه المغاني بعد دفع المال او الرسم المقرر لها . فكان على النساء " اذا تنفسن او عرسن أو خضبت امرأة يدها بالحناء " ، الحصول على ذلك الاذن ، " ومن عمل فرحا باغان او نفس امرأته من غير اذن الضامنه حل به بلاء لا يوصف " وقد ظل هذا الوضع سائدا حتى عام (٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) عندما ابطله السلطان الملك الاشرف شعبان (٥) .

---

١ . السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٩ ، - ٥٢٠ ، ٦١٢ ، ٧٨٥ .
٢ . المدخل ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .
٣ . التبر المسبوك ، ص ١١٤ .
٤ . المدخل ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .
٥ . الخطط ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

الفصل السابع

المرأة ومكانتها في المجتمع

١ . عناية المرأة بجسمها
٢ . مقاييس ومعايير الجمال
٣ . مكانة المرأة في المجتمع
٤ . الجواري
٥ . المرأة والحياة العامة

المرأة ومكانتها في المجتمـــع :

١ . عنايـــة المرأة بجسمهـــا

يذكر الرحالة الذين زاروا دمشق في العهد المملوكي عند ذكرهـــم نسائها ان نسبة الحسان منهن فيها اكثر من اى نسبة في المدن الاخرى والسبب فـــي ذلك يعود الى انه عندما فتح العرب المسلمون مدينـــة انطاكية التي كان يحتلهـــا المسيحيون رحل العديد من اهلها ومن ضمنهم اربعةآلاف امرأة غير متزوجة وكن علـــى نسبة عالية من جمال الهيئـــة ،والذين تزوجهم العرب المسلمون في دمشق بعد ذلـــك، وانحدر من نسلهن معظم اهالي دمشق (١).

يبدو من هذه العبارة ان نساء دمشق في ذلك العهد كن يتمتعن بالجمـــال ، والفتنـة بغض النظر عن تحليل الرحالة لسبب هذا الجمال ،لانني اشعر ان بعـــض التعصب لبني دينـــه .

والواقع ان المرأة في دمشق في العهد المملوكي تفننت باستعمالها الوسائل التي تظهر جمالها وفتنتها "ودأبت على ان تأخذ شعر وجهها وجسدها بالتحفيف وشعـــر حواجبها بالمساواة والزينـــة" (٢)

والواقع ان الحمامات في دمشق في ذلك العهد كانت من الاماكن التي تهـــرع الكثيرات من النساء اليها للعناية بانفسهن ولابراز جمالهن وفتنتهن ،ولم تتعرض المؤلفات التاريخيـــة كما ذكرنا لوصف الحمامات العامة وتصميمها في ذلك العهد التي لا تفيـــد

---

١ . Visit to the Holy Places ,P. 142.

٢ . المدخـــل ،ج ٢ ،ص ١٦٧ . ج ٤ ،ص ١٠٧ .

في التعرف على طبيعة هذه الحمامات والمخصص منها للنساء بوجه خاص (١) ومع ذلك فمن الممكن ان نتعرف على طريقة تخطيط حمامات هذا العهد من خلال دراستنا للمصادر المملوكية المعاصرة حيث انه كان من اجزاء الحمام الرئيسية بيت اول ، وهو عبارة عن قاعة صغيرة مربعة تقريبا ، فيها تنزع النساء ملابسهن ، وتمتاز هذه الغرفة بالدفء ، وسميت كذلك لانها اولى الغرف الدافئة ، وعندما تخلع المستحمة ثيابها كانت تضع على جسدها أزارا يصل الى الركبتين وبعدها تنتقل الى الغرفة الرئيسية من غرف الحمام المسماة "بيت الحرارة" وهو عبارة عن قاعة مبلطة بالفسيفساء ، تعلوها قبة ، وتحتوى على اربع اواوين في كل واحد منها حوض وطهر وبيت نوره وفي بيت الحرارة هذا تقوم البلانة باداء عملها من تدليك جسد المستحمة بقشور الرمان لتصبح خشنة ويخرج الوسخ ثم غسله بالماء الساخن الذى يوجد في المغطس ، وبعد ذلك تقوم بتجفيف جسدها بالمناشف والفوط ، ثم تبدأ بازالة الشعر من بعض المواضع اذا لزم الامر مستخدمة في ذلك النورة وهي عبارة عن خليط من الجير والزرنيخ ، وتتلخص طريقة اعدادها من " القاء على كل عشرة اوزان من الجير الابيض في وزن واحد من الزرنيخ الخالص " (٢)

وكثيرا ما شدد المحتسب على البلانة لمراعاة دقة هذه الاوزان حتى لا تفسد النورة وتحدثنا قصص الف ليلة وليلة ان البلانة كانت تستخدم عجينة من السكر والليمون لازالة الشعر بدلا من النوره (٣) . وبعد انتهاء البلانة من عملها كانت المستحمة تنتقل مرة أخرى الى غرفة بيت اول حيث تقضي هناك بعض الوقت تحت ايدى الماشطة التي كانت تنحصر مهمتها في تزيين الوجه والرأس بكافة الطرق والوسائل حتى تبدو

---

١ . راجع الفصل الخاص بالمؤسسات الاجتماعية الاخرى ، القسم الخاص بالحديث عن الحمامات في هذه الرسالة .

٢ . نهاية الرتبة لابن بسام ، ص ٧١-٧٢ .

٣ . الف ليلة وليلة ، ص ٢٣٦ .

المرأة عند مغادرتها الحمام في اجمل زينـــة واكمل هيئة ما استصحبته معهـا من الثياب الفاخرة والحلي والجواهر حتى يراها غيرها فتقع المفاخرة والمباهاة" (١) .

وقد هاجم الفقيه المغربي ابن الحاج معاصريه من العلماء لتركهم نسائهـم يدخلن الحمامات "باديات العورات ومن يجتمعن في الحمامات مسلمات ونصرانيـات ويهوديات فيكشف بعضهن على عورات بعض" (٢) .

وتصور لنا قصص الف ليلة وليلة كيف كان تجتمع النساء في دمشق وغيرها مـن المدن المملوكية في الحمام للعناية بزينتهن وليلهون ويتجاذبن وليرين الغريب و يتصلن بـه . كذلك تصور لنا هذه القصص المراحل المختلفة التي كانت تمر بها المرأة فـي الحمام حتى تخرج في النهاية في ابهى زينة واجمل صورة . فتشير كيف كانت تعطـر الرأس بعد الحمام بالمسك ، وكيف كانت تزين الحواجب والعيون بالكحل وما الى ذلـك من تبخير الكموب بالبخور المخلوط بالعنبر والمسك ومن تخضيب الايدى بالحناء (٣) ، ولم تقتصر نساء دمشق في العهد المملوكي على تخضيب اياديهن وشعرهن بالحناء بـل اعتادن الكثيرات منهن ان يزيّن بالوشم اجزاء مختلفة من اجسامهن (٤) ويبدو أن طريقة الوشم هذه اثارت فقهاء العصر المملوكي لانهم كثيرا ما اشاروا في كتاباتهم الى قـول الرسول صلى الله عليه وسلم "لعن الله الواشمات والمتوشمات والنامصات والمتنمصـات والمتفلجات للحسن المغيرات لخلق اللـه" (٥) .

ويفهم من هذا الحديث الشريف ايضا ان المرأة في ذلك العصر قد اعتـادت

---

١ . المدخـل ، ج ٢ ، ص ١٧٣ .
٢ . المدخـل ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .
٣ . الف ليلـة وليلـة ، ص ٢٣٦ .
٤ . المدخـل ، ج ٢ ، ص ١٦٧ .
٥ . المدخـل ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ، لواقـح الانـوار ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

على نقش الحواجب على رمتها ،كما د رجت على تفليج اسنانها بالمبرد للتحسين وعلى جرد ها لتبيّض . (١)

ويبد و ان طريقة الرسم هذ ه قد أثارت ثائرة الفقهاء في ذلك العصر ولم نجد شيء في كتابات مؤرخي تلك الفترة ،كذلك من الصعب التعرف على ذلك من خلال تصاوير العصر المملوكي ، اذ غالبا ما تبد و صورة النساء في هذه التصاوير غير واضحة المعالم ونادرا ما تكون الرأس مكشوفة ،ومع هذا يفهم من كتابات فقهاء العصر المملوكي ان النساء اعتد ن على وصل شعورهن اذ يقول الشعراني "اخذ علينا العهد العام عن الرسول صلى الله عليه وسلم ،ان تفتر احدا من النساء على وصل شعرها" وانه لعنَ الواصلة اى التي تصل الشعر بشعر النساء والمستوصلة اى المعمول بها ذلك (٢).

وانكر ابن الحاج على معاصريه من الرجال ان الواحد منهم يترك امرأته للمزين "يحففها ويباشر بيد يه خد يها وشفتيها" (٣).

واخذ الفقهاء المعاصرون على النساء عنايتهن بالزينة عند الخروج من المنازل واهمال انفسهن د اخلها أمام الا زواج حيث يحد ثنا ابن الحاج عن ذلك بقولة" فتقعد المرأة في بيتها على ما هو معلوم من عاد تها بمفش ثيابها وترك زينتها وبعض شعرها نازل على جبهتها الى غير ذلك من او ساخها وعرقها حتى لو رآها رجل اجنبي لنفر بطبعه منها غالبا ،فكيف بالزوج الملاصق لها" (٤) ،فاذا اراد ت الواحد ة منهن الخروج الى الطريق العام تنظف وتزينت ونظرت الى احسن ما عند ها من الثياب والحلى فلبسته ،وتخرج الى الطريق كانها عروس تجلى وتمشى في وسط الطريق وتزاحم الرجال

---

١ . المد خل ،ج ٤ ،ص ١٠٧ ، التصوف ،ج ١ ،ص ٣٤٥ .
٢ . لواقح الا نوار ،ج ٢ ،ص ٢١١ ، التصوف ،ج ١ ،ص ٣٥٤ .
٣ . المد خل ،ج ٤ ،ص ١٠٧ .
٤ . المد خل ،ج ١ ،ص ٢٤٤-٢٤٥ .

وقد لجأت بعض النساء في عصر المماليك الى استغلال جمالهن وحسنهن للايقاع بالرجال فتخرج الواحدة منهن الى الشارع وقد استكملت زينتها وتسير امام الناس في صورة ملفتة للنظر ، (١) " ولهن في مشيتهن صنعة" (٢) فاذا طمع فيها أحد الرجال واستهوته وطلبها ردت عليه انه لا يمكنها ان تذهب الى احد ، ولكن يستطيع ان يتبعها الى منزلها ، وهناك في منزلها يدفع الرجل ثمن شهوته غاليا ، اذ وصل الثمن احيانا الى حد قتله وسلب ما معه من اموال (٣) .

٢ . مقاييس ومعايير الجمال :

وكان من مقاييس ومعايير الجمال في العهد المملوكي ان تكون المرأة مفرطة البدانة وذات صدر كبير ممتلئ ، وأرداف عريضة ، لذلك لا عجب ان اقبلت نساء هذا العصر على العناية بسمنتهن وبدانتهن حتى يحزن اعجاب الرجال في ذاك العصر ، وان كانت المصادر التي بين ايدينا قد ضنت علينا بذكر الوسائل التي اتبعتها المرأة لكي تزيد من وزنها ، ولكي تزيد من المعجبين بها وبجسمها ، وكل الذى بين ايدينا عبارة عن نص خلفه لنا الفقيه المغربي ابن الحاج الذى حمل فيه حملة شعواء على نساء عصره اللواتي حرصن على ارتكاب بعض الحماقات من اجل المحافظة على بدانتهن " ومن ذلك ما يفعله بعض النسوة من افطارهن في شهر رمضان المعظم قدره لغير عذر شرعي ، وذلك ان المرأة اذا كانت مبدنة وتخاف انها ان صامت اختل عليها حال سمنها فتفطر لاجل ذلك ، وكذلك البنات الابكار يفطرهن اهلهن خيفة من تغير اجسامهن عن الحسن والسمنة . وكذلك من كانت منهن قد عقد عليها زوجها ولم يدخل بعد فتترك الصوم خيفة على بدنها ان ينقص ، وعن الوسائل التي اتبعتها المرأة في العهد المملوكي

---

١ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤٥ ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

٢ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

٣ . مورد اللطافة ، ص ٤٠ .

للزيادة من وزنها يروى لنا ابن الحاج "... وهي ان المرأة اذا أتت الى فراشها بعد ان كانت تعشت وملأت جوفها فتأخذ عند دخولها الفراش لباب الخبز فتضمه مع جملة حوائج أخر فتبتلع ذلك بالماء ،اذ انها لا تقدر على الهضم لكثرة شبعها المتقدم وربما تعيد ذلك بعد جزء من الليل يمضي عليها" طلبا للسمنة ومحافظة على وزنها وبد انتهبا ويشير هذا الفقيه الى امر شنيع ترتب على طلب السمنة "وذلك ان بعضهن يأكلن مرارة الادمي لاجل ان من استعملتها منهن يكثر اكلها ،وقل ان تشبع بسبب ذلك .... ويزيد حسنها ويغتبط الرجل بها (١).

٣ . مكانة المرأة في المجتمع :

أما مكانة المرأة في المجتمع فيبدو أن المرأة تمتعت في ذلك العصر بقسط وافر من الاحترام ،سواء في ذلك طبقة المماليك أو سائر طبقات المجتمع المماليك نظروا الى نسائهم نظرة تفيض بالاجلال والتقدير ،وخصصوا لهن الالقاب مثل خوند (٢)

---

١ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٦٠ -٦٥ .

٢ . خوند : لفظ فارسي ،عرفته كذلك اللغة التركية ،وأصله "خذوانه" ومعناه السيد أو الامير ،ويخاطب به الذكور والاناث ،وقد غلب استعماله في العالم الاسلامي كلقب عام بمعنى السيدة او الاميرة :

(Berchem (Maxvan) Materiaux Pour Un Corpus Inscriptionum arabicarum ,I, Egypt, MIFAO, t. 19, Le Caire ,1894-1903. P. 372.)

سيشار اليه : 'Corpus Egypt'. ،وقد يرد معرفا فتلحق به اداة التعريف (أل)،(صبح الاعشى ،ج ٦ ،ص ٨٧) او تضاف اليه تاء التأنيث ،(الخطط ،ج ٢ ،ص ٤٢٦) في حالة استعمال المؤنث ،وقد استعمل هذا اللقب في عصر المماليك كلقب من القاب النساء تتفرع على الاصول المؤنث تأنيثا حقيقيا ،صبح الاعشى ،ج ٦ ،ص ٧٨ ،زبدة كشف الممالك ،ص ١٢١ ،البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ٧٦ . زينب العاملي ، "الدر المنثور في طبقات ربات الخدور" ،المطبعة الاميرية ،القاهرة ،١٣١٢هـ ،ص ٢٣٩ ،سيشار اليه "الدر المنثور" .

وخـاتــون (١) وسـت الـوزراء (٢).

كما اضفوا عليهن في مكاتباتهم مختلف عبارات الاحترام والتبجيل مثلما يبدو بوضوح في مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم واغواتهم (٣) وقد جرت العادة في العهد المملوكي بان تكون لكل سلطان اربع زوجات تخصص لكل واحدة منهن قاعة خاصة بها ، فالقاعة الاولى تقيم بها خوند الكبرى ولها المكانة المفضلة ، وقاعة تقيم بها خوند الثانية ، وقاعة تقيم بها الثالثة ، واخيرا تقيم خوند الرابعة ، بالقاعة المفلقة ، هذا عدا قاعات اخرى عديدة برسم الجواري والحرايرى (٤) ويبدو أن المؤرخين حرصوا على ذكر اسماء زوجات بيبرس وفق ترتيب مكانتهن عند السلطان وان ابنة حسام الدين كانت خوند الكبرى في حريم بيبرس بدليل انها كانت ام ولده وولي عهده الملك السعيد بركة خان ، وقد اتبعت كل واحدة من زوجات السلطان بعدد كبير من الوصيفات كما خصص لكل

---

١ . خاتون : لقب تركي معناه السيدة ، دخل العالم الاسلامي عن طريق الاتراك ، وقد استعمل في النقوش والمؤلفات بهذا المعنى فجاء على صيغة خاتونات او خواتين للتعبير عن الحريم (الالقاب الاسلامية ، ص ٢٦٥) واستعمل اللفظ ايضا كلقب على المرأة يتفرع عليه باقي الالقاب في زمن القلقشندى يستعمل كأحد الالقاب المفردة المفرعة على الالقاب الاصول المؤنثة تأنيثا حقيقيا (صبح الاعشى ، ج ٦ ، ص ٧٨) ، وكان اللفظ يرد احيانا بجانب الاسم ، وكان يقوم في هذه الحالة مقام لقب " السيدة " للاشارة الى الجليلات من النساء خصوصا اميرات الاسر الحاكمة (الالقاب الاسلامية ، ص ٢٦٥) .

٢ . زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٧٩ .

٣ . صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ١٦٦ .

٤ . السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤٠ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٩٠ .

واحدة منهن اربعة طواشية بمثابة حرس دائم لها ولم يسمح لاحد اطلاقا بالاقتراب من الحريم السلطاني سوى الطواشية (١) ويصف لنا ابن جبير في رحلته الى دمشق في القرن الثاني عشر موكب اميره بقوله "وفي تلك المشية التي رحلنا فيها فجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا وهي قد استقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين الواحدة امام الاخرى ، وعليها الجلال المذهبة وهما يسيران بها سير النسيم سرعة ولينا ، وقد فتح لها امام الهودج وخلفه بابان وهي ظاهرة في وسطه متنقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وامامها رعيل من فتياتها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا العتاق ، وورائها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والمهاليج على السرج المذهب وعصبة على رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ولهن الرايات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها وابصرنا من نخوة الملك والفساد في احتفاله رتبة تهز الارض هزا وتسحب اذيال الدنيا عزّا " (٢) .

ووصف ابن جبير هذا يعطينا صورة واضحة عن مظاهر التكريم التي تمتعت بها الاميرات في تلك الفترة ولم يضن سلاطين المماليك وامرائهم على نسائهم بالمال والمتاع حتى اننا لو اردنا وصف ملبوس كل منهن وتجمل بيوتهن لاحتجنا الى عدة مجلدات وحسبنا ان احدى الخوندات توفيت فلما حصرت ثروتها بلغت اكثر من ستمائة دينار (٣) كذلك عندما توفيت زوجة قاسم بن جانبك صاحب الحجاب بدمشق وهو من الامراء المشرات، تزوج امرأة متمولة ولما ماتت تركت له وللبيت ولبيت المال ثروة كبرى (٤) وفي عام (٦٩٥ هـ/ ١٢٩٦م) عندما قدمت والدة الملك العادل بدر الدين سلامش من الملك الظاهر

---

١ . الطواشي ، جمع طواشية وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق الملوكية ، وفي الحريم السلطاني ، "وكانت لهم حرمة وافرة وكلمة نافذة ويعد شيخهم من اعيان الناس". الخطط ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .

٢ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٣٠-٢٣١ .

٣ . زبدة كشف الممالك ، ص ١٢١ .

٤ . ابناء الهصر ، ص ٢٧٤-٢٧٥ .

بيبرس ، من بلاد الافرنج ـ بلاد الاشكرى ملك الافرج ـ الى دمشق ونزلت بدار الحديث الظاهرية وارسل اليها الامير عز الدين ايبك الحموى الظاهرى نائب السلطان التحف والهدايا والالطاف وغدمها اتم خدمة ثم توجهت من دمشق الى القاهرة (١) غير ان مظاهر التكريم التي تمتعت بها المرأة في دمشق في ذلك العهد لم تقتصر فقط على حياتها بل كثيرا ما امتدت الى ما بعد مماتها وانتقالها الى العالم الاخر ، اذ تشير المصادر المعاصرة انه عند وفاة احدى زوجات السلطان او الامراء فانها كانت تخرج "بشخانه (٢) زركش" (٣)، ويمشي امامها القضاة الاربعة والامراء المقدمون وينزل السلطان والخليفة وكل موظفي الدولة للصلاة عليها (٤) ويعمل مهما عظما ويكثر السلطان او الامير من توزيع الصدقات والاموال على روح الفقيدة (٥).

والواقع ان ذلك الاحترام الذى تمتعت به المرأة في العهد المملوكي لم يقتصر على نساء السلاطين وامرائهم ، اذ هناك من الشواهد ما يثبت ايضا احترام عامة الناس في المجتمع الدمشقي في ذلك العصر لنسائهم ، وخير شاهد على ذلك تلك الالقاب العديدة التي اطلقها الناس على نسائهم وبناتهم مثل ست الخلفاء وست التجار ، وست العلماء ،

---

١. تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢١٢ .

٢. بشخانه : جمعها بشاخين ، وهي ما يطلق عليها اليوم الناموسية المزركشة أو داير السرير ، اى الحلية التي توضع فوق السرير ، وقد تكون طول الغرفة كلها . العصر المماليكي ، ص ٣٩٦ .

٣. بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ، ج ٣ ، ص ١٨ .

٤. الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١١٤ ، ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، ج ٣ ، ص ١٨ .

٥. زبدة الفكرة ، الورقة ٣٠٤ .

وست الفقهاء ، وست القضاة ، وست الناس ، وست الاجناس، وست الوزراء، وست العرب ، وست البنين ، وست العيال ، وست الاهل ، وست الخطباء ، وست الكل ، وست الستات ، وست الملوك ، وست من يراها .... الى غير ذلك من الالقاب من باب " الفخر والتزكية والثناء والتعظيم" على حد تعبير احد كتاب ذلك العصر (١).

واذا خرجت احدى النساء الى الطريق وكان زوجها مقتدرا فانه يحضر لها حمارا يقوده مكارى ويتبعه خادم (٢).

ورغم قلة الاشارات الى النساء وندرتها في المصادر المعاصرة ، فاننا نجد كثيرا منها يعبر عن الاحترام والتقدير ، فالسخاوى يصف احدى النساء المعاصرات بانها ذات " رياسة وقناعة واتقان " ويذكر انها عند موتها سيقت في " مشهد جميل " والشعراني لا يتمالك شعوره نحو زوجته فيثني عليها ثناء فيّاضا (٣).

على انه من المبالغة ان يصور المجتمع الدمشقي في عصر المماليك ، وقد قدّر المرأة وأحلها المكانة اللائقة بها في المجتمع على اساس انها شريكة الرجل وساعده الايمن في الحياة ، فاذا رأينا بعض الاشارات والعبارات التي تدل على تقدير المعاصرين للمرأة ، فان هناك في المراجع نفسها من الاشارات ما يفهم منها ان المرأة ظلت في نظر البعض "محل الازدراء والاستخفاف" ومن المآخذ التي اخذها العامة . على بعض القضاة في عصر المماليك انه اذا تحاكم الرجل وامرأته اليه نصر المرأة مما جعلهم يثورون على القاضي ويضربونه بالنعال وينهبون بيته (٤) ولم يتورع بعض سلاطين المماليك عن ضرب امرأة بين يديه

---

١ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

٢ . سيرة الظاهر بيبرس ، ج ٧ ، ص ٢٦ .

٣ . التصوف ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

٤ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٢ .

وتشهيرها على حمار في الطريق العام وفي عنقها جنزير (١) بل والامر بقتلها في بعض الاحيان (٢) .

٤. الجواري :

ومن هذا نفهم ان المرأة مهما قدرت في المجتمع الدمشقي في عصر المماليك الا ان هذا التقدير لم يصل الى الدرجة الكافية التي اعطاها اياها الدين الاسلامي ويرجع السبب في ذلك الى ان نظرة المعاصرين الى المرأة قامت على اساس ان الله خلق المرأة للمتعة ليس الا . وظهرت هذه الفكرة بوضوح في شغف الناس باقتناء الجواري الحسان ودفع الاموال الطائلة في شرائهن ، حتى ان السلطان الناصر محمد تزوج باربع نساء ، في حين وصلت حظاياه وجواريه الى اكثر من الف ومائتين (٣) وكان للسلطان زوجات من المماليك من بنات الامراء ونواب السلاطين . وكان بعض السلاطين يتزوج من التتريات أو السبايا أو من بنات الملوك ، فقد تزوج السلطان الناصر حسن بنت اخي أزبك ملك التتار (٤) .

وفي عام (٦٥٢هـ/١٢٥٥م) قدمت بنت ملك الروم في تجمل عظيم واقامات هائلة الى دمشق زوجة لصاحبها الناصر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر وجرت اوقات حافلة بدمشق بسببها (٥) .

---

١. السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦٤ ، ٦٩٢ ، ٨٧٩ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٣٧ ، ابن ابي الفضائل ، المفضل ، " النهج السديد والدر الفريد فيما بعد ابن العميد " ، حلب ، دار الكتب الوطنية ، ١٩٣٧ ، ج ١ ، ص ٤٦٨ ، سيشار اليه " النهج السديد " ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ .

٢. ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٩٩-٨٠٠ ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

٣. النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ ، حوادث الدهور ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

٤. كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

٥. البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٥ .

وكان الاعيان والامراء والقضاة يقدمون للسلطان مع الهدايا جوارى ،كما حدث عام (٧١٢هـ/١٣١٢م) عند ما خرجت الجيوش الشامية مع امرائها وتنزل الركب على مصطبة السلطان وصد خوان عظيم عم الخاص والعام . وقدم القاضي نجم الدين بن صصرى - قاضي القضاة بدمشق - الف رأس غنم شوا وألف طبق فاكهة وثلاثة آلاف علبة حلاوة ، و"قدم خمسة حجوره ثلاثة من خيل العماد ،وثلاث من بنات القارة اصلهم من خيول صاحب حماه ،وقدم ثوب اطلس وكمخا ومرزوى (١) وكنجي وغير ذلك ،ثلاثة مماليك وجوار يتبين بالبدور الطالع" (٢) .

وكانت الجارية عند الامراء والملوك تمتلك الحلي والذهب ،حيث يصف لنا ابو المحاسن عمل الملك الناصر احمد صاحب الكرك بقوله "تم فتح الذخيرة في القلعة واخذت منها جميع ما فيها من الذهب والفضة وهو ٦٠٠ ألف دينار وصندوق فيه الجواهر التي جمعها ابوه في سلطنته . وتتبع جوارى ابيه حتى عرف المتمولات منهن فصار يبعث الى الواحدة منهن يعرفها انه يدخل عليها الليلة ،فاذا تجملت بحليها وجواهرها ارسل من تحضرها اليه ،فاذا خرجت من موضعها ندب من يأخذ جميع ما عليها حتى سلب اكثرهن ثم عرض البركخانه واخذ مافيها من السروج واللجم (٣) .

وحاكى الامراء وعامة الاهالي سلاطين المماليك في الاكثار من شراء الجوارى كل حسب سمته ،وقد عرف في ذلك العصر نوعا من الجوارى البيض والسود وهناك من سلاطين المماليك - مثل الصالح اسماعيل - من فضل السود على البيض (٤) وتوقفت قيمة الجارية

---

١ . المرزوى : قماش سميك من الحرير الجيد والقطن نسب الى مدينة مرو ،العصر المماليكي ،ص ٤٤٨ .

٢ . كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٢٤٨ .

٣ . النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ٧١ .

٤ . السلوك ،ج ٢ ،ص ٧٣٣ ،بدائع الزهور ،ج ٢ ،ص ١٣٤ .

ومنزلتها عند صاحبها على ما فيها من مميزات كحسن الطلعة أو جمال الصوت او غير ذلك من المؤهلات (١) وكان في دمشق في ذلك العصر اسواقا لبيع الرقيق ، وكان لكل سوق منها دلال يجيد عرض " البضاعة" والترويج لها ، واظهار محاسن الجارية ذات الوجه الجميل او الصوت العذب ، أو غير ذلك من ضروب الفتنة والاغراء (٢) ، وفرض السلاطين على هؤلاء الدلالين ضريبة تعادل نصف الدلالة او السمسرة ، وظلت هذه الضريبة حتى ابطلها الناصر محمد بن قلاوون عام (٧٠٩هـ/١٣٠٩م - ٧٤١هـ/١٣٤٠م) وكثيرا (٣) ما تزوج السيد جاريته - الى جانب زوجته الحرة - وفي هذه الحالة اشترط الفقهاء ضرورة عتق الجارية قبل العقد عليها ، كما ذكر ابن الفرات في حوادث عام (٦٨٠هـ/١٢٨٢م) حيث قال القاضي محضب بن المكرم اشهدنا مولانا فتح الدين بن المولى محي الدين بن عبد الظاهر على نفسه بعتق جاريته ام ولديه علاء الدين على ماية دينار عينا وكتب الكتاب في تاريخه (٤) .

ويتوافر في المصادر المعاصرة اسماء كثيرات من الجوارى قدّر لهن ان يلعبن ادوارا هامة في قصور السلاطين والامراء بل حدث ان يتزوج السلطان بعضهن فارتفعن الى منزلة خوند الكبرى في الدور الشريفة كما حدث في عهدى الظاهر خشقدم والاشرف برسباى (٥) ، وكثيرا ما نسمع في ذلك العصر ان شخصا اشترى جارية لخدمته فتحقد الجارية على سيدتها وتتملكها الغيرة وتعمد الى قتلها حتى يخلو لها وجه سيدها (٦) وقد اقتنى السلاطين والامراء الجوارى للغناء والطرب ، حتى اصبح من

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٧١ - ٧٢ .
٢ . الف ليلة وليلة ، ص ٢٣١ .
٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٥ .
٤ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .
٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٣٨ ، ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٩٢ ، الدرر المنثور ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، ٥١٢ .
٦ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٧٢ .

الاشياء المألوفة في عصر المماليك ان يكون لكل ملك او امير جوقة مغان كاملة من الجوارى (١) ،وكان للمغنيات من الجوارى حظوه عند السلاطين والنواب وكان لهن سلطان ونفوذ ،على السلاطين والنواب (٢) ،وتشير المصادر المملوكية الى ان الجوارى ، لم تكن ايضا بمعزل عن الاذى والامتهان نتيجة لوضعهن الاجتماعي واعتبارهن سلعة لصاحبها مطلق التصرف فيها ،ويكفي ان نذكر هنا ما جاء في قصة مريم الزنارية - من قصص الف ليلة وليلة عندما عادت مريم الى امها بعد غياب طويل ،فسألتها عن حالها وهل ما زالت بكرا ام لا ،فردت الفتاة على امها قائله " فكيف ابقى بنتا بكرا؟ " ان التاجر الذى اشتراني هددني بالضرب واكرهني وأزال بكارتي ثم باعني لآخر" (٣)هذا ويروى المؤرخون ان السلطان حاجي عام(٧٨٣هـ/١٣٨٠م - ٧٨٤هـ/١٣٨٢م) ابن السلطان الاشرف شعبان (٧٦٥هـ/١٣٦٣م -٧٧٨هـ/١٣٧٦م) اكثر من ايذاء جواريه حتى انه كان اذا ضرب احدى جواريه فان ضربه لا يتجاوز الخمسمائة عصا (٤) .

٥ . المرأة والحياة العامة :

ورغم القيود الاجتماعية التي فرضتها التقاليد على المرأة في دمشق في عصر المماليك فانها استطاعت المساهمة بنصيب وافر من الحياة العامة ،بدليل ان السخاوى ، (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) احد كتاب ذلك العصر ،قد افرد في كتابه "الضوء اللامع" جزءا كاملا ذكر فيه ما يزيد على الالف ترجمة لنساء عشن في القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ولمعظمهن نصيب كبير في الحياة العامة بدمشق في اثناء تلك الفترة (٥)

---

١ . النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٧٩٢ .

٢ . ابناء الغمر ،ج ١ ،ص ١٦٤ .

٣ . الف ليلة وليلة ،ج ٤ ،ص ١٠٨ .

٤ . النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٥٥ ،البدر الطالع ،ج ١ ،ص ١٨٧ ،الضوء اللامع، ج ٣ ،ص ٨٧ .

٥ . الضوء اللامع ،ج ١٢ ،ص ٩ .

كان للمرأة نفوذها وسلطانها في عصر المماليك الى حد يسترعي الانتباه فهناك أدلـة واقعيـة كثيرة تثبت تدخل نساء السلاطين والامراء في شؤون الحكم ومشاركتهن في توجيه سياسـة الدولـة (١) ،ولدينا معلومات وفيرة عن تدخل نساء السلاطين للاصلاح بينهم وبين أمرائهم (٢)فعندما ساءت العلاقات بين الملك المغيث صاحب الكرك والملك الناصر صاحب الشام عام (٦٥٧ هـ/١٢٥٨م) خرج المغيث على رأس طائفة العسكر الكرديـةالمعروفـة باسم الشهرزورية التي تركت خدمة الناصر صلاح الدين في الشـام وقصدتـه . خرج على رأسها قاصدا الشام ،اما الملك الناصر صلاح الدين (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م) فسار متعقبا المغيث ونـزل ببركة زيزيا استعدادا للقضاء على المغيـث في عقر داره ،عند ذلك رأى المغيث ان لا قبل له بالحرب ،فسعى بالصلح وارسـل احدى قريباتـه ،القطبيـة بنت الملك المفضل قطب الدين بن العادل بن ايوب للتوسط له مع ابن عمـه لعقد الصلح فقبل الناصر عقد الصلح بشرط ان يقبض الملك المغيـث على ما عنـده من البحريـة (٣) .

كذلك نسمع عن ام السلطان السعيد بركة خان التي كانت تتمتع ايضا بنفوذ عظيم ليس فقط على ابنها ولكن ايضا على امراء الدولة بدليل انه عندما شب الخلاف في عـام (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) بين الملك السعيد وامرائه لم يجد خيرا من امه ليبعثها للتفـاوض مع الامراء في الصلح فاظهروا لها كل احترام واشترطوا عليها شروط كثيرة ،التزمت لهم بها وعادت الى ولدها لتخبره بنتيجة وساطتها (٤) . وتتحدث المصادر المملوكية ايضا

---

١ . بدائع الزهـور ،ج ٢ ،ص ٨٩ ،حوادث الدهور ،ص ٢٢٩ ،الضوء اللامع ،ج ١٢ ، ص ٥٤ ،ابناء الغمر ،ج ١ ،ص ٤١ ،السلوك ،ج ٢ ،ص ٦٢٥-٦٣١ ، النجـوم الزاهرة ،ج ٦ ،ص ٨٤٢ .

٢ . السلوك ،ج ٢ ،ص٧٠٦ ،الضوء اللامع ،ج ٦ ،ص ٢٢٦ ،ج ١٢ ،ص ٢٢٦ .

٣ . البخيـت ،محمد عدنان ،"مملكة الكرك في العهد المملوكي" ط١ ،عمان ،١٩٧٦ ، ص ٩٣ ،سيشار اليه "مملكـة الكرك" .

٤ . زبـدة الفكرة ، ورقـة ٨٩ ،تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ٩٦ ،١٤٢ ،تاريخ ابن خلدون ،ج ٥ ،ص ٣٩٣ ،السلوك ،ج ١ ،ص ٦٤٥ ،نهاية الارب ،ج ٤ ،ص ٩٦ ، بدائع الزهور ،ج ١ ،ص ١١٣ ،البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ٢٨٨ .

عن خوند اشلون ام السلطان الناصر محمد بن قلاوون التي لعبت دورا مماثلا عندما صعدت عام (٦٩٣هـ/١٢٩٤م) الى اعلى سور القلعة بعد ان طال حصار الامراء لها وتحدثت اليهم في اسباب الحصار، وناقشت معهم أهم مطالب رجال الدولة بعد أن أكدوا لها ان " مالهم غرض الا مسك الامير سنجر الشجاعي واخماد الفتنة (١) وتكررت هذه القصة في دولة سلاطين المماليك اكثر من مرة عندما تدخلت نساء السلاطين للاصلاح بينهم وبين امرائهم (٢) ويبدو انه عندما ادرك المعاصرون سلطة النساء ونفوذهم صاروا يوسطوهن لقضاء حوائجهم، فاذا تعذر على تاجر قضاء مطلب السلطان وعندئذ بحثا عن الطريق الذى يوصل به شكواه الى حريم السلطان وعندئذ تقضي حاجته (٣) فورا وتتحدث المصادر المملوكية ايضا عن اولئك الذين نجحوا في احتلال بعض المناصب الهامة في الدولة المملوكية بفضل زواجهم باحدى بنات السلاطين او باحدى قريباتهم (٤) مثلا عندما زوج الظاهر بيبرس ابنه بركة خان من السيدة غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاوون بدمشق عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) وقد هدف بيبرس بهذا الزواج الى غرض سياسي وهو ان يصبح قلاوون عضدا لابنه في ادارة شؤون الدولة الحربية لانه كان في ذلك اكبر امراء المماليك في مصر (٥).

ويظهر ان قلاوون كان يرمي الى اعتلاء عرش السلطنة وان كان يمهد لذلك، بدليل ما اجمع عليه المؤرخون ان الحصار لما اشتد على السلطان بركة خان بعث في طلب

---

١. النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٤٥، بدائع الزهور، ج ١، ص ١٨٩.

٢. تاريخ سلاطين المماليك، ص ٣٠.

٣. النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ١١٦، السلوك، ج ٢، ص ٤١٠٢.

٤. تاريخ ابن خلدون، ج ٥، ص ٤٥٩، الضوء اللامع، ج ١٢، ص ٢٥، السلوك، ج ٢، ص ٤١٢، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩١-٤٧٦.

٥. نهاية الارب، ج ٨، ص ٦٩، المختصر في اخبار البشر، ج ٧، ص ١٥٥.

صهره الا مير قلاوون ليستشيره في اموره ويطلب منه المعونة فاشار عليه ان يخلع نفسه فقبل مشورته وخلع نفسه عام (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) (١) ولم يكن نفوذ المرأة وسلطانها وفقا على طبقة الخوندات وزوجات السلاطين اذ كثر ما نسمع ان جارية احد السلاطين أو محظيته قد تسببت في رفع الظلم عن احد التجار كما ورد في المصادر في احداث عام (٧٧٣هـ/١٣٣٦م) عن كيفية تطرف بعض الولاة في مصادرة التجار وانزال المظالم بهم فقام عدة من الامراء الاكابر ليشفعوا للتجار ولكن السلطان لم يسمع لاحد من الامراء قولا حتى قامت ست حدق دادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومربيته في رفع الظلم عن التجار عندئذ استمع السلطان لرجائها ونفذ رغبتها فورا (٢) وبسببها ابطل الناصر محمد المكس الذى كان يؤخذ على القمح (٣).

ويذكر المقريزى في معرض حديثه عن السلطان الكامل شعبان ان الامراء اخذوا على السلطان المذكور تمكينة الخدام والنساء في التصرف في المملكة (٤) وان السلطان شعبان لما قوى عزمه على السفر الى الحجاز الا موافقة لاغراض نسائه (٥) كذلك روى لنا ابن حجر عن دينا بنت الاجتماعي المغنية الدمشقية التي حظيت عند السلطان الاشرف شعبان ، والتي كانت من اعظم الاسباب في اسقاط مكس المغاني (ضمان المغاني) عام (٧٧٨هـ/١٣٧٧م) اذ سألت السلطان في ذلك فأجاب اليه (٦).

غير ان هذا النفوذ الواسع الذى تمتعت به المرأة في عصر المماليك كان سببا في اثارة بعض فقهاء هذا العصر ، وعلى رأسهم الفقيه ابن تيمية ، الذى كثيرا ما كتب

---

١. تاريخ المماليك البحرية ، ص ١٥٣.
٢. السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢.
٣. ابناء الغمر ، ج ١ ، ص ١٠١ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٢١.
٤. السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦٢ ، ٧١٣.
٥. السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٨.
٦. ابناء الغمر ، ج ١ ، ص ١٦٤.

محذرا من طاعة النساء لان اكثر ما تفسد الملك والدول طاعة النساء (١) ،ولم يقتصر نصيب المرأة في الحياة العامة على التدخل في بعض شؤون الدولة وانما شاركن ايضا مشاركة فعالة في الحياتين العلمية والدينية ،ويسجل التاريخ اسماء كثيرات ممن اشتغلن في ذلك العصر بالنحو وحفظن منه الشيء الكثير كما نظمن الشعر ،وتخصص في الفقه والحديث (٢) ،اما من اشتغلن بالفقه والحديث فعدد هن لا يحصى ودأبت الكثيرات منهن على التنقل بين الشام ومصر شأن فقهاء ذلك العصر ،للسماع من كبار المحدثين والعلماء (٣) ،ويكفينا ان نشير هنا الى ام زينب فاطمة بنت عباس شيخة رباط البغدادية التي لقبها المقريزى "بسيدة نساء زمانها" ،وذكر عنها انها كانت فقيهه وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير ،عابدة واعظة حريصة على النفع والتذكير ،وانتفع بها كثير من نساء دمشق ،وكان لها وقع في النفوس (٤) .

ويذكر عنها ابن كثير انها راوية صحيح البخارى وغيره ،جاوزت التسعين سنة وتوفيت عام (٧١٦هـ/١٣١٦م) (٥) وقد بنت الست الجليلة تذكار خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس عام (٦٨٤هـ/١٢٦٦م) للشيخة الصالحة زينب "سيدة نساء زمانها" ، الدار المعروفة ببيت البغدادية ،فانزلها به ومعها النساء الخيرات وما زال الى وقت المقريزى ،ويعرف سكانه من النساء بالخير وله دائما شيخة تعظ النساء وتذكرهن ،وهذا الرباط تودع فيه النساء اللاتي طلقن او هجرن حتي يتزوجن او يرجعن الى ازواجهن صيانة لهن لما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات (٦) .

١ . ابن تيمية ،تقي الدين ابو العباس احمد بن عبد الحليم الحراني ، "مجموعة فتاوى" ، القاهرة ، ١٣٢٦هـ ،ج٢ ،ص٧٧ .

٢ . الدرر الكامنة ،ج٤ ،ص٣٩٥ ،الضوء اللامع ،ج١٢ ،ص٩ .

٣ . تاريخ ابن الفرات ،ج٧ ،ص٧٢ ،الخطط ،ج٢ ،ص٤٢٨ .

٤ . الخطط ،ج٢ ،ص٤٢٨ .

٥ . البداية والنهاية ،ج١٤ ،ص٧٩ ،الدر المنثور ،ص٢٣٩ .

٦ . الدر المنثور ،ص١٠٥-١٠٦ .

ومن العالمات في دمشق في ذلك العصر بديعة ابنة سراج الدين الرفاعي حيث اخذت عن ابيها وسمع منها الامام محمد الونـدى وغيره ،وحدثت ولها شعر عجيب ، " ولها كرامات ومناقب واحوال ظاهرة " توفيت عام (٨٩٠هـ/ ١٤٨٤م) (١) ،كذلك عائشة بنت علي بن محمد بن عبد الغني بن المنصور الدمشقي كانت عالمة كاملة تعلمت النحو والصرف والبيان والعروض والحديث وفتحت حلقة للتدريس ،سمعت عن زوجها الحافظ نجم الدين الحسني وعن الامام ابن الخباز والمرادى ومن بعدهما حدثت وانتفع الناس بمعارفها وعلومها ،" حتى انها فاقت اهل زمانها علما وأدبا ومعاشرة وعفة (٢) " ومن العالمات ايضا فاطمة ابنة الشيخ الامام المقرئ المحدث جمال الدين سليمان بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن سعد بن ابي القاسم الانصارى الدمشقي . كانت من النساء العالمات الفاقلات المحدثات الصادقات في الرواية ،اخذ عنها الحديث جملة مثل الصفدى وخلافه واجازها معظم علماء القرن السابع الهجرى من الشام والعراق والحجاز وفارس وغيرها ،وكانت وفاتها عام (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م) وكانت ذات ثروة وافرة قامت منها باعمال الخير من بناء المدارس ومارستان وتكايا واوقفت على تلك الحملات الخيرية اوقافا ورتبت لمستخدميها رواتب حتى باهت باخصالها الخيرية اعاظم رجال ونساء عصرها (٣) .

وكثير من فقهاء عصر المماليك سمعوا من بعض المسندات الشهيرات اللائي أجزن لهم (٤) . ولم يأنف هؤلاء الفقهاء مع عظام مكانتهم - من الاعتراف بذلك ،بل على العكس افتخروا بانهم سمعوا عن فلانة وفلانة من المحدثات وان بعضهم اجزن لهم ،فابن حجر

---

١ . الدر المنثور ،ص ٩٠ .

٢ . الدر المنثور ،ص ٢٩٢ .

٣ . الدر المنثور ،ص ٣٦٦ .

٤ . الضوء اللامع ،ج ٢ ،ص ١١٩ .

يذكر انه حصل على اجازتين الاولى من شمس بنت ناصر الدين محمد والثانية من خديجة بنت عماد الصالحية (١).

والسخاوي يصف كيف تزاحم طلبة العلم في عصره على احدى المحدثات ويفخر بانه ممن حملوا عنها كما اخذت عن غيرها (٢) كذلك يذكر السخاوي اسماء كثيرات ممن أجزن لـه (٣).

ومن شهرة بعض النساء في ذلك العصر في العلم كان يطلق على ابنائهن " أبناء العالمة " مثل الطبيب اسعد بن حلوان ابو العباس نجم الدين الطبيب المشهور المعروف "بابن العالمة" ، توفي عام (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) (٤). وفي عصر المماليك ظهر بوضوح اقبال عامة النساء على مجالس العلم والدين فحرصت كثيرات منهن على الذهاب الى المجالس حيث تجلس في مكان منفرد عن الرجال لسماع الدروس الدينية (٥) وقد خصّص بعض الفقهاء والوعاظ النساء دون الرجال بعلمهم (٦) وحجتهم في ذلك ان النساء لا يعلمهن احد من ازواجهن شيئا . ولذلك يجب اعطائهن عناية خاصة حتى يعرفن احكام الدين وما عليهن من حقوق الزوجية والجيران (٧).

والى جانب هؤلاء الوعاظ من الرجال وجد فئة كبيرة من الواعظات اللائي تخصصن

---

١. ابناء الغمر ، ج ١ ، ص ٥٥٥.
٢. الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١٠-١١ ، ص ١٣١.
٣. الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ٤ ، ٩ ، ١٣٤ ، ١٥٦.
٤. ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ، ص ٩٢-٩٥.
٥. المدخل ، ج ٢ ، ص ٢١٩.
٦. ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٨٤٥ ، الضوء اللامع ، ج ١٢ ، ص ١١١.
٧. لواقح الانوار ج ٢ ، ص ١١١.

في وعظ النساء وتعليمهن وتحفيظهن القرآن ، نذكر منهن على سبيل المثال لا الحصر ، فاطمة بنت عباس شيخة رباط البغدادية . (١)

وسلكت بعض النساء في عصر المماليك طريق التصوف فلبسن الخرق كما يلبسها المتصوفة من الرجال واطلق عليهن اسم الشيخات او الفقيرات (٢) ، وكان غالبيتهن من بين الارامل والمطلقات اللائي أقمن في الاربطة والخانقاوات ، كما اشتهرت به من شدة الضبط ، وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات (٣) تحت رئاسة شيخاتهن اللائي حرصن على اللباس الصوفي لمن تتوب على يدهن وادخالها في طريقتهن ، وقد حمل الفقيه المغربي ابن الحاج عليهن حملة شعواء وشبههن بالمسيحيات في الاديرة ، كما عاب على المتصوفات في عصره رفع اصواتهن بالذكر ، وقال ان العجيب في هؤلاء الشيخات انهن لا يمضين الى موضع لعمل الذكر فيه ، الا بعدد فيه الرسم المقرر " لضامنة المغاني " (٤) ، شأنهن في ذلك بقية غواني عصر المماليك ، ومن اشهر المتصوفات الشيخة الصالحة ست المنعم بنت عبد الرحمن بن علي بن عبدوس الحرانية والدة الشيخ تقي الدين ابن تيمية توفيت عام (٧١٦هـ/١٣١٦م) (٥) .

وقد لازمت المتصوفات الزوايا والاربطة التي خصصت لهن تحت رئاسة شيختهن (٦) ولم يقتصر نصيب المرأة في الحياة العامة على الاشغال بالفقه والحديث وغيرهما من العلوم الدينية ، بل شاركت ايضا مشاركة فعالة في كل ما يتعلق بالحياة اليومية

---

١ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٦٠ ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ، ج ٣ ، ص ٢٢٦ .
٢ . انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .
٣ . الخطط ، ج ١ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨ .
٤ . المدخل ، ج ٢ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .
٥ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٧٩ .
٦ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ ، الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ ، التبر المسبوك ، ص ٣٦٤ .

ساعية الى كسب قوت يومها جنبا الى جنب الرجل حيث تتحدث المصادر المملوكية عن العديد من النساء ممن قمن بدور الخاطبة كما سبق وأن ذكرنا ، وتتحدث المصادر ايضا عن الماشطة ، التي كانت تقوم بتجميل النساء في الحمامات العامة ، وتعير الفقيرات منهن الثياب والحلي في مناسبات الزواج (١) . وعن الصانعه ، التي كانت تقوم بوشم النساء ، واعتادت ان تجوب طرقات المدينة " حاملة المشارط والكاسات ، وقد تأبطت المخلاة واظهرت حول جيدها الطوق والشنوق المحلاة ، وغرزت عصا بتها بكلاليب الابر " (٢) ، التي كانت تستخدمها في عملية الوشم ، وقد اشترط الفقهاء ان تكون هذه الصانعة من بين المسلمات ومن غير الشابات ، اللائي يمشين مكشوفات الوجوه متبرجات خشية ان تكتسب المرأة شيئا من خصالهن واحوالهن المذمومة شرعا (٣) .

وكانت كثيرات من نساء عصر المماليك ممن يعملن بالمغاني وضروب الملاهي كالرقص ، واحترفت فئات منهن البغاء ، وكن يسمين بنات الخطى والخواطي (٤) وخصصت لهن اماكن في احياء دمشق . وتعقب بعض السلاطين اولئك النسوة من اصحاب المغاني ، وضايقوهن ، وان تساهل آخرون معهن ، ففي دمشق أمر نائب السلطنة "بيدمر " بان لا تغني امرأة لرجل ولا رجل لنساء ، وعلق ابن كثيرعلى ذلك بقوله " وهذا في غاية ما يكون من المصلحة العظيمة الشامل نفعها " (٥) وقد كثر عدد البغايا والمغاني في عصر المماليك ، وقد اعترفت الدولة بهن وفرضت عليهن ضرائب مقررة وجمعت من هذه الضرائب " جملة مستكثرة" (٦) ، كما جعلت الدولة المملوكية للبغايا ضامنة عرفت باسم

---

١ . النهج السديد ، ج ١ ، ص ٤٦٧ ، نهاية الارب ، ج ٤ ، ص ٢٥ .
٢ . عبد الحميد يونس ، خيال الظل ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٧٥ .
٣ . المدخل ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، لواقح الانوار ، ج ٢ ، ص ٢١١ .
٤ . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٧٤ ، عبد المنعم ماجد ، " نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر " ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ١١٧ ، التصوف ، ج ١ ، ص ٣٨١ .
٥ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٦٧ .
٦ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤٧ .

" ضامنة المغاني " تذهب اليها محترفة البغاء لتسجيل اسمها عندها ، وكانت هذة الضامنة تتعهد بدفع مال الى الدولة في مقابل ان تتولى جمع ضريبة المغاني ، التي كانت تجمعها من النساء البغايا مقابل ان تحميهن الدولة (١) وهكذا انتشر البغاء في دمشق في عصر المماليك ، حتى وقفت البغايا في الاسواق تحت اعين المارة (٢) وقد حاول السلطان الظاهر بيبرس ان يحد من البغاء في البلاد فأبطل المكوس المقررة على البغايا ، ومنع البغاء في القاهرة ودمشق وسائر بلاد الدولة المملوكية (٣) وقد أمر بحبس البغايا حتى يتزوجن (٤) ، وأمر الا يزاد في مهورهن عن اربعمائة درهم يعجل منها مئتان رغبة منه في تيسير زواجهن (٥) ويشير المقريزى ايضا انه كان من جملة الضرائب التي الغاها السلطان محمد بن قلاوون عقب الروك الناصرى ، ضريبة حقوق القيان ، وهي ما جمع من " الفواحش والمنكرات " ، والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات والفنادق لعمل الفاحشة (٦) .

وفي زمن الناصر محمد ايضا وبعد ان عمّ الرخاء الناس استجد النساء بعض الازياء والحلي ، قال ابو المحاسن " واستجد النساء في زمانه الطرحة ، كل طرحه بعشرة آلاف دينار ، وما دون ذلك الى خمسة آلاف دينار والفرجيات بمثل ذلك ، واستجد النساء في زمانه الخلاخيل الذهب والاطواق المرصعة بالجواهر الثمينة ، والقباقيب الذهب المرصعة ، والازر الحرير وغير ذلك " (٧) .

---

١ . حسن الباشا ، " الفنون والوظائف على الاثار العربية " ، القاهرة ، ١٩٦٦-١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .
٢ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٣١٢ .
٣ . حسن المحاظرة ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥٤ .
٤ . الروض الزاهر ، ص ٣٥٠ .
٥ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٤٣ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧٨ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٥٤ .
٦ . حسن المحاظرة ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
٧ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٧٦ .

وفي سلطنة الناصر حسن عام (٧٤٨هـ/١٣٤٧م-٧٥٢هـ/١٣٥٧م) (٧٥٢هـ/١٣٥١م-٧٥٥هـ/١٣٥٤م) نودي "الا تلبس النساء الاكمام الطوال العراض ولا البرد الحرير ولا شيئا من اللباسات والثياب الثمينة، ولا الاقمشة القصار" (١)، وفي سلطنة الناصر حسن، ذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ان نائب السلطنة بدمشق امر بأن ينادى في المدينة بان "النساء يمشين في تستر، ويلبسن أزرهن الى اسفل من سائر ثيابهن، ولا يظهرن زينة ابدا فافتعلن ذلك ولله الحمد" (٢).

واحترفت بعض النساء السرقة حيث يذكر ابو شامة في حوادث عام (٦٦١هـ/١٢٦٢م) أنه سمّر شاب لانه كان يرسل زوجته وتدخل في بيوت النساء فتحسن للمرأة الخروج معها لابسة افخر ثيابها وحليها، وتشوقها وتقول لها بان ها هنا عرس او وليمة، وقد اجتمع فيه جماعة من النساء الاكابر فلا تتركي من الزينة شيئا ليحصل لك بينهن، فتفعل تلك المغرورة اقصى ما تقدر عليه وتخرج معها فتجيء الى بيت زوجها، فيما يأخذ جميع ما عليها ثم يخنقها ويرميها في بئر في داره (٣).

اما عن نشاط النساء في شوارع المدينة واسواقها ومتنزهات، فقد كان عظيما في عصر المماليك، ويذكر لنا الفقيه المغربي ابن الحاج ان النساء في عصره يباشرن معظم امور الشراء من الاسواق، بل الغالب ان المرأة تشترى لزوجها ما يحتاج اليه في لبسه لنفسه (٤). واذا لم يكن للنساء حاجة من الاسواق فانهن يذهبن الى الحمامات العامة حيث يأنسن ببعضهن، وقد عدد المقريزى الحمامات العامة حينها في ايامه

---

١. البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٣٣.

٢. البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٨٠.

٣. الذيل على الروضتين، ص٢٢١-٢٢٢.

٤. المدخل، ج٢، ص٥٥.

فذكر ان بعضها خاص بالرجال وبعضها خاص بالنساء وبعضها يفتح للرجال قبل الظهر وللنساء بعد ذلك (١).

والى الحمام تتجه المرأة التي لا يراها الناس الا محجبة فتكشف عن عورتها للبلانة ، والنساء في هذا المقام اشد تهالكا من الرجال " (٢) ، وتكون المرأة في هذة الحالة قد استصحبت معها افخر ثيابها وانفس حليها لتلبسها بعد الاستحمام حتى يراها غيرها " فتقع المفاخرة والمباهاة" (٣) كما ذكرنا سابقا كذلك لا عجب اذ أكثر ادباء عصر المماليك وشعراؤه من وصف الحبيب في الحمام (٤).

وكثيرا ما خرجت النساء الى المقابر والبرك وغيرها من اماكن اللهو والفرجة في الليالي المقمرة وليالي المواسم والاعياد وليالي الجمع من كل اسبوع (٥) ، حيث يذكر كثرة الغناء والرقص ويحدث الفساد باختلاط النساء بالرجال (٦) لذلك تشددت الدولة في بعض الاحيان في خروج النسوة الى المقابر (٧).

---

١. الخطط ، ج ٢ ، ص ٧٩-٨٥.

٢. معالم القربة ، ص ١٥٧.

٣. المدخل ، ج ٣ ، ص ١٧٣.

٤. درة الاسلاك ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ، طيف الخيال ، ص ١١٨.

٥. المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧ -٢٣.

٦. الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٤٣.

٧. المدخل ، ج ٢ ، ص ١٧-٢٣.

الفصـــل الثامـــن

أحتفـالات دمشـق فـي العهـد المملوكـي

١ . . . . . . الاحتفالات الدينيـة

أ . رأس السنـة الهجريـة

٢ . عاشـــوراء

٣ . المولـد النبـوي

٤ . دوران المحمـل

٥ . ليالـي الوقـود

٦ . احيـاء رمضـان

٧ . عيـد الفطـر

٨ . يـوم عرفـة

٩ . عيـد الاضحـى

١٠ . عـودة الحجيـج

٢ . . . . ألاحتفـالات القوميـة

١ . الاحتفالات بتوليـة سلطان جديد

٢ . الاحتفالات بتوليـة نائب جديد

٣ . الاحتفال بشفاء السلطان او النائب من المرض

٤ . الاحتفال عند دخول السلطان دمشـق

٥ . الاحتفال عند عودة السلطان أو النائب منتصرا

الاعيـاد القوميـة الاخـرى

٣ . أعيـاد النصـارى

سار المماليك في دمشق على نهج الايوبيين في العناية بالاعياد والمواسم ، بل استحدثوا فيها واضافوا اليها ، وشجعهم على ذلك وفرة المال والثروة ، حيث شهدت دمشق في ذلك العصر عدد من الاعياد الدينية والقومية ، والاحتفالات السلطانية والمواسم التي اشترك في احيائها المسلمون والمسيحيون من اهل دمشق - وكان الاسراف والبذخ طابع حياة المماليك وعيشتهم في المناسبات والولائم وقد يبلغ البذخ بهم الى حد السفه حتى ان ابن حجر يقول "ان المظفر حاجي انفق في عصبة حظيته انفاق التي على رأسها مائة الف دينار ، وبلغت النفقة على عمل حظير للحمام سبعين الف درهم(١) .

١ . رأس السنة الهجرية :-

اما الاعياد الدينية فاولها عيد رأس السنة الهجرية التي يحتفل به في غرة المحرم حيث يطلع نائب دمشق والقضاة الاربعة الى القلعة ليهنئوا السلطان " بالعام الجديد " اذا (٢) كان السلطان موجودا في دمشق في ذلك الوقت ، ويخصص السلطان بهذه المناسبة ارزاقا ومنحا اضافية لارباب الرواتب وذلك "لاستقبال المحرم" (٣) ، كذلك جرت العادة على التهنئة في اول كل شهر عربي ، حيث ينهض القضاة ومشايخ العلم لتهنئة السلطان اذا كان موجودا في دمشق (٤) .

وقد حرص نائب السلطنة والعلماء والتجار وعامة الناس في دمشق على تبادل التهنئة اول المحرم ، وفي اليوم الاول من كل شهر عربي ، كما اعتاد اصحاب السعة منح العطايا لكل وارد عليهم يوم " تهنئته الشهرية " . (٥)

---

١ . الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٤٠ .
٢ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، ص ٤٠ .
٣ . السلوك ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .
٤ . التبر المسبوك ، ص ١٤٥ ، ٢٥٤ .
٥ . لواقح الانوار ، ص ١٣٢ .

٢ . عاشوراء :

وقد اعتبر فقهاء عصر المماليك يوم عاشوراء - وهو اليوم العاشر من المحرم - من المواسم الشرعية الرئيسية التي احتفل بها اهل دمشق (١) ، حيث كان الناس في ذلك اليوم يقومون بالتوسعة على الاهل والاقارب واليتامى والمساكين ، وكان بعض الناس يؤجل ما عليه من دفع زكاة في اى شهر من اشهر السنة حتى يخرجها في يوم عاشوراء (٢) .

واعتادت نساء اهل دمشق في ذلك العصر زيارة الجامع الاموى في يوم عاشوراء والاقامة به من اول النهار حتى الزوال لا يشاركهن فيه الرجال ، حيث يقضن بقضاء يومهن في التبرك بجدران المسجد (٣) .

كذلك حرص الشيعة في دمشق في يوم عاشوراء على اقامة عزاء الحسين حيث ينشد شعراؤهم قصائد الرثاء ، في حين يناظر شعراء اهل السنة شعراء الشيعة ، وتخرج نسائهم الى الطريق مكحلات الاعين مخضبات الايدى بالحناء ومن لم تفعل ذلك " فكأنها ما قامت بحق عاشوراء " (٤) .

وكان لاهل دمشق عادات خاصة تمسكوا بها في يوم عاشوراء في عصر سلاطين المماليك وما زال بعضها باقيا حتى اليوم مثل طحنهم الحبوب وزيارة القبور وشراء البخور لانه " يبرئ من العين والنظرة " في ذلك اليوم (٥) .

---

١ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .
٢ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .
٣ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .
٤ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .
٥ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٨٩-٢٩١ .

٣. المولد النبوى :-

ثم يأتي بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوى في شهرربيع الاول ، وهواول الاعياد الدينية العامة في جميع البلاد الاسلامية ، وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الناس على الاحتفال بهذا العيد احتفالا يفوق الوصف من حيث الفخامة والعظمة خاصة اذا كان السلطان موجودا في دمشق حيث يحتفل بهذه المناسبةعلى غرار ما يحتفل به في الديار المصرية ، ففي مستهل ربيع الاول يبدأ الاحتفال بالمولد النبوى (١) ، حتى اذا ما حلت الليلة الكبرى - وهي ثاني عشر ذلك الشهر - أقام السلطان بالحوش السلطاني في القلعة خيمة ذات اوصاف خاصة ، سماها المعاصرون خيمةالمولد(٢) واول من صنع هذه الخيمة السلطان قايتباى فكلفها ثلاثين الف دينار ، حتى جاءت من جملة عجائب الدنيا " (٣) .

ويبدأ الاحتفال بالمولد النبوى بعد الظهر وينتهي عند ثلث الليل (٤) ، حيث يستقر السلطان في صدر خيمة المولد يجلس على يمينه شيخ الاسلام وعن يساره قضاة القضاء الاربعة وشيوخ العلم في حين يأخذ الامراء اماكنهم على مسافة من السلطان (٥) .

ويبدأ الاحتفال بتلاوة آي الذكر الحكيم فيتعاقب المقرؤون ، وكلما فرغ احدهم من التلاوة انعم عليه السلطان بخمسمائة درهم فضة ، وبعد ذلك يأتي الوعاظ واحد بعد آخر وكلما فرغ احد ممن الوعظ ناوله السلطان " صرة فيها اربعمائة درهم فضة ومن

---

١. ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤١٢-٤١٣ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧٥ ، الدرة المضيئة ، ص ٦٥ ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١٢ .

٢. النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧٥ ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٦-١٧ .

٣. بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١٢ .

٤. ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤١٢-٤١٣ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧٥ .

٥. الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

كل امير شقــة حريـــر " (١) .

وبعد صلاة المغرب تمد اسمطة الحلوى السكرية المختلفة الالوان ، فتؤكـــــل " ويتخطفها الفقهاء" (٢) للتوسعــة على ابنائهم ، وامتازت الصحون التي توضع على هذه الاسمطة بالاتساع والكبر ، حتى أن أحد الفقراء اخذ صحنا منها ووزنه فزان على ربـع قنطـار (٣) . ثم بعد الطعام يأخذ المنشدون في الانشاد فيمدحون الرسول صلـى الله عليه وسلم ، ويذكرون مولده حتى ثلث الليل (٤) ، وبعد ذلك يأتي نائب السلطنة والقضاة والامراء والجند طائفة بعد اخرى ليقبلوا الارض امام السلطان فينعم عليهـــم جميعا " من الشريف والوضيع"(٥) بالخلع ، كما يقدم لهم المنح ، اما السماع فيبدأ من ثلث الليل ويستمر حتى الفجر ، فتأتي طوائف الفقراء طائفة بعد اخرى ومعهم رئيـــس المغنين ورئيس المشببين ويستمرون في الرقص والسلطان جالس" ويـده تملأ من الذهب ويفرغ لمن له رزق فيه ، والخازندار (٦) يأتيه بكيس بعد كيس ، حتى قيل انه فرق علـى

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧٥ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٦ -٣٧ .

٢ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧٥ .

٤ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٦ -٣٧ .

٥ . السلـوك ، ج ٣ ، ص ٤٨٧ .

٦ . الخازندار : هذا الاسم يتركب من كلمتين اولاهما عربية وهي خزانة ، اى ما يخزن فيه وثانيهما فارسية ، وهي دار ، فيكون الخازندار هو ممسك الخزانة ، ومما هو جديـــر بالملاحظة ان بعضهم كان يكتبها "الخزندار" بعد حذف الالف (صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٢ -٤٦٣) ويتولى الخازندار الاشراف على حفظ ما يأمر الاستادار بحمله الى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى والصرف على قدر حاجة تلك البيوت (Cropus Egypt, P.271-272) . فهو بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانيـــة ويعين عادة من امراء الطبلخاناة ـ ثم ارتقت وظيفته في زمن الناصر (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) حتى صار يعهد بادارتها الى امير من امراء المئتين ، صبح الاعشى ج ٤ ص ٢١ .

Cropus Egypt, P. 271-272.

الفقراء ومشايخ الصوفية والزوايا في تلك الليلة اكثر من اربعة آلاف دينار " (١) .

وفي صباح يوم المولد النبوى يوزع السلطان كميات من القمح على الزوايا والربط (٢) ، واعتاد كثير من سلاطين المماليك الاحتفال بالمولد النبوى في الدور الخاصة بزوجات السلطان . وذلك صبيحة اليوم التالي للاحتفال الكبير ، ولكن يبدو ان هذا الاحتفال لم تكن له صفة رسمية ، فلا يحضره احد من الفقهاء او مقدمي الالوف (٣) .

ويترقب الناس عامة في دمشق ايضا الاحتفال بالمولد النبوى فيمطون الولائم لذلك ، ويتصدقون في لياليه بانواع الصدقات ، ويظهرون الفرح والسرور ، ويزيدون في العبرات ويمتنون بقراءة مولده الكريم (٤) .

كذلك اعتاد كثير من الناس احياء الذكرى الكريمة في بيوتهم وتطرف بعضهم في هذه الحفلات فجاءوا بالمغاني وآلات الطرب وتسابقوا في اللعب بالدف والشبابة (٥) ، واقيمت امثال هذا الاحتفال بمولد النبي للنساء خاصة " فتكثر البدع والمخالفات" (٦) وجرت العادة ان المدعوين الى مثل هذه الحفلات يقومون بتقديم " النقوط" الى صاحب الدار ويكون ذلك بتقديم بعض الدراهم من باب المجاملة ، على ان يردها لهم في احدى حفلاتهم او افراحهم المقبلة (٧) .

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٧٥ .

٢ . الكاتب عبد الله بن عبد الظاهر ، "الالطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية" ، ليبساك ، ١٩٠٢ ، ص ٦٢ ، سيشار اليه "الالطاف الخفية"

٣ . حوادث الدهور ، ج ٤ ، ص ٧٥٢ .

٤ . التبر المسبوك ، ص ١٣-١٤ .

٥ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٢-٦ .

٦ . المدخل ، ج ٢ ، ص ١١ .

٧ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

٤ • دوران المحمل :

وفي النصف الاخير من شهر رجب تحتفل دمشق بدوران المحمل (١) ،وكان الاحتفال بدوران المحمل يحدث مرتين في السنة ، الاولى في شهر رجب والثانية في شهر شوال (٢) .

اما الدورة الاولى التي اطلق عليها "دوران المحمل الرجبي" (٣) فأول من استحدثها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥هـ (٤) ،وكان الغرض من تدوير المحمل في هذا الوقت المبكر من السنة هو اعلام الناس ان الطريق الى الحجاز آمن ،وان من شاء الحج فلا يتأخر ولا يتخوف من الطريق (٥) .

وكان الاحتفال بدوران المحمل من اعظم وأجلّ الاحتفالات التي ينتظرها الناس فينادى قبل موعده بثلاثة ايام ان يزين الناس في دمشق حوانيتهم ودورهم (٦) ،وفي ليلة الاحتفال يحرق النفط وتعمل الصواريخ (٧) ،فيخرج الناس من كل مكان للفرجة ويغالون في اشراء البيوت والحوانيت مغالاة كبيرة وربما قضوا ليلتهم في الطريق ،حتى النساء "يبتن في الحوانيت حتى ينظرن المحمل من الغد " (٨) .

---

١ • السلوك ،ج ٣ ،ص ٢٧٢ ،الدرة المضيئة ،ص ٦٥ ،مفاكهة الخلان ،ج ١ ، ص ٣٧٧- ٣٧٨ •

٢ •صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٥٧-٥٨ ،الدرة المضيئة ،ص ٢٦ ، ٦٥ ، ١١٧ ،مفاكهة الخلان ،ص ٢٦ ، ٨٠ ، ٢٣٩ •

٣ • بدائع الزهور ،ج ٢ ،ص ٨٨ ، ٣٠١ ،الدرة المضيئة ،ص ٦٥ •

٤ • حسن المحاضرة ،ج ٢ ،ص ٨٨ •

٥ • ابناء الغمر ،ج ٢ ،ص ٤٥٠ •

٦ • النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٥٠٧ •

٧ • بدائع الزهور ،ج ٢ ،ص ١٧٣ •

٨ • السلوك ،ج ٤ ،ص ٤٢٠ •

ويزين اصحاب الحوانيت والاسواق حوانيتهم بالحرير والحلي (١) . ولا يكون دوران المحمل غالبا الا يوم اثنين او خميس (٢) ، حيث توضع الكسوة وهي من الحرير النفيس المطرز بالذهب والقصب ـ على جمل في "هيئة لطيفة" ، ويبدأ الموكب من عند باب النصر وامامه النائب والقضاة الاربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم (٣) كذلك يركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة وهم في ملابس الحرب وبأيديهم الرماح ، ويظل الموكب يتهادى في طريقه حتى يصل الى القلعة ، حيث يلعب المماليك برماحهم (٤) ، ويكون هذا الاحتفال بهجة عندما يكون السلطان موجود في دمشق (٥) .

ويسبق خروج المحمل احتفالات شعبية كبيرة ، اذ يخرج اهل دمشق بالشموع الضخمة المخصصة للاماكن المقدسة في الحجاز ، ثم يخرجون بالسنجق (٦) ، واخيرا المحمل ، حيث يخرج امير الحج من القلعة على رأس المحمل يحف به مختلف العسكريين بألبستهم الرسمية ويتخذ طريق الميدان مجتازا باب المصلى ثم الى القبيبات فالجنوب(٧) حيث يمضي الركب في طريقه الى الحجاز .

---

١ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .
٢ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
٣ . السلوك ، ج ٣ ، ص ١٥ ، ٤٢٤ .
٤ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٥٧ - ٥٨ .
٥ . الدرة المضيئة ، ص ١٥٨ ، مفاكهة الخلان ، ص ٥٣ .
٦ . السنجق : جمعه سناجق ، وهي رايات صفر صفار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٨ ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٨ .
٧ . حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٩٨ ، ٢١٠ .

على ان الاحتفال بدوران المحمل لم يخل من مفاسد كثيرة ، شأنه شأن كثير من الاحتفالات العامة في عصر سلاطين المماليك ، ويتسبب في هذه المفاسد غالبا جماعية من المماليك الذين ينتهزون فرصة ازدحام الطرقات بالمارة وينشبون وسطهم لخطف عمائمهم وصفع اقفيتهم وحرق لحاهم في النهار ، وربما تعدى الامر الى خطف النساء، والصبيان (١) ، وقد دأب المماليك على ان يمثلوا في هذه المناسبة ما أسموه "عفاريت المحمل " وهم جماعة من "اوباش المماليك السلطانية " يغيرون لباسهم بزى مضحك بشع ويركبون خيولا في هيئة مزعجة ويأخذون في ازعاج الناس ، واستن هذه البدعة بعض العوام بقصد اضحاك الناس دون التعرض لهم وايذائهم ، فلما اختص بها المماليك اساءوا فهمها ، فصاروا يدخلون دور الامراء والناس وحوانيت التجار ويفرضون عليهم وعلى المارة مبالغ معينة يجبونها منهم غصبا ، ومن يتمتع منهم أذوه وانزلوا به ضررا بليغا " حتى صار الناس يترقبون فراغ المحمل ليستريحوا من هذه الانواع القبيحة" (٢) .

وقد اعتاد "عفاريت المحمل" بعد ان صاروا من المماليك - ان يشنوا غاراتهم على الناس قبل دوران المحمل بيوم او يومين غالبا ، ولكنهم بعد ذلك اصبحوا يبكرون في القيام بحملتهم قبل دورانه بايام ليطول تحكمهم بالناس (٣) .

وقد ذكر ابن جبير انه من عجيب امر اهل دمشق تعظيمهم الحاج ، على قرب مساندة الحج منهم ، وتيسير ذلك لهم ، واستطاعتهم لسبيله ، فهم يتمسحون بهم عند صدورهم ويتهافتون عليهم بتركابهم (٤)

---

١ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٠٠ ، ٨١٨ .
٢ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .
٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥٨ ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٦٣ .
٤ . رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٤-٢٧٥ .

وقد كتب ابن بطوطة عن الموضوع ذاته لكنه وضع النبره على الوقف واهميته فقال : والاوقاف بدمشق لا تحصر انواعها ومصارفها لكثرتها " فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته " (١) .

وكان بعض اهل دمشق يحجون كثيرا حيث ذكر العسقلاني ان محمد بن شكر ، الشاهد بدمشق كان يحج كثيرا حيث بلغ عدد حجاته خمسا وثلاثين حجه (٢) .

وكان يحدث في بعض السنوات ان لا يحج احدا من اهل دمشق وذلك " بسبب تخبيط الدولة وكثرة الاختلاف " (٣) .

٥. ليالي الوقود :

وهناك عدة ليالي في العام الهجرى اعتاد المسلمون ان يحتفلوا بها ، اهمها اول ليلة من شهر رجب وليلة السابع والعشرين منه ، وهي ليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان (٤) ، وحرص كثير من الناس على احياء هذه المواسم بالصيام ، ولا سيما صيام نصف شعبان (٥) ، وبزيادة وقود القناديل والشموع بالجوامع (٦) ، والاجتماع بها للذكر والقراءة ، والخروج الى المقابر ، كذلك اعتاد الناس شراء الحلوى في هذه المواسم ، فيكتظ سوق الحلاويين باشكال مصنوعة من السكر كالخيول والقطط وغيرها يشتريها الناس ليهدونها للاطفال (٧) ، او الاقارب والاصهار ، لا سيما اذا كانت المصاهرة جديدة (٨) .

---

١. رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٧ - ٢٤١ .

٢. ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٧٩ .

٣. البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٥٦ .

٤. المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩١ - ٣١٢ .

٥. التبر المسبوك ، ص ١٢٢ .

٦. البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣٤٤ - ٣٥٣ .

٧. الخطط ، ج ٣ ، ص ١٦١ .

٨. المدخل ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

٦. احياء رمضان :

واحتفل سلاطين المماليك بشهر رمضان احتفالا كبيرا يتفق ومكانته الدينية عند المسلمين ،وقد وصف ابن بطوطة طريقة احتفال المماليك في القرن الثامن الهجري برؤية هلال رمضان ،حيث انه في يوم الرقبة ـ وهو يوم ارتقاب هلال رمضان ويوافق التاسع والعشرين من شعبان ـ يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر بدار القاضي الشافعي ويقف على باب الدار نقيب (١) المتعممين ،فاذا اتى احد الفقهاء او الاعيان تلقاه ذلك النقيب ويمضي بين يديه قائلا "باسم الله سيدنا فلان الدين" فيقوم له القاضي ومن معه ،ويجلسه النقيب في موضع يليق به ،فاذا تكاملوا هنالك ركبوا جميعا وعلى رأسهم القاضي وتبعهم من في المدينة من رجال وصبيان ،حتى اذا ما انتهوا الى موضع مرتفع خارج المدينة ـ وهو مرتقب الهلال عندهم ـ ينزل القاضي ومن معه يترقبون الهلال ،ثم يعودون بعد صلاة المغرب وبين ايديهم الشموع والمشاعل والفوانيس فيكون ذلك دليلا على ثبوت رؤية الهلال (٢) ،اما اذا حدث ارتباك بسبب كثرة السحب او رؤية الهلال في بعض الجهات وعدم رؤيته في البعض الآخر ،فان الحاضرون يكتفون بشهادة اثنين من الرجال ،وبعد ثبوت الرؤية يوقد التجار الشموع بحوانيتهم ،وتكثر الانوار في الطرقات والدروب والمساجد (٣) ويتهيأ سكان دمشق لصوم الغد ،ويعملوا الاقراص المشبك والبسيس وغير ذلك وتعلق القناديل المشعولة بعد المغرب ،خلا الجامع الاموى (٤) ،وبذلك يتحول الليل الى نهار طيلة شهر رمضان واحيانا كان الناس يصومون اول شهر رمضان على اختلاف وشك شديد(٥)

---

١. نقيب : جمعها نقباء وكان على صاحب هذه الوظيفة عند السلطان او الامير تأدية الغدمات الصغيرة لسيده ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٢١-٢٢ .

٢. رحلة ابن بطوطة ،ص ٥٤ .

٣. المدخل ،ج ٢ ،ص ٢٠٢ ،مفاكهة الخلان ،ج ١ ،ص ٩٧ ، ١٢٨ ، ٢٩٦ .

٤. مفاكهة الخلان ،ج ١ ،ص ١٢٨ .

٥. تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ١٥٤ ،المدخل ،ج ٢ ،ص ٢٠٢ ،ابن طولون ، ص ١٢٨ ، ٢٩٦ .

وكانت طريقة التسحير ان يطوف اصحاب الارباع (١) وغيرهم بالطبلة على البيوت وهم يضربون عليها ، او يكون التسحير بدق الابواب على اصحاب البيوت والمناداة عليهم (٢) ويقال ان بعض العلماء اقترح على السلطان برسباى عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بعدم اطفاء القناديل في رمضان الا قبل طلوع الفجر ، ايذانا بآخر فرصة للتسحير (٣) .

وكانت قراءة صحيح البخارى بالقلعة من اهم المظاهر الرسمية لاحياء شهر رمضان في عصر المماليك (٤) . وكان يدعى لحضور ذلك المجلس جمعا كبيرا من مشايخ العلم والطلبة حتى زاد عددهم عام ٨١٩هـ/١٤١٦م على ستين فقيها " صرف لكل منهم الف درهم فلوسا " (٥) . وكانت تدور في هذه المجالس بحوثا ربما اشتدت فيها المناقشات والجدل حتى يسيء بعضهم الى بعض ، فينقلب المجلس الى صياح وشتائم ، مما جعل المقريزى يصف هذه المجالس بانها " منكر في صورة معروف ومعصية في زى طاعة " وذلك نظرا لما تثيره من حزازات بين رجال العلم والدين (٦) . وقد عالج السلطان جقمق هذا الاشكال عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م بان منع الحاضرين من البحث وحرم عليهم المناقشة اثناء المجلس " فانكفوا عن ذلك والحمد لله " (٧) .

---

١ . اصحاب الارباع ، الارباع : جمع ربع وهي اقسام أو احياء المدينة الاهلة ، واصحاب الارباع هم الخفراء الذين يقومون بحراسة تلك الاحياء ليلا ، العصر المماليكي ، ص ٣٩١ .

٢ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

٣ . التبر المسبوك ، ص ١٥١ .

٤ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٧٢ ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٥٧٩ .

٥ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٠٦ .

٦ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٢٣ .

٧ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٢٣ .

فاذا تم ختم البخاري - وذلك عادة في الثلث الاخير من شهر رمضان - احتفل السلطان بذلك احتفالا كبيرا في القلعة سواء أكان في مصر او بلاد الشام ، حيث يرسل الخلع الى القضاة والعلماء والفقهاء ، وتوزع الاموال على الناس (١) . وقد انتهز سلاطين المماليك فرصة ذلك الشهر المبارك للتوسع في اعمال البر والاحسان فأعدوا مطابخ لاطعام المساكين والمعدمين في شهر رمضان وتوزيع الصدقات عليهم (٢) . وقد بلغ عدد المطعمين في هذه المطابخ ايام السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٩هـ/١٢٦٠م - ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) خمسة آلاف في كل يوم من ايام شهر رمضان (٣) .

ويذكر ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ان العزيز بن محمد بن الناصر كان كثير النفقات محببا الى الرعية ، ولا سيما لما ملك دمشق مع حلب واعمالها وبعلبك وحران وطائفة كبيرة من بلاد الجزيرة - فيقال ان سماطه كان كل يوم يشتمل اربعمائة رأس غنم سوى الدجاج والاوز وانواع الطير ، مطبوخا بانواع الاطعمة والحلويات ، غير المشوي والمقلي ، وكان مجموع ما يعزم على السماط في كل يوم عشرين الفا وعامته يخرج من يديه كما هو كان لم يؤكل منه شيء ، فيباع على باب القلعة بارخص الاثمان حتى ان كثيرا من ارباب البيوت كانوا لا يطبخون في بيوتهم شيئا من الطرف والاطعمة ، بل يشترون بارخص مما لا يقدرون عليه الا بكلفة ونفقة كثيرة ، فيشترى احدهم بنصف درهم اوبدرهم ما لا يقدر عليه الا بخسارة كثيرة ، ولعله لا يقدر على مثله ، وكانت الارزاق كثيرة ودارة في زمانه وأيامه (٤) .

---

١ . ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .
٢ . زبدة الفكرة ، ورقة ٨٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨١ .
٣ . السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣٩ .
٤ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٠ .

ويذكر المقريزى ان الظاهر بيبرس "كان يصرف في كل ليلة من ليالي رمضان جملة كبيرة من الخبز واللحم المطبوخ وجرى ايضا على عادته في عتق ثلاثين نسمه على عادة الملوك الماضيين " (١).

ويفهم من هذه الاشارة ان عتق هذا العدد من الرقيق في شهر رمضان كان عادة سنوية ، منظمة في دولة المماليك .

يضاف الى ذلك كله انواع التوسعة على العلماء واصحاب الجامكيات (٢) الذين تصرف لهم رواتب اضافية في شهر رمضان (٣) وبخاصة من السكر الذى تتضاعف كمية المستهلك منه في هذا الشهر بسبب الاكثار من عمل الحلوى ، وقد بلغ راتب السكر ايام الناصر محمد في رمضان عام(٧٤٥هـ/١٣٤٤م) ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار ، منها ستون قنطارا كل يوم من ايام رمضان برسم الدور السلطانية (٤) ويذكر ابن بطوطة انه من فضائل اهل دمشق انه لا يفطر احدهم في ليالى رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والقضاة والكبراء فانه يدعوا اصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون في كل ليلة في دار احدهم او في مسجد ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعا (٥) .

وكثرت اجتماعات وزيارات عامة الناس في شهر رمضان ، فاذا تخلف فرد عن زيارة قريبه او صاحبه أو معلمه في شهر رمضان ادى ذلك الى سوء تفاهم بين

---

١ . السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٣ .

٢ . الجامكية : جمعها جوامك ، وهي الراتب المربوط لشهر او اكثر ، العصر المماليكي ، ص ٤٠٤ .

٣ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

٤ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ .

٥ . رحلة ابن بطوطة ، ص ١٠٥ .

الطرفين (١) .

وعمد كثير من الناس الى احياء رمضان في الجوامع او المساجد بقراءة صحيح البخارى او صحيح مسلم او بالذكر او بالصلاة ولا سيما صلاة التراويح (٢) .

وجرت العادة في عصر المماليك انه عند ختم القرآن باحد المساجد في شهر رمضان يحتفل بذلك احتفالا كبيرا فتقرأ القصائد ويجتمع المؤذنون ليكبروا جماعة في موضع الختم ، ثم يؤتى بفرس او بغلة ليركبها القارئ الذى تولى قراءة الختمة ويزفوه الى بيته في موكب حافل وامامه القراء يقرأون والمؤذنون يكبرون والفقراء يذكرون وربما اضاف بعضهم الى ذلك ضرب الطبل والدف والابواق (٣) .

٧ . عيد الفطر :

وبعد ذلك يحل عيد الفطر الذى يستغرق الثلاثة ايام الاولى من شوال ، ويستعد الناس اتم استعداد لهذا العيد حتى ساعة متأخرة من الليل في صقل الملابس واعداد الزخارف (٤) .

اما الكعك وغيره من اصناف الحلوى فيصنعها الناس في اواخر شهر رمضان ليتبادلوا بها التهنئة في العيد (٥) .

وفي الصباح المبكر لاول ايام العيد يجتمع اهل الحي امام منزل الامام الذى سيصلي بهم صلاة العيد في المسجد ، فاذا خرج اليهم زفوه حتى المسجد وبأيديهم

---

١ . المدخل ، ج ٢ ، ص ١٩٨ .
٢ . التبر المسبوك ، ص ١٠٩ ، ٢٣٧ .
٣ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
٤ . المدخل ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢١٧ .
٥ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٥٩ .

القناديل وهم يكبرون طوال الطريق ، وبعد انتهاء الصلاة يعودون به الى منزله على الصورة نفسها التي احضروه بها (١).

واحتفلت دمشق في عصر المماليك رسميا بعيد الفطر ، خاصة عندما يكون السلطان موجودا في دمشق عند حلول العيد (٢).

ففي آخر ايام رمضان يصعد ناظر الخاص الى القلعة في موكب كبير وبصحبته عدد كبير من الحمالين يحملون خلع العيد لحملها الى السلطان (٣).

اما موكب ليلة عيد الفطر فيظهر السلطان بعد صلاة العصر بعد خروجه من الصلاة في القصر الابلق ويجتمع السلطان مع مماليكه ونائبه وكبار العلماء والتجار (٤) وفي هذه الليلة - ليلة العيد - يدخل الامراء جميعا على السلطان للتهنئة وتقبيل يده (٥) وكذلك يفعل جميع الحضور .

ثم يقوم السلطان بتقديم الخلع لهم جميعا " من امراء ومقدمين وقادة واكابر" (٦) فاذا ما اصبح الصباح واستهل اول ايام العيد ، نزل السلطان الى الحوش السلطاني لتأدية صلاة العيد ، وذلك في موكب من افخم المواكب السلطانية (٧) حين يخرج السلطان وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وهي رايات صفر عليها القاب السلطان واسمه مطرز عليها بالذهب ، وترفع على رأس السلطان المظلة ويعبر عنها بالجتر، وهي قبة من حرير اصفر مزركش بالذهب ، وفي اعلاها طائر من فضة مطلي بالذهب ويحملها

---

١ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ .
٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٤ ، الروض الزاهر ، ص ٣٦٠ .
٣ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨ ، الدرة المضيئة ، ص ١٦ ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٧٤ .
٤ . زبدة كشف الممالك ، ص ٨٦ .
٥ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٨١ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .
٦ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨ .
٧ . صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٩ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .

بعض امراء المئتي الاكابـــر (١) .

وامام السلطان احد الركبدارية رافعا الغاشية (٢) على يديه يلفتها يمينا وشمالا حتى يخالها الناظر مصنوعة كلها من الذهب (٣) ويركب الجفتاوات (٤) امام السلطـان وهما اثنتان من اوشاقيــة (٥) لاصطبل السلطاني قريبان في السن عليهما قباءان (٦) اصفران من حرير وعلى رأسيهما قبة من زركش ويركبان فرسين اشهبين (٧) ،وعن يمين

---

١ .صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٧-٨ .

٢ .الغاشيـة : قبة من أديم مخروزة بالذهب ،يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يدى السلطان عند الركوب في المواكب كالميادين والاعياد ونحوها ويحملها الركابداريـة ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٧ .

٣ .صبـح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٨ .

٤ .الجفتاوات : تعني اثنان من ارشاقية اصطبل السلطان ،قريبان في السن يركبـــان امام السلطان في بعض المواكب السلطانية ،ويلبسان قباءان اصفـران من حريـــــر وتحتهما فرسان اشهبان ،صبـح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٧-٨ .

٥ .أوشاقيـــة (او الاوجاقيـــة) : مفردها اوشاق او جاقي ،وهي فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضـــة ،صبـح الاعشى ،ج ٥ ،ص ٤٥٥ .

٦ .القبــاء : ملبوس (فرجيـــة/قفطان) وهي أما بيض أو مشهرة احمـر وازرق ،وهـــي ضيقـة الاكمام على هيئـة ملابس الافرنـــج اليوم ،المصر المماليكي ،ص ٤٣٨ .

٧ .ابوالمحاسن ،النجـــوم ،ج ٩ ،ص ٥٦ ،صبـــح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٨ .

السلطان يمشي الجمقدار (١) يحمل دبوسا له رأس ضخم ويكون نظارة متجها الى السلطان متهاديا بين زغردة النساء ودعاء الرجال (٢).

وهكذا اتصفت المواكب الرسمية في عهد سلاطين المماليك بأقصى ما يمكن ان تتصف به من مظاهر الفخامة والعظمة .

وبعد ان يصلي السلطان صلاة العيد ويستمع الى خطبة العيد ، يعود الى الايوان الكبير حيث يمد سماط حافل ، بلغت تكاليفه في بعض السنوات خمسين الف درهم ، واخيرا يخلع السلطان على الامراء وارباب الوظائف (٣) كما يفرج عن بعض المساجين بمناسبة العيد المبارك (٤).

٨ . يوم عرفة :

وصف لنا ابن بطوطة احتفال سكان دمشق في يوم عرفة بقوله انه من عادة اهل دمشق وسائر بلاد دولة المماليك انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد ، كبيت المقدس وجامع بني امية وسواهما ، ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤوسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ، ويتوخون الساعة التي يقف بها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ، ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهال وتوسل الى

---

١ . الجمقدار : لفظ يتركب من كلمتين : اولاهما تركية وهي جمق ومعناها هودج ، والثانية فارسية وهي دار ، ومعناها ممسك ، فيكون الجمقدار هو الذى يمسك مقود الحمل الذى يحمل المحفة ، ومهمته استجلاب الالات والاقمشة اللازمة لتلك المحفة ، ويشترط فيه ان يكون مهيبا حسن الشكل ضخم الجسم . انظر : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٠ .

٢ . السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٦ ، حاشية رقم (٣) .

٣ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٨ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٨١ ، الخطط ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ ، الدرة المضيئة ، ص ١٦٠ .

٤ . النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٧ .

الى الله تعالى بحجيج بيته الى ان تغيب الشمس . فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ما حرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات. داعين الى الله ان يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه (١) .هذا الوصف لابن بطوطة يعطينا صورة واضحة عن احتفال المسلمين بيوم عرفة ولا تمدنا المصادر المتوفرة بين ايدينا تفاصيل اكثر عن هذا الاحتفال .

٩ . عيد الاضحى :

وفي اليوم التالي ليوم عرفة يحل عيد الاضحى ،فيصلي السلطان صلاة العيد في موكب حافل على غرار ما ذكرنا في عيد الفطر ،وبعد الصلاة يقصد الايوان وبصحبته جمع من الامراء لتذبح امامه الاضاحي ،ثم يتوجه من الايوان الى باب الستارة حيث ينحر ايضا ويفرق مايذبحه ،واخيرا يتوجه الى الحوش السلطاني ويذبح (٢) به . كذلك اعتاد سلاطين المماليك ان يوزعوا عددا كبيرا من الخلع "على من جرت عادته بالخلع في يوم النحر" (٣) .

ويوزع السلاطين المماليك في عيد الاضحى الاضاحي الكثيرة ،حتى بلغ ما خص كل مملوك من مماليك السلطان عام (٨٢٤هـ/١٤٢٤م) راسين من الغنم (٤) . فاذا لم يوزع السلطان الاضاحي على مماليكه واكتفى بتوزيع المال عليهم ،غضبوا وربما رجموا السلطان(٥)

واختص الامراء بنصيب وافر مما يوزعه السلاطين من الاضاحي ،ويذكر عن السلطان الناصر محمد انه اعتاد ان يبعث في يوم النحر لأمرائه اغنام الضحايا والنوق " ويترقب

---

١ . رحلة ابن بطوطة ،ص ١٠٦ .
٢ . البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ٢٨٠ ،النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٨٦٦ .
٣ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ٨ ،السلوك ،ج ٤ ،ص ١ ٨٤ .
٤ . السلوك ،ج ٤ ،ص ٣٩٨ .
٥ . السلوك ،ج ٤ ،ص ٤٧٧ ،النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ٨٦٦ .

ما ينعم به كل امير على رسلـــه " (١) .

اما اذا حل عيد الاضحى والسلطان خارج دمشق استاء الناس وحزنوا لفقدهـم ما كانوا يألفونـه من تفرقـة الاضاحي لغيبـة السلطان (٢) . وفي حالة عدم وجـود السلطان يعيد الناس ويخرج النائب الى المصلى في ابهة على العادة ويصلي فـي الجامع الاموى وبعد الصلاة يخلع على الامراء والجنود والقضاة ، ثم يخرج النائب علـى العادة الى المنحر حيث ينحر اضحيـة كثيرة ، ثم يركـب هو والامراء والقضاة ويرجـع الى القصر الابلـق (٣) .

والواقع ان احتفال عامة الناس بعيد الاضحى لم يقلّ عن احتفالهم بعيد الفطـر فيذهبون الى المقابـر (٤) وزيارة الاهـل والاصدقاء وتزيين النساء "بغاية الزينـة" .

ويتحدث ابن الحاج عن مفسدة كبرى تحدث في الاعياد ، وبخاصة عيد الاضحى ، وهي ان تيخرج جماعة من الفتيات يطلق عليهن "بنات العيـد" الى الطرقات بعـد ان يتزين ويكشفن وجوههن "ثم يأخذن في الغناء" والضرب بالدفوف ويطفن بالاسواق والحوانيت والبيوت لجمع ما يجود به الناس عليهن (٥) .

---

١ . النجوم الزاهـرة ، ج ٩ ، ص ١٧١ ، مفاكهـة الخلان ، ج ١ ، ص ١٣٥ .
٢ . ابنـاء الغمـر ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، بدائع الزهـور ، ج ٢ ، ص ١١٠ .
٣ . مفاكهـة الخـلان ، ج ١ ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .
٤ . السلـوك ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .
٥ . المدخـل ، ج ١ ، ص ٢٨٦ .

١٠. عـودة الحـج :

وبعد ان ينتهي الحجاج من القيام بشعائر الحج فانهم يغادرون مكة الـى المدينة ثم الى دمشق فيصلونها في اوائل شهر صفر ،ويأتي البشير بسلامة الحجيج ويخرج النائب لاستقباله ،وكذلك كبار الامراء والقضاة والجند وكان يطلع في هذا اليوم غالب اهل دمشق ،وكان الموكب عظيما يتزين فيه الجند بالزينة العظيمة ،ويحملون الرماح والاتراس المرصعـة (١).

وكانت عادة اهل دمشق اذا حج السلطان ان يسارعوا بتقديم الهدايا والتحف عند عودته من الحج وكان ذلك يرهقهم كثيرا بدليل ان اهل دمشق فرحوا عندما عاد السلطان الظاهر بيبرس من الحج عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م حيث دخل السلطان دمشق من الحجاز على الهجن فلم يره الناس الا وهو في الميدان الاخضر يسير ففرح النـاس لذلك لانهم ارتاحوا من تلقية بالهدايا والتحف (٢).

اما احتفالات اهل دمشق بعودة الحجيج في عصر المماليك فقد كانت عظيمـة ولم يغفل الرحالة والكتاب عن تدوين وصفهم لهذه المناسبة الهامة وقد تأثر الرحالـة الاوروبي برتراندون دولا بروكيه بهذا الاحتفال وترك لنا صورة واضحة لعودة الحجيج حيث قال : وفي اليوم التالي لوصولي لمدينة دمشق شاهدت قافلة الحجاج عائدة مـن مكـة ،وكانت تتألف من ثلاثة آلاف من الابل استمر دخولها لمدينة دمشق يومين وليلتين وكان يوما بالغا بالحفاوة على عادة اهل دمشق ،وقد خرج لاستقبال الحجيج الوالـي وكبار رجال المدينة اجلالا للقرآن الذى كانوا يحملونه ،وكان القرآن ملفوفا بغلاف من الحرير ،عليه كتابة عربية محمولا على جمل مجللا بالحرير . وكان امام الجمل

---

١. البوريني ،الحسن ، "تراجم الاعيان في اخبار ابناء الزمان" - مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت الرقم ٥٧٦ . طبع الجزء الاول بتحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ ،ص ٢٠٢ .

٢. البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ٢٥٤-٢٥٥.

اربعة رجال يدقون بالمزامير والطبول والدربكات الكثيرة التي يحملونها ، وكان يحيط بالجمل حوالي ثلاثون رجلا يحمل بعضهم الاقواس ، وآخرون يشهرون السيوف ويحمل غيرهم البنادق ويطلقون النيران بين فترة واخرى ، وكان يلي الجمل ثمانية رجال يركبون الابل سريعة العدو وكانت ابلهم وخيولهم مجللة بالقماش المزركش تعلوها سروج مزخرفة . وقد تلى ذلك جملان يحملان هودج مغطى بقماش جميل وفيه سيدة قريبة للسلطان ، وقد كان هناك عدد كبير من هذه الخيول المجللة بالقصب المذهب وكان الحجاج من عناصر عربية وتركية وبربرية ومغولية وفارسية وغير ذلك من المسلمين (١) .

٢ . الاحتفالات القومية :

هذا ما كان من شأن الاحتفالات الدينية الاسلامية في دمشق في عصر سلاطين المماليك ، وبالاضافة الى ذلك كان هناك نوع آخر من الاعياد اشترك في الاحتفال بها المسلمون وغير المسلمين من اهل دمشق ، مما يغلب الطابع القومي عليها مثلا الاحتفالات التي ترتبط بشخص السلطان كالاحتفال بتولية سلطان جديد او شفاء السلطان من مرض أو عودته من سفر أو حرب ، والاحتفالات التي تشمل الاعياد التي كان في اصلها خاصة باهل الذمة ولكن لم يلبث ان شاركهم فيها المسلمون فتحولت من اعياد دينية خاصة بالذميين الى اعياد قومية يشترك في احيائها جميع اهل دمشق .

١ . الاحتفالات السلطانية :

١ . الاحتفال بتولية سلطان جديد :

جرت العادة في عصر المماليك عند موت احد السلاطين ان يحتفل بتولية السلطان الجديد قبل الشروع في دفن السلطان الراحل (٢) .

---

١ . The Travels of Bertrandon ,P. 31.

٢ . النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٨٢١ ، الدرة المضيئة ، ص ١٨ ، مفاكهة الخلان ، ج١ ، ص١٦٧ -١٦٨ .

اما عن صورة ذلك الاحتفال فهي ان يجتمع الخليفة والقضاة والامراء بدار العدل بالقلعة ، ويجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت وعليه خلعة خضراء ، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض . وعند ما يتم الاجتماع يأتي السلطان فيقوم له الجميع اجلالا ، ثم يجلس السلطان على الدرجة الاولى من التخت دون الخليفة ويقرأ الخليفة " ان الله يأمر بالعدل والاحسان . . . " الى آخر الاية ويلقي خطبة يوصي فيها السلطان بالرفق بالرعية واقامة الحق واظهار شعائر الدين الاسلامي ونصرته ، وبعد ذلك يبايع الخليفة السلطان فيقول له " فوضت اليك جميع امر المسلمين وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين " ويقرأ الآية الكريمة " ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله . . . " ثم يخلع الخليفة على السلطان خلعة سوداء وعمامة مرقومة الطرف بالبياض ويقلده سيفا ، يؤتى بالعهد المكتوب من الخليفة للسلطان فيقرأه كاتب ، وعند الانتهاء من قراءته يتاوله للخليفة فيكتب عليه " فوضت اليك ذلك " ويوقع ، كما يكتب القضاة الاربعة تهانيهم بالتولية (١) .

وبعد ذلك يمد سماط عظيم ، كما يتقدم جميع الامراء فيقبلون الارض ويقبلون يد السلطان ويحلفون له ، فيخلع السلطان عليهم وعلى غيرهم " ممن له عادة بلبس الخلع عند تولية الملك " (٢) .

ثم تضرب البشائر في القلعة اعلانا بتولية السلطان الجديد ويأخذ ارباب الحوانيت في " تزيين البلد " وترسل المكاتبات بالبشارة بجلوس السلطان الجديد الى جميع الولاة في مختلف جهات الدولة المملوكية (٣) .

---

١ . صبح الاعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢-٦ .
٢ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٥٦-٥٧ ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٣٣ ، الدرة المضيئة ، ص ١٩ .
٣ . صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٢٤٢ .

وعند وصول هذه البشارة الى مدينة دمشق تقرأ مبايعة السلطان الجديد بالجامع الاموى فيمضيها له الجميع وتدق البشائر وتقبل له الارض ،ثم ينادى بالزينة بدمشق وتستمر البشائر والزينة بدمشق سبعة ايام (١) .

٢ . الاحتفالات بتولية نائب جديد :

كذلك جرت العادة في دمشق في عصر المماليك الاحتفال بتولية نائب جديد (٢) حيث توقد له الشموع وتدق له المغاني ويدخل النائب دخولا حافلا وصحبته جماعة من الامراء الى دار السعادة على عادة النواب (٣) ثم يسير النائب تحت قلعة دمشق سبع مزات على العادة ،وصحبتة الحاجب وخواصه ثم يدخل من جسر باب الجديد ، ثم يأتي الى باب السر ،وينزل ويصلي على العادة ،ثم يركب وقد ترك لنا ابن الفرات في حوادث عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) صورة واضحة لذلك الاحتفال حيث قال : ورد الى دمشق من الباب السلطاني المنصورى سبع نفر على خيل البريد ومعهم تقليد للامير حسام الدين لاجين المنصورى بنيابة السلطنة بدمشق وتقليد الامير بدر الدين بكتوت العلائي بشد الدواوين وتقليد للصاحب تقي الدين توبة التكريتي بوزارة الشام ،ولكل منهم تشريفا ،وتشريفا لصاحب حماه ،فلما كان اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول اجتمع سائر الامراء بالميدان الاخضر ولبس الامير حسام الدين تشريف النيابة والامير بدر الدين بكتوت بتشريف الشد وركب الامير علم الدين الحلبي والامير عز الدين الافرم وسائر الامراء والعساكر المصرية والشامية وساقوا كلهم في خدمة الامير حسام الدين ،فلما وصل انتهوا الى باب سر القلعة وترجلوا باجمعهم وقبل الامير حسام

---

١ . مفاكهة الخلان ،ص ٢٣٠ .

٢ . البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ٣ ،انباء الغمر ،ج ٢ ،ص ٨٥ ،تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ،ص ١٧٥-١٧٦ ،الدرة المضيئة ،ص ٦٣ -٦٨ .

٣ . الدرة المضيئة ،ص ٦٨ .

الدين عتبة باب السر ثلاث مرات ثم تقدم الاميران علم الدين الحلبي وعز الدين الافرم ليمضداه حتى يركب ويمشيان في خدمته الى دار السعادة فسلك سبيل الادب معهما وامتنع من الركوب واستمر ماشيا والامير علم الدين الحلبي عن يمينه ، والامير عز الدين الافرم عن يساره ، وبقية الامراء والعساكر بين يديه وكذلك القضاة والاعيان والاكابر ، ولم يزل ماشيا الى ان دخل دار السعادة وجلس بها في رتبة النيابة وقرئ تقليده يوم الاربعاء الحادى عشر من نفس الشهر (١) .

وجرت العادة عند تولية نائب جديد في دمشق ان تشعل له الشموع كذلك تضاء له الشموع يوم الجمعة عندما يأتي الى صلاة الجمعة بالمقصورة في الجامع الاموى (٢) .

٣ . الاحتفال بشفاء السلطان او النائب من المرض :

واذا ألم بالسلطان مرض ثم عوفي احتفل بذلك احتفالا كبيرا (٣) حيث تضرب له البشائر في القلعة ويتخلف الخدم بالزعران ، وتوزع زوجات السلطان على الخدم والخاصكية واعيان الناس البنود الحرير الاصفر (٤) . ويستمر الامر على ذلك سبعة ايام ، والافراح مستمرة بالقلعة وسائر بيوت الامراء وكذلك البشائر والكوسات (٥) تضرب (٦) ويتخلف جميع الامراء بالزعفران عندما يطلعون لتهنئة السلطان بشفائه ،

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .
٢ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٣ ، مفاكهة الخلان ، ص ٢١١ - ٢١٢ ، ٢٢٤ .
٣ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ١٦٥ .
٤ . بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .
٥ . الكوسات : وهي "صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الاخر بايقاع مخصوص" ، والكوس هو الذى يضرب بالكوسات ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ٩ ، ١٣ .
٦ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٦٤ .

فيخلع عليهم السلطان كما يقيم لهم سماط حافـل (١) .

ويسرع عامة الناس الى اقامة الزينات "على جارى العادة" (٢) واحيانا تستمـر هذه الافراح الشعبية عشرة ايام (٣) يتفاخر فيها الناس في الزينة ويتفننون في انـواع الترف (٤) . كذلك جرت العادة عند شفاء السلطان او نائب السلطنة في دمشق من المرض حيث توزع الصدقات من الخبز والملابس " مع جملة من المال " ويجمع اصحـاب الملاهي بأمر من السلطان بالقلعة ، ويعمل النفط بسوق الخيل فيأتي الناس من كـل مكان للفرجة . في حين تركب طوائف العربان بخيولها وهدايا ها وتخرج طوائـف المماليك للعب بالرماح تحت القلعة (٥) ، ويؤمر باطلاق المحابيس عند شفـاء السلطان او النائب للسلطنة كما جرت العادة (٦) .

٤ . الاحتفال عند دخول السلطان دمشـق :

وعند دخول السلطان المملوكي مدينة دمشق كان يحتفل بأستقباله احتفالا كبيرا فينادى في دمشق ان تفتح الدكاكين وتتزين المدينة لقدوم السلطان وتجهـز الاقامات وتـرتيب " الات المملكـة مثـل الكـوسـات والعصايـب (٧)

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٦٤ ، تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٢٠ .

٢ . درة الاسـلاك ، ج ٣ ، ص ١٣٩ ، تاريـخ سلاطين المماليك ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

٣ . ابنـاء الغمـر ، ج ١ ، ص ٤٥٣ .

٤ . السلـوك ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

٥ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٦٢ .

٦ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٥١ ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٧٦ - ٦٨١ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨١ - ٨٢ ، ٣٠٦ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٣٧ - ١٩٣ ، تاريخ ابن الفـرات ، ج ٧ ، ص ١١٧ ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

٧ . العصايب : هي راية عظيمة من حرير اصفر مطرزة بالذهب ، عليها القاب السلطان تحمل في المواكب السلطانية ، العصر المماليكـي ، ص ٤٣٥ .

والجمدارية (١) والدمحدارية والجنايب (٢) " (٣) ، وتضرب الكوسات بالقلعة والطبلخاناه بدور الامراء عدة أيام (٤).

وبعد ان تتزين المدينة احسن زينة يخرج جميع سكانها من النساء والرجال (٥)، وينام الناس على الاسطحة ليشاهدوا السلطان عند دخوله المدينة ، ويقضون ليلتهم بالرقص والطرب على اضواء الشموع، وفي الصباح يخرج القضاة والامراء ، والاعيان لتلقي السلطان ، ويبسط من عند المصلى الشقاق الحرير تحت اقدام فرس السلطان بحيث انه كلما جاوز شقة تطوى من ورائه ، والجد على رأسه والامراء السلحدارية عن يمينه وشماله ، وبين يديه والناس يدعون له ويضجون ضجيجا عاليا ، وعندما يصل السلطان الى القلعة ينصب اليه الجسر وينزل اليه نائب دمشق ويقبل الارض بين يديه ، ثم يسير بفرسه الى جهة القصر الابلق بالميدان (٦).

ويصلي السلطان بالمقصورة ويخلع على الخطيب وعلى قضاة القضاة (٧) ، ثم يجلس السلطان بدار العدل يستمع الى شكوى الناس ويرفع عنهم المظالم (٨) . مما جعل العامة

---

١ . الجمدارية : مفردها جمدار ، وهو الموظف الذى يتصدى لالباس السلطان او الامير ثيابه ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩ .

٢ . الجنايب : وهي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة اليها ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٣١ ، حاشية رقم ٣ .

٣ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٥١ ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٧١-١٧٢ .

٤ . تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٨٦ .

٥ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٦٧ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ١٢-١٧ .

٦ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٥١-٥٢ ، الدرة المضيئة ، ص ١٦٢ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ١٢-١٧ .

٧ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢١٢ -٢١٣ .

٨ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١١٧ ، الدرة المضيئة ، ص ١٦٢ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٠ .

تضج بالدعاء لـه ، ويتباشروا بالخير والسـرور (١) .

٥ . الاحتفال عند عودة السلطان او النائب منتصـرا :

ويكون الاستقبال اشد بهجة واعظم روعة عند عودة السلطان منتصرا من الحرب (٢) ففي هذه الحالة يسبق السلطان احد الامراء بالبشارة (٣) وكانت بشرى النصر تقـرأ بالجامع الاموي ، وتنادي المشاعلية في المدينـة في معاشر الناس لا يتأخر احد بعد صلاة الظهر عن الجامع حتى يسمع مرسـوم السلطان (٤) ، وعندئذ تصدر الاوامر باحضار سائر مغاني العرب ودق المغاني (٥) ، كذلك تدق البشائر على قلعة دمشق وتوقـد الشموع (٦) ويتفاخر الناس في الزينـة ونصب القلاع ـ اقواس النصـر (٧) ـ ، ويفتح بـاب النصر وباب الحريش ، لدخول العسكر المنتصر صحبة النائب وفي الليلة المقررة لوصـول السلطان يخرج الناس لاستئجار الاماكن كل بيت على الشارع اربعة دنانير وكل دكـان دينـار (٨) .

---

١ . البداية والنهايـة ، ج ١٣ ، ص ٢٨٠ ، الدرة المضيئة ، ص ١٦٢ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٦-٢٢٠ ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٧١-١٧٢ .

٢ . البـداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٧ ، ج ١٤ ، ص ١١ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٧ ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٨١-٨٢ ، ج ٨ ، ص ١٦٦ ، بدائع الزهـور ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢١٦-٢٢٠ .

٣ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٧ ، الروض الزاهـر ، ص ٣٦٤ ، الدرة المضيئـة ، ص ١٨٥ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٩٨ .

٤ . الـدرة المضيئـة ، ص ٦٨ .

٥ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١١ ، الدرة المضيئة ، ص ٦٣ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

٦ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٢٠ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

٧ . النجـوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢١٦ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

٨ . البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢١٦ ، بدائع الزهـور ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

وفي اليوم المعين يخرج الناس لاستقبال السلطان ، وتخرج على رأسهم القضاة والاعيان والامراء . وعند وصول السلطان في باب النصر يترجل الامراء كلهم ، ويحمل احد الامراء سلاحه ، وآخر القبة والطاير على رأسه ، وثالث العصا . ورابع الدبوس ويمشي كل منهم في منزلته (١) ، ويسير الموكب مخترقا شوارع دمشق ، وعند مايصل الموكب القلعة يحتفل المماليك باللعب بالرماح ، ويخلع السلطان على الامراء وسائر ارباب الوظائف (٢) ويقوم النائب بتقديم الهدايا والتقادم للسلطان الذي يأخذها معه الى مصر (٣) وتستمر الزينة والافراح والاحتفالات في دمشق سبعة ايام (٤) .

كذلك يقوم الاحتفال ودق البشائر والزينة عند رجوع النائب من سفرته (٥) حيث يطلع الناس الى ملتقاه فتطلع الامراء وارباب الوظائف لملتقاه على عاداتهم ويدخل امامه كاتب السر وناظر الجيش وعليهم الخلع ، ويكون دخوله يوما مشهودا (٦) حيث يقوم اهل الولايات بدمشق بتلقية بالفواكه والحلاوات والمحمول وغير ذلك من انواع الفواكه والحلوى (٧) ويهرع الاكابر للسلام على النائب ، ويكون الاحتفال اكثر بهجة عند عودة نائب دمشق من طوافه على البلاد وبعد القضاء على الخصوم او تأديب العربان ، حيث يخرج لملاقاته ارباب الدولة (٨) وتدق البشائر في دمشق اياما (٩) وتشمل له

---

١ . النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٦٦ .

٢ . السلوك ، ج ١ ، ص ٣٧٧ ، الدرة المضيئة ، ص ١٥٠ - ١٥٥ .

٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٥٧ ، ١٧٢ .

٤ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٧ .

٥ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

٦ . الدرة المضيئة ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

٧ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

٨ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٣٢٣ - ٣٣٤ ، ٣٣٦ - ٣٤٠ .

٩ . مفاكهة الخلان ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

الشموع على عادة النواب (١)

وهناك بعض الاعياد والاحتفالات القومية التي كانت تحتفل دمشق بها في بعض المواسم ولكن المصادر المتوفرة لدينا لا تمدنا اية تفاصيل عن طريقة الاحتفال بهذه الاعياد مثل عيد الجوزة (٢)، وعيد الزبيب (٣)ـ موسم الحلاوة ـ وغيرها من الاعياد الموسمية .

٣ . أعياد النصارى :

لعل اقوى دليل على ارتباط المسيحيين بالمسلمين في عصر المماليك هو ان المسلمين شاركوا اهل الذمة في الاحتفال بكثير من اعيادهم الدينية " وهم يعلمون انها مختصة باهل الكتاب " (٤)

وقد ضرب ابن الحاج مثلا رائعا للوحدة القومية في عصر المماليك ، فقال ان المسلمين لم يكتفوا بمشاركة اهل الذمة في افراحهم ، بل زادوا على ذلك انهم يهادون اهل الكتاب في اعيادهم ومواسمهم بما يحتاجون اليه من " الزعفران والبطيخ والبلح ببعض ما يفعلونه في مواسمهم ، فيقبل المسلمون تلك الهدايا شاكرين (٥) .

ومن اعياد النصارى الشهيرة : عيد النيروز ويكون في اول راس السنة القبطية (٦) ولم يحتفل اهل دمشق بعيد النيروز في ذلك العصر كما يحتفل به اهل مصر ، وحدث مرة سنة

---

١ . الدرة المضيئة ، ص ١٦١ .
٢ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ١٨٥ ، ٢٠٢ ، ٢٧٩ ، ٣٤٤ .
٣ . مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٣٧٦ .
٤ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٤٦ .
٥ . المدخل ، ج ٢ ، ص ٤٧ - ٤٨ .
٦ . عيد النيروز : في الاصل احد الاعياد الفارسية وقصد به الفرس يوم الاعتدال الربيعي ، ولكن قبط مصر اخذوا هذه التسمية واطلقوها على راس السنة القبطية ، انظر : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .

٦٩٠ هـ عند ما دخل الملك الاشرف دمشق بعد فتح قلعة الروم صادف ذلك ان كان عيد النيروز فعمل عسكره النيروز كما دتهم في مصر، "وعظم ذلك على اهل دمشق لعدم عادتهم بذلك" (١).

وحاكى مسلمو مصر في عصر المماليك الاقباط في الاحتفال بذلك العيد والتوسعة على اهلهم فيه ،فلا بد في ذلك اليوم من عمل اصناف خاصة من الحلوى ،كالزلابية والهريسة ،بحيث تصنع ليلة النيروز ،فاذا اشرقت شمس ذلك اليوم ارسلوا منها لمن يختارون من الاقارب والاصحاب ودعوا الاهل والاحباب الى تناول الطعام ،لا سيما البطيخ الاخضر والخوخ والبلح وغير ذلك "مما يلزمه النساء لازواجهن حتى صار ذلك كان فرض عليهن لانهن اكتسبن ذلك من مجاورة القبط ومخالطتهن بهم ،واذا امتنع احدهم عن فعل ذلك كان سببا لوقوع التشويش بين الرجل وأهله" (٢).

اما خارج المنازل فجرت العادة ان يجتمع العامة في ذلك اليوم بالطرقات ويلعبون بالتراشق بالماء والتصافح بالجلود وغيرها (٣). وقد اصبح ذلك من الاشياء العادية حتى ان الوالي لا يحكم لاحد ممن ضربوا او سلبت نقودهم في ذلك اليوم (٤). وهكذا اقترن هذا العيد بمجاوزة الحدود الى "الفجور والمهور(٥) فالخمر يشرب جهارا ،والنساء يلعبن في بيوتهن مختلطين مع الرجال والشباب، فيرشق بعضهم بعضا بالماء دون ان يستحي من جاره أو ابن العم او الصهر او من اصدقاء زوجها" (٦) واذا ضاقت بهم

---

١. النجوم الزاهرة ،ج ٧ ،ص ١٢.
٢. المدخل ،ج ٢ ،ص ٤٨-٤٩.
٣. الخطط ،ج ٢ ،ص ٣٢.
٤. المدخل ،ج ٢ ،ص ٤٩.
٥. الخطط ،ج ٢ ،ص ٣٢.
٦. المدخل ،ج ٢ ،ص ٥١ ،الخطط ،ج ٢ ،ص ٣٢.

المنازل خرجوا الى البرك والخلجان وغيرها من اماكن النزهة ،حيث يصل بهم الامر الى نزع ثيابهم فيصبح اكثرهم عرايا في حين يقنع المحتشم او المحتشمة منهم بقميص رقيق (١) .

ومن خصائص يوم النيروز في عصر المماليك عمل "كرنفال" في الشوارع وطرقات دمشق فيأخذون شخصا منهم يكون قوي الطباع ويسمونه امير النيروز ،ويغيرون صوته و خلقته ويجعلون على رأسه طرطورا طويلا من الخوص ويركبونه حمارا وهو شبه عريان ، ويجعلون حوله الجريد الاخضر " وشماريخ البلح " وبيده شيء يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس ثم يطوفون به ازقة المدينة وشوارعها على البيوت والاسواق ،فيقف على باب كل فرد - سواء من الاكابر او غير الاكابر - ويكتب عليه ايصالا باموال واشياء معينة يجب عليه دفعها فورا والا أهانوه بصب الماء والتراب عليه وظلوا مرابطين امام داره حتى يأخذوا ما فرضوا عليه ،وهم في كل ذلك يحتمون بالنيروز ويقولون "ليس فيه حرج ولا احكام تقع (٢) ".

واعتاد السلطان فرج بن برقوق ان يحتفل بالنيروز احتفالا كبيرا حيث يقضي اليوم مع ندمائه في معاقرة الشراب والخمر (٣) ،وقد حاول بعض سلاطين المماليك ان يضعوا حدا للمفاسد التي تحدث يوم النيروز (٤) ،ولكن جهودهم في هذا الصدد ذهبت ادراج الرياح اذ كان المصطلح عليه عند المعاصرين - مسلمين وذميين - ان النيروز عيد قومي يجب ان تتعطل فيه الاسواق عن البيع والشراء (٥) وان تغلق المدارس ابوابها ليقضي طالبها يومهم في اللعب (٦) .

اما عن اعياد النصارى الاخرى فكانت اقل بهجة ووضوحا في عصر المماليك ومع ذلك فمن

---

١ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٥١ ،الخطط ،ج ٢ ،ص ٣٢ .

٢ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٥٢-٥٣ .

٣ . النجوم الزاهرة ،ج ٦ ،ص ١٣٢ - ١٣٣ .

٤ . السلوك ،ج ٣ ،ص ٣٥٨ .

٥ . الخطط ،ج ٢ ،ص ٣٢ .

٦ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٤٩ .

الثابت ان المسلمين ظلوا يشاركون اهل الذمة في بعض هذا مر تلك الاعياد وما يتعلق بها من معتقدات ،ففي خميس العدس ، وهو من مواسم اهل الكتاب الرئيسية اعتادت المسلمات ان يخرجن لشراء البخور والخواتم ،حتى يصبح عددهن في الاسواق اكثر من عدد الرجال ،ولا بد من البخور في ذلك اليوم حتى يصرف عنهن " العين والكسل والوعكة من الجسد " (١) ،وفي سبت النور لا بد من شراء الريحان وورق الشجر فيبيتونه في اناء به ماء ويغتسلون به ،ثم يأخذون ما اجتمع من غسلهم ويلقونة في الداريق حتى يذهب عنهم الامراض والاسقام (٢) .

وفي يوم الغطاس تشبه المسلمون بالمسيحيين ،فاتخذوا من ذلك اليوم موسما يزيدون فيه النفقة ،ويدخلون السرور على اولادهم ،بل حرص بعض المسلمين على ان يغطس في الماء تلك الليلة كما يفعل النصارى (٣) .

ولم يقف الامر عند مشاركة المسلمين للنصارى في اعيادهم ،بل تعداه الى الاخذ بعاداتهم ويذكر ابن حجر انه كان هناك سنة ٨٤٠ هـ دير يحج اليه النصارى كل سنة ، فحاكاهم المسلمون في ذلك حتى صار يجتمع عند ذلك الدير في الموسم المحدد لزيارته ما لا يحصى من المسلمين والنصارى (٤) .

وهكذا " كثر التخليط على بعض الناس في هذا الزمان لمجاورتهم ومخالطتهم النصارى ،فأنست نفوسهم بعوائد من خالطوه ،ووضعوا تلك العوائد موضع السنن " (٥) .

---

١ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٥٤ - ٥٥ .

٢ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٥٦ - ٥٨ .

٣ . المدخل ،ج ٢ ،ص ٥٦ .

٤ . ابناء الغمر ،ج ٣ ،ص ٢٢٤ .

٥ . المدخل ،ج ٣ ،ص ٦٥ .

يتضح مما ذكر عن الحياة العائلية والمنزلية والاعياد والمواسم ان هناك عوامل وحدة تربط اعضاء المجتمع الدمشقي مع بعضهم البعض وتصهر الطوائف المختلفة والجماعات في بوتقة واحدة . وفي الحقيقة كان المجتمع الدمشقي مجتمعا عربيا بحضارته وتقاليده " . فاذا كانت الطوائف الدينية قد حافظت على معتقداتها وحرية عاداتها فانها كانت اجتماعيا مسلمة ، بمعنى انها لم تكن مغلقة على نفسها تجاه التأثيرات الاسلامية المختلفة .

ملحق رقم (١)

حارات دمشق القديمة

لشمس الدين ابن طولون الدمشقي الصالحي

(٨٨٠ - ٩٥٣هـ = ١٤٧٥/٦ - ١٥٤٦م).

(كما نشرها حبيب زيات في مجلة المشرق ، العدد ٣٥ ، ص ٣٣ - ٣٥)

في جملة مصنفات ابن طولون المديدة كتاب " التمتع بالاقران بين تراجم الشيوخ والاخوان " ألحق به قبل وفاته ذيلا دعاه . " ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر " ومات ولم يبيّض مسودته . وقف حبيب زيات منه على نسخة رقم ١٤٢٢ في الخزانة التيمورية منقولة عن مسودة المؤلف بتاريخ ختام شهر جمادى الاخرة سنة ١١٣٨ (١٧٢٦م) .

واهم تراجم الكتاب ترجمة ابرهيم بن اسمعيل بن يوسف المكارى الصالحي المولود في مدينة نابلس سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٥/٦م) روى ابن طولون حديثا جرى معه ذاكره فيه بحارات دمشق القديمة . فآثر حبيب زيات خدمة لتاريخ دمشق ، ان نسردها عنه كما حكاها ، بعد رقمها ، وهذه اول مرة تنشر على هذا النسق مجموعة . قال بلفظة :

" تذاكرت انا واياه حارات دمشق القديمة فقلت له :

داخل باب الجابية

١. حارة الفسقار

٢. حارة البزورية وتعرف قديما بسوق القمح .

٣. حارة مأذنة الشحم وتعرف قديما بمقهة الصوف . وقبليّها .

٤ . حارة الخاطب . وشرقيها .

٥ . حارة درب البقتل . ورايح منه

٦ . حارة مسجد البيع .

ولم يكن في الصف الشمالي مسجد غيرة من باب الجابية الى باب شرقي يوجه الى القبلة . قيل ان الصحابة بايعوا فيه . وهو الان مدرسة بناها الخواجا محمد بن يوسف القارى سنة ٨٨٧ (١٤٨٢م) وبنى الى جانبها دارا عظيمة . وقبليها قاطع الطريق المعظم الاخذه الى باب شرقي قيسارية ودارا أخرى عظيمة . وكذلك بنى ابن عمه علي ابن عيسى

القارى عدة دور على تل مأذنة الشحم حارة جامعة بمسجد . وعدة حواصل . وخان حرير . وما مات حتى افتقر واستمطى . وكذا بنى ابن اخيه عبد القادر دارا عظيمة بالغ في اتقانها وبنى ابوه حماما كان بتلك المحلة . وحيارته قديما تعرف بدرب الريحان .

ثم في شرقي ما ذكر

٧ . حارة الكشك وكان فيها آثار جامع باعمدة ومأذنة نقلوا الجميع الى عمارة الجامع الاموى بعد حريقه سنة ٧٧٤ (٣/١٣٧٢م) .ثم شرقي ما ذكر الى جهة القبلة شمالي باب كيسان

٨ . حارة القسط . ثم شمالي عماير القاربين

٩ . حارة الكنيسة . ثم شرقيها

١٠ . حارة النيبطون .

داخل باب توما

١١ . حارة المنجنيق (الجينيق) . ثم قبلها بغرب

١٢ . حارة القيمرية . ثم غربيها بشمال

١٣ حارة الشلاحة . ثم قبليها بغرب

١٤ . حارة البدرائية . ثم قبلها

١٥ . حارة الخضرا وبها القليجية لم يبق منها الا الواجهة .واراد سيباى نائب دمشق ان يخربها ويضمها في المدرسة التي بناها خارج باب الجابية فمنعه اهل الخير . وخلفها قبة فوق قبر الواقف. وكانت هذه القليجية مجتمع الفضلاء . والعقلاء للاستشارة اذا داهم اهل دمشق امر مهم . وصارت حارتها اليوم تعرف

١٦ . حارة الهنود الشلبية . وهناك دور خلفاء بني امية . قيل انه ما تعرض احد لبنائها وافلح . ولقد رأينا بعض ذلك .

داخل باب السعادة

١٧ . حارة الاندر

داخل باب الفرج

١٨ . حارة الظاهرية

داخل باب الفراديس

١٩ . حارة مسجد الراس

خارج دمشق

٢٠ . حارة الفراوية خارج باب كيسان . وشرقيها .

٢١ . حارة الحمالين . وقرب تربة سيدى أبيّ رضي الله عنه .

٢٢ . حارة المخاضنة . وشرقيها .

٢٣ . حارة القيشاني . ٢٤ . حارة الملّاح . ثم شماليها .

٢٥ . حارة الشيخ رسلان . ثم بقي في الزنجساري .

٢٦ . حارة عين الحمّة . وقربها .

٢٧ . حارة السبعة . وشرقيها .

٢٨ . الفرايين . وشرقيها .

٢٩ . الشرش .

٣٠ . حارة المنابسة .

٣١ . حارة بيت الاهة .

٣٢ . حارة حكر الاسية .

٣٣ . حارة شطرا (سطرا؟) الغرب .

٣٤ . حارة بير الروبض .

٣٥ . حارة الجهينية .

٣٦ . حارة دار الطعم .

٣٧ . حارة عين اللؤلؤة .

٣٨ . حارة بير الاكراد .

٣٩ . حارة السليماني .

٤٠ . حارة مرج الدحداح .

٤١ . حارة الجرن الاسود .

٤٢ . حارة الجاموسية .

٤٣ . حارة السميرية .

٤٤ . حارة حكر الجلال .

٤٥ . حارة باب الخوخة .

٤٦ . حارة ابن صبح .

٤٧ . حارة حضيرية شنتمر .

٤٨ . حارة سوق ساروجا .

٤٩ . حارة حمام العدد .

٥٠ . حارة الديلم .

٥١ . حارة السودان .

٥٢ . حارة خان الكججانية .

٥٣ . حارة حدرة ملكاس .

٥٤ . حارة البفيل .

٥٥ . حارة زقاق القصّاصين .

٥٦ . حارة خان الظاهر .

٥٧ . حارة عين دار البطيخ .

٥٨ . حارة زقاق الشميرية .

٥٩ . حارة الشرف القبلي .

٦٠ . حارة حمام الناصرى .

٦١ . حارة المنيبع .

٦٢ . حارة القصـــر .

٦٣ . حارة السلاوية (السلارية ؟غربي جامـع تنكـــز .

٦٤ . حارة جامع المداس .

٦٥ . حارة الحكـــر .

٦٦ . حارة جانبك الجفـون .

٦٧ . حارة المهنكامـة (البنكامـة؟) .

٦٨ . حارة القنـوات .

٦٩ . حارة الخلخـــال .

٧٠ . حارة المـــزار .

٧١ . حارة الشويكـة .

ثم رأيت على جزء ابي عبد الله الفضائرى طبقة كتبت في ٧٢ حارة البلاطـة بدمشـــق في مسجـد بدر الديـــن .

ثم رأيت على جزء ابن حرب "كتبت في درب الدعوة داخل باب الصغير بدمشق" . وكذا أخرى في درب العجم بها . وأخرى في سوق الخشابين بها . "

ملحق رقم (٢)

نواب السلطنة في نيابة دمشق

١ . علم الدين سنجر الحلبي :-

هو أول نائب تولى دمشق "من جهة ملوك الترك" (١) ،وفي سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) اعلن علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق استقلاله بالسلطنة في نيابته ،وتلقب بالملك المجاهد ،وضربت السكة باسمه (٢) ،وغلت الاسعار في زمنه حتى بيع رطل الخبز بدرهمين واللحم كل رطل بثمانية عشر درهما والجبن الوقية بدرهم (٣) ،ثم تنازل عن سلطنته ،لكنه عاد فأعلن نفسه سلطانا من جديد ،واستمر في سلطنته هذه مدة تقارب السنة ،حتى ارسل له السلطان الظاهر بيبرس من هزمه (٤).

٢ . الأمير طيبرس الوزيري :

دخل دمشق سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م) (٥) ،وكان طيبرس قد اهلك اهل دمشق باخراجهم من بلدهم ،والترسيم على الاكابر باخراج عيالهم ،واهانتهم ،وضيق على الناس حتى تمكن العرب من شراء الغلال من دمشق ،وتخويف الناس من التتار ،وكان البدوى

---

١ . الدرة المضيئة ،ص ١٨٠ ،اعلام الورى ،ص ٤-٥ .

٢ . السلوك ،ج ١ ،ص ٤٣٨ -٤٣٩، ٤٤٥ ،المختصر في اخبار البشر ،ج ٦ ،ص ١١٨ ، النهج السديد ،ص ٦٨-٦٩ ،زبدة الفكرة ،ج ٩ ،ص ٤٢ ،اعلام الورى ، ص ٥ .

٣ . الدرة المضيئة ،ص ١٨٠ ،اعلام الورى ،ص ٥ .

٤ . السلوك ،ج ١ ،ص ٤٤٥ ،المختصر في اخبار البشر ،ج ٦ ،ص ١١٨ ،اعلام الورى ،ص ٥ .

٥ . الذيل على الروضتين ،ص ٢٢٠ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٠ ،اعلام الورى ، ص ٥ .

يجلب الجمل ويبيعه باضعاف قيمته ويشترى به الغلة رخيصة لان الناس بين خائف يبيع حاصله ليتجهز به ز ومحتاج الى الجمال لسفره ،وبين ما هو موكل عليه ليسافر ، ولا بد فهو مضطر الى كل ذلك " وبلغ كراء المحمل من دمشق الى مصر نحو مائتي درهم " (١) .

فلما بلغ الظاهر بيبرس عنه هذه الامور ارسل اليه عسكرا مع عز الدين الدمياطي وغيره من الامراء فلما وصل الى دمشق خرج طيبرس لتلقيهم فقبضوا عليه وقيدوه وارسلوه الى القاهرة (٢) فحبسه الظاهر بيبرس ،واستمر في الحبس سنة وشهرا ،وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهر أيضا (٣) .

٣ . الأمير جمال الدين آقوش النجيبي :-

دخل الى دمشق في شهر ذى الحجة سنة (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) (٤) ،وهو من اكابر الامراء الصالحية ،عمل في استادارية الملك الصالح نجم الدين ايوب - تولى في أول دولة الملك الظاهر بيبرس استادارية ثم نقله الى نيابة الشام ،وكان دينّا كثير الاحسان الى اهل دمشق وكثير الرفق بهم وكان كثيرا ما يدفع الملك الظاهر عنهم ،وله بدمشق مدرسة جوار مدرسة الملك العادل نور الدين ،وله خانقاه جوار القصر الابلق ، وله خان للسبيل عند قباب التركمان عند مسجد فلوس مكان سوق الخيل والدواب ،وعليهم اوقاف جيده ،وله وقف كثير بمصر على مكة والمدينة (٥) ،أقام بدمشق عشر سنين ثم عزل (٦) .

---

١ . الذيل على الروضتين ،ص ٢٢٠ .
٢ . الذيل على الروضتين ،ص ٢٢٠ ،المختصر في اخبار البشر ،ج ٦ ،ص ١٢٣ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٠ ،اعلام الورى ،ص ٥ .
٣ . المختصر في اخبار البشر ،ج ٦ ،ص ١٢٣ .
٤ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ١١٨-١١٩ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٠-١٨١ ،اعلام الورى ،ص ٦
٥ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ١١٨-١١٩ .
٦ . الدرة المضيئة ،ص ١٨٠-١٨١ ،اعلام الورى ،ص ٦ .

٤ . الأمير عز الدين ايدمر الظاهري :-

كان نائب الكرك سنة (٦٦١هـ/١٢٦٢م) (١) وكان من مماليك الظاهر بيبرس ، وفي نيابته كان يجمع ما بين الكرك والشوبك ، وعند تعيينه انعم عليه السلطان بيبرس بثلاثين الف درهم وكثير من القماش (٢) .

ولما خرج السلطان بيبرس من القاهرة الى الكرك في سنة ٦٧٠هـ يكشف احوالها وجاء الى دمشق ، خرج معه عز الدين ايدمر من الكرك الى دمشق . ولما دخل السلطان الى دمشق عزل جمال الدين وولى عز الدين ايدمر ، ولم يزل في دمشق نائب الى أن توفي الملك الظاهر بيبرس ، وجاء ولده الملك السعيد الى دمشق ، وتغيّرت عليه قلوب الامراء ، وخلعوه من الملك وولّوا اخوه بدر الدين سلامش وحبسوه في القلعه (٣) .

٥ . الأمير شمس الدين سنقر الاشقر :-

كان سنقر الاشقر من كبار امراء المماليك البحرية ومن الذين ايدوا الملك المغيث الايوبي صاحب الكرك في النزاع الذى كان بينه وبين الملك الناصر الايوبي (٦٤٨-٦٥٨هـ / ١٢٥٠-١٢٦٠م) صاحب دمشق وحلب ولكن الملك المغيث تغير على هؤلاء الامراء بسبب من تهديد الملك الناصر ، فأمسك عددا منهم وارسلهم الى صاحب دمشق وحلب الذى سجنهم في حلب . وكان من بني الامراء المسجونين سنقر الاشقر (٤) الذى بقي في سجنه حتى استولى هولاكو على حلب سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) فأسره وأخذه معه

---

١ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ ، الدرة المضيئة ، ص ١٨١ ، اعلام الورى ، ص ٦-٧ .
٢ . السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .
٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٨١ ، اعلام الورى ، ص ٧-٨ .
٤ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٧-١٨ ، وفات الوفيات ، ج ٨ ، ص ١٩٥ .

الى بــــلاده (١) . وبقي سنقر الاشقر في الاسر الى ان استماده الظاهر بيبرس مقابل اطلاق ابناء هيتوم ملك الارمن (١٢٢٦-١٢٧٠م) الذين اسرهم الظاهر بيبرس فـــــي حروبه معهم (٢) . وتولى سنقر الاشقر بعد عودته من الاسر الولاية بالشام، سنـــــة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) (٣) كما شارك في الحروب ضد التتار (٤) واصبح من الامـــــراء المقربين الى السلطان الملك الظاهر بيبرس (٥) .

وبعد وفاة السلطان بيبرس سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) ،بدأ الخلاف بين سنقـــــر الاشقر وبين قلاوون الالفي الذى كان ايضا من الامراء المقربين الى السلطان بيبرس فعندما تولى الملك السعيد بن الظاهر بيبرس السلطانة سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) تغير عليه بعض الامراء المماليك - ومنهم سنقر الاشقر وقلاوون الالفي - لانهم كانوا يرون انهم احق بالملك منــه (٦) ،واخذوا يتآمرون عليه مما أدى الى سجن الاميرين سنقر الاشقر وبيســـرى اللذين إطلقهما السلطان بعد قليل (٧) .

---

١ . زبدة الفكرة ، ورقة ٣٠ ،وفات الوفيات ،ج ٨ ،ص ١٩٥ .
٢ . ابن العبرى ،غريغوريوس الملطي ،تاريخ مختصر الدول ،بيروت ،المطبعة الكاثوليكية ، الطبعة الاولى ،١٩٥٨ ،ص ٢٨٦ ،سيشار اليه تاريخ مختصر الدول ،ذيل مـــرآة الزمان ،ج ١ ،ص ٣٨٦ .
٣ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٧ ،ص ١٤٩-١٥٠ ،المختصر في اخبار البشر ،ج ٧ ،ص ١٧ - ١٨ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨١ ،اعلام الورى ،ص ٧-٨ .
٤ . السلوك ،ج ١ ،ص ٦٢٨ .
٥ . الدرة المضيئـــة ،ص ١٨١ ،اعلام الـــورى ،ص ٧-٨ .
٦ . السلوك ،ج ١ ،ص ٦٤٥ .
٧ . النهج السديد ،ص ٢٩٠-٢٩١ ،السلوك ،ج ١ ،ص ٦٤٥ .

وعند ما بدأ قلاوون العمل لعزل السلطان الملك السعيد عن السلطنة حتى يأخذ مكانه انقسم الامراء المماليك على انفسهم . فقد بدأ الامير بيسرى قلاوون الالفي ، وأيد سنقر الاشقر وعز الدين الافرم السلطان (١) وانتهى الصراع بعزل الملك السعيد وتولية الملك العادل سلامش مكانه ، وعين قلاوون الالفي اتابكا وشريكا للسلطان كما عين سنقر الاشقر في نيابة السلطنة في دمشق (٢) .

وتمكن قلاوون من الاستئثار بالسلطانة سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) وتم ذلك بموافقة كبار الامراء المماليك في القاهرة . لكن ذلك لم يرضى سنقر الاشقر الذى كان لا يزال نائبا للسلطانة في دمشق لاعتقاده بانه احق بالسلطانة من قلاوون (٣) . ولكن سنقر الاشقر لم يقم بأى عمل مباشر ضد قلاوون وانما اكثر "الاستبداد" بالشام واعماله (٤) ، وان يكون "حاكما من الفرات الى العريش" (٥) .

ويبدو أنه كان هناك اتفاق بين سنقر الاشقر وبين قلاوون ، على اساس ان يقتسما البلاد بينهما ويصير الامر على ما كان عليه في أواخر الدولة الايوبية ، سلطان مصر وسلطان في بلاد الشام (٦) .

وارسل السلطان قلاوون مملوكه حسام الدين لاجين الى دمشق فأقام في قلعتها . واعتقد سنقر الاشقر انه جاء للقضاء عليه ، فجمع الامراء المماليك بدمشق واخبرهم بمقتل

---

١ . النهج السديد ، ص ٣٠٣-٣٠٥ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥٣ ، العصر المماليكي ، ص ٦٦-٦٧ ، الامارة الطائية ، ص ١٠٧ .

٢ . النهج السديد ، ص ٣١٠ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٢-١٦٣ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥٢-٦٥٨ .

٣ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٩ .

٤ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٢ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٧-١٨ . الامارة الطائية ، ص ١٠٧ .

٥ . زبدة الفكرة ، ... ، ورقة ١٠٢ ب ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٧ .

٦ . زبدة الفكرة ، ، ورقة ١٠١ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٢ .

السلطان ، ودعاهم الى طاعته ومبايعته ، فلحقوا به وبايعوه . وفي ٢٤ ذى الحجة من سنة (٦٧٨هـ/نيسان ١٢٧٩م) ركب سنقر الاشقر "بشعار السلطنة" من دار السعادة ، التي كانت مقر النائب بدمشق الى القلعة ، وتلقب "بالملك الكامل" (١) . ثم اخذ يثبت سلطته في دمشق ، فقبض على الامراء المؤيدين لقلاوون ، وعين الموظفين ، وبعث الى امراء المماليك في بلاد الشام يستميلهم اليه ، وارسل القوات من دمشق الى غزه "لحفظ البلاد ومنعها ودفع من يتطرق اليها من البلاد المصرية" (٢) ، وكتب الى اميرى العرب عيسى بن مهنا واحمد بن حجي يعلمهما بما تم من أمره ويطلب منهما القدوم اليه (٣) .

ولاقت دعوته استجابة من امراء العرب (٤) ، حيث اشترك العرب في المعركة الحاسمة التي تقرر فيها مصير سلطنة سنقر الاشقر ، والتي وقعت في (١٩ صفر ٦٧٩هـ/ ٢٠ حزيران ١٢٨٠م) (٥) ، فقد رتب سنقر الاشقر للعرب دورا كانوا يتقنونه تمام الاتقان ، اذ قرر "مع العربان الذين جمعهم ان يقاطعوا ساعة الملتقى على العساكر المصرية

---

١. زبدة الفكرة ، ورقة ١٠١-١٠٢ ، ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ١١ ، النهج السديد ، ص ٣١٢ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٨ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٢ .

٢. ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ١١-١٢ ، زبدة الفكرة ، ١٠٣ ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٨ ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٩ ، درة الاسلاك ، ج ١ ، ص ٥٦ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٦٢-١٦٧ ، ١٧٨ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٧١-٦٧٤ .

٣. ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

٤. ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، زبدة الفكرة ، ص ١٠٣ ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، الامارة الطائية ، ص ١٠٨ .

٥. زبدة الفكرة ، ورقة ١٠٣ ، ب ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٦ .

ويجيئوهم من ورائهم ويحطوا ايديهم في نهب الاثقال والغلمان والجمال ليثنوا اليهم عنا ..." (١) وقام العرب بما اوصاهم به السلطان ،لكن الحيلة لم تنطل على الافرم الذى كان يقود العساكر المصرية ،فانكسرت العساكر الشامية وتفرقت (٢) .

وعند ما رأى سنقر الاشقر هزيمة عسكره وانضمام قسم منه الى العساكر المصرية ، هرب ومن بقي معه من الامراء على طريق البرية مع الامير عيسى بن مهنا وساروا معا الى بيوت الامير عيسى . واستجار سنقر الاشقر بامير العرب واقام عنده ،ثم اتصلا بملك التتار وطلبا اليه قصد بلاد الشام ،ووعده بمساعدته في الاستيلاء عليها (٣) .

٦ . الامير حسام الدين لاجين المنصورى :-

لما تسلطن سنقر ودخل الى القلعة كان لاجين نائب القلعة ، مسكه وحبسه فيها ، فلما هرب ودخل جيش مصر وكان المقدم عليهم الامير علم الدين الحلبي اخرج لاجين من الحبس ،وولاه نيابة دمشق في ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) ،وبقي نائبا احدى عشر سنة ،وكان حسن السيرة ثم عزل عنها (٤) .

وفي (ذى الحجة ٦٨٩/ كانون الاول ١٢٩٠م) رسم الملك الاشرف بتجديد تقليد الامير حسام الدين لاجين المنصورى بنيابة دمشق ،فكتب ،وزاده على اقطاعه

---

١ .زبدة الفكرة ، ،ورقة ١٠٤أ ،الدرر الفاخر ،ص ٢٢٦ ،الامارة الطائية ،ص ١٠٩ .

٢ . ذيل مرآة الزمان ،ج ٤ ،ص ٤٠ ،وفات الوفيات ،ج ٨ ،ص ١٩٥ ،البداية والنهاية ، ج ٣ ،ص ٢٩١ ،درة الاسلاك ،ج ١ ،ص ٥٨ .

٣ . تاريخ مختصر الدول ،ص ٢٨٨ ،زبدة الفكرة . ،ورقة ١٠٤ ب ،تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ،ص ١٧٢ ،السلوك ج ١ ،ص ٦٧٧-٦٧٨ ،ذيل مرآة الزمان ،ج ٤ ،ص ٤٥ ،الامارة الطائية ،ص ١٠٩ .

٤ . الدرة المضيئة ،ص ١٨١ ،اعلام الورى ،ص ٨ .

حرستا (١).

نقل عام (٧٢٠هـ/١٣٢٠م) الى نيابة غزة بعد القبض على الامير علم الدين سنجر الجاولي . وفي اواخر ايامه كان نائبا بالبيرة (٢) على الفرات ، وبها كانت وفاته عام (٧٢٩هـ/١٣٢٩م) (٣).

٧ . الأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري :-

في سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) سار السلطان الملك الاشرف خليل بن المنصور قلاوون من عكا قاصدا دمشق وفي صحبته وزيره ابن السلعوس وزير الديار المصرية (٤) واستناب بدمشق الامير علم الدين سنجر الشجاعي ، وزاد في اقطاعه حرستا ، وجعل له في كل يوم ثلثمائة على دار الطعام ، وفوض اليه ان يطلق من الخزانة ما يريد من غير مشاورة ولا مراجعة ، وارسله السلطان الى صيدا لانه كان قد بقي بها برج عصى ، ففتحه ودقت البشائر بسببه ، ثم عاد سريعا الى السلطان فودعه ، وسار السلطان الى القاهرة ، وارسله الى بيروت ليفتحها ، فسار اليها وسلمت له عتيلة وانطرطوس وجبيل (٥) ، وهو الذى بنى البنيان فوق برج الطارمة (٦) في ايام الاشرف خليل ، وزاد في الميدان الاخضر الصغير مقدار سدسه من الشمال

---

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١٠٣ .

٢ . البيرة : بلد قريب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، وهي قلعة حصينة ولها روستاق واسع ، (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٧٨٧ ، مراصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٢٤٠) ، ولها قرى عديدة ، وهي من توابع حلب ، زبدة كشف الممالك ، ص ٥١ .

٣ . كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٣٠٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥٣ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٤٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

٤ . الدرة المضيئة ، ص ١٨١ - ١٨٢ ، اعلام الورى ، ص ٩ .

٥ . البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢١ .

٦ . برج الطارمة : (احد ابراج قلعة دمشق الغربية) البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٦ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٧٥ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، الدرة المضيئة ، ص ١٨٢ ، اعلام الورى ، ص ٩ .

الى قريب النهر ،وقسم الحيطان على الامراء والاجناد وبعض العوام ،و"عمل هو بنفسه ومماليكه فلم يوفر احد نفسه من العمل فكملت عمارة ذلك في يومين" (١) .

وشرع في عمارة ادر بقلعة دمشق اقترحها الملك الاشرف عليه واهتم بذلك وطلب الرخام من سائر الجهات (٢) وضرب الابنيـة التي على .بانياس والجداول كلها والمسالح والسقايات التي على الانهار كلها ،واضرب جسر الزلابية وما عليه من الدكاكين ،ونادى ان لا يمشي احد بعد العشاء ونادى ان لا تلبس امرأة عمامة كبيرة (٣) .

٨ . الأمير عز الدين ايبك الحموى :-

دخل دمشق سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م) ،وبقي نائبا بها حتى وصل الى دمشق الملك العادل كتبغا (٦٩٥هـ/١٢٩٦م) وعزله (٤) بعد ان انكر عليه سوء اعتماده في ولايته وما صنع نفسه وما يبلغه عنه من بسط يده في اخذ المصايفات واوقع الحوطة على خيوله المسومة واموالة واقمشته (٥) .

٩ . الأمير شجاع الدين أغرلسوا :-

مملوك الملك العادل كتبغا ،تولى نيابة دمشق عندما عزل الملك العادل كتبغا الامير عز الدين ايبك الحوى اثناء زيارته لدمشق سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٦م) (٦) ،

---

١ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ١٢٩ .
٢ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ١٢٨-١٢٩ .
٣ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ١٢٨ ،البداية والنهاية ،ج ١٣ ،ص ٣٢٢-٣٢٣ .
٤ . تاريخ ابن الوردى ،ج ٣ ،ص ٢٤٠ ،تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ٢١٤ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٢ ،اعلام الورى ،ص ٩-١٠ .
٥ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ٢١٤ .
٦ . تاريخ ابن الفرات ،ج ٨ ،ص ٢١٤ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٢ ،اعلام الورى ، ص ٩-١٠ .

وباشر الامير شجاع الدين اغرلو ، النيابة وعمره نحو ثلاثين سنة[1] ولم يزل نائبا بدمشق حتى خلع استاذه الملك العادل كتبغا وتسلطن لاجين (٢) .

١٠ . الأمير سيف الدين قبجق المنصوري :-

دخل دمشق سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٧م) ، وذهب الى غازان هو والبكي ، وبكتمر السلاح دار وجاءوا مع غازان الى دمشق سنة (٦٩٩هـ/١٣٠٠م) ، ولما ردّ غازان الى بلاده ترك الامير سيف الدين قبجق نائب دمشق على عادته ، غير ان السلطان لاجين اوغر صدور امراء مصر والشام عليه بسبب سياسته فخرج عليه الامير قبجق ، ثم رحل قبجق الى بلاد التتار حيث رحب به غازان (٣) .

وفي خلال سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨هـ-٧٠٨هـ/ ١٢٩٨م-١٣٠٨م) عينه السلطان محمد بن قلاوون نائبا على غزة ، وتوفي عام (٧١٠هـ/١٣١٠م) (٤) .

١١ . الأمير جمال الدين الافرم :-

دخل دمشق بعد ان غادرها الامير قبجق الى غازان وبقي نائبا بها حتى دخلها غازان ، فهرب الامير جمال الدين الافرم الى القاهرة عند السلطان الملك الناصر ، ثم ردّ الامير جمال الدين الافرم الى نيابة دمشق سنة (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) ، وبنى الجامع بصالحية دمشق ، وكان حسن السيرة (٥) .

١ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٢١٤ .
٢ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٢ ، اعلام الورى ، ص ١٠ .
٣ . محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ص ٤٠ ، العصر المماليكي ، ص ٢٢٣ .
٤ . كنز الدرر ، ج ٦ ، ص ٦-٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٤٦-١٤٧ ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٤٢١ .
٥ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٢ ، اعلام الورى ، ص ١٠-١١ .

١٢. الأمير قراسنقر المنصوري :-

هو مملوك جركسي اشتراه السلطان قلاوون واستخدمه في وظائف الدولة ، وترقى في المناصب حتى اصبح من كبار الامراء ، فتولى نيابة حلب ، وامير جاندار (١) ، ونائب السلطنة زمن السلطان لاجين (١٢٩٦-١٢٩٨م) واستمر يحتل هذا المنصب الاخير حتى اعتقاله (٢). وتولى في زمن السلطان محمد بن قلاوون عدة نيابات منها الصبيبة وحماه وحلب ، كما قام زمن الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية (٦٩٧-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م) بتدبير المملكة حتى صارت امور المملكة بيده (٣) وصار السلطان "تبعا له فيما يريد" (٤). الى ان تغيّر عليه السلطان بعد مدة فعينه نائبا في دمشق سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) (٥) ، فأغضب ذلك المماليك الاشرفية لاتهامهم الامير قراسنقر بالمشاركة في قتل السلطان الاشرف خليل وقد أحس الامير قراسنقر بان المماليك الاشرفية يوغرون صدر السلطان ضده ، خاصة وان قراسنقر كان في تلك الفترة متخوفا من السياسة التي اتبعها السلطان الناصر محمد تجاه الامراء الذين شاركوا في مقتل اخيه الملك الاشرف خليل (١٢٩٠-١٢٩٣م) ، لان قراسنقر كان احد هؤلاء الامراء (٦). فقد بدأ الناصر محمد بتتبع الامراء واحدا واحدا للقضاء عليهم مستعملا الابعاد والاعتقال والقتل "اظهارا لثأر اخيه وخوفا من ان يتجاسروا عليه كما تجاسروا على اخيه" (٧) ولذلك فقد اتخذ الامير قراسنقر وامراء

---

١. امير جاندار : هو الامير الذى يستأذن على دخول الامراء للخدمة السلطانية ، ويدخل امامهم الى الديوان ، العصر المماليكي ، ص ٤٠٤.

٢. الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٤٧.

٣. الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٣٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٧٣.

٤. الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٢٤٧.

٥. الدرة المضيئة ، ص ١٨٢-١٨٣ ، اعلام الورى ، ص ١١.

٦. رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٢ ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢١٩-٢٢٠.

٧. رحلة ابن بطوطة ، ص ٧٦ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٨.

المماليك الافرم والزردكاش (١) موقفا حذرا من السلطان حتى ان كان لهم جواسيس في القاهرة يعلمونهم بجميع ما كان يحاك فيها ضدهم . وعرف قراسنقر عن طريق مخبريه بخروج تجريدة كبيرة من مصر الى الشام للقضاء عليه ، فقام بحركته التي اشتهر امرها في جميع " اقاليم الشام" (٢) .

استجار قراسنقر عند مهنا بن عيسى امير العرب ما بين سنة (٦٨٣هـ/١٢٨٤م - ٧٣٥هـ/١٣٣٤م) (٣) وحادن العربان (٤) .

حاول ابن مهنا التوفيق بين السلطان وقراسنقر ، الا ان هذا لم يتم (٥) فخاف قراسنقر من القبض عليه وبعث للسلطان في سنة (٧١١هـ/١٣١١م) تطلب منه اذنا للسفر الى الحج فوافق السلطان على ذلك ، وسار قراسنقر في نصف شوال من العام نفسه مع اربعمائة مملوك واستناب بحلب الامير قرطاي تاركا عنده عددا من مماليكه لحفظ حواصله فما كان من السلطان الا ان كتب الى قرطاي طالبا منه حفظ حلب والا يمكن قراسنقر منها ، وكتب الى نائب الكرك ونائب غزة بقطع الطريق على قراسنقر (٦) .

ولما سمع قراسنقر بذلك - كان في منطقة زيزيا وتبعد ثلاثين كيلومترا جنوبي عمان على طريق الحج بين دمشق والمدينة - عاد الى بر حلب واجتمع مع مهنا بن عيسى ، واتفق معه على العصيان وتوجها الى حلب وحاولا الاستيلاء عليها ، الا ان امراء المدينة منعوهما من دخولها (٧) .

---

١ . كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٥ .
٢ . كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢٢٢ ، الامارة الطائية ، ص ١١٠ - ١١١ .
٣ . كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢١٩ ، الامارة الطائية ، ص ١١١ .
٤ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ٦٥ .
٥ . كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ ، الامارة الطائية ، ص ١١١ - ١١٢ .
٦ . النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٠ - ٣١ .
٧ . المختصر في اخبار البشر ، ج ٧ ، ص ٦٤ ، - ٦٥ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٢ .

أما العساكر المملوكية ،فانها وصلت الى حماه في السادس من ذى الحجة سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م) ،وارسل السلطان الى قراسنقر يهدده بقدوم العسكر ويطلب منه التراجع عن عصيانه مقابل منحه نيابة في اى منطقة يختارها ،واذا رفض فان العساكر المملوكية ستلاحقه في اى مكان (١) . ورفض قراسنقر هذا العرض فتوجه نحو الفرات (٢) ،ويذكر ابو الفداء ان العساكر المملوكية لحقت به - وان ابو الفداء شاركهم في متابعتهم لقراسنقر الا انهم لم يتمكنوا من القبض عليه (٣) وفي هذه الاثناء انضم الى قراسنقر الافرم نائب دمشق والزردكاش نائب طرابلس (٤) ،وكان من رأى الافرام ان يقوم المماليك والعرب بمحاربة العساكر التي ارسلها السلطان الملك الناصر، الا ان رأى قراسنقر كانت غير ذلك اذ رأى التوجه الى بلاد العراق ومراسلة السلطان في مصر ليعطيهم بعض القلاع البعيدة عن مركز السلطنة المملوكية ونوابها في بلاد الشام ،فان رفض دخلوا في طاعة خدابندا (٧٠٣-٧١٧هـ/ ١٣٠٤-١٣١٧م) ، سلطان العراق . ورفض السلطان اعطائهم ما طلبوا ،وانما قرر لهم قلاعا كانت قريبة من مراكز المماليك الشامية (٥) ،فأدى ذلك الى ذهابهم جميعا الى التتار حيث استقبلوا أحسن استقبال (٦) .

---

١ . المختصر في اخبار البشر ،ج ٧ ،ص ٦٤-٦٥ ،كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٢١٩-٢٢٢ .

٢ . المختصر في اخبار البشر ،ج ٧ ،ص ٦٤-٦٥ ،النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ٣٢ ،كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٢١٩-٢٢٢ ،الطباخ ،محمد راغب محمود بن هاشم ،اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ،٧ج ،حلب ،المطبعة العلمية ،١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م ج ٢ ،ص ٣٦١ ،الدبسي ،يوسف ،تاريخ سوريا الدنيوى والديني ،٨ج ،بيروت، المطبعة العمومية ،١٩٠٢ ،ج ٦ ،ص ٣٨٦ .

٣ . المختصر في اخبار البشر ،ج ٧ ،ص ٦٥ .

٤ . كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٢٢٢-٢٢٦ ،تاريخ ابن خلدون ،ج ٥ ،ص ٩٤١ ،البداية والنهاية ،ج ١٤ ،ص ٢٦٣-٢٦٥ .

٥ . كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٢٢٦ ،الامارة الطائية ،ص ١١٢-١١٣ .

٦ . كنز الدرر ،ج ٩ ،ص ٢٢٦ - ٢٣٥ .

استمرت حركة قراسنقر مدة لا تتجاوز العام الواحد ، والملاحظ ان هذه الحركة بدأت وانتهت دون قتال او مجابهة مع عساكر السلطان ، اما نهاية قراسنقر فكانت في شوال سنة (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) حيث توفي بمدينة مراغة من عمل اذربيجان (١) ، اشهر واعظم عمل في اذربيجان (٢) .

١٣ . الأمير سيف الدين كراى المنصوري :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧١١هـ/١٣١١م) ، كان كريم النفس ، جوادا وسيرته حسنة (٣) . توفي سنة (٧١٩هـ/١٣١٩م) (٤) .

١٤ . الأمير جمال الدين أقوش الأشرفي :-

عيّن في نيابة الكرك سنة (٦٩٠هـ/١٢٩١م) على أثر استعفاء الامير ركن الدين بيبرس (٥) ، وفي عهده جمعت السلطة للكرك تحت أمرته ، لاول مرة في العهد المملوكي (٦) . وفي سنة (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) زار القاهرة " وخلع عليه السلطان المنصور حسام الدين لاجين واعيد الى نيابته" (٧) ، ولقد بقي نائبا للكرك حتى سنة (٧٠٩هـ/١٣٠٩م) (٨) ، عيّن نائبا لدمشق سنة (٧١١هـ/١٣١١م) (٩) ، وبقي

---

١ . الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٧٣ .

٢ . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧٦ .

٣ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٣ ، اعلام الورى ، ص ١١ .

٤ . الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٥٢-٣٥٣ .

٥ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١١٩ ، زبدة الفكرة ، ورقة ٢٠٤ ب .

٦ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٩١٨ .

٧ . السلوك ، ج ٣ ، ص ٩١٨ .

٨ . الخطط ، ج ٣ ، ص ٨٨-٨٩ ، البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٦٢ .

وبقي نائبا فيها حتى سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) (١)

١٥. الأمير سيف الدين تنكز :-

جلب الى مصر وهو حدث فنشأ بها ،فاشتراه حسام الدين لاجين ،وبعد مقتل لاجين ،صار من خاصكية السلطان الملك الناصر محمد ،وكان صاحب مكانة كبيرة عنده لدرجة ان الناصر كان لا يفعل شيئا الا بعد مشاورته (٢) ،تولى نيابة دمشق سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) (٣) ،وسار بالعساكر وفتح ملطية سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) (٤).

---

١. الدرة المضيئة ،ص ١٨٣ ،اعلام الورى ،ص ١٢.

٢. فوات الوفيات ،ج ١ ،ص ٢٠١-٢٠٨ ،الدرر الكامنة ،ج ٢ ،ص ٥٥-٦٢ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٣ ،اعلام الورى ،ص ١٢.

٣. فوات الوفيات ،ج ١ ،ص ٢٠١-٢٠٨ ،الدرر الكامنة ،ج ٢ ،ص ٥٥-٦٢ ،النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ١٤٥-١٤٧ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٣ ،اعلام الورى ،ص ١٢.

٤. ملطية ،او ملاطية : مدينة في تركيا تقوم على ضفة نهر يصب في طوقمة احد روافد الفرات ،وتبعد عن خربوط نحو ٨٥ كيلومترا ،افتتحها من ايدى الروم ابو جعفر المنصور سنة ١٤٠هـ ثم استعادتها الروم ،ثم استخلصها منهم السلجوقيون مرة ثانية وبقيت في حكمهم . ولما خرج التتار واجتاحوا بلاد الشرق دخلت بلاد الروم (الاناضول) تحت سلطتهم . فأقطع ملك التتار السلطان خربندا محمد بن ارغون مدينة ملطية لأحد رجال دولته المدعو بالجوبان فوضع الجوبان وكيلا عنه فيها ،فأساء الوكيل السيره في اهلها ،فكاتب اهلها ملك مصر والشام السلطان الناصر بن قلاوون ،فأصدر أمره الى الامير تنكز بالمسير اليها وفتحها ،
وفي يوم الاثنين مستهل رجب سنة (٧١٥هـ/١٣١٥م) خرج الامير تنكز في الجيوش قاصدا ملطية فدخل حلب في ١١ المحرم ،ثم سار الى ملطية فحاصرها في ٢١ منه ولم تكن فيها حامية كافية للدفاع عنها فاستسلمت ودخلها الجيش المملوكي دخول الفاتحين فقتل كثيرا من أهلها من غير المسلمين ثم تمدى أذاه الى المسلمين ولقي اهلها باجمعهم شرا مما كانوا فيه ثم رجع اليها صاحبها الجوبان فعمرها واسكن فيها خلقا كثيرا من الارمن وغيرهم تعويضا عما فقده اهلها ،اعلام الورى ،ص ١٢.

كان يخرج ليلا يمشي بنفسه في المدينة بمفرده ويتفقد احوال الناس ،وكل سنة يتوجه الى القاهرة ويعود معظما مكرما ،وقد بلغ انعام السلطان الملك الناصر عليه في بعض السنين سبعمائة الف من الخزانة الشريفة خارجا عن الخيول والقماش ،وكان تشريفه في كل سنة غرامته الفا دينار ،وجميع ما على مركوبه ذهب حتى الطبل باز ذهب،وكان السلطان يخرج يلاقيه الى بير السما (١)ويترجل السلطان ويكارشه (٢).

وتزوج السلطان بنت تنكز ، وزوج اولاد تنكز من بناته ،ثم ان السلطان خرج للصيد وتنكز بالقاهرة فخرج في خدمته ،وكان قد سبق السلطان فجهز اليه خاصكيا (٣)يعلمه ان السلطان واصل وانه لا يزال عن جواده ،فما كان الا لحظة حتى اقبل السلطان وامامه اربعة امرا خاصكية : بلكتمر الحجازي ويلبغا اليحياوي والطبنغا المارداني واقسنقر ،على يد كل منهم سقر خاص فقال له السلطان لما وصل اليه يا أمير تنكز أنا امير شكاري (٤)وهؤلاء بزدارتك (٥) ،وهذه الاربع

---

١ . النجوم الزاهرة ،ج ٨ ،ص ٤٤ ،اعلام الورى ،ص ١٣ .

٢ . المكارشة : هي ان يلتقي المسافر بالمسافر فيلصق كل منهما بطنه ببطن الاخر بحركات رشيقة ويقبل احدهما الاخر ،اعلام الورى ،ص ١٣ .

٣ . الخاصكي : نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من الاجلاب الذين دخلوا خدمته صغارا ويجعلهم حرسه الخاص ،وجعل هذا الاسم خاصا بهم لانهم يحضرون على الملك في اوقات خلواته وفراغه ،وينالون من ذلك ما لا يناله اكابر المتقدمين ويحضرون طرفي كل نهار في خدمة القصر والاسطبل ويركبون لركوب السلطان ليلا ونهارا ،ولا يتخلفون في قرب ولا بعد ،ويتميزون عن غيرهم في الخدمة بحملهم سيوفهم ولباسهم المطرز المزركش ،ويتوجهون في المهمات الشريفة ويتأنقون في مركوبهم وملبوسهم . السلوك ،ج ١ ،ص ٦٤٤ ،اعلام الورى ،ص ١٤ .

٤ . أمير شكار: هو الذى اليه امر الطيور والكلاب المعدة للصيد وشكار لفظ فارسي معناه الصيد فيكون المراد ،أمير الصيد ،صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٢٢ ،ج ٥ ، ص ٤٦١ ، اعلام الورى ،ص ١٤ .

٥ . البزدار : هو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده ،صبح الاعشى ، ج ٥ ،ص ٤٦٩ ،اعلام الورى ،ص ١٤ .

سقورة اذا توجهت الى الشام يكونوا صحبتك ،فقصد تنكز النزول وتقبيل الارض بين يديه فمنعه السلطان من ذلك ،" وهذا لم يتفق لاحد " (١) "وكان تنكز رجلا دينا عاقلا عالما عادلا عارفا ذا حرمة ووحشة وافرة " وقد ذكر ناصر الدين دواداره قال : أبصرت فيه شيء ما ابصرته من غيره ،كان له كاتب للزكاة لا يعمل غيرها ،اذا دخلت السنة يكتب جميع ما في حواصله وتحت يده ،ويظهر الذى وجب عليه من الزكاة فيصرفها لمستحقيها " (٢) .

وقد ازداد نفوذ تنكز في الدولة خاصة بعد ان ارتبط مع السلطان الناصر محمد برباط المصاهرة ،ويذكر ابو المحاسن ان تنكز طلب من السلطان عزل يلبغا نائب حلب فعزله على الفور (٣) ،غير ان الناصر لم يلبث ان اوجس خيفة من ازدياد نفوذ الامير تنكز فحقد عليه وعزله (٤) وبلغت مدة نيابته ٢٤ عاما وكانت وفاته عام (٧٤١هـ/١٣٤٠م) (٥) .

١٦ . الأمير علاء الدين الطنبغا الحاجب الناصري :-

كان نائبا بحلب ،وفي سنة (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) نقل الى نيابة غزة بسبب خلاف بينه وبين الامير تنكز نائب الشام ،وبعد القبض على تنكز نقل الى نيابة الشام ودخل دمشق عام (٧٤١هـ/١٣٤٠م) (٦) وبقي نائبا بدمشق حتى خرج السلطان احمد من

---

١ . الدرة المضيئة ،ص ١٨٣-١٨٤ ،اعلام الورى ،ص ١٤-١٥ .
٢ . الدرة المضيئة ،ص ١٨٣-١٨٤ ،اعلام الورى ،ص ١٤-١٥ .
٣ . النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ١٢٩ .
٤ . النجوم الزاهرة ،ج ٩ ،ص ١٤٥-١٤٧ .
٥ . فوات الوفيات ،ج ١ ،ص ٢٥١-٢٥٨ ،الدرر الكامنة ،ج ٢ ،ص ٥٥-٦٢ ،الدرة المضيئة ،ص ١٨٣-١٨٤ ،اعلام الورى ،ص ١٢-١٥ .
٦ . تاريخ ابن الوردي ،ج ٢ ،ص ٣٢٥-٣٢٦ ،السلوك ،ج ٢ ،ص ١٦١ ، ٤٩١ ، ٤٩٩ ،ج ٣ ،ص ٦١٤ ،الدرر الكامنة ،ج ١ ،ص ٤٣٦ ،النجوم الزاهرة ، ج ٩ ،ص ١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،اعلام الورى ،ص ١٦ .

الكرك وعصى حمص اخضـــر (١)وكان نائبا بها ، وقام في توليته السلطان احمد فطلع اليه الطنبغا نائب الشام من دمشق ، فلما وصل الى حلب هرب منها حمص أخضر يمــني المسمى نفسه بطشتمر وقصد بلاد سيس ، فلما عاد نائب الشام الى دمشق وجد بها قطلوبغا الفخري قد ملكها ، وكان الامير قوصون قد جهزه من القاهرة وصحبته الفا فارس يحاصـــر السلطان احمد بالكرك ، فلما سمع ان نائب الشام قد توجه الى حلب اخرج السلطــان احمد من الكرك والتف عليه الناس وغامر عسكر الشام اليه ، فعند ذلك هرب الطنبغــا نائب الشام الى القاهرة ، وكان من جهة قوصون ، ثم مسك قوصون والطنبغا ، وطلـــع الفخري والسلطان احمد والعساكر الى القاهرة ، وتسلطن السلطان احمد وعاد طشتمر حمص اخضر من سيس وذهب الى مصـــر (٢) . وقد وصف ابن حجر الامير علاء الديـــن الطنبغــا بقوله "كان موصوفا بالمعرفة والفروسية طويل الروح في الاحكام ، لكنه كان سريعا الى سفك الدماء" (٣) . توفي سنة (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) مقتولا بسجن الاسكندريــة عن عمر يناهز الخمسين (٤) .

١٧ . الأمير قطلـو بغــا الفخـــرى :-
================

تولى نيابـة السلطنـة في دمشق سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) ثم ذهب الى الكـــرك وتوفي بها سنة (٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) (٥) .

---

١ . اسمه طشتمر ، ولقب حمص اخضر لانه كان يحب اكله ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، اعــلام الــورى ، ص ١٦ .

٢ . الدرة المضيئـــة ، ص ١٨٤-١٨٥ ، اعــلام الـــورى ، ص ١٦ .

٣ . الدرر الكامنـــة ، ج ١ ، ص ٤٣٦ .

٤ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٣٧ ، النجوم الزاهــرة ، ج ١٠ ، ص ٧٣-٧٤ .

٥ . اعــلام الـــورى ، ص ١٦-١٧ ، الدرر الكامنـــة ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ .

١٨ . الأمـير ايدغمـس :-

تولى نيابة دمشق في اواخر سنة (٧٤٢هـ/١٣٤١م) ، وتوفي في دمشق سنـة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) (١) .

١٩ . الأمـير سيف الدين طقزدمر الناصري :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) وبقي فيها حتى سنة (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) حيث (٢) جهـزه الملك الكامل الى مصر بعد ان اوقف وقفه الكائن بالمزة (٣) .

٢٠ . الأمـير سيف الدين يلبغا اليحياوي الناصري :-

كان له منزلة عند السلطان الملك الناصر ، وتولى نيابة دمشق سنـة (٧٤٦هـ/١٣٤٥م) (٤) وبقي نائبا بها الى ان طالبه السلطان الى القاهرة ، وقتل بقلعة قاقـون ، سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، وكان قد بنى في دمشق سنة (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) الجامـع المعروف بجامـع يلبغـا (٥) .

٢١ . الأمير سيف الدين ارغـون شـاه :-

كان له منزلة عند الملك الكامل ، تولى نيابة دمشق سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) ، وكان في ايامـه غلاء بدمشق ، وكان قد امر بقتل الكلاب وحبسهم بالخندق الى ان ماتوا وأكـل

---

١ . الدرة المضيئـة ، ص ١٨٥ ، اعـلام الـورى ، ص ١٧-١٨ .

٢ . الدرة المضيئـة ، ص ١٨٥ .

٣ . اعـلام الـورى ، ص ١٨ .

٤ . الدرة المضيئـة ، ص ١٨٥ ، اعـلام الورى ، ص ١٩ .

٥ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٥-١٨٦ ، اعـلام الورى ، ص ١٩-٢٠ .

بعضهم بعضا ، قتل بالقصر الابلق ليلا سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) (١).

٢٢ . الأمير سيف الدين ايتمش الجمدار الناصري :-

تولى وزارة مصر في ايام الملك الصالح ، ثم تولى نيابة دمشق سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م) ، وبقي نائبا فيها حتى سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م) ، حيث عزل واخذ الى القاهرة (٢).

٢٣ . الأمير أرغون الكامل نشو الملك الصالح :-

مملوك الملك الصالح (٣) وزوجه بأمه . وتولى نيابة حلب في ايام بيبغا روس ، وتولى نيابة دمشق سنة (٧٥١هـ/١٣٥٠م) (٤) وبقي نائبا فيها حتى سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) حيث توفي ودفن بالقدس (٥).

٢٤ . الأمير علي الماردانى راس نوبة الملك الناصر :-

راس نوبة الملك الناصر وراس نوبة الملك الاشرف ، كان دينا عالما ، أتقن قراءة القرآن الكريم وسمع البخارى ، وحج مرتين وكان جوادا ، تولى نيابة دمشق سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) ، ثم عزل وتوجه الى حلب نائبا لها (٦) . ثم تولى نيابة دمشق مرة ثانية بعد الامير منجك وردّ من حلب الى دمشق سنة (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) وفرح به اهل

---

١ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٦ ، اعلام الورى ، ص ٢٠ .

٢ . الدرة المضيئة ، ص١٨٦ ، اعلام الورى ، ص ٢٠-٢١ .

٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧١ .

٤ . الوافي بالوفيات ، ج ٨ ، ص ٣٥١-٣٥٤ ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٢١٣-٢١٥ ، الدرة المضيئة ، ص ١٨٧ ، اعلام الورى ، ص ٢١ .

٥ . اعلام الورى ، ص ٢١ .

٦ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٧ ، اعلام الورى ، ص ٢٢ .

دمشق كثيرا (١). ثم قبض عليه في نفس السنة وارسل الى القاهرة فأعيد من الطريق الى نيابة صفد ،وفي سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) ،صرف من نيابة صفد واستقر على نيابة حماه (٢) ،ثم تولى نيابة دمشق مرة ثالثة ،سنة (٧٦٢هـ/١٣٦٠م) ،وبقي نائبا بها حتى سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م) (٣).

٢٥. الأمير منجك :-

كان وزيرا بمصر ،وتولى نيابة صفد ،ثم تولى نيابة دمشق سنة (٧٥٩هـ/١٣٥٧م)(٤) ثم توجه الى صفد نائبا لها وفي سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) صرف عن نيابة صفد وأخذ الى القاهرة فعاتبه السلطان على فعله ،ثم رضي عليه واطلق سراحه وكتب له بأن يقيم حيث شاء واقطعه اقطاعا واقام بالقدس (٥).

ثم تولى نيابة دمشق مرة ثانية سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) بعد الأمير سيف الدين بيدمر ،وفرحت به اهل دمشق وفعل الخيرات وبنى الاعقاب بالدروب ،وبنى زاوية بالكسوة وعمل لها سماطا ،وعزل الطرقات من الحجارة والعقبات (٦) ،وبنى في دمشق دار القرماني ،والخان والحمام في باب الفراديس (٧) ،وبقي نائبا فيها حتى سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٣م) ثم عزل وطلب الى القاهرة (٨).

---

١. الدرة المضيئة ،ص ١٨٧ ،اعلام الورى ،ص ٢٤.
٢. اعلام الورى ،ص ٢٤.
٣. الدرر الكامنة ،ج ٢ ،ص ٤٦-٤٧ ،اعلام الورى ،ص ٢٥.
٤. الدرة المضيئة ،ص ١٨٧ ،اعلام الورى ،ص ٢٣-٢٤.
٥. اعلام الورى ص ٢٣-٢٤.
٦. الدرة المضيئة ،ص ١٨٨ ،اعلام الورى ،ص ٢٦.
٧. الدرة المضيئة ،ص ١٨٨.
٨. الدرة المضيئة ،ص ١٨٨ ،اعلام الورى ،ص ٢٦.

٢٦ . الأمير أسندمر اليحياوي :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) ، قبض عليه في نفس السنة واقام في طرابلس (١) .

٢٧ . الأمير سيف الدين بيدمر :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٦١هـ/١٣٥٩م) ، وكان ذلك في ايام الملك الناصر حسن وفي هذه الولاية اعلن بيدمر العصيان وملك القلعة ودمشق (٢) ، وشاركه في حركته جماعة من نواب الشام ، فخرج السلطان الى الشام سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م) وقبض على بيدمر وارسله مقيدا الى الاسكندرية وعين اثنين من امرائه نوابا على دمشق وحلب ثم رجع الى القاهرة (٣) .

ثم أعاده مرة ثانية نائبا على دمشق سنة (٧٦٣هـ/١٣٦١م) (٤) وبقي نائبا بها الى سنة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) (٥) .

ثم عاده مرة ثالثة نائبا على دمشق سنة (٧٧٥هـ/١٣٧٢م) وفي هذه السنة كان بحلب غلاء زائد حتى اكلت الكلاب الميتة ، وفي هذه السنة حضر الى دمشق من حلب خلق كثير ، وغلا الخبز بدمشق حتى وصل الرطل الى درهمين ونصف ، وكان بيدمر نائب دمشق قد اهمل مصالح الناس وكان مشغولا بمصادرة اموالهم ، وقد طلب منه السلطان الاشرف شعبان بن الملك الناصر ما تحتاج اليه العمارة التي انشأها بالرملة تحت قلعة

---

١ . الدرة المضيئة ، ص ٨٧ ، اعلام الورى ، ص ٢٥ .
٢ . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣١١ ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ ، الدرة المضيئة ، ص ١٨٨ ، اعلام الورى ، ص ٢٥ .
٣ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .
٤ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٨ ، اعلام الورى ، ص ٢٦ - ٢٧ .
٥ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٨ ، اعلام الورى ، ص ٢٦ .

مصر من شبابيك وابواب وحلق وصفائح وغير ذلك ، فشرع بيدمر في اشتغال المطلوب والناس مع ذلك في غلاء وشدة وفناء ، فجمعوا الالات مثل مفاتيح ، وحلق ومسامير، ورزات وسواقط ، واطواق وهلالات برسم القباب ، ووزنوا ذلك فكان اثنى عشر قنطارا من الذهب والفضة ، وحمل جميع ذلك الى القاهرة على مئةوستين جملا ، بالاضافة الى النحاس المطعم بالذهب والفضة ، ثم ان السلطان طلب بيدمر الى القاهرة وعظمه واكرمه واعاده الى نيابته .

ثم بعد ايام من مغادرته ورد عليه مرسوم السلطان يتضمن عمل طرز ، وزوايا زركش برسم الحريم ، وبعمل ايضا كنابيش زركش للهجن وسلاسل فضة وذهب واكوار مفرقة برسم الحجاز ، فعند ذلك طلب التجار بدمشق وطرح عليهم الاصناف ، وطلب الصياغ، وأخرج لهم الذهب والفضة وامرهم ان يعملوا ذلك ، وكان من جملة الاستعمالات سبعمائة زاوية زركش ، في كل واحدة من الذهب من ثلثمائة مثقال الى خمسمائة مثقال ، وعمل ايضا ابر ذهب برؤوس لؤلؤ الفي ابرة ، وفضة برؤوس ذهب باسم الجوار ثلاثة آلاف ، وطرز يلفما وبية الف ومائتي زوج ، ومثلها كنابيش ، واخراج اطلس زركش مائة وعشرين خرجا باسم الاكوار ، وثلثمائة كور ملبسة ذهب وفضة ، وركب ذهب وفضة ستين زوجا وسلاسل ومخاطم برسم الهجن والجمال شيء كثير ، وكانت الخزائن من عنده الى القاهرة متصلة اولا فاول ، خزانة بالقاهرة واخرى بغزة ، واخرى بالغور ، واخرى خارجة من دمشق واخرى في ايدي الصناع ، وفي سنة (٧٧٨هـ/١٣٧٥م) حج السلطان الملك الاشرف شعبان وعزل بيدمر عن نيابة دمشق (١) .

ثم تولى نيابة دمشق للمرة الرابعة سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٦م) في عهد المنصور علي بن الاشرف شعبان (٧٧٩هـ-٧٨٤هـ/ ١٣٧٦-١٣٨١م) ، وفي هذه الفترة خرج الامير بيدمر عن الطاعة مرة اخرى ولكن نائب القلعة في دمشق تمكن من القبض عليه (٢) .

---

١ . الدرة المضيئة ، ص ١٨٨-١٨٩ ، اعلام الورى ، ص ٢٦-٢٧ .

٢ . الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥١٣-٥١٤ .

وكانت مدتـه يسيره حيث عزل في نفس السنة (٧٧٩هـ/١٣٧٦م) (١).

ثم تولى نيابة دمشق للمرة الخامسة سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) (٢)، وفي هذه السنة قبض على الاميربيدمر لانه كان من جهة الاميربركة (الذى تشاجر مع برقوق) ولما انتصر الاميربرقوق على بركـة، ارسل في الحال بالقبض على بيدمر، فلما وصل البريد بذلـك امتنع بيدمر عن تسليم نفسـه وقاتل الحاجب والامراء واخذ العوام مع بيدمر يرمون بالحجارة فرمى اهل القلعة على بيدمر فهرب الى داره وتفرق عنه جماعته، ونهب اسطبلة، فقصـده الامراء بداره فأخذ وقيد وسجن بالقلعة (٣).

ثم تولى نيابة دمشق للمرة السادسة سنة (٧٨٣هـ/١٣٨١م) وهذا لم يحصل لاحـد من النواب، وبقي نائبا الى سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) حيث مسك واودع بالقلعة ومـات بهـا (٤).

٢٨. الأمير اقطمر الحنبلـي :=

تولى نيابة دمشق سنة (٧٧٩هـ/١٣٧٦م)، وتوفي بعد مدة يسيرة بها. (٥)

٢٩. الأمير سيف الدين كمشبغا اليلبغـاوى الحلبي :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٨٠هـ/١٣٧٨م) (٦) وبقي نائبا فيها حتى سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) حيث عـزل (٧).

---

١. الدرة المضيئـة، ص ١٨٩، اعلام الورى، ص ٢٩.
٢. الدرة المضيئـة، ص ١٩٠، اعلام الورى، ص ٢٩.
٣. ابن قاضي شهبه، تقي الدين احمد، تاريخ ابن قاضي شهبه، م١، ج٣، حققـه عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧، ج١، ص ٢٧.
٤. الدرة المضيـئة، ص ١٩٠، اعلام الورى، ص ٣٠.
٥. الدرة المضيئـة، ص ١٨٩، اعلام الورى، ص ٢٨.
٦. الدرة المضيئـة، ص ١٨٩، اعلام الورى، ص ٢٩.
٧. الدرة المضيئـة، ص ١٩٠، اعلام الورى، ص ٢٩.

٣٠. الاميراشتقتمــر :-

تولى نيابـة دمشق سنة (٧٨٢هـ/١٣٨٠م) (١) وبقي نائبا بها حتى سنـة (٧٨٣هـ/١٣٨١م) حيث عـزل (٢) .

٣١. الأمـير الطنبـغا الجوبانـي :-

هو علاء الدين الطنبغا الجوباني . "كان عاقلا دينـا كريما شجاعا لم ير مثلـه قط" . ولي الكرك سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) وبقي فيها الى سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) (٣) وذكر عنه ابن الفرات ما يلي : "في (اوائل سنة ٧٨٩هـ/شباط ١٣٨٧) ارسل الملـك الظاهر برقوق الى الامير الطنبغا الجوباني نائب السلطنة بالكرك يستدعيه الى الابواب الشريفة بالديار المصرية وحصل له اقمشة وكذلك سائر الامراء على جاري العادة" (٤) . ونقل بعد ذلك الى نيابة دمشق وذلك سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وبقي نائبا بها الـى سنـة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م) (٥) .

ثم تولى نيابة دمشق مرة ثانية سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م) (٦) وعزل منها وحبـس بالاسكندرية ثم قتل سنة (٧٩٣هـ/١٣٩١م) بوقعة منطاش ونـمـير (٧)

٣٢. الامير طرنطـاي الحاجـب :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩٠هـ/١٣٨٨م وبقي نائبا فيها حتى سنة (٧٩١هـ/

---

١. الدرة المضيئة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٢٩ .
٢. الدرة المضيئـة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٠ .
٣. الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٤٠ ، النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٦ ، الدرة المضيئة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٠-٣١ .
٤. تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٣-٤ .
٥. الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٤٠ ، الدرة المضيئة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٠ - ٣١ .
٦. الدرة المضيئـة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٢ .
٧. السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٢ .

١٣٨٨م) (١).

٣٣. الأمير بزلار :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) وبقي نائبا بها حتى سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م) حيث توفي في دمشق (٢).

٣٤. الأمير سيف الدين جردمراخوطاز :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م) وعزل في نفس السنة (٣).

٣٥. الأمير يلبغا الناصري :-

كان نائبا على حلب، قام بحركة مناهضة للسلطان برقوق، في بلاد الشام، فجمع الامراء والمماليك الاتراك في بلاد الشام، واستمال منطاش نائب ملطية (٤) ومن معه وقرر وايا هم خلع السلطان برقوق، وسار يلبغا ومنطاش ومن كان يؤيدهما من المماليك والعرب والتركمان الى مصر، فقاما بعزل السلطان برقوق ونفياه الى الكرك (٥)، وعينا مكانه السلطان المظفر حاجي (٧٩١هـ/١٣٨٩م) الذى كان قد عزله برقوق سنة (٧٨٤هـ /١٣٨٢م) وكان النفوذ الفعلي في فترة سلطنة المظفر حاجي القصيرة (سنة واحدة). بيد يلبغا الناصرى ومنطاش. ومن بداية سيطرتهما على امور السلطنة المملوكية، وقع بينهما نفور تطور الى صراع انتهى بسجن الناصرى واستيلاء منطاش على المملكة. وفي

---

١. الدرة المضيئة، ص ١٩٠، أعلام الورى، ص ٣١.
٢. الدرة المضيئة، ص ١٩٠، اعلام الورى، ص ٣١.
٣. الدرة المضيئة، ص ١٩٠، اعلام الورى، ص ٣١.
٤. الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٣٦٤.
٥. تاريخ ابن الفرات، ج ٩، ص ٥١-٥٢، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٥-٢٥٦.

عذه الاثناء تمكن السلطان برقوق من الخروج من سجنه وبدأ يعمل للعودة الى السلطنة وعند ما عرف منطاش بحركة برقوق هرب الى الشام . وأيد امير العرب نعيّر بن حيار حركة الناصرى ومنطاش من بدايتها وذلك لان السلطان برقوق اخرج امرة العرب عنه واعطاها لابناء عمه آل فضل بن عيسى . ولذلك فقد كان على استعداد للمشاركة بأى عمل يهدف الى القضاء على السلطان الظاهر برقوق ، خصوصا اذا كان هذا العمل سيؤدى الى وصول اصدقائه (١) الى مراكز القوة في القاهرة .

اما برقوق فقد بدأ حركة من منفاه في الكرك لاستعادة السلطنة فاستولى على الكرك واطاعه اهلها . ثم ايده امراء بني عقبة - امراء الكرك والمناطق الجنوبية من الاردن ، وامير آل فضل المعارض لنعير (٢) . عند ذلك قرر برقوق السير الى دمشق للاستيلاء عليها .

وانضم اليه في الطريق "العشران والفلاحين" (٣) ، وعند ما عرف اهل دمشق بذلك "جفلت خواطر الناس" (٤) وانقسم اهل دمشق ما بين مؤيد لمنطاش ومؤيد للظاهر برقوق ، ولكن غالبيتهم كانوا مؤيدون لمنطاش (٥) .

وعند ما عرف منطاش بحركة برقوق في الكرك وما حولها سار الى الشام وصحب معه السلطان والخليفة وفي المعركة التي كانت بينه وبين برقوق عند شقحب - قرب دمشق - هزم منطاش . فهرب الى دمشق واعتصم بها (٦) ولحقه برقوق وقام بمحاصرة المدينة

---

١ . كان نعير على علاقة حسنة مع الناصرى ، كما كان صاهرا لمنطاش ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٠٩ ، عبد السيد ، حكيم امين ، "قيام دولة المماليك الثانية" ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٧٠ ، سيشار اليه "قيام دولة المماليك" ، الامارة الطائية ، ص ١١٥ .

٢ . قيام دولة المماليك ، ص ٨٥ ، الامارة الطائية ، ص ١١٥ .

٤ . الدرة المضيئة ، ص ٢٥ - ٢٦ .

٥ . الدرة المضيئة ، ص ٢٥ .

٦ . الدرة المضيئة ، ص ٣١ ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

لكنه لم يستمر في محاصرتها اذ قرر العودة الى القاهرة بعد ان اصبح الطريق اليهـا مفتوحـا (١)

ولم تؤد هزيمة منطاش في شقحب الى نهاية ثورته ، بل على العكس استمرت وقويت بانضمام آل مهنا بقيادة نعير وآل مرا بقيادة عنقاء بن شطي اليها (٢) . اما السلطان برقوق فبدأ يعمل للقضاء على ثورة منطاش فاستعان بيلبغا الناصرى وغيره من الامـراء الترك وعينهم قادة للجيش الذى ارسله الى الشام (٣) ، وارسل مرسوما بتقليد الامـير نعير الامرة ، وحاول اقناع منطاش بانه "اذا اطاع كان له الامان ، واى بلد اختار تكـون له خلا دمشق وحلب" (٤) ، اما اذا امتنع هو ونعير عن قبول ذلك فعلى العسكر حربهم ولم يوافق نعير ومنطاش على شروط برقوق فكانت الحرب .

ووقعت المعركة الاولى بين الجانبين في (شعبان ٧٩٢هـ/ تموز ١٣٩٠م) وفيها تمكن الناصرى من كسر نعير وهزيمته وتتبعـه حتى منازلـه (٥) ، لكن بقية جيش السلطان لم تتمكن من احراز نصر حاسم على منطاش ومن معه ، بل على العكس فان مناطاش تمكـن ومن معـه من عرب نعير وعنقاء من هزيمة الامراء المماليك واسر عدد كبير منهم (٦) وادت هذه الهزيمة الى بلبلة دمشق حتى " قالت الناس : ان منطاش والعرب يريدون اخـذ المدينة فانه لم يبق قدامه احد من العساكر" (٧) . لم يأت المنتصرون الى دمش ، بل

---

١ . قيام دولة المماليك ، ص ٩٠ .

٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢١٧ ، الدرة المضيئة ، ص ١١٦ ، الامارة الطائية ، ص ١١٦ .

٣ . قيام دولـة المماليك ، ص ٩٤ -٩٥ .

٤ . الدرة المضيئـة ، ص ٦٤ .

٥ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢١٨ .

٦ . الدرة المضيئة ، ص ٦٦ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢١٩ ، الدرر الكامنـة ، ج ٤ ، ص ٣٦٥ -٣٦٦ .

٧ . الدرة المضيئـة ، ص ٦٧ .

توجهوا جميعا الى حلب وحاصروها فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها (١) .

وفي هذه الاثناء حدثت موقعة بين عرب نعير وناثب حلب كان نتيجتها هزيمة العرب واسر عدد كبير منهم ، من بينهم احد ابناء نعير (٢) . وادى ذلك الى تغير موقف نعير فارسل الى السلطان برقوق كتابا يشرح فيه موقفه وسأله " امانا شريفا " فأجابه السلطان الى ما طلب ، وارسل له " تقليده بالامرة على عادته " . (٣)

وتوجه منطاش ، بعد رجوع نعير الى الطاعة ، الى مرعش ، ومنها عاد عن طريق البرية الى الشام (٤) ، وتمكن من دخول دمشق والاستيلاء عليها . وحدث في المدينة نزاع شديد بين المؤيدين له والمؤيدين للسلطان برقوق (٥) .

وتتابعت بعد ذلك الاحداث التي ادت في النهاية الى القضاء على ثورة منطاش. فقد انضم عنقاء بن شطي امير آل مرا الى منطاش في دمشق (٦) وقاما معا بحرب عسكر الناصري فهزما وخرجا من دمشق (٧) ولحقهما يلبغا الناصرى بمن معه من العساكر وفي هذه الاثناء توجه الامير نعير من منازلة نحو دمشق (٨) ، فالتقى في الطريق

---

١ . الدرة المضيئة ، ص ٦٩ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

٢ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٢٠ .

٣ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ، الامارة الطائية ، ص ١١٧ .

٤ . الدرة المضيئة ، ص ٧٥-٧٦ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٥٥ .

٥ . الدرة المضيئة ، ص ٨٠ - ٨١ .

٦ . الدرة المضيئة ، ص ٨٩ .

٧ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٦٥ ، الدرة المضيئة ، ص ٩٠ ، الامارة الطائية ، ص ١١٧ .

٨ . تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٦٥ .

بالقواتالتي كانت عائدة من ملاحقة الهاربين ، ووقعت بين الجانبين معركة في (شعبان ٧٩٣هـ/ حزيران ١٣٩١م) كسر فيها المسكر الناصرى كسرة علق عليها ابن صصرى بقوله : " ورجعت الترك مكسورين وراحت العرب منصورين ، ومن اعظم العظائم ان تفوز العرب من الترك بالغنائم" (١).

وعلى اثر هذه الهزيمة خرج الناصرى من دمشق ، واثناء نيابة الناصرى في دمشق اطلق له السلطان بصرى والحراك الشرقي والغزلانية ، زيادة على اقطاعه (٢).

٣٦. الأمير بطا الدوادار الظاهرى :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩٣هـ/ ١٣٩١م) وبقي نائبا حتى سنة (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م)(٣)

٣٧. الأمير سودون الطرنطاوى :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م) ، وعزل في نفس العام (٤) ، وكانت اخلاقه سيئة (٥).

٣٨. الأمير كمشبغا الخاصكي :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م) وبقي نائبا حتى سنة (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) (٦).

---

١. الدرة المضيئة ، ص ٩٢.
٢. الدرة المضيئة ، ص ٩٨.
٣. الدرة المضيئة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٢.
٤. الدرة المضيئة ، ص ١٩٠ ، اعلام الورى ، ص ٣٢.
٥. اعلام الورى ، ص ٣٢.
٦. الدرة المضيئة ، ص ١٩٠.

٣٩ . الأمير سيف الدين تنبك الحسني :-

تولى نيابة دمشق سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) (١) ،وكان اتابك العساكر بدمشق في اواخر سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٣م) ،واستمر الى سنة (٨٠٢هـ/١٤٠٠م) ،وكان قد عصى على الملك الناصر فرج بن برقوق بعد موت والده وجمع العساكر وخرج الى القاهرة لقتال المصريين ،فالتقى هووالعساكر المصرية على الجبة بالقرب من غزة وانكسر ومسك واحضر الى دمشق مقيدا ،ثم قتل بقلعة دمشق وقد وصفه ابن طولون بانه "كان ذا عقل ودين وشجاعة وعدل ولين الجانب" (٢) .

٤٠ . الأمير شرف الدين سودول الدوادار :-

أخو بيبرس الدوادار ،وكان ابن اخت الملك الظاهر برقوق ،تولى نيابة دمشق في ايام الملك الناصر سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) ،ثم قتل بحلب بوقعة تيمورلنك في نفس السنة (٣) .

٤١ . الأمير تغرى بردى الظاهرى :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) بعد رحيل تيمورلنك عن دمشق بعد احراقها ونهبها وسبي اهلها ،وبقي نائبا بها الى سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) ،حيث علم ان السلطان قصد مكة فهرب الى حلب (٤) .

---

١ . الدرة المضيئة ،ص ١٩٠ -١٩١ ،اعلام الورى ،ص ٣٣ .
٢ . اعلام الورى ،ص ٣٣ .
٣ . اعلام الورى ،ص ٣٣ .
٤ . اعلام الورى ،ص ٣٤ .

ثم تولى نيابة غزة سنة (٨١٦هـ/١٤١٣م) خلفا للامير الطنبغا العثماني، ومات مقتولا في نفس العام (١).

٤٢. الأمير علاء الدين اقبغا الجمالي الاطروش:-

تولى نيابة حلب ثم اصبح اتابك العسكر في دمشق، تولى نيابة دمشق سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، وبقي نائبا بها حتى سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م)، وقد وصفه ابن طولون بانه "عاقلا لبيبا دينا" (٢).

٤٣. الأمير شرف الدين شيخ الخاصكي :-

كان نائبا على طرابلس سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م)، ثم تولى نيابة دمشق سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م)، وامر لعمارة دار السعادة والجامع الاموي ومارستان نور الدين لان دمشق دمرها تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م)، والمدارس وعمل ثوبا للمحمل، وجهز وفد الحجاز، وكان الحج قد انقطع مدة ثلاث سنين لاجل خراب البلاد من جراء حملة تيمورلنك، ثم عصى الامير شرف الدين شيخ وجمع العساكر وقصد القاهرة وانكسر وعاد الى دمشق ثم هرب الى الصبيبة (٣).

ثم حضر من الصبيبة الى دمشق وتولى النيابة مرة ثانية سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، وعزل في نفس السنة (٤). وذهب الى تدمر، ثم تولى نيابة دمشق مرة ثالثة سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م)، واتفق مع الامير نوروز على العصيان على السلطان واتفقوا ان يكون نوروز نائب الشام وشيخ نائب طرابلس (٥).

---

١. السلوك، ج ٤، ص ٢٦٨، ٢٧١، ابناء الغمر، ج ٣، ص ١٣، الضوء اللامع، ج ٣، ص ٢٨.

٢. اعلام الورى، ص ٣٤.

٣. اعلام الورى، ص ٣٤-٣٥.

٤. اعلام الورى، ص ٣٥.

٥. اعلام الورى، ص ٣٧.

٤٤ . الأمير سيف الدين نوروز الحافظي :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ، وعزل في نفس السنة حيث تولاها عنه الامير شرف الدين شيخ (١) . وفي عهد السلطنة الثانية للسلطان فرج سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م) انضم نوروز نائب دمشق الى شيخ نائب طرابلس واستبدا ببلاد الشام وزحفا الى مصر سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) ، وقد حلت الهزيمة بالسلطان فرج قرب دمشق سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) (٢) ، ثم نزل نوروز من القلعة وسلم نفسه وجماعته ، وقطع رأسه ، وبعث رأسه الى مصر (٣) .

٤٥ . الأمير بيغوت :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨١٧هـ/١٤١٥م) ، وعزل في نفس السنة (٤) .

٤٦ . الأمير قانباى الحموى :-

تولى نيابة دمشق بعد الامير نوروز ، ولاه المؤيد شيخ وعصى عليه ، وحاصر القلعة ولم يأخذها ، وبقي نائبا حتى سنة (٨١٨هـ/١٤١٦م) (٥) .

٤٧ . الأمير الطنبغا العثماني :-

تولى نيابة غزة في (جمادى الآخرة ٧٩٥هـ/آيار ١٣٩٣م) بعد وفاة الامير يلبغا الاشقتمرى ، وسافر الى مقر نيابته في رجب العام نفسه ، وعزل وتولاها اكثر من

---

١ . اعلام الورى ، ص ٣٥ .
٢ . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٥٣ - ٣٥٥ .
٣ . اعلام الورى ، ص ٣٧ - ٣٨ .
٤ . اعلام الورى ، ص ٣٦ .
٥ . اعلام الورى ، ص ٣٩ .

مرة (١) ،فأعيد اليها للمرة الثانية سنة (٨٠٤هـ/١٤٠٢م) بدلا من الامير صرق ثم عزل عنها للامير خايربك سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٣م) ،واعيد لنيابتها للمرة الثالثة سنة (٨١١هـ-٨١٢هـ / ١٤٠٨-١٤٠٩م) ،ثم عزل عنها للامير اينال الصصلاني ،ثم اعيد للمرة الرابعة سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) خلفا للامير سودون عبد الرحمن (٢)،ثم تولى نيابة دمشق سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) ،وبقي نائبا بها الى سنة (٨١٩هـ / ١٤١٦م) ،ثم مسك واعتقل بالقلعة بدمشق ،ثم افرج عنه بعد شهر ،وتوجه الى القدس واقام بها الى ان مات (٣).

٤٨. الأمير اقباى الدوادار :-

كان نائبا بحلب ،ثم تولى نيابة دمشق سنة (٨٢٠هـ/١٣١٧م) ولم تطل مدته ، حيث مسكه السلطان بقلعة دمشق عند عودته من حلب بعد وقعة قانباى ،ثم حبسه في القلعة ،ثم هرب من القلعة ليلا ومسك بنهر بردى داخل باب الفرج ،ثم اعيد من بعدها الى الحبس وجاء بعد ذلك مرسوم من السلطان بقتله فقتل في نفس السنة (٤).

٤٩. الأمير تنبك فيق العلائي :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٢٠هـ/١٣١٧م) بعد مسك الامير اقباى الدوادار ،ثم

---

١. الدرة المضيئة ،ص ١٧١ ،تاريخ ابن الفرات ،ج ٩ ،ص ٣٣٤ ،السلوك ،ج ٢ ،ص ٧٨٣-٧٨٤ ،زبدة كشف الممالك ،ص ١٣٤ ،النجوم الزاهرة ،ج ١٢ ،ص ٤٠-٤١ ، ابن الصيرفي ،علي بن داود ،نزهة النفوس والابدان ،ج٢ ،حققهما حسن حبشي ، القاهرة ،١٩٧٠-١٩٧١ ،ج ٢ ،ص ١٤٩ ،بدائع الزهور ،ج ١ ،ص ٤٥٧ . سيشار اليه "نزهة النفوس" .

٢. السلوك ،ج ٤ ،ص ٦٦ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٢٣٤ ، ٢٥٥ ،نزهة النفوس ،ج ٢ ،ص ٣١٤ - ٣٢٣ ،بدائع الزهور ،ج ١ ،ص ٦٤٦-٦٤٧ ، ٦٧٣ ، ٨٢٦ .

٣. اعلام الورى ،ص ٤٠ .

٤. اعلام الورى ،ص ٤٠ .

طلبه السلطان الى مصر واعطاه امرته سنة (٨٢١هـ/١٣١٨م) (١)، ثم تولى نيابة دمشق للمرة الثانية سنة (٨٢٤هـ/١٣٢١م) من قبل المظافر احمد بن المؤيد شيخ، ولما خلع المظافر في نفس السنة وتسلطان ططار بدمشق استمر الامير تنبك العلائي نائبا بها على عادته، فلما تولى الصالح محمد بن ططار السلطنة بعد وفاة ابنة طلب الامير تنبك العلائي الى القاهرة فتوجه اليها سنة (٨٢٥هـ/١٣٣٢م) (٢).

٥٠. الأمير جقمق الدوادار :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) وبقي نائبا بها الى ان توفي السلطان الملك المؤيد شيخ، وتولى ابنه السلطنة حيث عصى، ثم مسك سنة (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)، وقتل بقلعة دمشق (٣).

٥١. الأمير تنبك البجاسي :-

كان نائبا في حلب، تولى نيابة دمشق سنة (٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، وبقي نائبا بها حتى سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، حيث قتل بالقلعة وتأسف الناس عليه لان سيرته كانت حسنة (٤).

٥٢. الأمير سيف الدين سودون بن عبد الرحمن الظاهري الدوادار :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، وكان قد استكثر من شراء المماليك وعزم على الخروج، فبلغ ذلك السلطان فعزله، سنة (٨٣٥هـ/١٤٣٢م) حيث جهز منفيا الى

---

١. اعلام الورى، ص ٤١.
٢. اعلام الورى، ص ٤١-٤٣.
٣. اعلام الورى، ص ٤١.
٤. اعلام الورى، ص ٤٦.

د ميناط ومات بهـا (١) .

٥٣ . الأمير جار قطلي :-

كان قد ولي نيابة صفد وحماة وحلب والامرة الكبرى بمصر ثم تولى نيابة دمشق سنة (٨٣٥هـ/١٤٣٢م) ، وبقي نائبا الى ان توفي سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) ، وكانت سيرتـة حسنة في الناس وتعفف عن اموالهم ولم يلتفت اليها وخلف موجودا كثيرا حمـل الـى القاهـرة (٢) .

٥٤ . الأمير اينال الجكمي :-

كان نائبا بحلب تولى نيابة دمشق سنة (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) وبقي نائبا الـى أن توفي الاشرف برسباى وتولى السلطنة ولده العزيز يوسف ، ثم لما خلف الامير جقمق وولـي السلطنة وتلقب بالظاهر شق عليه ذلك وأنف الدخول في طاعته فعصى عليه ، سنـة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) ، وخرج عن الطاعة وامسك برسباى الحاجب الكبير بدمشق والمباشرين وبعض الامراء فاعتقلهم بدار السعادة يوما واحدا ، ثم أفرج عنهم وحصر القلعة بمن فيهـا واظهر الانكار على السلطان جقمق في قتله قرقماس القتلة الشنيعة ، واستمر عاصيا بـدار السعادة ، ثم خرج الى القصر الابلق ، وشرع يحاصر القلعة ، وحدث بدمشق من جـراء ذلك اضرار كثيرة ، فجهز السلطان عسكرا من مصر لقتالـه ، فلما بلغ اينال الجكمي وصول العساكر من مصر رحل عن الميدان وتوجه الى جهة العساكر فوصل الى الحارة بالقـرب من غدران ، فكانت الموقعة هناك ، وحصل بين العساكر المصرية واينال الجكمي موقعـة ادت الى هزيمة اينال الجكمي فهرب وقصد دمشق فوصل الى الغوطـة ونزل بقريـة حرستا الزيتون (٣) ، فأعلم به نائب القلعة فجهز جاني بك دوادار برسباى الحاجـب

---

١ . اعـلام الورى ، ص ٤٦ .

٢ . اعلام الورى ، ص ٤٧ -٤٨ .

٣ . حرستا الزيتون : قرية مشهورة بالغوطة على طريق حمص تبعد عن دمشق نحو ثمانيـة كيلومترات . اعـلام الورى ، ص ٥٠ .

فوجده ببستان حرستا بقريبة حرستا المذكورة ، فأمسكه ومعه بعض انفار من مماليكه واحضر الى القلعة سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) ، ثم دخلت العساكر الى دمشق واعتقل اينال الجكمي ببرج الخيالة بدمشق بالقلعة ، ثم ورد مرسوم السلطان جقمق بقتله فقتل بالقلعة في نفس السنة (١).

٥٥ . الأمير اقبغا التمرازى :-

ولي نيابة دمشق سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م) وبقي نائبا بها الى سنة (٨٤٣هـ / ١٤٣٩م) ، حيث توفي في هذه السنة ، وكانت سيرته حسنة ، وكان محبا للفقراء يزور الزوايا وكان عادلا (٢).

٥٦ . الأمير جلبنان المؤيد أمير أخور :(٣)

هو الامير جلبان المويدى نائب الشام ، يعرف بالامير آخور اتصل بالمؤيد ايام امرته فجعله من جملة امراء آخوريته ، تنقل في النيابات بين حماه وطرابلس وحلب واخيرا دمشق ، حيث تولى نيابتها سنة (٨٤٣هـ/١٤٣٩م) وبقي بها حتى وفاته في (صفر ٨٥٩هـ/شباط ١٤٥٥م) (٤).

٥٧ . الأمير قانباى الحمزاوى :-

كان نائبا بحلب ، تولى نيابة دمشق سنة (٨٥٩هـ/١٤٥٥م) ، احترقت في ايامه

---

١ . اعلام الورى ، ص ٤٩ .

٢ . اعلام الورى ، ص ٥١ -٥٢ .

٣ . أميرآخور : صاحب هذه الوظيفة عمله " التحدث على اصطبل السلطان وخيوله ، وعاداتها مقدم الف يكون متحدثا فيها حديثا عاما وهو الذى يكون ساكنا باسطبل السلطان ، ودونه ثلاثة من امراء الطبلخاناه أما امراء العشرات والجند فغير محصورين ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٨ .

٤ . الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٧٨ ، اعلام الورى ، ص ٥٢ -٥٣ .

اسواق في دمشق ، وكانت سيرته سيئة حيث عامل الناس بالظلم والتعسف وقتل عدد كبير منهم (١) ، وخرج عن طاعة السلطان وأنضم اليه نائب غزة الامير سيف الدين طراباى بن عبد الله الظاهر جقمق (٢) ، وبقي نائبا بدمشق اربع سنين حيث توفي سنة (٨٦٣هـ / ١٤٥٩م) وقد خلف اموالا جمة من جملتها اربع مئة فرس من اجاويد الخيل وخمسمائة شاش واربعمائة سيف مسقطة بذهب وفضة جهز ذلك الى القاهرة (٣) .

٥٨ . الأمير جانم الجركسي :-

كان نائبا بحلب ، تولى نيابة في دمشق سنة (٨٦٣هـ/١٤٥٩م) وبقي نائبا فيها الى ان توفي الملك الاشرف اينال وتولى ولده الملك المؤيد احمد . وفي سنة (٨٦٥هـ / ١٤٦١م) اخذ الامير جانم في استخراج درهم الدورة من جميع بلاد الشام وفرضها عليهم ثلاثين الف دينار غير التساخير والكلف مع وقوف حال الناس فكاد ان يهلك غالبهم . وفي نفس السنة اراد جانم الخروج عن السلطان الملك المؤيد ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم بالركوب عليه ، وفي ذلك الوقت تعلقت النار من السهام الخطائية (٤) في

١ . اعلام الورى ، ص ٥٣ - ٥٥ .

٢ . السلوك ، ج ٤ ، ص ٢٩٨-٢٩٩ ، ٣٢١-٣٢٢ ، ٣٢٦-٣٢٨ ، ابناء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٥٠ .

٣ . ٣٦ ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٢ ، نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٣٤٢-٣٤٧ ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٧ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ٢٣ .

٤ . السهام الخطائية : هي سهام تعلق في رأسها مواد متفجرة محرقة . ويبدو أن استعمالها هو مبدأ استعمال البارود ويصفها العربي بقوله : ولا يفرق الاعداء ويحرقهم الا رعدها المجلجل وبريقها ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٠٨ ، والخطا جيل من الترك القريبين من بلاد الصين ، وهي تماثل قنبلة البازوكا في عصرنا ، ومن هنا جاءت فكرة اخذ العرب عن استعمال البارود عن الصين ، وكانت الخطائية من جملة المماليك المشتروات حيث يذكر ابو المحاسن ان الملك الصالح نجم الدين ايوب اقبل على شراء المماليك الترك والخطائية ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٠ ، ومساكن الخطأ تطلق على القسم الشمالي من الصين اى منغولستان والجهة الشرقية من تركستان ، اعلام الورى ، ص ٦٠ .

دار السعادة وبالاسطبل فحرقت جميع اثاثه واثاث بناءه فهجم الغوغاء على دار السعادة والاسطبل فنهبوا جميع ما فيهم ، وبعد ذلك توجه الامير جانم من القصر فنزل داريا ثم توجه الى مصر فوصل الى الخانقاه بسريا قوس (١) . سنة (٨٦٥هـ/١٤٦١م) ، فلما علم السلطان بوصوله خاف التزلزل فجهز له ما يكفيه ، وأمره بالاقامة بسريا قوس وارضاه بكل ما يمكن ، وابقاه نائبا على دمشق ، ثم رسم له بالعودة فرحل من سرياقوس الى بلبيس فأقام بها ثلاثة ايام ثم سافر الى دمشق ، ووصل الى دمشق على احسن حال من الخلع والخيل والذهب وكانت دار السعادة حينئذ خراب فنزل بدار عدوه الحاجب جاني بك غربي سوق صاروجا (٢) وقد هرب منه صاحبها جاني بك الى حماه ، واظهر الامير جانم التقرب والتواضع للعوام ، فردوا عليه من ماله الذى نهبه الغوغاء شيئا كثيرا وتعاون بعضهم على بعض ولم يؤذ أحدا منهم ، ثم اخذ يطلب من مقدمي البلاد ويرسم عليهم ، وطلب منهم اضعاف ما كان يأخذ منهم قبل ذلك ، ثم توجه خازنداره الى البقاع وما جاورها من البلاد واجحف على اهلها حتى كاد ان يصيبهم الهلاك زيادة على ما بهم من قلة المؤن وغلاء وكثرة الغرامات والفتن .

ولما تمكن السلطان خشقدم في السلطنة ارسل مرسومة مع الخاصكي الامير تنم رصاص وصحبه خير بك نائب غزة الى سودون اليشبكي نائب قلعة دمشق بالرمي على الامير جانم

---

١ . سرياقوس : من قرى مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية واقعة على الشاطئ الشرقي لترعة الاسماعيلية في شمال القاهرة ، وعلى بعد ثمانية عشر كيلومترا منها ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٧٩ ، اعلام الورى ، ص ٦٠ ، حاشية رقم (٣) .

٢ . صاروجا : هو الامير صارم الدين صاروجا المظفرى احد الامراء الناصرية كان اميرا بصفد ثم دمشق وهو من انصار الامير تنكز . اعتقل عندما قبض على تنكز فكحل فعمي ، وتوفي في سنة (٧٤٣هـ/١٣٤٢م) ، الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١٩٨ ، وهو الذى انشأ سويقة صاروجا فنسبت اليه ، اعلام الورى ، ص ٩١ ، حاشية رقم (٤) .

الجركسي ثانية واخرجه من بيت الحاجب ، بل واخرجه من دمشق فرمى عليه فخرج وسافر الى ان وصل مكان بني آمد والدها (١) فلحقه شخص ضربه فمات سنة (٨٦٦هـ/ ١٤٦٢م) (٢).

٥٩ . الأمير تنم المحتسب :-

هو الامير سيف الدين تنم الحسني الظاهري برقوق ، تنقل في خدمة استاذه برقوق الى ان ولاه نيابة دمشق ، ولما توفي استاذه وتولى ابنه فرج السلطنة ، خرج الامير تنم عليه وانضم الى ثورته نواب صفد وطرابلس وحماه وحلب (٣) ، وقد استطاع السلطان اخماد هذه الثورة ، وكانت نتيجة خروجه ، سجنه بدمشق الى ان مات مقتولا بها سنة (٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م) (٤).

٦٠ . الأمير برسباي البجاسي :-

هو زوج بنت السلطان الظاهر اينال الاجرود ، تولى نيابة دمشق سنة (٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م) وبقي نائبا بها حتى سنة (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) (٥).

٦١ . الأمير برد بك الظاهري :-

هو الامير برد بك العبد الرحماني ، كان مقدم الف ، تولى نيابة غزة في

---

١ . من بلدان الجمهورية التركية فآمد اسمها اليوم ديار بكر والدها اورفه ، اعلام الورى ، ص ٦٢ ، حاشية رقم (٢) .

٢ . اعلام الورى ، ص ٥٦ - ٦٣ .

٣ . بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣١٩ - ٣٢٤ ، العصر المماليكي ، ص ٣١٩ - ٣٢٤ .

٤ . ابن خطيب الناصرية ، علي ، الدر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة الجامعة الاردنية ، رقم ٣١٥ ، الورقة ٣٥٣ ، سيشار اليه " الدر المنتخب " ، ابناء الغمر ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ابن اياس ، ج ١ ، ص ٥٥١ .

٥ . اعلام الورى ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(ربيع الآخر ٨٦٣هـ/ شباط ١٤٦١م) (١) ، ثم تولى نيابة دمشق سنة (٨٧١هـ/ ١٤٦٦م) ، كان رجلا دينا ، اخرج الكراسي التي كانت ضيقت الجامع الاموى وأظلم ضوءه بسببها ، ومنع المشي فيه بالنعال ، ومنع النساء من دخوله وكان بنفسه ومماليكه يغسل ارضية الجامع ، وجدد فيه عمارة اشياء ، وجدد عمارة مشهد الرأس داخل باب الفراديس (٢) ، وعمر بعمارة الكثيب الاحمر شرقي مسجد القدم (٣) وبنا له سورا ورتب له قنديلا برأس خشبة طويلة يصعد فيها بدرج فيه مسمرة ، وكان من اصلح نواب الشام ، وبقي نائبا بها حتى عزل سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) (٤) . ثم تولى نيابة دمشق مرة ثانية سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) واستمر نائبا بها الى سنة (٨٧٥هـ/١٤٧٠م) حيث

---

١. ابناء الهصر ، ص ٣٠٤ -٣٠٥ ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٠٩ ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ ، اعلام الورى ، ص ٥٨ .

٢. مشهد الراس داخل باب الفراديس : ويدعى ايضا مشهد الحسين وهو المعروف في عصرنا بالسيدة رقية ، ولما استولى التتار على ميافارقين سنة (٦٥٨هـ) قطعوا رأس ملكها الكامل محمد بن المظفر غازى بن العادل باني مدرسة العادلية بدمشق وحملوا الراس على رمح وطافوا به البلاد فمروا على حلب وحماه ووصلوا الى دمشق ووضعوا الراس في شبكة وعلقوها على باب الفراديس ولما انهزم التتار دفن في مشهد الراس هذا ولا يزال في مشهد الراس (مشهد السيدة رقية) حجر تذكارى نقش عليه خبر هذه الحادثة وتاريخها ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٥ ، اعلام الورى ، ص ٦٤ -٦٥ .

٣. الكثيب الاحمر : مكان يقصد للزيارة لا يزال معروفا الى الان ، قال ابن الحوراني : والمشهور في دمشق ان قبر موسى عليه السلام بدمشق ، قال الربعي في مصنفه والمشهور في دمشق ان قبر موسى عليه السلام بالكثيب الاحمر بقرب قرية من دمشق يقال لها مسجد القدم وهو معروف مشهور ، الهروى ، ابي الحسن علي بن ابي بكر ، كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، نشره وحققه جانين سورديل - طومين ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥٣ ، ص ١٧ ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٦٢ ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٨ ، اعلام الورى ، ص ٦٥ ، حاشية رقم (١) .

٤. اعلام الورى ، ص ٦٤ -٦٦ .

توفي في هذه السنة (١).

٦٢. الأمير ازبك الصوفي :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)، وبقي نائبا بها حتى سنة (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) (٢)، وتولى نيابة غزة سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) (٣).

٦٣. الأمير برقوق الناصري :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٧٥هـ/١٤٧٠م)، كان سفاكا للدماء قتل جماعة من الاكابر قتلا شنيعا، سافر من دمشق لقتال الامير سوار بك الغادري (٤) فغدر به وقبضه ودخل به دمشق مدخلا حافلا سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م)، واستمر الامير برقوق في نيابة دمشق في عز وحرمه، وبنى باعلى جبل قاسيون قبة سماها قبة النصر على سوار، وقد وجد موضعها ذهبا كثيرا مدفونا. وفي نفس السنة سافر من دمشق لقتال حسن باك (٥) صحبه العساكر المصرية وقد فاق عليهم في الخيولية وسماع الكلمة وبسط الحرمة فدس عليه السم في عنب اكله ومات في سفره سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م)، فاهتم به جماعة فصبروه وحملوه الى مصر مصبرا، ودفن بالصوة في القاهرة (٦) قريب الرميلة ،بوصية منه (٧).

---

١. اعلام الورى، ص ٦٨.

٢. اعلام الورى، ص ٦٧.

٣. بدائع الزهور، ج ٤، ص ٨٢.

٤. للمزيد من المعلومات عنه راجع اعلام الورى، ص ٦٦.

٥. لمزيد من المعلومات عن ثورته راجع اعلام الورى، ص ٦٩.

٦. الصوة، اسم يطلق على المنطقة الجبلية الواقعة في الجبهة الشمالية البحرية من قلعة القاهرة فيما بين القلعة وجامع الرفاعي ويتوسطها الطريق المعروف بسكة المحجر ودرب المارستان بخط القلعة، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٤٣.

٧. اعلام الورى، ص ٦٨-٧٠.

٦٤ . الأمير جاني بك فلقسيس :-

كان امير سلاح بمصر وسافر باشا للمسكر لقتال سوار بك الغادري ، ثم قبض عليه سوار مع جماعة ، ثم خلص نفسه ورجع الى مصر ثم جهز وعين في التجريدة الى البلاد الشمالية ، فانعم عليه نيابة دمشق وهو في سفرة فدخل دمشق سنة (٨٧٨هـ/١٤٧٣م) وبقي نائبا بها حتى وفاته سنة (٨٨٣هـ/١٤٧٨م) (١) .

٦٥ . الأمير قانصوة اليحياوي :-

كان نائبا بحلب ، تولى نيابة دمشق سنة (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) (٢) ، سافر مع العساكر المصرية صحبة يشبك الدوادار الكبير لقتال حسن باك فقبض عليه بياندر دوادار حسنباك بعد قتل يشبك الدوادار بمدينة تبريز ، ثم افلت من بياندر وسار الى حلب سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) معزولا عن نيابة دمشق بسبب انحرافه عن يشبك المقتول (٣) . ثم تولى نيابة دمشق مرة ثانية سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) (٤) ، وبقي نائبا بها الى سنة (٩٠٢هـ/١٥٠١م) حيث نقل الى نيابة غزة ، ثم الى نيابة حماه سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) (٥) .

٦٦ . الأمير قجماس :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٨٦هـ/١٤٨١م) ، كانت كلمته مقبولة عند السلطان دون مراجعة ، وفي سنة (٨٨٨هـ/١٤٨٣م) سار لقتال على دولة اخي سوار الغادري

---

١ . اعلام الورى ، ص ٧٠ - ٧١ .
٢ . اعلام الورى ، ص ٧٢ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٥ .
٣ . اعلام الورى ، ص ٧٢ .
٤ . اعلام الورى ، ص ٧٨ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٩٩ .
٥ . اعلام الورى ، ص ٧٨ .

التركماني وهزم علي وقتل جماعات ثم ارسل الى دمشق عدة رؤوس مقطعة عن جثثها ومع الرؤوس عدة صناجق منكوسة من صناجق الفريقين ، وانتصر ورجع الى دمشق ودخلها سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) ثم ارسل للسلطان في مصر هدية عبارة عن تسعين مملوكا كبيرا ومثلها خيلا خاصا وغير ذلك ، وبسببه تجرأ غالب زعران دمشق والحرامية ووقع بينهم مصادمات ، وفي ايامه فكت بيوت الامراء بدمشق كبيت الحاج اينال بحارة القصر وغيرها .

ثم اخرج الامير بداغا اخو سوار بك التركماني من حبسه بقلعة دمشق بغير اذن من السلطان لما يعلم من منزلته عنده واخذه معه لقتال اخيه علي دولة ، ثم ندم وخشي العاقبة وارجعه من المصطبة الى حبسه بالقلعة وسار لقتال علي المذكور، وفي نفس السنة اى سنة (٨٩٠هـ/١٤٨٥م) شرع في عمارة تربة له ودار قرآن داخل باب النصر جوار دار السعادة ، وجدد الحمام الخراب بها . وفي سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م) شرع في استخلاص المال ، فرتب على كل حارة بدمشق مالا معلوما ، هذا مع وقوف حال الناس وكثرة الحرامية ، ثم سافر لقتال علي دولة ومن معه ، ومعه نحو مائة مائتي فقط، وقد ظلم الناس بسبب ذلك ، ثم اذن للحامين في غلاء اللحم بدمشق يومئذ وتوفي سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) وظهر له بعد وفاته مال كثير بدمشق ونحو اضعافه بالقاهرة فأخذه السلطان (١).

٦٧ . الأمير اينال الفقيه :-

تولى نيابة دمشق سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) وعزل في نفس السنة (٢).

---

١ . اعلام الورى ، ص ٧٢ -٧٨ ، مفاكهة الخلان ، ص ٥١ - ٦٩ .
٢ . اعلام الورى ، ص ٨٢ -٨٤ .

٦٨ . الأمير كرتباي الأحمر :-

تولى نيابة دمشق سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٧م) وفي اثناء ولايته خرج لقتال طائفة الأمير مسلب احد امراء بني لام الذين آذوا الحج واخذ منهم مالا كثيرا ، ثم ذهب الى بلاد بني صخر وبنى هناك قلعة ، ثم كبس اهل قرية كرك نوح (١) واتى بمشايخها وقتل منهم واحدا ثم نهب عرب بني هذيم عند قصر شبيب عند الزرقاء ز ، واخذ منهم غنما كثيرا وجوارى واتى بحريمهم الى دمشق في اسوأ حال . وفي سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) امر خازنداره وجماعته بتوزيع مبلغ الفي دينار على الفقراء والمساكين وتوفي في نفس السنة وقد وجد معه في خزانته مائة وسبعة وستين الف دينار (٢) .

٦٩ . الأمير جان بلاط :-

تولى نيابة دمشق سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) وفي ايام نيابته سافر الى حوران واغار على العرب من آل موسى واخذ منهم حوالي الفين من الابل . وامر بضرب اهل القبيبات عندما شكوا له عجزهم عن دفع ثمن الجمال التي طرحها عليهم من نهب العرب ، ثم طرح الجمال والنوق واولادهم الصغار على اهل دمشق ، فالصغير الرضيع على الطباخين ونحوهم ، والكبار على اهل الحارات كل واحد منهم باضعاف قيمته ، وقد بلغت حوالي الفين وهذا شيء لم يراحد مثله . ثم امر بحبس المقدمين مشايخ البلاد في قلعة دمشق وسافر الى بلاد ابن الحنش بقرية قب الياس بالبقاع واحرق بيته ونهب العسكر جميع ما وجدوه بالبقاع ثم دخل بيروت واخذ من الفرنج عدة احجار كريمة وفضة بلغت

---

١ . اعلام الورى ، ص ٨٢ -٨٤ .

٢ . كرك نوح : بتسكين الراء تميزا لها عن كرك الاردن - قرية كبيرة كانت قصبة البقاع وهي شمالي زحلة ، والمعلقة وقد اصبحت هذه الثلاث بلدة واحدة اعلام الورى ، ص ٥١ .

حوالي الخمسين حجرا وخمسة عشر قطعة جوخ رفيع وختم على بضائعهم بعد ان قومها عليهم باضعاف ثمنها ليأخذ عشرها (١). ثم رحل الى صيدا واقام بذير زنون وقتل جماعات ، وكان يشرب الخمر ويفطر في رمضان . وعاد الى دمشق في نفس السنة. وشرع في عمارة كبيرة بالاصطبل واخذ املاك الناس التي حوله واضافها اليها واخذ الات العمارة من املاك الناس ثم اخرج المقدمين شيوخ البلاد من القلعة واعادهم الى الاصطبل في زناجير ، ثم افرج عنهم على مال كثير . وفي سنة (٩٠٥هـ/١٤٩٩م) جاء الامر من السلطان في القاهرة بعزل النائب جان بلاط واحضاره الى مصر (٢).

٧٠. الأمير قصروة :-

تولى نيابة دمشق سنة (٩٠٥هـ/١٤٩٩م) وفي اثناء نيابته امر بصلب ابن الحنش الذى سعى على ناصر الدين ابن عمه عند النائب السابق (جان بلاط) واخذ البلاد وكان السبب في نهبها وهتك حريمها وحريق قراها وقتل عدد كبير من الناس فلما صلب عاد ابن عمه عليها . وفي نفس السنة سافر الامير قصرو من دمشق الى عرب بني صخر وجاوز اربد بعسكر كثير فقتل منهم نحو العشرين ، وقبض على آخرين ، وكسب منهم دوابا كثيرة وغنما وبقرا وابلا ، ثم عاد الى دمشق . وفي اثناء نيابته احاط على قمح اهلها وحوله الى القلعة بعد ان وضع يده عليها ، ثم اخرج جماعته الى ابراهيم بالقا نائب حمص فعزله ونهب بيته وموجوده .

وسافر الامير قصروه من دمشق في ابهة حافلة بعسكر وكثير من المشاه بانواع عدد الحرب ونزل على جسر زينون (٣) ودخل الى طرابلس حيث قبض على نائب طرابلس يلباى

---

١. اعلام الورى ، ص ٩١ .

٢. اعلام الورى ، ص ٩٤ - ١٠٠ ، مفاكهة الخلان ، ص ٢٠١ - ٢٢٠ .

٣. جسر زينون : يقع على طريق بيروت قبل شتورا مما يلي دمشق بنحو ٧ كيلومترات اعلام الورى ص ١٠٧ ، حاشية رقم (١) .

المؤيدى وعاد الى دمشق وفي سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م) خرج الامير قصروة بعسكره الى حلب وقد حدثته نفسه بالسلطنة ثم عاد الى دمشق ولم يحقق هدفه ، ثم اخذ يصادر الناس بحجة كشف الاوقاف ، وطلب من القضاة الكبار والشهود مالا ، وقبض على قاضي الحنفية ، وزاد ظلم جماعته ، وقتل رجل طباخ بحارة الشميرية (١) فصادر ملاك تلك الحارة وما حولها بمال كثير ، وقتل رجل آخر بمحلة حارة القصر من قناة البريدى ، وقبض القاتل ومع ذلك صادر ملاك تلك الحارة وما حولها ايضا .

وغلت في ايامه الاسعار حتى بيع رطل اللحم بسبعة دراهم والدبس باربعة دراهم والزيت بعشرة دراهم .

وفي هذه السنة ايضا سافر الامير قصروة وجماعته لتلقي طومان باى الى محلة سعسع (٢) ، فتلقاه تلقيا حسنا مكرا لينال مراده واجتمع به واظهر له ما يطمئن به ثم اوكب النائب وارباب الدولة وخرجوا لتلقي الدوادار طومان باى ومن معه الامراء وادخالهم الى دمشق وقد امتلأت شوارع دمشق بالمماليك والاتباع واخرجوا جماعات من بيوتهم ونزلوا بها او عليهم فيها واختلطوا بحريمهم ، ونزل الدوادار طومان باى بالقصر بالميدان الاخضر ، ثم اختلى الامير قصروة بالدوادار طومان باى القصر واتفقا على عصيان السلطان جان بلاط وخلعه من السلطنة وان يمسكا جماعته الذين حضروا من مصر صحبته وان يتولى احدهم السلطنة ، ويتولى الآخر الاتابكية للاخر وتفرقا على ذلك وفي اليوم التالي امر طومان باى بالنداء له بالسلطنة ، وان الملك المؤيد ، وان النائب قصروة هو الاتابكي وان نائب حلب دولتباى هو نائب دمشق ودقت بشائر دمشق وقبّل له

---

١ . حارة الشميرية :- في مأذنة الشحم قرب بحرة الاسمدية ، حارة مرتفعة على تلة لا تزال تسمى تلة الشميرية . اعلام الورى ، ص ١١٧ ، حاشية رقم (٢) .

٢ . سعسع : قرية تابعة لمركز مديرية قطنا واقعة على ضفة نهر الاعوج وعلى طريق بلدة القنيطرة تبعد عن دمشق ٣٥ كيلومترا . اعلام الورى ، ص ١٢٠ ، حاشية رقم (١) .

الامراء الارثى ، ثم اتى اليه القضاة الاربعة واظهروا له البيعـــة (١) .

٧١ . الأمـــير د ولتبـــاى :-

تولى نيابة د مشق سنة (٩٠٦هـ/١٥٠٠م) ، واصدر مرسوم بابطال المظالم وان من قتل في حارته قتيل لا يتعلق عليه بسببه برمية ولا غرامة بل يتبع الفريـــم (٢) .

ودخل في ايام نيابته من مصر الى د مشق جماعة وصحبتهم مملوك باخبار ان السلطان العادل ثم طلع الى القلعة الامير الدوادار قانصوة الغورى وان العادل فقد وان الغورى بويع بالسلطنة بعده لفقده ، وانه لقب بالملك الاشرف .

واختفى الامير د ولتباى ، ورفع موجوده الى القلعـــة ونودى لمماليكه الذين اعتقهـــم قبل هربة بان يذهبوا الى مصر فذهبوا ، ثم عرف انه قد ظهر في حمص وانه ارسل الى السلطان الغورى يسأله من الصدقات والعفو عنه والاذن له ان يكون بمكة او القدس بطال واجابة السلطان الى ذلك ، وجاء مرسوم السلطان بتعيين جان بلاط نيابة الغيبة ، ثم عاد الامير د ولتباى الى د مشق وغلت الاسعار في زمنه حيث كان رطل الخبز بدرهمين الا ربعا والسمسم بخمسمائة د رهم والدبس باربعمائة د رهم . وبقي نائبا حتى سنـــة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) حيث عـــزل (٣) .

٧٢ . الامـــير اركمـــاس :-

تولى نيابة د مشق سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م) وفي نيابته نادى بابطال القرابيـــص النحاس من الفلوس ونودى على اللحم كل باربعـــة دراهم وعلى الخبز كل رطل بدرهـــم

---

١ . اعلام الورى ، ص ١٠١ - ١٢٤ .

٢ . من عادات الحكام المماليك في د مشق وامعانهم في الظلم انه اذا قتل قتيل في حارة يضيعون على اهل الحارة غرامة ولو عرف القاتل وقبض عليه ، اعلام الورى ، ص ١٢٤ .

٣ . اعـــلام الورى ، ص ١٢٤ - ١٦٤ ، مفاكهـــة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٧٥ - ٢٨٦ .

ونصف ، واعلاه الى درهمين ، وعزل في نفس السنة (١).

٧٣. الأمير سيباى :-

تولى نيابة دمشق سنة (٩١١هـ/١٥٠٥م) وفي اثناء نيابته كثرت الرميات والمصادرات في كل حارة وشاط الزعران ولم يمطوا في رميته شيئا ، بل قد وضع احدهم يده على حوانيت قد اقام فيها من يبيع بأزيد من غيره ويقطع مصانعته ، واذا رمي على الحارة مال ساعد في اخراج ما يخصه من الحوانيت من مال غيره ، وهم في اكل الطيب ، وشرب المسكر وفساد في نساء المسلمين ودمائهم ، وفي اثناء نيابته ارسل سرية الى بيت سابر (٢) فنهبوها . وشرع في عمل درابزين خشب بالجامع على يمين الداخل من باب الزيادة الى آخر المجاز الذى يخرج منه الى صحن الجامع ونقر في العواميد وجعل في الدرابزين ثلاثة ابواب يدخل من المجاز المذكور الى بقية الجامع ، ولم يرض احد من رجال الدين ذلك ، حيث لم يكن الجامع محتاج الى ذلك فذهب من مال وقف الجامع جملة كثيرة فيما لا فائدة فيه ، ووقف حال الناس من كثرة الظلم .

وفي سنة (٩١٢هـ/١٥٠٦م) نودى بدمشق من قبل النائب الامير سيباى ان على كل حارة عدة عشرين ماشيا يسافرون صحبة النائب الى كرك الشوبك ، فشرع عرفاء الحارات في جباية الاموال . ولما عاد من كرك الشوبك امر بفتح قبة عائشة غربي صحن الجامع الاموى ففتحت وصعد اليها هو نفسه ونائبه في النظر على الجامع. ثم شرع النائب سيباى في عمارة حمام خراب داخل باب توما .

---

١. اعلام الورى ، ١٦٩ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٢٨٩.

٢. بيت سابر قرية صغيرة تابعة لقضاء قطنا واقعة على منشز مرتفع وسط سهول مدرجة في سفوح جبل حرمون وعلى مقربة منها نهر ينسب اليها يسمى السيبراني وهي تبعد عن دمشق نحو ٦ كيلو مترات اعلام الورى ، ص ١٧٩.

وفي اثناء نيابته ورد الى دمشق مماليك اجلاب جراكسه وزاد بسببهم وقوف حال الناس ، واغلقت اسواق وحوانيت كثيرة من خطفهم ما يحتاجون اليه وغيرة من الاطعمة والاقمشة ويقفون في الطريق يأخذون عمائم المارين او شدودهم ويأخذون ما يرونه على الدواب من الاثاث وغيره ، وغالب هذه المماليك الاجلاب كبار ، ويبيعون ما يخطفونه لمن يشتريه منهم .

وبقي نائبا في دمشق حتى سنة (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م) [١] .

---

١. اعلام الورى ، ص ١٧٥ - ٢١٥ ، مفاكهة الخلان ، ج ١ ، ص ٣٠٢ - ٣٧٩ ، ج ٢ ، ص ٠٣ .

ملحـــق رقـــم (٣)

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام ،كتب به عن السلطان الملك العادل "كتبغـا " للأمير " سيف الدين غرلـو العادلي " من انشاء الشيخ شهاب الدين محمـود الحلبي (من كتاب صبح الاعشى للقلقشندى ،ج ١٢ ،ص ٨ -١٢ ،وهـو :

الحمد لله الذى جعل لسيف دولتنا على عاتق الملك الأعز نجادا ،وادّخر لكفالـة ملكتنـا من الاولياء من تناسب وصفاه اجتهادا في مصالح الاسلام وجهادا ،وعدق أمور رعايانا بمن ايقظ لها سيفه وجفنـه فامتلأت عيونهم بما وهب وسلب من نومـه ونوم العدا رقادا ،ورفع الوية احساننا على من زاد بسرف مهما ظلّ عدلـه انبساطا على الرعيـة وامتدادا ،ووطدّ قواعد ممالكنـا بمن أجلنا الفكر في حسن اختياره انتقاء لمصالح الاسلام وانتقادا ،وأدّى لشكرا نعم الله التيّ لا يؤدى شكر بعضها ولو أن ما في الارض مـن شجرة أقلام أو كان البحر مدادا .

نحمده على نعمة الله التي جعلت عزائمنا على الابد منصورة ،ومقاصدنا على مصالح المسلمين مقصورة ،وآرائنا تفوّض زعامة الجيوش الى من تصبح فرق الاعداء بفرقة مغـزوة وممالكهم بمهابتـه محصـورة .

ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال تنشر دعوتها في الآفاق ، ونرهف لا قامتها في ممالكنا سيفا يصل ما أمر الله بقطعه ويقطع الآ الارزاق ،ونرهب مـن ألحد فيها بكل وليّ لرعبـه في القلوب ركض ولرايتـه في الجوانح خفق ولأسنته في الصدور اشراق ،ونشهد ان محمدا عبده ورسوله أشرف من فوّض حكمـا في أيامه الى من اعتمد عليه ، وأرأف من استخلف على من بعد عنه من أمته من يعلم ان صلاحهم في يديه ،وألطـف من عدق شيئا من أمور أهل ملّته بمن أعانه الله وسدده في دفع عدوهم وصلاح ما يرفـع من أحوالهم اليه ،صلى الله عليه وعلى آلـه وصحبـه الذين ولّوا على الامة فعدلوا ،وأمروا بما جبلـه الله عليـه من الرأفة والنعمـة والرحمة فامتثلوا ،وعلموا أن الحق فيما نهج لهم من طرق طريقته المثلى فما مالوا عن ذلك ولا عدلوا ،صلاة لا تغرب شمسها ،ولا يعـزب

أنسها ،ولا تمتبر أوقات أقامتها الا ويقصر عن يومها في الكثرة أمسها ،وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ،فان اولى ما أعطنا اليه ركائب الآراء المؤيدة ،وصرفنا اليه أزمة نجائب الافكار المسددة ،وأجلنا فيه طرف النظر الذى لا يشق في بلوغ الغاية غباره ولا يدرك ، وأحلنا الأمر فيه على التأييد الذى هو عمدتنا فيما يؤخذ من ثواقب الآراء وما يترك ، وقدمنا فيه مهم الاستخارة الذى يتلوه التوفيق ،وعلمنا ان ألذ أسباب الاهتداء اليه سلوك طريق النصح لله ولرسوله وللاسلام فسلكنا اليه من ذلك الطريق وقصرنا النية فيه على مصالح الامة التي هي فرض العين بل عين الفرض ،وأطلنا الارتياد فيه لتمين من نرجو له ممن عناهم الله بقوله : (الذين ان مكنّاهم في الارض) . وندبنا له سيفا لم يزل في صدور الاعداء صدره وفي يد جبار السموات قائمة ،وأردنا لتقدمة الجيوش فيه زعيما طالما ملّ ضوء الصبح مما يغيره وملّ سواد الليل مما يزاحمه وقدمنا له من نشأ في حجر ولائنا ، وغذى بلبان برنا وآلائنا وشهد الوقائع بين يدينا ،وخبرنا من سيرته النهوض في الرعايا بما كتب الله لهم من الرأفة والرحمة علينا - أمر نيابة سلطنتنا الشريفة بالممالك الشامية التي نابت فيها مهابتنا عن الاقامة فيها ،وجعلتها عنايتنا ،من أشرف ممالكنا التي نحصها على البعد بدوام الملاحظة ونصفيها ،وهي واسطة عقد ممالكنا ،ومحط رحال طرقنا الى جهاد الاعداء ومسالكنا ،وهالة أهله سرى القصد الى لحظها في أديم الارض مواقع سنابكنا ،ومواطن القربات التي نصت الاثار الصحيحة عليها ،ومظان المبادات التي طالما نصت ركائب المباد المبّاد اليها ،ومقام الابدال الذين هم اهل دار المقامة ،ومستقر طائفة الدين الذين لا يزالون ظاهرين على اعدائهم لا يضرهم من خذلهم من الـــى يوم القيامة ،وفلك الثغور الذى تشرق منه كواكب سعودها ،وتتصرف من نوئه الى من جاورها من المدا خاطفات بروقها وقاصفات رعودها ، فكم ذى جنود أمها فهلك وما ملك ، وسلك اليها بجيوشه فزلت وتزلزلت قدمه حيث سلك ،ولجيشها البأس الذى وجود الاعداء به عدم ،والحد الذى يعرفه اهل اسياق و (ان) انكرته أعناقهم " فما بالعهد من قدم " .

وأن نفوض (أمرها) الى من ينشر بها على الامة لواء عدلنا ،ويبسط فيها بالرأفة والرحمة رداء فضلنا ،ويحيى بها سنن الاحسان التي مبدأ أيامها غاية من سلف من قبلنا ،

ويقيم منار الملك من بأسه على أرفع عماد ، وينيم الرعايا من عدله في أوطأ مهاد ، ويكف أكف الظلم الى ما يتجاسر إلى اعادة يده اليها و عاد ومن عاد ، ويجرد الى العدا من خياله وخيله سرايا تطرد عن موارد جفونهم بقوائمها الرقاد ، وتستعيد عوارى ارواحهم من مستودعات اجسادهم فهي بحكم العارية غير مستقرة في الاجساد ، ويصون الرتب عن تطرق من يفسد احوالها لعدم أهليته : فانه ما سلك أحد في أيامنا طرق الفساد فساد ، ويعلم به أنا جردنا على العدا سيفا يسبق اليهم العدل ، ويزاحم على قبض نفوسهم الأجل ، وتتحلى بتقليده الدول ، ويتحقق بفتكه أنه لا حاكم بيننا وبينهم الا السيف الذى ان جار فيهم فقد عدل .

ولذلك لما كان المجلس العالي الفلاني : هو الذى اخترناه لذلك على علم وقلدناه أمور الممالك : لما فيه من حدة بأس وآية حلم ، وعجمنا عودة فكان لينا على الاولياء فظا على العداء ، وبلونا أوصافه فعلمنا منه السداد الذى لا يضع به الندى في موضع السيف ولا السيف في موضع الندى ، وعرضنا سدادة على حسن اعتبارنا للاكفاء فكان سميرنا (وهل ، فزيّن معروضا وراع مسددا) ، وهززناه فكان سيفا ينصل حده الخطب أذا أعضل ، وأعطيناة أمر الجيوش فلم يختلف احد في أنه أفضل من الافضل .

فلذلك رسم بالامر الشريف - لا زال يصطفى من الاولياء كل كفء كريم - أن تفوض اليه نيابة السلطنه الشريفة بالممالك الشامية : تفويضا يعلي قدره ، ويبسط في مصالح الملك والممالك أمره ، ويطلق في مصالح الدولة القاهرة سيفه وكلمه ، ويدر على الاولياء احساننا الذى اذا جارى الغيث أخجل دوامه ديمة ، ويرفع بالعدل منار دوام ملكنا الذى قرنه الله للأمة بجودنا ، ويضيف باسترفاع الادعية الصالحة لدولتنا من كل لسان جنود الليل الى جنودنا ، وينظر في امور الممالك الشامية نظرا عاما ، ويعمل في سداد ثغورها وسداد أمورها رأيا ثاقبا وفكرا تاما ، ويأمر النواب من سد خللها بما كفايته أدرى به منهم ، وينبههم من مصالحها على ما ظهر لفكره المصيب وخفى عنهم ، ويلاحظ أموال ما بعد من البلاد كملاحظته أموال ما دنا وينظر في تفاصيل أمورها : فانها وأن كانت على السداد فليس بها عن حسن نظره غنى ، ويسلك بالرعايا سنن انصافه التي

وكلتـه معرفتنا به اليها ، ويجريهم على عوائد الاحسان التي كانت من خلقة سجيّـة وزدنـاه تحريضا عليها .

وهو يعلم ان الله تعالى قد أقامنا من الجهاد في أعدائه بسنته وفرضه ، ومكّـن لنا في الارض: لاقامة دعوتـه واعلاء كلمتـه وتطهير أرضـه ، وعضدنا بتأييده لنصـرة الاسـلام ، وأمدنا من عدة نصره بكل سيف تروع الاعداء به اليقظة وتسله عليهم الاحلام ، وبث سرايا جيوشنا برا وبحرا : فهي أما سوار في البر تمر مرّ السحاب أو جوار منشـآت في البحر كالاعلام ، ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كل يوم بنفسه ، ويعدهم في غـده باعادة ما اعتبره من عرضهم في أمسه ، ويرتب أمر كل اقليم وحاله ، ويتفقد من يباشـر بالتقدمة تقدمه الى الاطراف وارتحالـه ويأمرهم كل يوم بالتأهب للمرض الذى يباشـره غدا بين يدينـا ، ان شاء الله تعالى .

ملحـــــق رقـــــم (٤)

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنةبالشام ،كتب بها للأمير " سيف الدين تنكز الناصرى " في ربيع الاول سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ،من انشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلــبي (من كتاب صبح الاعشى للقلقشندى ،ج١٢،ص ١٦-١٩) وهي :

الحمد لله مفوض أسنى الممالك في ايامنا الزاهرة الى من تزهو بتقليده ،ومشيد قواعد أسمى الاقاليم في دولتنا القاهرة بمن يعلو بايالتــه ما يلقى اليه مقاليــده ،ومسدد الاراء في تصريف أعنة جيوشنا المنصورة بتقديم من تغدو سيوفه من عنق كل متوج من العدا قلادة جيدة ،وناشر لواء العدل في رعايانا وان بعدوا بمن تنيم كلا منهم في مهد الامن والدعـقيد مهابته وتمهيده ،ومعلي منار الجهاد ،في سبيله بمن اذا جرد سيفه في وغى تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك بين تجريبه وتجريده .

نحمده على نعمه التي أيدت آراءنا بوضـع كل شيء في مستحقـه ،وقلدت سيف النصر من أوليائنا من يأخذه في مصالح الاسلام بحقـه ،وجددت آلاءنا لمن اذا جــارت الحتوف سيوفه الى مقاتل العدا فانها وفاقها بمزيتي كفايته وسبقـه .

ونشهد ان لا أله الا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال السنتنا ترفع منارهـــا ، وسيوفنا تصلى من جحدها قبل نارها ،وآراؤنا تفوض مصالح جملتها الى من اذا رجتــه لنصرة أنالها واذا أسدى معدلــة أنارها .

ونشهد ان محمدا عبده ورسوله الذى أيده اللــه بنصره ،وجعلـه سابق من تقدم من الرسـل على عصره ،وآتاه من الفضائل ما يضيق النطق عن احصائـه ومن المعجزات ما يحول الحصر دون حصره ،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بهداه ،وهجروا في طاعتـه من عاداه ،ونهضوا في رضا الله تعالى ورضاه الى مظان الجهاد وان بعـد مداه ،صلاة يشفعها التسليم ،ونبتغي اقامتها عند الله والله عنده أجر عظيم ،وسلـم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فان أولى ما أعطنا في مصالحه الفكر، وتدبرنا أحواله بكل رأى يسدده الحزم المروى ويؤيده الالهام المبتكرة، وقدمنا فيه الاستخارة على ما جزم اليقين بأن الخيرة للاسلام والمسلمين في اعتماده وتمسكنا فيه بحبل التوفيق الذى ما زال تتكفل لنا في كل أمر بسداده وفي كل ثغر بسداده - أمر الممالك الشامية التي هي واسطة عقد الممالك، ومجتمع ما يفضى الى مواطن النصر من المسالك ، ومركز فلك الاقاليم الذى تنتظم عليه بروج ثغورها ، ونقطة دائرة الحصون التي منها مادتها وعليها مدار أمورها ، وغيل ليوث الحرب التي كم أنشبت أظفار أسنتها في طرة ظفر، ومواطن فرسان الوغى التي كم أسفر عن اطلاق أعنتها الى غايات النصر وجه سفر ، وان نرتاد لكفالة امورها ، وكفاية جمهورها ، وحماية معاقلها المصونه وثغورها ، وزعامة جيوشها ، وارغام طارقي اطرافها من اعداء الدين وثّل عروشها من جردة الدين فكان سيفا على اعدائه ، وانتقاه حسن نظرنا للمسلمين فكان التوفيق الالهي متولىّ جميل أنتقاده وانتقائه ، وعجمنا عود أوصافه فوجدناه قويا في دينه ، متمكنا في طاعته باخلاص تقواه وصحة يقينه ، متيقظا لمصالح الاسلام والمسلمين في حالتي حركته وسكونه ، آخذا عنان الحزم بيسر يسراه وسنان العزم بيمن يمينه واقفا مع الحق لذاته ، مقدما مشاق الجهاد على شائر مآربه ولذاته ، ماضيا كسيفه الا انه (لا) يألف كالسيف الجفون ، راضيا في راحة الاخرة بمتاعب الدنيا ومصاعبها فلا يرعى في مواطن الجهاد اذا حلها أكناف الهوينا ولا روض الهدون مانعا حمى الاسلام لا " حمى الوقبى بضرب " يفرق بين أسباب الحياة و" يؤلف بين أشتات المنون " .

ولما كان فلان هو الذى تشوقت هذه الرتبة الى ان تتجمل به مواكبها ، وتتكمل به مراتبها ، وتنظم على دسته هالة أمرائها كما تنتظم على هالة بدر السماء كواكبها ، فاذا طلع في أفق موكب أعشت الاعداء جلالته ، وأعدت الاولياء بسالته ، وسرى الى قلوب أهل الكفر رعبه ، وفعل فيهم سلمه ما يفعل من غيره حربه ، واذا جلس على بساط عدل خرس الباطل ، وانجز ما في ذمته الماطل ، وتكلم الحق بملء فيه ، وتبرم الباطل حتى ممن يسره ويخفيه ، وان نظر في مصالح البلاد أعان الغيث على ربّها برفقة ، وأعاد رونق عمارتها بكف أكف الظلم ووصول كل ذى حق الى حقه - اقتضت

آراؤنـــا الشريفة ان نجمل فنون أفنانـه بيمن ايالتـه دانيـة القطوف، وان نصيّر جنتها تحت ظلال سيفه ؛ فان " الجنة تحت ظلال السيوف ".

فلذلك رسم بالامر الشريف - لا زال زمن عصره ، مؤرخا بالفتوح ، وسيف نصره ، على من كفر دعوة نوح - أن نفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ؛ تفويضا يحسـن به المناب في تلك الممالك عنا ، وينشر فيها العدل والاحسان ما يلقاه منا ، ويلبسها من حلل المهابـة ما يضاعف به أمن سربها ، وتصبح به السيوف المجردة أحفظ لها من قربها ، ويطلع في أفق مواكبها الجليلة طلوع الشمس التي يعم نفعها ، ويمشي النواظر لمعهـا ، ويجلس في دست نيابتنا حاكما فيها بأمرنا ، جازما بحكم الشرع الشريف الذى قد علـم أنه حلية سرنا وجهرنا ، ناشرا من مهابة الملك ما ترجف له القلوب من العدا ، وتصبحهم به سرايا رعبنه على بعد المدى ، ملزما من قبله من الجيوش المنصورة بمضاعفة اعداد القوة ، وادامة التأهب الذى لا تبرح بسمعتـه بلاد أهل الكفر مفرورة ، مطلعا على أحوال العدا بلطف مقاصده ، ونكاية مكايده ، وحسن مصادره في التدبير وموارده ، فلا يبرمون امرا الا وقد سبقهم الى نقض مبرمـه ، ولا يقدمون رجلا الا وقد أخرها بوثبات اقـدامه وثبات قدمه . وليعظم منار الشرع الشريف بتكريم حكامـه والوقوف مع احكامـه ، ويرفع أقدار حملة العلـم بترفيـة أسرارهم ، وتسهيل مآربهم واوطارهم ، وليعم الرعايا بعدلـه وانصافه ، ويسترفـع لنا أدعيـة الاولياء والصلحاء باسعاده واسعافـه . وفي خصائص اوصافـه الكريمـــة ، وسجاياه التي هي لمصالح الاسلام مستديمـة ، ما يغني عن تشدد في القول والفصـل ، واللـه تعالى يؤيـده وقد فعـل ، ويجعلـه من أوليائـة المتقين وقد جعـل ، ان شاء اللـه تعالـى .

ملحـــق رقـــم (٥)

حمامـات د مشـق

من مخطوطة تاريـخ د مشـق لابن عسـاكـر

(ورقة ١٧٨ ب-١٧٩ آ ، تاريخ رقم ١ مجلـد ١)

دار الكتـب الظاهريـة

فأما الحمامـات :

١ . حمام القلعـة المحروسـة .
٢ . حمام القاضي عند باب الجابيـة .
٣ . حمام داخل القصاعين .
٤ . حمام داخل درب الهاشيين المعروف بالجديد . كان قديمـا ، فخرب وجـدده حسن الخادم .
٥ . حمام القصير .
٦ . حمام بيت الامير جاروخ .
٧ . حمام الشريف العقيقـي .
٨ . حمام الديوان لطيـف .
٩ . حمام القلانسيين عند القيساريـة الفخريـة .
١٠ . حمام الاكافين الذى في سوق علي .
١١ . حمام نور الدين الجديد في سوق القمح .
١٢ . حمام ابن ابي نصر خلف سويقة البـاب الصغير .
١٣ . حمام درب النخلة عند باب الصغير ، وقفة نور الدين رحمه الله .
١٤ . حمام الجمحي بقرب المقسلاط في درب الجمحي . خرب وصار دارا لابن قـوام .
١٥ . حمام سويد عند دار ابن منزو .
١٦ . حمام يعرف بالمؤيـد .
١٧ . حمام الى جانبـه يعرف بالسلاريـة .

١٨ . حمام خفيف في درب خفيف بقرب باب الفراديس .

١٩ . حمام ابن كلى عند دار طرخان .

٢٠ . حمام النحاسين بقرب سقيفة كروس على بير .

٢١ . حمام عنده يعرف با بن القطيطة على بير ايضا .

٢٢ . حمام دار الوزير المزدقاني صغير .

٢٣ . حمام الجبن في درب الجبن خلف الحدادين .

٢٤ . حمام ابن ابي هشام في درب الحبّالين .

٢٥ . حمام (آخر ١٧٨ ب) التميمي في دار البطيخ تخرب .

٢٦ . حمام المريميين خلف سوق المطرزيين في بير .

٢٧ . حمام المطرزين خلف قناة سوق الاحد .

٢٨ . حمام اللؤلؤة ،كان قديما يعرف بحمام اليزيديين ،وكان لطيفا على مدار فكبر وسيقت له قناة . والمدار باق الى اليوم .

٢٩ . حمام ابن ابي الحديد عند منارة فيروز .

٣٠ . حمام الملوى خلف طريق الملوى في كنيسة مريم .

٣١ . حمام درب الحجر . كان على بير فسيق له الماء .

٣٢ . حمام عند رأس قنطرة سنان .

٣٣ . حمام خطبا بقرب كنيسة مريم .

٣٤ . حمام ابن عبادة بقرب حير قسام وسقيفة جناح .

٣٥ . حمام المنجنيقي عند الباب الشرقي .

٣٦ . حمام ابن صصرى عند باب توما له قناة وبير .

٣٧ . حمام للشريف عند دار ابن بورى كان له قناة وله بير في الارض .

٣٨ . حمام الاسديين على باب الجابية .

٣٩ ، ٤٠ . حماما ابي المعالي ابن تميم في المقيبة .

٤١ . حمام ابن قرقين بقرب حمامي ابن تميم .

٤٢ . حمام بناه ابن زاكي بقرب قبة طرخان .

٤٣ . حمام توماس بقرب الرحى البرمكيـــة .

٤٤ . حمام عند عوينـــة القصارين .

٤٥ . حمام يعرف براهب الكلاس في دار ام البنين .

٤٦ . حمام آخر بقرب عوينية الحمى .

٤٧ . حمام عند رأس بستان بكجور .

٤٨ . حمام آخر الى جانبــه .

٤٩ ، ٥٠ . حمامان عند عين كمشتكين خارج باب السلامـــة .

٥١ . حمام ابن ممين الذى خارج باب توما بقرب السبع أنابيب .

٥٢ . حمام ابن صدقة ـ في الشاغور خارج باب الصغير .

٥٣ . حمام ابن عبادة في الشاغور ايضا .

٥٤ . حمام القصر بالنيرب الاسفل .

٥٥ . حمام ابن المفيف بوادى النيرب .

فبلغها سبه وخمسون حماما سوى حمامات القرى .

ملحـــق رقـــم (٦)

ذيـــل ملحـــق
كتــاب آداب الحمـــام واحكامـــه
ليوسف بن عبـد الهـــادى

مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشـــق عام٩ ٤٥٤٩

علقه بخطه ،سنة ٨٨٥هـ. ٩٥ ورقة ١٩ × ١٣ ، مخرومـــة الاول .

في الكتاب نقص بين الورقة ٣ -٤ . وفيه نقص من الباب الرابع والسادس. ونقص بين الورقة ٨ -٩ . وفيه نقص قسم من الباب السابع ، وجميع الباب الثامن . ونقص قسم مـــن الباب الثالث والعشرين . ونقص بين الورقة ٣٣ -٣٤ . ونقص بين الورقة ٧٨ -٧٩ .

أما ابواب الكتاب فهي :-

الورقـــة	البـــاب
١ ب	الباب الرابع في شروط بنائه وكيف يبنى .
٤ ب	الباب السادس في دخوله للرجال .
٧ ب	الباب السابع في دخوله للنساء .
٩	الباب التاسع في شروط دخول الطبيبه .
١٠	الباب العاشر في نفعة ومضرتــه .
١٢	الباب الحادى عشر في كيفية دخوله ، والاوقات التي يدخل اليه فيها .
١٣	الباب الثاني عشر في الاوقات التي ينهي عن دخوله فيها .
١٤	الباب الثالث عشر في حكم الايقاد فيــه .
١٥ ب	الباب الرابع عشر في حكم مائــه .
١٨	الباب الخامس عشر في حكم بيعــه وشرائــه .
٢٠ ب	الباب السادس عشر في حكم ميازره .
٢١ ب	الباب السابع عشر في حكم أجرتــه وكيولــه وآلاتــه .
٢٢ ب	الباب الثامن عشر في حكم ارضــه وبلاطــه وبلاليمـــه .

٢٣	الباب التاسع عشر في حكم العوره فيــه .
٢٧ ب	الباب العشرون فيمن مدحه من السلف .
٢٨ ب	الباب الحادى والعشرون فيمن ذمه من السلف ولم يدخله .
٢٩ ب	الباب الثاني والعشرون في الشك فيــه .
٣٠	الباب الثالث والعشرون فيما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه .
٣٤	الباب الرابع والعشرون في الصلاة فيه .
٤٢	الباب الخامس والعشرون في قراءة القرآن فيه .
٤٤	الباب السادس والعشرون في الذكر فيه .
٤٥	الباب السابع والعشرون في السلام فيه .
٤٦	الباب الثامن والعشرون فيما ذكر من انه بيت الشيطان .
٤٨	الباب التاسع والعشرون فيما ذكر من قذارتـــــه .
٤٩	الباب الثلاثـــون في النكاح فيـــه .
٥٠	الباب الحادى والثلاثون في الاذان فيه .
٥١	الباب الثاني والثلاثون في الحكم والقضاء والفتيا فيــه .
٥١ ب	الباب الثالث والثلاثون في الطلاء بالنورة فيـــه .
٥٣ ب	الباب الرابع والثلاثـــون في آدابـــه .
٥٤ ب	الباب الخامس والثلاثون في دخوله خلوة .
٥٦ ب	الباب السادس والثلاثون في النهي عن البول في المغتسل .
٥٨ ب	الباب السابع والثلاثون في الاكل فيــه .
٥٩ ب	الباب الثامن والثلاثون في دخوله بعد الاكل فيــه .
٦٠ ب	الباب التاسع والثلاثون في الشرب فيه وبعده .
٦٣	الباب الاربعـــون في وقف الحمام .
٦٤	الباب الحادى والاربعون في أجرتــه .
٦٨	الباب الثاني والاربعون في الوصية به وحكمهـــا .

٦٩	الباب الثالث والاربعون في الاسراف في مائه .
٧٢ ب	الباب الرابع والاربعون في انفع الحمامات واردأها .
٧٣ ب	الباب الخامس والاربعون في هل الاحمد فيه الهواء ام الماء .
٧٤	الباب السادس والاربعون فيمن دخلــه من الاعيان .
٧٥	الباب السابع والاربعون في ناطوره وحكم السرقة منه .
٧٧	الباب الثامن والاربعون في غسل الرجلين عند خروجــه .
٧٩	الباب التاسع والاربعون فيما يقوله الرجل اذا دخله واذا خرج منــه .
٨٤	الباب الخمسون في التدلك فيه والتغسل .
	وفيــه ثلاثــة فصــول :
٨٤	الفصل الاول في التدلك .
٨٧	الفصل الثاني فيما يغتسل به .
٩٠	الفصل الثالث في فصول نافعة في احكام الحمام .
٩٠	فصل دخول المحرم الحمام .
٩١	فصل في دخول الصائم الحمام .

ملحــــق رقـــــم (٧)

كتـــاب الاعـانـات علـى معرفـة الخانـــات

جمع كاتبه يوسف بن حســن بن عبد الهـــــادى

(نشره حبيب زيات ، في المشرق العدد ٣٦، ص ٦٩ - ٧٠)

بسم اللـه الرحمن الرحيم وهو حسبي

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين . وعلى آله وصحبه اجمعين . وبعد فهذه نبذة أذكر فيها خانات دمشق . واعلم ان فيها عدة خانات اذكرها على الترتيب

الصالحيـــة فيها في الجهركسية خانان ، وعند البيمارستان خانان احدهما خـان العنب . والثاني صار حاصلا للخشب . وبسوق الفاكهة ستة خانــات الاول دار الطعم . والثاني خان المدرسة تحته . والثالث في وسـط السوق . والرابع للمدرسة براس السوق . والخامس خان ابن هـواش . والسادس خان السبيل بالسكة . وكان تحت المدرسة خان هـدّه الحاجب ابن مبارك وبناه حماما .

سوق صاروخا به خان يباع بـه .

دار البطيخ بها ثلاث خانات الاول الشامي . والثاني عند باب المسجد قبلة . والثالث فوقه وبابه شامي .

العقيبـة بها خانان من جهة الغرب . احدهما غربي الجامع . والثاني غربـي السوق من تحت صار حاصلا للخشب .

تحت القلعة خانان . الاول تحت جامع يلبغا . والثاني في النقليين تباع فيـه البضائـع .

بباب الفرج خان في الخضريين

بسوق العمارة ثلاث خانات . الاول عند الحمام تباع فيه البضائع . والثاني شرقي الحمام يقال له خان عبد الباسط . والثالث خان براس العمارة وكـان تحت مقابـر الفراديس خان ابن النحاس ، فقتل فيه تاجر رومي . فهدمـه

وبناه مدرسة وفوق الطبيين خان تحت الحمام .

سوق مسجد القصب به عدة خانات . الاول غربي السوق على بابه بيطار . والثاني في الزقاق الشامي الذى تجاه الجامع . والثالث خان الشهابي المعد لقفول الحلبيين .

وبالسبعة عدة خانات . الاول دار الطعم العتيقة . والثاني خان شرقيها عند الذ قاقين . والثالث خان تحته في وسط السوق . وتحت خان آخر . ومن جهة الشرق خان آخر . وخان الزيت كان هناك وانهدم وزال .

باب البريد خانان . الاول عند الحبس . والثاني في الاخفافيين

وعند الباب للجامع الشرقي الذى بالدرج خان . وفي اول سوق السلاح خان

وفي راس سوق السروجيين اربع خانات . وتحت ذلك في الدرب تجاه الحمام خان

وفي الطريق الذى غربي جسر الزلابية وشرقي الميدان خانان

وفي سوق حكر السماق خان

وفي طريق القنوات خان

وفي البزوريين خان

وبسوق جقمق خان التكه

وبسوق باب السريجة الذى غربي باب الجابيه عدة خانات . الاول الذى ينزل له جلابه العبيد . والثاني خان ابن المسال الكبير . والثالث خان صغير بعده يباع فيه مشتل الباذنجان . والرابع خان صغير غربيه . والخامس خان ابن شريدة تباع فيه البضائع . والسادس . والسابع خان تجاهه يباع فيه القمح وغيره . والثامن خان السطل بعده . والتاسع خان يباع فيه العنب بعده

وفي الدرب الذى تحت سوق اللحامين ثلاثة خانات

وفي القصبة التي من باب المصلى الى راس القبيبات اربعة خانات

وبباب الصغير ثلاثة خانات

وبالقابون خانان . احدهما خان السبيل .

أولا : المصادر العربيـــة المخطوطـــة :-

١ . ابن عساكر ، عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة اللة بن الحســــين (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)

تــاريــخ دمشـــــــق

المكتبة الظاهرية ، دمشق ، مجلد رقم (١) .

٢ . الوطواط (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)

مناهج الفكر ومباهج العــــبر

نسخة مصورة عن مخطوطة كوبرلي ، المكتبة الظاهرية ، دمشق ، رقم ١٧٧٠ .

٣ . الدواداري المنصوري ، بيبرس (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)

زبـدة الفكـــرة في تاريــخ الهجـــرة

مكتبة المتحف البريطاني رقم Add 23325 ، وهناك نسخة اخرى مختصــرة ، تاريخ نسخها ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م في جامعة بيــل رقمها ٧٥٨ Landery وتوجد صورة عنها على ميكروفيلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعـــة الاردنيـــة رقم (٢٠) .

٤ . الصفــدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)

الـــوافـــي بالوفيـــــــــات

الاجزاء ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، صورت من مكتبة بودليان - اكسفورد رقم ٢٣أ مجموعة Arch Seld ويوجد نسخة عنها على ميكروفيلم مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية (الارقام ٥٤٨ ، ٥٤٩) .

٥ . ابن حبيب ، بدر الدين الحسن بن عمر (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

درة الاسلاك في دولة الاتراك

٣ج ، صورت من مكتبة بودليان اكسفورد ، مجموعة ، وارقامها ٣٨ ، ٢٢٣ ، ٣١٩ ، ويوجد نسخ عنها على ميكروفيلم في مكتبة مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية وارقامها ٥٣٣ ، ٥٣٩ .

٦ . ابن خطيب الناصرية ، علي (ت٨٤٣ هـ/ ١٤٣٩م)

الدر المنتخب في تاريخ حلب

مكتبة الجامعة الاردنية رقم ٣١٥ .

٧ . ابن الجيعان ، شهاب الدين (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م)

القول المستظرف في سفر السلطان الملك الاشرف

De EI Escorial -Madrid Espan No 1708, Folies 32- 50.

(النسخة ملك الدكتور محمد عدنان البخيت)

٨ . ابن عبد الهادى ، يوسف (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٥م)

كتاب آداب الحمام واحكامه

المكتبة الظاهرية ، دمشق ٤٥٤٩ .

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة :-

أ . الجغرافيا والرحلات :-

٩ . اليعقوبي ، احمد بن واضح (ت٢٤٨هـ/٨٩٧م)

كتاب البلدان

حققه م. دى غويه ، نشر مع كتاب الاعلاق النفيسة لابن رستة ، بريل - ليدن ١٨٩١ .

١٠. الاصطخرى ، أبو اسحق ابراهيم بن محمد (ت ق ٤هـ/١٠م)
المسالك والممالك
نشره دى غوية ، ليدن ، بريل ١٩٦٧.

١١. ابن حوقل ، أبو القاسم محمد (ت ق ٤هـ/١٠م)
كتاب صورة الأرض
٢ج ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت (ب . ت).

١٢. ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت٣٠٠هـ/٩١٢م)
المسالك والممالك
ليدن ، ١٣٠٦ هـ.

١٣. المقدسي ، محمد بن احمد (ت ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م)
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم
حققه م. دى غوية ، ط ٢ ، ليدن - بريل ١٩٠٦.

١٤. البكرى ، ابو عبيد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)
معجم ما استعجم من الالفاظ
٤ج ، حققه مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥.

١٥. الهروى ، أبي الحسن علي بن أبي بكر (ت ٦١١هـ/١٢١٤م)
كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات
نشرته وحققته سورديل - طومين ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٣.

١٦ . ابن جبير ، ابو الحسن (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)
رحلة ابن جبير
بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ .

١٧ . ياقوت الرومي الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
معجم البلدان
٦ج ، مكتبة الاسدي ، طهران ١٩٦٥ .

١٨ . الشريف الادريسي ، ابو عبد الله محمد (ت ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)
كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق
٧ج ، روما ، ١٩٧٠ .

١٩ . ابن سعيد ، علي بن موسى (ت ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤م)
بسط الأرض في الطول والعرض
حققه خوان فرنيط خنيس ، معهد مولاى الحسن ، تطوان ١٩٥٨ .

٢٠ . القزويني ، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣م)
آثار البلاد وأخبار العباد
دار صادر - دار بيروت ، بيروت ، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠ .

٢١ . الدمشقي ، محمد بن ابي طالب ، الانصارى (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م)
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر
نشره أ . مهران ، ليبزج ١٩٢٣ .

٢٢ . أبو الفداء ، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)
كتاب تقويم البلدان

حققه م . رينو . و م. ديسلان ، باريس ١٨٥٤م

٢٣ . ابن عبد الحق ، صفي الدين عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)
مراصد الاطلاع في اسماء الامكنة والبقاع

٦ج ، حققه علي محمد الجباوى ، القاهرة١٩٥٤ .

٢٤ . ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار

دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ١٩٦٤ .

٢٥ . ابن شاهين الظاهرى ، غرس الدين خليل (ت ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٨م)
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

حققه بولس روايس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤ .

٢٦ . البدرى (عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى)
نزهة الانام في محاسن الشام

القاهرة ، ١٣٤١م .

ب. الحوليات والسير والتاريخ المحلي :-

٢٧. ابن القلانسي ، ابو حمزة يعلي (ت٥٥٥هـ/ ١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق

حققه هـ. امدروز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨.

٢٨. الكاتب الاصفهاني ، عماد الدين ابو عبد الله محمد بن محمد (٥٩٧هـ/ ١٢٠١م)
الفتح القسي في الفتح القدسي

حققه محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥.

٢٩. ابن الأثير ، عز الدين محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)
الكامل في التاريخ

١٢ ج ، بيروت ١٣٨٥ - ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٥ -١٩٦٦م.

٣٠. ابن العديم ، عمر بن احمد (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)
زبدة الحلب في تاريخ حلب

٣ج ، حققه سامي الدهان ، منشورات المعهد افرنسي ، دمشق ١٩٥١-١٩٦٨.

٣١. ابو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين

دار الجيل ، بيروت ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١م.

٣٢. المؤلف نفسه :
تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين

نشره عزت العطار الحسيني ، ط٢ ، دار الجيل - بيروت ١٩٧٤.

٣٣ . ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)
الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة

٢ج ، نشر وتحقيق دومينيك ، سورديل ، دمشق ١٩٥٣ .

٣٤ . ابن العبرى ، غريغوريوس الملطي (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)
تاريخ مختصر الدول

وضع حواشية الاب انطون صالحاني اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
١٩٥٨ .

٣٥ . ابن عبد الظاهر ، محي الدين (ت ٦٩٢ هـ/ ١٢٩٣م)
تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور

حققه مراد كامل ، راجعه علي النجار ، الشركة العربية للطباعة والنشر ،
القاهرة ، ١٩٦١ .

٣٦ . المؤلف نفسه :
الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر

حققه ونشره عبد العزيز الخويطر ، ط ١ ، الرياض ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م .

٣٧ . المؤلف نفسه :
الالطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفية

ليبساك ١٩٠٢ .

٣٨ . ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٨ م)
مفرج الكروب في اخبار بني أيوب

٣ ج ، حققه جمال الدين الشيال ، ادارة احياء التراث القديم - دار الكتب والوثائق العربية ، القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٧٢ .

٣٩ . اليونيني ، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م)
ذيل مرآة الزمان

٤ ج ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، الهند ١٣٧٤ - ١٣٨٠ هـ/ ١٩٥٤ - ١٩٦١ م .

٤٠ . ابو الفداء ، المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م)
المختصر في اخبار البشر

٧ ج ، ٢ م ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٠ .

٤١ . ابن ايبك الدواداري ، ابو بكر عبد الله (ت ٧٣٤ هـ/ ١٣٣٢ م)
كنز الدرر وجامع الغرر - الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر

٩ ج ، حققه هانس روبرت رويمر ، نشر قسم الدراسات الاسلامية بالمعهد الالماني للاثار بالقاهرة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٤٢ . الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨ م)
دول الاسلام

٢ ج ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ١٣٦٤ هـ/ ١٩٤٤ م .

٤٣ . المؤلف نفسه :

العبر في خبر من غبر

٥ج ، حققه صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠- ١٩٦٦ .

٤٤ . المؤلف نفسه :

من ذيول العبر

حققه محمد رشاد عبد المطلب ، راجعه صلاح الدين المنجد وعبد الستار احمد فراج ، الكويت (ب . ت)

ملاحظة : يلي ذيل الذهبي ، ذيل للحسيني (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م) في الكتاب نفسه .

٤٥ . ابن الوردى ، زين الدين عمر بن مظفر الشافعي (ت ٧٤٩ هـ/١٣٤٨م)

تتمة المختصر في اخبار البشر

٢ج ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٥ هـ/ ١٨٦٨م.

٤٦ . ابن كثير ، ابو الفداء ، اسماعيل بن عمر الشافعي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

البداية والنهاية في التاريخ

١٤ج ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٤٨-١٣٥٨هـ / ١٩٢٩-١٩٣٩م.

٤٧ . ابن حبيب ، الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

تذكرة النبيه في ايام المنصور وبنيه

٣ج ، ج ١ ، حققه محمد امين ، راجعه سعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٤٨٠ ابن صصرى ، محمد ، (ت بعد ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)
الدرة المضيئة في تاريخ الدولة الظاهرية

حققه ونشره وليم م ٠ بريسنر ،كاليفورنيا ١٩٦٣٠

٤٩٠ ابن الفرات ،ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٥م)
تاريخ الدول والملوك

نشر باسم تاريخ ابن الفرات ،حقق المجلدين الرابع والخامس منه حسن محمد الشماع،بغداد ١٣٨٦-١٣٩٠هـ ١٩٦٧-١٩٧٠م٠ المجلدات ٧ - ٩ ، حققها قسطنطين زريق وشاركت نجلاء عز الدين في تحقيق المجلد الثامن والجزء الثاني من المجلد التاسع ،المطبعة الاميركانية ،بيروت١٩٣٦-١٩٤٢٠

٥٠ ٠ ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم
والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر

٧ج ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ١٩٦٧-١٩٦٨٠

٥١٠ المقريزى ،ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)
السلوك لمعرفة دول الملوك

٤ج ؛ج ١ ،تحقيق محمد مصطفى زيادة ،القاهرة ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ج ٢ ،ج ٣ ،ج ٤ ،قسم ١ ، ٢ ،تحقيق سعيد عاشور القاهرة مطبعة دار الكتب ١٩٧٠ - ١٩٧٢٠

٥٢٠ ابن قاضي شهبه ،تقي الدين احمد (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)
تاريخ ابن قاضي شهبه

م ١ ،ج ٣ ،حققه عدنان درويش ،المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية دمشق ،١٩٧٧٠

٥٣. ابن حجر العسقلاني ، احمد بن علي ، (ت ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م)
أنباء الغمر بأنباء العمر

٢ج ، ط١ ، مطبعة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ، الهند ، ١٣٧٨-١٣٨٨هـ/ ١٩٦٧-١٩٦٨م ، الاجزاء الثاني والثالث حققهما حسن الحبشي القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١-١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

٥٤. القلقشندي ، ابو العباس احمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
مآثر الاناقة في معالم الخلافة

٣ج ، حققه عبد الستار احمد فراج ، الكويت ١٩٦٤.

٥٥. ابن عربشاه ، شهاب الدين احمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)
عجائب المقدور في اخبار تيمور

المطبعة العثمانية ، القاهرة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م.

٥٦. البدر العيني ، محمود بن احمد (ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م)
السيف المهند في سيرة الملك المؤيد

حققه هانس ارنست ، القاهرة ١٩٦٢.

٥٧. ابن قاضي شهبة ، بدر الدين (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م)
الكواكب الدرية في السيرة النورية

حققه محمود زايد ، ط١ ، دار الكتاب الجديد ، بيروت.

٥٨. ابن أجا ، شمس الدين محمد بن محمود القونوى (ت ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)
تاريخ الامير يشبك الظاهري

حققه عبد القادر احمد طليمات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٣.

٥٩. ابن الصيرفي ، علي بن داود (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)
أنباء الهصر بأبناء العصر

حققه حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٠.

٦٠. المؤلف نفسه :
نزهة النفوس والابدان

٢ج ، حققهما حسن حبشي ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٠ - ١٩٧١.

٦١. السخاوى ، ابو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)
التبر المسبوك في ذيل السلوك

نشره احمد زكي ، المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٨٩٦م.

٦٢. السيوطي ، جلال الدين (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة

دمشق ١٩٣٢.

٦٣. العليمي الحنبلي ، مجير الدين (ت ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م)
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل

٢ج ، ط٣ ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٣.

٦٤. ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)
بدائع الزهور في وقائع الدهور
المشهور بتاريخ مصر

٣ج ، م٢ ، بولاق ١٨٨٦.

٦٥. ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)
مفاكهة الخلان في حوادث الزمان

٢ج، حققه محمد مصطفى، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٢-١٩٦٤.

جـ. كتب التراجم :-

٦٦. ياقوت الرومي الحموي، شهاب الدين ابو عبد الله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
معجم الادباء

٢٠ج، في ١٠م، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، القاهرة، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

٦٧. ابن ابي اصيبعه، موفق الدين احمد بن القاسم بن يونس السعدى الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦١م)
عيون الانباء في طبقات الاطباء

شرح وتعليق نزار رضا، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٦٨. ابن خلكان، شمس الدين ابو العباس احمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان

٨ج، حققه احسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٨-١٩٧٢.

٦٩. الكتبي، محمد بن شاكر بن احمد (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٧٢م)
فوات الوفيات

٢ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٥١م.

٧٠ . الصفدى ،صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م)
الوافـي بالوفيـــــات

٨ج ،ج ١٥ ،هناك اكثر من محقق لكل جزء ،دار النشر فرانز شتايـنر ١٩٦٢ - ١٩٧١.

٧١ . السبكي ،تارج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م)
طبقات الشافعيـة الكبرى

٨ج ،ج ٧ ،وج ٨ ،حققه عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحـي ،
ط ١ ،عيسى البابي الحلبي وشركاه ،القاهرة (ب . ت).

٧٢ . ابن حجر العسقلانـي ،احمد بن علي ،(ت ٨٥٣ هـ/ ١٩٤٩م)
الدرر الكامنـة في اعيان المئة الثامنة

٥ج ،حققه محمد سيد جاد الحق ،ط ٢ ،القاهرة ،١٩٦٦-١٩٦٧م.

٧٣ . المؤلـف نفسـه :
الاصابـة في تمييز الصحابـة

٤ج ،ط ١ ،مطبعـة السعادة ،مصر ،١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

٧٤ . ابن تغرى بردى ،ابو المحاسن جمال الدين يوسف(ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)
المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

ج ١ ،حققه احمد يوسف نجاتي ،مطبعة دار الكتب المصريـة ،القاهـــرة ،
١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

٧٥ . السخاوى ،ابو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م)
الضوء اللامع لأهل القرن التاسـع

١٢ج ،مكتبة القدسي ،القاهرة ١٣٥٣-١٣٥٥هـ/ ١٩٣٤- ١٩٣٦م.

٧٦ . السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
ذيل طبقات الحفاظ للذهبي

دمشق ١٩٢٨ .

٧٧ . ابن طولون ، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)
أعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى

حققه محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٣٨٣هـ/ ١٩٧٤م .

د . الموسوعات والنظم :

٧٨ . النويري ، ابو العباس احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)
نهاية الارب في فنون الادب

١٨ج ، القاهرة ، ١٩٢٣ - ١٩٥٤م .

٧٩ . العمري ، شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)
التعريف بالمصطلح الشريف

مطبعة العاصمة ، القاهرة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م .

٨٠ . السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م)
معيد النعم ومبيد النقم

لندن ١٩٠٨ .

٨١ . القلقشندي ، ابو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
صبح الاعشى في صناعة الانشا

١٤ج ، نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .

٨٢. المقريــزى ،أبو العباس احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)٠
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

٣ج ،ط٢ ،بولاق ،١٢٧٠هـ٠

هـ. مصادر متفرقــــة :

٨٣. المقدسي ،مطهر بن طاهر (ت ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)
البــدء والتاريــــخ

٦ج ،تصوير مكتبة المثنى ،بغداد ،عن طبعة باريز ،١٨٩٩-١٩١٩٠

٨٤. ابن خلكان ،شمس الدين ابو العباس احمد (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)
وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمـان

القاهرة ١٨٩٢م٠

٨٥. ابن عربي ،محي الدين (عاش في اواخر القرن ٦هـ/١٢م واوائل القــرن ٧هـ/ ١٣م)
فصـــــوص الحكـــم

القاهرة ،دار احياء الكتب العربية ١٩٤٦٠

٨٦. المؤلف نفســه :
ترجمــان الاشــواق

بيروت ،دار صــادر

٨٧. ابن منظور ،جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)
لســان العــرب

١٥ج ،بــيروت ١٩٦٨٠

٨٨. الاربلي (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م)
مدارس دمشق

تحقيق محمد دهمان ، دمشق ١٩٤٧ .

٨٩. ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن احمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م)
معالم القربة في احكام الحسبة

تصحيح روبن لوى ، كمبرج ، مطبعة دار الفنون ، ١٩٣٧ .

٩٠. زيترشتين
تاريخ سلاطين المماليك من سنة ٦٩٠هـ حتى سنة ٧٤١هـ.

لم يعلم مؤلفه ويفهم من كتابته انه معاصر للناصر محمد ، ليدن ، ١٩١٩ .

٩١. العمرى ، شهاب الدين احمد بن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)
مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ الجزء الاول

القاهرة ، ١٩٢٤ .

٩٢. ابن الوردى ، زين الدين عمر بن مظفر الشافعي (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م)
تاريخ ابن الوردى

٢ج ، القاهرة ، ١٩٣٩م .

٩٣. الادفوى ، كمال الدين ابو الفضل جعفر بن ثعلب (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م)
الطالع السعيد الجامع لاسماء نجباء الصعيد

القاهرة ١٩١٤ .

٩٤ . ابن ابي الفضل ، المفضل (ت ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨م)
النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد

حلب ، دار الكتب الوطنية ١٩٣٧.

٩٥ . ابن شاكر ، فخر الدين محمد بن احمد الكتبي (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢م)
فوات الوفيات

٢ج ، بولاق ١٨٨١.

٩٦ . الحسيني ، الحافظ ابو المحاسن (ت ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م)
ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي

دمشق ١٩٤٨.

٩٧ . الشرزى ، عبد الرحمن بن نصر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)
نهاية الارب في طلب الحسبة الشريفة

نشر الباز العريني ، باشراف مصطفى زيادة ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م

٩٨ . ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)
المقدمة (من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)

القاهرة ١٩٠٩.

٩٩ . ابن دقمان ، ابراهيم بن محمد ايدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)
الانتصار لواسطة عقد الامصار

٢ج ، في مجلد واحد ، بولاق ١٨٩٣م.

١٠٠ . القلقشندي ، ابو العباس احمد (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
نهاية الارب في معرفة انساب العرب

حققه ابراهيم الابياري ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩م .

١٠١ . ابن الحاج ، ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٣٤م)
المدخل ، مدخل الشرع الشريف على المذاهب

٤ج ، القاهرة ١٩٣٦م .

١٠٢ . المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)
اغاثة الامة بكشف الغمة

نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٠٣ . المؤلف نفسه :

البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب

حققه عبد المجيد عابدين ، ط١ ، مكتبة عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦١م .

١٠٤ . ابن حجر ، شهاب الدين بن علي (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)
الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة

٤ج ، ٤م ، الهند ، ١٩٢٩ .

١٠٥ . ابو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

رجعت الى طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء التاسع اى حتى سنة ٧٤١هـ . وبعد ذلك رجعت في بقية الكتاب الى طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم بير ١٩٠٩م .

١٠٦. المؤلف نفسه :
منتخبات من حوادث الدهور في مدى الايام والشهور
٤ج ، ٤م ، نشرها وليم ببر ، كاليفورنيا ١٩٣١م.

١٠٧. المؤلف نفسه :
مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة
نشره كارليل ، كامبردج ١٧٩٢م.

١٠٨. السخاوى ، الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م)
التبر المسبوك في ذيل السلوك
بولاق ١٨٩٦م.

١٠٩. المؤلف نفسه :
تحفة الاحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم
والبقاع المباركات
نشره محمود ربيع وحسن قاسم ، القاهرة ١٩٣٧.

١١٠. السيوطي ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ/١٥٠٥م)
تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الامة
دمشق ١٩٣٢.

١١١. المؤلف نفسه :
حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة
القاهرة ١٨٨١.

١١٢ . المؤلف نفســه :
الايضاح في علم النكــاح

القاهرة ١٨٨٩ .

١١٣ . النعيمي ،عبد القادر بن محمد ، (ت ٩٢٧ هـ/ ١٥٢٠ م)
الدارس في تاريخ المدارس

٢ج ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٤٨ - ١٩٥١ .

١١٤ . الشعراني ،ابو المواهب عبد الوهاب بن احمد بن علي الانصــــارى
(ت٩٧٣هـ/١٥٦٧م)
لواقح الانوار في طبقات السادة والاخيــار

٢ج ، القاهرة ١٨٨١ .

رابعــــا : المراجع والدراسات العربيــة

١١٥ . الامام ،رشاد
مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣ - ١٥١٦ م)

الدار التونسية للنشر ،تونس ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م .

١١٦ . الألفي ،ابو صالح
الفن الاسلامي ،اصولــة وفلسفتــه

ط ٢ ،دار المعارف ،مصر

١١٧. الباشا، حسن ،

الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧.

١١٨. المؤلف نفسه :

التصوير الاسلامي في العصور الوسطى

القاهرة ١٩٥٩.

١١٩. المؤلف نفسه :

الفنون والوظائف على الاثار العربية

٢ج ، القاهرة ، ١٩٦٦ -١٩٦٧.

١٢٠. البخيت ، محمد عدنان

مملكة الكرك في العهد المملوكي

ط١ ، عمان ١٩٧٦م.

١٢١. البغدادي ، اسماعيل (ت ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م)

ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون

عن أسامي الكتب والفنون

٢ج ، حققه محمد شرف يالتقايا ورفعت بيلكه الكليس ، مطبعة وكالة

المعارف - استانبول ١٩٤٥ - ١٩٤٧.

١٢٢. البوريني ، الحسن
تراجم الاعيان في اخبار ابناء الزمان

مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت الرقم ٥٧٦ ، طبع الجزء الاول بتحقيق
صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩.

١٢٣. جودت محمد
ذيل على فصل الاخيه الفتيان

استانبول ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

١٢٤. جورج يعقوب
طيف الخيال لابن دانيال الموصلي

٣ج ، ج١ ، ٢ طبع أرلانجن ١٩١٠م ، ج٣ ، طبع برلين ١٩١٢م.

١٢٥. حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م)
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون

٢ج ، ط ٣ ، طهران ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

١٢٦. حتى ، فيليب
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين

٢ج ، ترجمة كمال اليازجي ، بيروت دار الثقافة ، مؤسسة فرانكلين ، ١٩٥٩.

١٢٧. حسن السندوبي
تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى

القاهرة ، ١٩٤٨م.

١٢٨. حسن ،عبد الوهاب
تاريخ المساجد الاثرية
٢ج ،القاهرة ١٩٤٦.

١٢٩. حسن ،علي ابراهيم
استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ المصرى الوسيط
ط٢ ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،١٩٦٣م.

١٣٠. المؤلف نفسه :
تاريخ المماليك البحرية
القاهرة ١٩٦٧.

١٣١. المؤلف نفسه :
دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر
الناصر محمد بوجه خاص
مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ١٩٤٨م.

١٣٢. الحسني ،علي
تاريخ سوريا الاقتصادى
دمشق ١٣٤٢هـ.

١٣٣. حكيم أمين السيد
قيام دولة المماليك الثانية
تقديم محمد مصطفى زيادة ،الدار القومية للطباعة والنشر ،القاهرة ١٩٦٦.

١٣٤ . حمزة ، عبد اللطيف

الحركة الفكرية في مصر في العصر الايوبي

القاهرة ١٩٤٧ .

١٣٥ . الحنبلي ، عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

شذرات الذهب في اخبار من ذهب

٨ج ، مكتبة القدسي ، القاهرة . ١٣٥٠-١٣٥١هـ / ١٩٣١-١٩٣٢م .

١٣٦ . الحياري ، مصطفى

الامارة الطائية في بلاد الشام

ط١ ، عمان ١٩٧٧ .

١٣٧ . الدبس ، يوسف

تاريخ سوريا الدنيوى والديني

٨ج ، بيروت ، المطبعة العمومية ، ١٩٠٢ .

١٣٨ . الدورى ، عبد العزيز

مقدمة في التاريخ الاقتصادى العربي

دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩م .

١٣٩ . دهمان ، محمد

مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها

دمشق ١٩٤٧ .

١٤٠ . رمزي ، محمد

القاموس الجغرافي للبلاد المصرية

٣ج ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

١٤١ . رنسيمان ، ستيفن

تاريخ الحروب الصليبية

٣ج ، ترجمة السيد باز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩م .

١٤٢ . روزنتال ، فرانز

علم التاريخ عند المسلمين

ترجمة الدكتور صالح احمد العلي وراجعه محمد توفيق حسين ، بغداد ، ١٩٦٣م .

١٤٣ . زامباور ، ادوارد فون

معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي

اخرجه زكي محمد حسن بك وحسن احمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الاول ، القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٢م .

١٤٤ . الزركلي ، خير الدين

الاعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين

١٠ج ، ط٣ ، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

١٤٥. زكي مبارك

التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق

٢ج ،القاهرة ١٩٣٨.

١٤٦. زكي محمد حسن

فنـون الاسـلام

القاهرة ١٩٤٨.

١٤٧. زيادة ،محمد مصطفى

المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى

ط٢ ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ،القاهرة ،١٩٥٤م .

١٤٨. المؤلف نفسـه :

بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر

مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة - المجلد الرابع - الجزء الاول ،مايو ١٩٣٦

١٤٩. زيادة ،نقولا

دمشق في عهد المماليك

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ،بيروت - نيويورك ١٩٦٦م.

١٥٠. المؤلـف نفسـه :

رواد الشرق العربي في العصور الوسطى

هدية المقتطف السنوية سنة ١٩٤٣ ،ط١ ،١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م.

١٥١ . زيدان ،جرجي
تاريخ آداب اللغة العربية
٤ج ،القاهرة ،مطبعة دار الهلال ،لا . ت .

١٥٢ . المؤلف نفسه :
تاريخ التمدن الاسلامي
٥ج ،القاهرة ١٩٠٢-١٩٠٦ .

١٥٣ . سركيس ، يوسف اليان
معجم المطبوعات العربية المعربة
مطبعة سركيس بمصر ، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م .

١٥٤ . سرور ،محمد جمال
دولة بني قلاوون في مصر
دار الفكر العربي ،القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م .

١٥٥ . سحداوى ،نظير
نظام البريد في الدولة الاسلامية
دار مصر للطباعة ،القاهرة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م .

١٥٦ . سليم محمود رزق
عصر سلاطين المماليك
٦ج ،القاهرة ، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م .

١٥٧. سهير القلماوي

الف ليلة وليلـــة

القاهرة ١٩٤٣م.

١٥٨. سلام، محمد زغلول

الادب في العصر المملوكي

٢ج، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٧٠.

١٥٩. ؟ ؟

سيرة الظاهر بيبرس

٥٠ج، القاهرة ١٩٢٦م.

١٦٠. الشربيني، يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر

هز القحوف في شرح قصيد أبي شادوف

بولاق، ١٨٦٠.

١٦١. الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع

نشره الشيخ معروف عبد الله باسندوة، ط١، القاهرة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م.

١٦٢. الطباخ، محمد راغب محمود بن هاشم

اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء

٧ج، حلب، المطبعة العلميـــة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.

١٦٣ . طرخان ، ابراهيم علي
النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

١٦٤ . عاشور ، سعيد
الظاهر بيبرس
القاهرة ١٩٦٣م.

١٦٥ . المؤلف نفسه :
العصر المماليكي في مصر والشام
القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٥م.

١٦٦ . المؤلف نفسه :
المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك
ط ١ ، القاهرة ١٩٦٢.

١٦٧ . المؤلف نفسه :
مصرفي عصر دولة المماليك البحرية
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

١٦٨ . العاملي ، زينب
الدر المنثور في طبقات ربات الخدور
المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٣١٢.

١٦٩. العبادي ، احمد مختار
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام
دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٩م.

١٧٠. عرنـوس ، محمود
تاريخ القضاء في الاسـلام
المطبعة المصرية الاهلية الحديثة ، القاهرة (ب . ت)

١٧١. العـزاوي ، عباس
تاريخ العراق بين احتلالين
مطبعة بغداد ، ١٩٣٥.

١٧٢. المؤلـف نفسـه :
التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان
بغداد ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

١٧٣. عنـان ، محمد عبد الله
مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصريـة
ط١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١.

١٧٤. عيسى بك ، أحمـد
تاريخ البيمارستانات في الاسلام
ـية التمدن الاسلامي ، دمشق ١٩٣٩

١٧٥. الغـزي ، نجم الدين (ت بعد ١٠٠٠هـ/ ١٥٩١م)
الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة
ج٣ ، حققـه جبرائيل سليمان جبـور ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٤٥.

١٧٦ . غوانمــة ، يوسف
تاريخ شرق الاردن في عصر دولة المماليك الاولى

٢ج ، وزارة الثقافة والشباب ، عمان ١٩٧٩م .

١٧٧ . كراتشكوفسكي ، أغناطيوس يوليانوفتش
تاريخ الادب الجغرافي العربي

ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، وراجعه ايغور بليايف ، ٢ج ، موسكـــو ، لينينغراد ، ١٩٥٧م .

١٧٨ . كحالـة ، عمر رضا
معجم المؤلفين - تراجم مصنفي الكتب العربيـة

١٥ج ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧م - ١٩٦١م .

١٧٩ . كرد علي ، محمـد
خطط الشام

٦ج ، دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٢٧م .

١٨٠ . ماجد ، عبد المنعم
نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر

القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧ .

١٨١ . محمـد ، حسن زكي
فنـون الاسلام

القاهرة ١٩٤٨ .

١٨٢. محمد مصطفى

صفحات لم تنشر من بدائع الزهور في وقائع الدهور

تأليف محمد بن احمد اياس من سنة ٨٥٧ الى سنة ٨٧٢هـ، القاهرة ١٩٥١م.

١٨٣. مرزوق، محمد عبد العزيز

الناصر محمد بن قلاوون

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، القاهرة (ب. ت)

١٨٤. المنجد، صلاح الدين

دمشق في نظر المغاربة

بيروت ١٩٦٣.

١٨٥. المؤلف نفسه:

مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين

دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٧.

١٨٦. المؤلف نفسه:

معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم المخطوطة والمطبوعة

ط١، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م

١٨٧. المؤلف نفسه:

المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة

ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٤.

١٨٨. المحبي ، محمد الأمين
خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادى عشر
٤ج ،القاهرة ١٢٨٤ هـ .

١٨٩. ابن كنان
المروج السندسية
مطبوعات مديرية الآثار العامة ،دمشق ١٩٤٧.

١٩٠. الهمذاني ، رشيد الدين
جامع التواريخ
٢ج ،نقله الى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هنداوى وفؤاد عبد المعطي الصياد ،القاهرة ١٩٦٠.

١٩١. هنتز ،فالتر
المكاييل والأوزان الاسلامية
ترجمة عن الالمانية كامل العسلي ،الجامعة الاردنية ، عمان ١٩٧٠.

١٩٢. هلال ، محمد غنيمي
الأدب المقارن
القاهرة ١٩٦٢.

خامسا : المصادر الاجنبية :

١٩٣. Benjamin of Tudela
The Travels of Rabbi Benjamin in Early Travels in Palestine
(ed . by the wright)
London 1848.

١٩٤. Broquire , Bertrandon , de la
The Travels of Bertrandon de le Broquire , A.D. 1432-1433.
' In Early Travels in Palestine'
(ed . by Thomas Wright)
London 1969.

١٩٥. Frescabaldi , Leonardo and Others,
Visit to the Holy Places of Egypt , Sinai,Palestine and Syria
Jerusalem 1948

١٩٦. Manudevile , John (D. 1350 A .D)
The Voiage and Travaile of Sir . John Maundevile (A.D 1322-1346) ,
London 1839.

١٩٧. Niccolo of Poggbonsi (Visited the Holy Land From 1346 - 1350 A.D)
A Voyyage Beyond the Seas.
The Franciscan Press , Jerusalem 1945.

١٩٨. Tafur (Pero)
Travels and Adventures
London 1926.

سادساً :

الدراسات والمراجع الاوروبية مرتبة حسب التسلسل الابجدى لالقاب مؤلفيها × :

١٩٩. Ashtor , E.
A Social and Economic History of The Near East in the Middle Ages ,
London 1976.

٢٠٠. Berchem (Max Van)
Materiaux Pourun Corpus Inscriptionum Arabicarum , I ,Egypt.
Le Caire , 1894 - 1903.

٢٠١. Polika (A . N.)
Feudalism in Egypt , Syria , Palestine and Labanon.
London , 1939.

٢٠٢. Bonne
' State and Economic in the Middle East'.
London , 1959 .

٢٠٣. Dussaud
Topographie Hist de la Syrie .
Paris , 1927.

٢٠٤. Gibb and Bowen
Islamic Society and Hre West.
2 Vols , Oxford , 1957.

٢٠٥. Hilmar C. Krueger
The Wares of Exchange in the Cenoese African Traffice of The Twelfth Cntury Speculum.
Vol XII , 1934.

٢٠٦. Lane - Poole (S.)
A Hist of Egypt in the Middle Ages.
London , 1936.

٢٠٧. La Pidus , Larm
Muslim Cities in the Later Middle Ages.
Combridge 1967.

٢٠٨. Lane - Poole (S)
Sociat Life in Egypt.
London , 1883.

٢٠٩. Lewis (B) and Holt (P.M),
Historians of The Middle East.
London 1962.

٢١٠. Ludvicodi Varthema
The Itinerary of Ludvicodi Varthema,
London 1928.

٢١١. Mantran and Sauvaget
Rement Fiscuaz,
Beyrouth 1951.

٢١٢. Muir, William
The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.
Amesterdam 1968.

٢١٣. Marco Polo,
Travels.
2 Vols ,London 1903.

٢١٤. Poliak , A.N.
Feudalism in Egypt Syria, Palestine , and Lebanon, 1250-1900.
London 1939.

٢١٥. Russell , Alex .M.D.
The Natural History of Aleppo.
2 Voulmes , London 1962.

٢١٦. Weuleress .J.
Les Paysans de Syrie et du Proche orient Tours.
1946.

٢١٧. Wiet , G.
L' Egypt Arabe
Paris 1937.

٢١٨. Ziadeh,A. Nicola
Urban Life in Syria Under the Early Mamluks.
Printed at the American Press ,
Beirut 1953.

سابعا : المقالات

أ : باللغة العربية

٢١٩. ابراهيم ، مصطفى الحاج
" الآفات الجغرافية عند أبي الفداء "
المعرفة
العدد ١٥٤ ، دمشق كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ١٣٠ - ١٥٠ .

٢٢٠. أرنوك ، فان
" ابن حجر العسقلاني "
دائرة المعارف الاسلامية
ج ١ ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

٢٢١. الهي ، ر .
" ياقوت الحموى البغدادى - حياته ومؤلفاته "
ترجمة يوسف عبد القادر ،
المورد
المجلد السابع ، العدد الاول ، بغداد ، ١٣٧٨هـ/ ١٩٧٨م ، ص ١١ - ٥٢ .

٢٢٢. بدرسن ، ج .
" ابن عربشاه "
دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

٢٢٣. بروكلمان ، كارل
" ابن بطوطة "
دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٩٩ - ١٠١ .

٢٢٤. بروكلمان ، كارل
"أبو الفداء"
دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٨٦ -٣٨٧.

٢٢٥. بروكلمان ، كارل
"ابن كثير"
دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٢٦٩ -٢٧٠.

٢٢٦. بروكلمان ، كارل
"ابو المحاسن"
دائرة المعارف الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩٦ -٣٩٧.

٢٢٧. بولس الارمني
الابرشية الكاثوليكية
مجلة المشرق
١٩٠٦ ، العدد ٩ ، ص ٦٧٦.

٢٢٨. حميدة ، عبد الرحمن
"ابو الفداء"
المعرفة ، العدد ١٥٤ ، دمشق كانون الاول ١٩٧٤ ،
ص ٧ - ٢٣.

٢٢٩. حبيب زيات
خانات دمشق القديمة
مجلة المشرق
العدد ٣٦٥ ، ص ٦٩ - ٧٠

٢٣٠ - ؟

الرنوك المملوكيـــة

مجلـــة المقتطـف

المدد ٥ المجلد ٩٨ ، ١٩٤١ ، ص ٤٦٠ - ٤٦٨ .

٢٣١ . زكار ، سهيل

" ابو الفداء - البيئـة - الا مير - المؤرخ "

المعرفـــــة

المدد ١٥٤ ، دمشق كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٤٢ - ٥٥ .

٢٣٢ . زيادة ، محمد مصطفى

بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دول المماليك بمصر

مجلـــة كليـة الاداب

المجلد الرابع ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٣٦ .

٢٣٣ . زيادة نقـولا

" ما ساهم به المؤرخون العرب في المئة سنة الاخيرة من دراسة التاريخ الحربي وغيره في عصر المماليك "

الابحـــاث

السنة ١٢ ، ج ٣ ، بيروت ، ايلول ١٩٥٩ ، ص ٣٢١ - ٣٤٦ .

٢٣٤ . الساعاتي ، حسن

منهج ابي الفداء في البحث

المعرفـــــة

المدد ١٥٤ ، دمشـــق ١٩٧٤ .

٢٣٥ . سوبرنهايم ، م .

" ابن اياس "

دائرة المعارف الاسلامية

ج ١ ، ص ٩٢ -٩٤ .

٢٣٦ . سوفاجيه ، جان

" دمشق الشام "

مجلة المشرق

العدد ٣٤ ، ص ١٨٥ .

٢٣٧ . شنب ، محمد

الذهبي

دائرة المعارف الاسلامية

ج ٩ ، ص ٤٣٣ .

٢٣٨ . شنب ، محمد

" ابن السوري "

دائرة المعارف الاسلامية

ج ١ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

٢٣٩ . شيخو ، لويس

كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بسام

مجلة المشرق

السنة العاشرة ١٩٠٧ .

٢٤٠ . الصليبي ، كمــال

" النظام القضائي في مصر والشام في عصر المماليك "

الابحـــــاث

السنة ١١ ، ج ٤ ، بيروت ، كانون الاول ١٩٥٨ ، ص ٤٧٣ - ٤٨٩ .

٢٤١ . ابن طولون

ضرب الحوطـــــة

مجلـــة المجمـــع العلمـــي

مجلد ٢١ ، عدد ٣ ، ٤ ، ص ١٥٤ .

٢٤٢ . المشي ، ابو الفرج

" تطور صناعة الزجاج السوري "

مجلـــة الحوليات الاثريـــة السوريـــة

١٩٦٦ ، ج ١٦ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

٢٤٣ . عيـــاد ، كامـــل

" المؤرخ ابو الفداء ونزعته العلميـــة "

المعرفـــــــة

العدد ١٥٤ ، دمشق ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٧٥ - ٩٥ .

٢٤٤ . ؟

ابن الفـــرات

دائـــرة المعارف الاسلاميـــة

ج ١ ، ص ٢٥١ .

٢٤٥ . فولرز . ك .

" احمد البدوى "

دائرة المعارف الاسلامية

ج ١ ، ص ٢٦٩ .

٢٤٦ . كرينكو ، ف .

" الصفدى " .

دائرة المعارف الاسلامية

ج ١٤ ، ص ٢٢٠ .

٢٤٧ . المنجد ، صلاح الدين

حمامات دمشق

مجلة المشرق

العدد ٤١ ، ص ٤٠٢ .

٢٤٨ . المملوف

صناعات دمشق

مجلة الغرفة التجارية

دمشق ١٩٢٢ .

ب. المقالات باللغة الانجليزية

٢٤٩ .

Ayalon , David

Studies on the Structure of the Mamluk Arm

BSOAS

Vol 15

1953 , PP. 203 -228 Vol .16. PP. 57 - 90.

٠٢٥٠ Ayalon , David

' The Halaqa '

Bulletin of the School of Oriental and African Studies,

London , Vol . XV, 1953, PP. 448 - 464.

B.S.O.A. سيشار الى هذه المجلة فيما بعد باختصار

٠٢٥١ Ayalon , David

The Systen of Payment in the Mamluk Military Society

Journal of the Economic and Social History of Orient .

Vol . I . 1958 , PP. 37 - 65 , 257 - 296.

٠٢٥٢ Barrow , Geoffrey

" Richard I the Lion Heart of England "

Encyclopedis Britanica ,

23 Vols. Chicago 1968 , Vol . IXX P. 303 .

' E. B ' سيشار الى هذه الموسوعة فيما بعد باختصار

٠٢٥٣ Brinner , W .M ,

" Ibn Iyas "

E.I. , Vol .III , PP. 812 - 813.

٠٢٥٤ Brinner , W.M.

" Ibn Habib"

Encyclopaedia of Islam , Second edition ,III Vols, Leiden,

London 1960 - 1971 , Vol . III ,P.775.

" E.I " سيشار الى هذه الموسوعة فيما بعد باختصار

٢٥٥. Cahen ; Cl.
" Ibn A- Djawzi Sibt "
E.I. Vol .III. PP. 752 - 753.

٢٥٦. El - Shayyal , Gamal -El- Din
" Ibn Al -Wardi"
E.I , Vol. III , PP. 966 - 967.

٢٥٧. Gibb , H. A . R.
" Abu L'Fida "
E. I. , Vol .I . PP. 118 -119.

٢٥٨. Laoust , H.
" Ibn Kathir "
E.I. Vol. III , P. 818.

٢٥٩. Miquel , A.
"Ibn Battuta"
E.I. Vol .III , PP. 735 - 736.

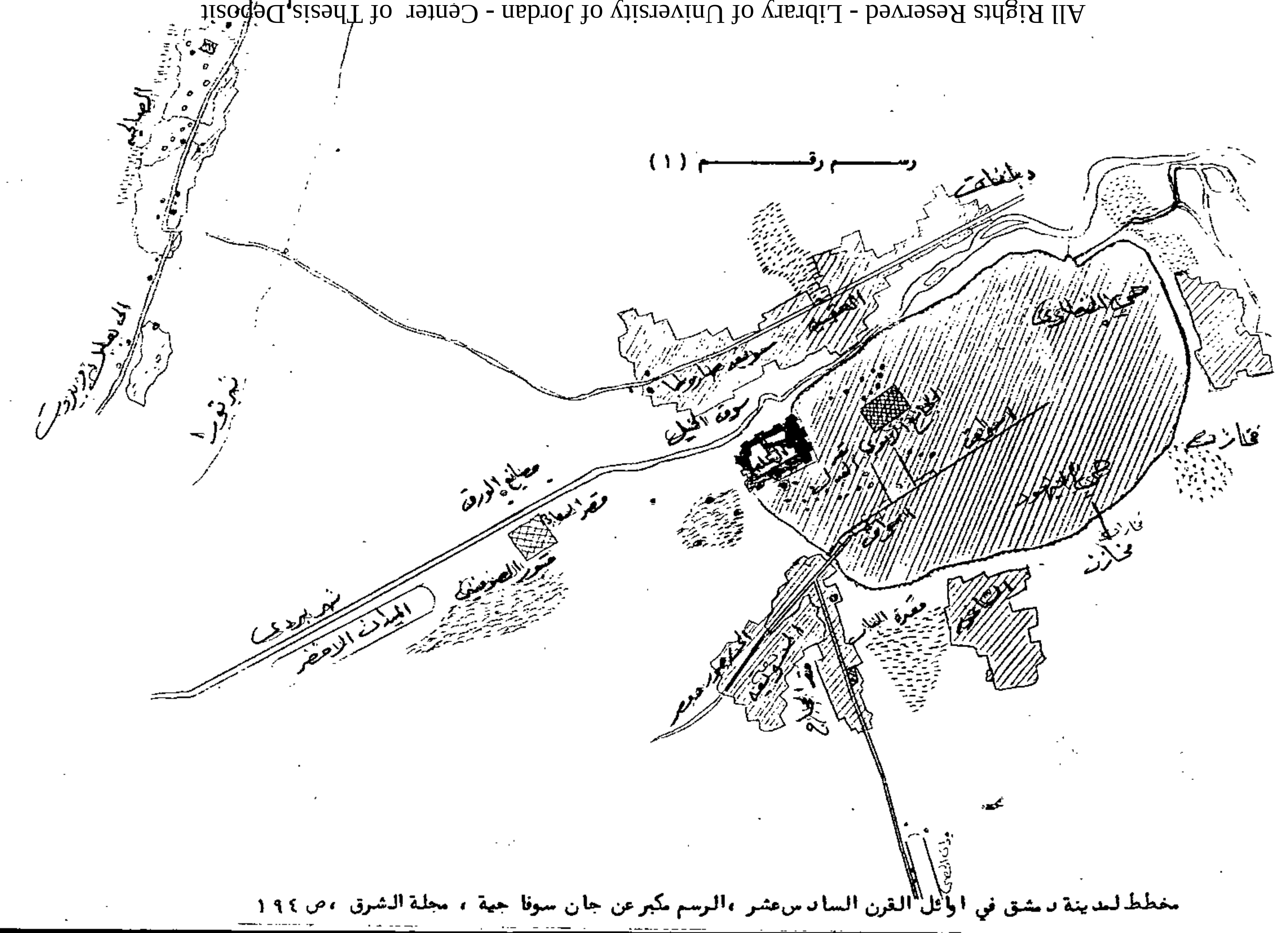
٢٦٠. Poliak , A.N.
" Som Notes on the Feuda System of Mamluks "
Journat of the Royal Asiatic Society,
1939 , PP 98 - 107.

٢٦١. Popper , W.
" Abu - L - Mahasin "
E.I, Vol. I. P. 138.

٢٦٢. Rosenthal , F.
" Ibn Hadjar Al -Askalani "
E.I, Vol . III ,PP. 776 - 778.

٢٦٣. Talbi , M.
" Ibn Khaldun "
E.I , Vol .III , PP. 825 - 831.

٢٦٤. Vollers , Kand Littmann
" Ahmad Al- Badawi "
E.I , Vol .I , PP. 280 - 281.

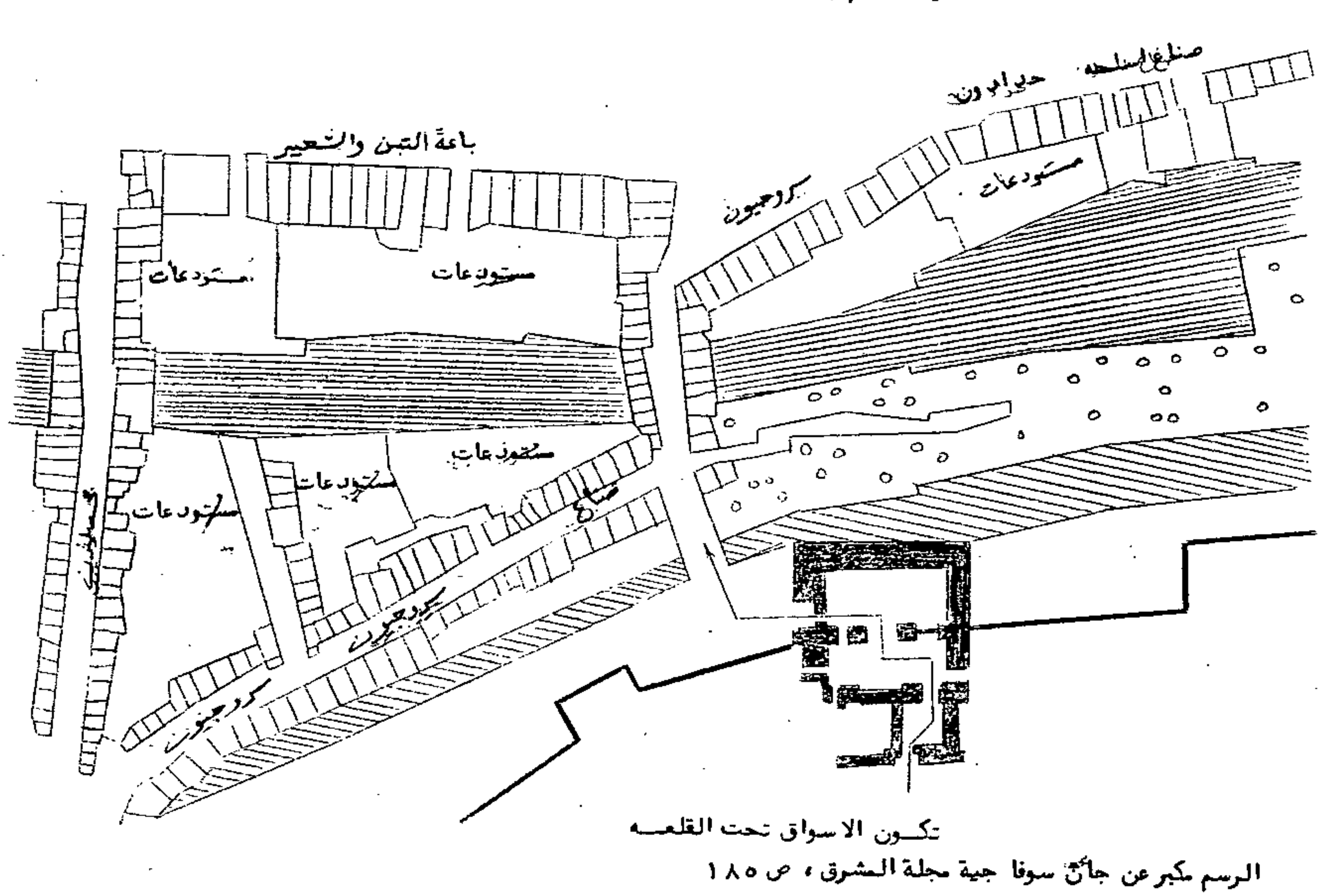


مخطط لمدينة دمشق في اوائل القرن السادس عشر ، الرسم مكبر عن جان سوفا جية ، مجلة الشرق ، ص ١٩٤

رســــم رقــــم (٢)

مخطط لمدينة دمشق في أواسط القرن الثالث عشر ، الرسم مكبر عن جان سوفاجية مجلة المشرق ص ١٨٨

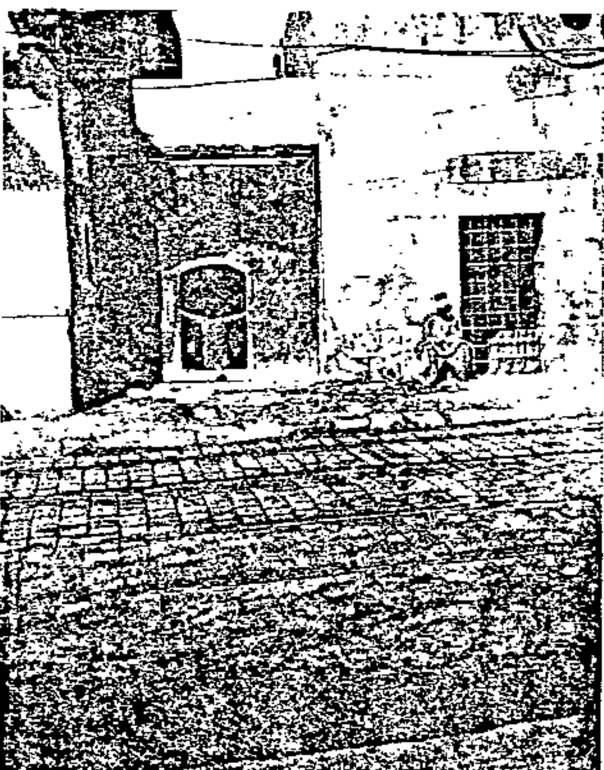
رسم رقم (٢)



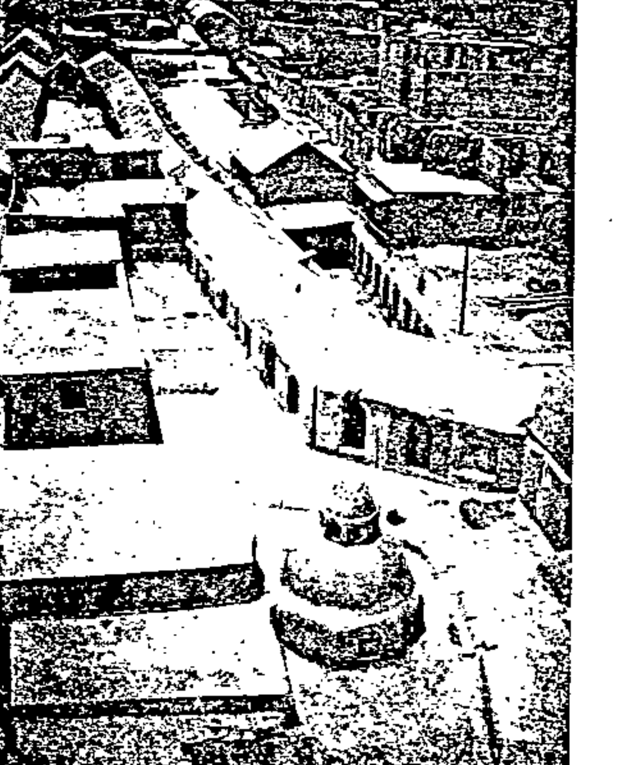
تكون الاسواق تحت القلعه

الرسم مكبر عن جانٌ سوفا جية مجلة المشرق ، ص ١٨٥

رســــم رقـــــم (٤)



- احد ابواب الحارات

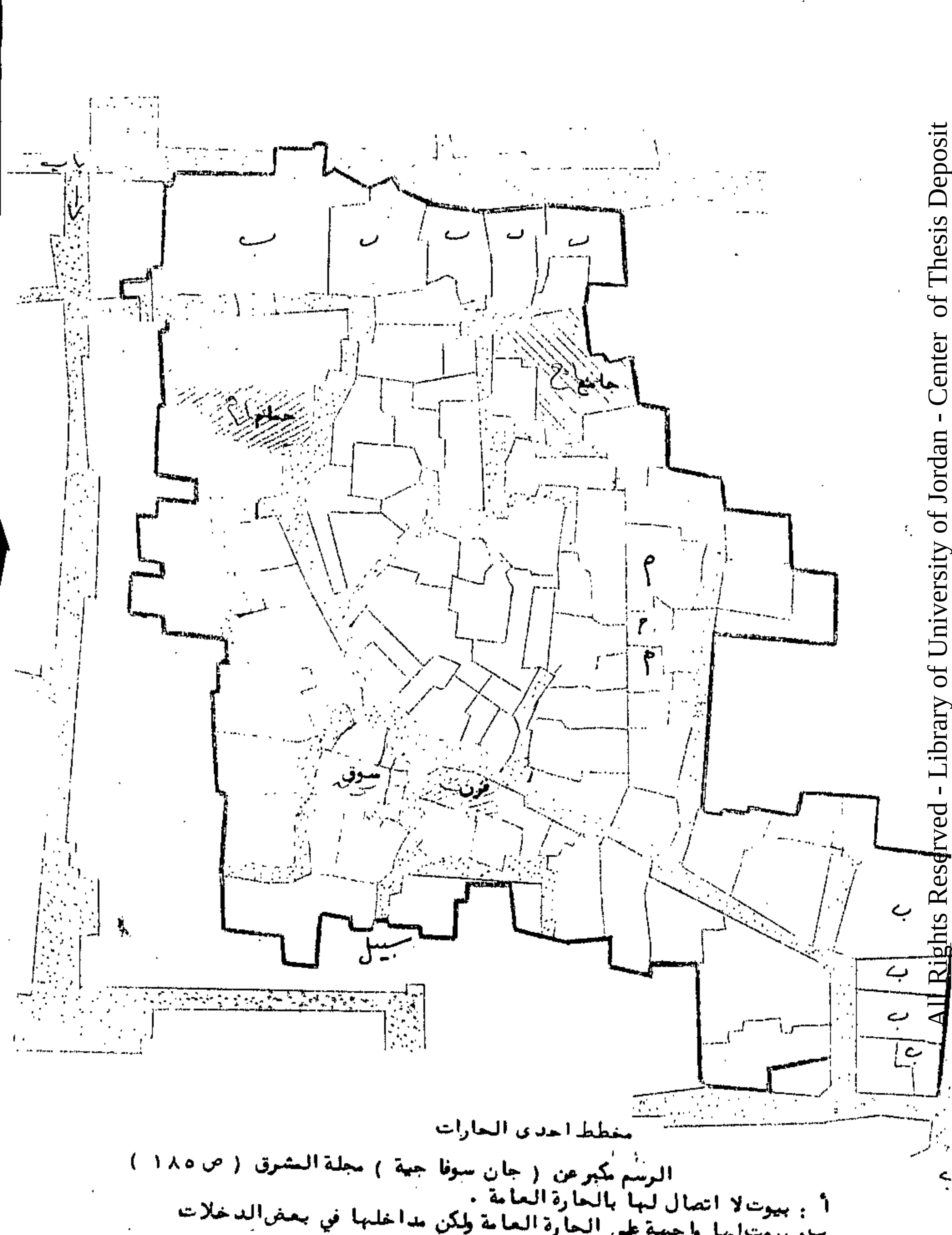


- سقوف الاسواق



عن مجلة المشرق (عدد ٣٢ ص ١٩

رسم رقم (٥)



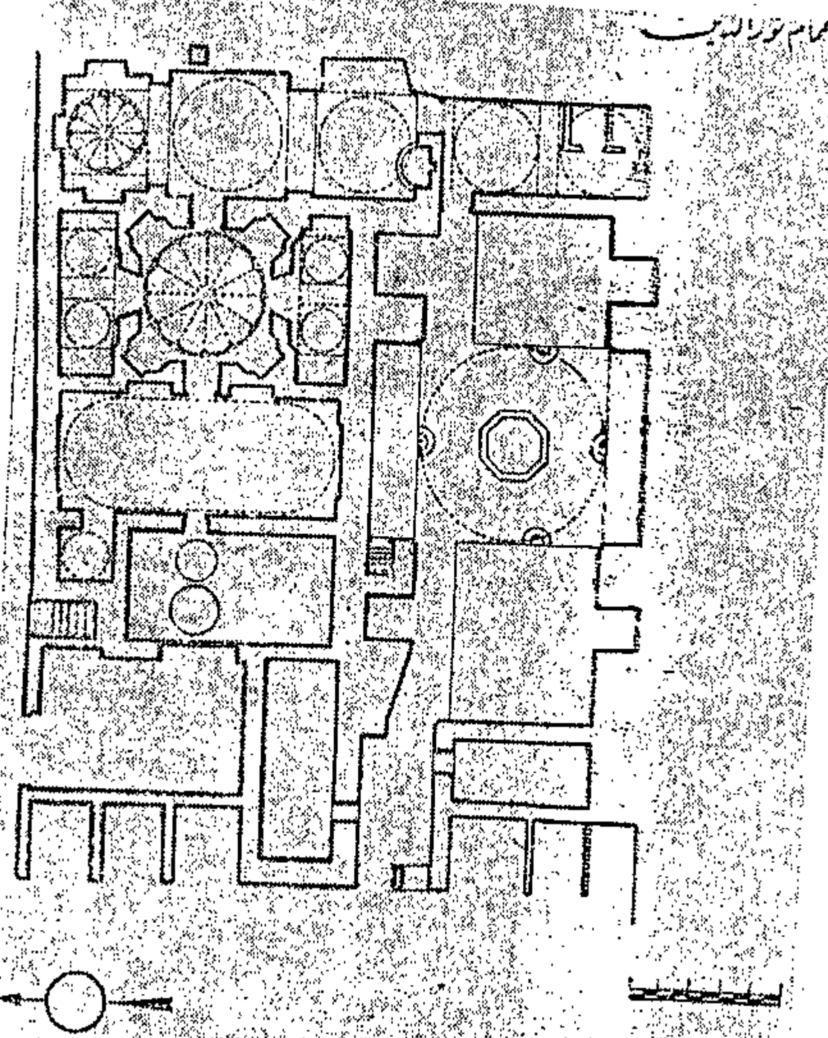
مخطط احدى الحارات

الرسم مكبر عن (جان سوفا جيه) مجلة المشرق (ص ١٨٥)

أ : بيوت لا اتصال لها بالحارة العامة .

على الحارة العامة ولكن مداخلها في بعض الدخلات

رسم رقم (٦)



تخطيط حمام نور الدين بدمشق . (من مديرية الآثار العامة بدمشق)

وهو من أقدم الحمامات بدمشق بناه نور الدين محمود بن زنكي (-٥٦٩) بين سنة دخوله دمشق سنة ٥٤٩هـ وسنة بنائه المدرسة النورية الكبرى وهي ٥٦٧هـ. وجعل الحمام وقفاً لها.

ويقع بسوق البزورية (البزوريين ، أو سوق القمح قديماً) أعظم أسواق مدينة دمشق التجارية. وقد جعل اليوم مخزناً ومحلاً للتجارة.

عن مجلة المشرق العدد (٤١) ، ص (٤٠١)